

الى المم محمد عاي محمود البلوشي
اسأل الله أن يكون هذا العمل في ميزان حسناتك
ابنك أبو عمر



معهد الإمام الطبري
لعلوم القرآن وأدبه
بمحافظة جسر الهطن

تَذَكُّرَاتُ أَبِي الْقَبِيْرِ

رَحِمَهُ اللهُ

أَكْثَرُ مِنْ ١٠٠٠ فَائِدَةٍ

فَرَفَسْنَا فِي الْقَبْرِ رَحِمَهُ اللهُ

جمع وإعداد

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّنْهَانِي

عُضُو الدَّعْوَةِ بَوَازِيرَةُ الشُّؤْنِ الْإِسْلَامِيَّةِ
بِالْمَلَكَةِ الْمُتَهِدَّةِ السُّعُودِيَّةِ





معهد الإمام الطبري
لعلوم القرآن وآدابه
بمحافظة حفر الباطن

تَذَكُّرَاتُ إِبْرَاهِيمَ الْقَبِيرِيِّ

رَحِمَهُ اللَّهُ

أَكْمَرُ فَنَاءٍ

فَنَفْسِي إِبْرَاهِيمَ الْقَبِيرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ

جمع وإعداد

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّنْبَهَانِي

عُضُو الدَّعْوَةِ بِوَزَارَةِ الشُّؤُونِ الْإِسْلَامِيَّةِ
بِالْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ





تَذَكَّرْتُ ابْنَ الْقَبْرِ
حَسْبُكَ
أَكْمَرُ... أَقْدَرُ
فَنَفْسُهُ ابْنُ الْقَبْرِ
حَسْبُكَ

ح) دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشمري، عبدالرحمن بن محمد بن سبهان الوهبي
تدبريات ابن القيم - رحمه الله (أكثر من ١٠٠٠ فائدة من تفسير ابن
القيم - رحمه الله) /. عبدالرحمن بن محمد بن سبهان الوهبي
الشمري - ط١ - الرياض ١٤٤٠هـ

ص ٠٠×٠٠ سم

ردمك: ٣ - ٨٢ - ٨٢٥٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - الفضائل الإسلامية - الحديث أ - العنوان

ديوي ٢٢٧.٦ ١٤٤٠/٩٢٨٥

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٩٢٨٥

ردمك: ٣ - ٨٢ - ٨٢٥٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥

هاتف: ٢٤١٦١٣٩ - ٢٤٢٢٥٢٨ فاكس: ٢٧٠٢٧١٩

فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨ تحويلة ١٠٣

الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد :

فقد أنزل الله كتابه للتدبر، وجعل التدبر من الأوامر الواجبة فقال: (ليدبروا آياته)، وقد امتثل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الأمر فعَلَّمَ القرآن لصحابته وعلمهم التدبر، فسأل أبا المنذر عن أعظم آية، وهو سؤال لا يمكن الجواب عنه إلا بإعمال العقل والتدبر، ثم نقل الصحابة منهج التدبر لمن بعدهم فقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ”ثوروا القرآن“ وتثوير القرآن لا يكون إلا بالتدبر، ثم توالى أهل العلم على هذا المنهج الرباني يقرأون القرآن ويتدبرونه، ومن أولئك الربانيون العلامة ابن القيم الجوزية رَحْمَةُ اللَّهِ والذي رسم منهجية للتدبر تقوم على: معرفة معنى الآية على فهم السلف، ثم إعمال الفكر في كلمات الآية ومعانيها اللغوية، ثم الاستفادة من علم معاني الحروف لتسخيرها للتدبر فحرف الجر (على) يفيد الاستعلاء فيبحث ابن القيم عن معنى الاستعلاء في الآية، وكان يلاحظ أيضاً حركات الكلمات؛ فالحرف المشدد يفيد معنى القوة، والحرف المتكرر يعطي دلالة على الاضطراب في المعنى مثل كلمة: زلزلت، والزلزال لا يكون إلا باضطراب الأرض وتحركها وارتفاعها ونزولها، فأصبح التدبر عند ابن القيم منهجاً علمياً يُبنى على دقة التأمل في كل الكلمة القرآنية، فيتعامل المؤمن معها بإجلال وتقدير لأنه يراها نوراً، والقرآن نور، وأترك للقارئ الكريم اكتشاف منهجية ابن القيم التدبرية في هذا الكتاب.



وقد يسر الله لمعهد الإمام الطبري لعلوم القرآن وآدابه التابع لجمعية تحفيظ القرآن الكريم بمحافظة حفر الباطن إطلاق مشروع (تدبرات المفسرين) والذي طبع منه: تدبرات ابن سعدي، وتحت الطبع (تدبرات الزمخشري) و(تدبرات القاسمي)، فمنَّ الله عليَّ بقراءة تفسير ابن القيم الموسوم ببدايع التفسير، فاستخرجت منه (تدبرات ابن القيم)، وإني أتقدم بالشكر الجزيل لمعهد الإمام الطبري بحفر الباطن، وكذلك لدار الحضارة الدار الرائدة في خدمة القرآن الكريم، وذلك فضل الله يؤتيه الله من يشاء، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

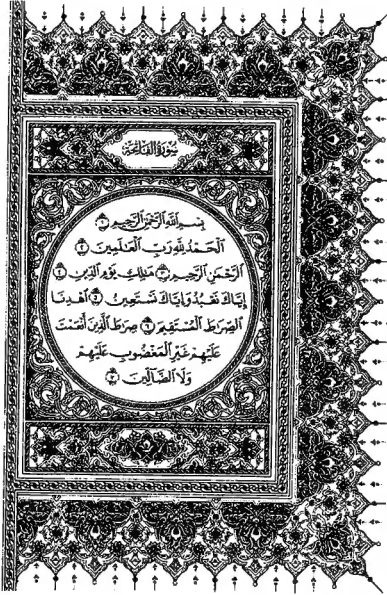
كتبه /

عبد الرحمن بن محمد السبهان
عضو الدعوة والإرشاد بوزارة الشؤون الإسلامية
بالمملكة العربية السعودية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفاتحة



📖 قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ①.

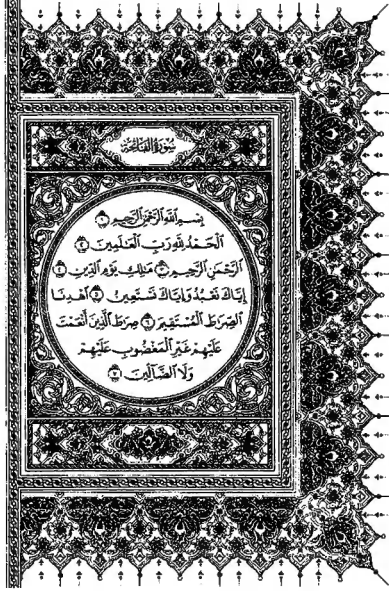
١- الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل.

فالأول دال أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤٣)،

﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٧) ولم يجئ قط رحمن بهم، فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة، والرحيم هو الراحم برحمته، وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب.

٢- لحذف العامل في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ فوائد عديدة، منها:

- أنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه سوى ذكر الله، فلو ذكرت الفعل وهو لا يستغني عن فاعله، كان ذلك مناقضا للمقصود، فكان في حذفه مشاكلة اللفظ للمعنى، ليكون المبدوء به اسم الله، كما نقول في الصلاة: «الله أكبر». ومعناه من كل شيء، ولكن لا نقول هذا المقدر، وليكون اللفظ مطابقا لمقصود الجنان، وهو أن لا يكون في القلب



إلا الله وحده، فكما تجرد ذكره في قلب المصلي،
تجرد ذكره في لسانه.

- ومنها أن الفعل إذا حذف صح الابتداء
بالتسمية في كل عمل وقول وحركة، وليس فعل
أولى بها من فعل، فكان الحذف أعم من الذكر،
فإن أي فعل ذكرته كان المحذوف أعم منه.

- ومنها أن الحذف أبلغ لأن المتكلم بهذه
الكلمة كأنه يدعي الاستغناء بالمشاهدة عن النطق
بالفعل، فكأنه لا حاجة إلى النطق به؛ لأن المشاهدة

والحال دالة على أن هذا وكل فعل فإنما هو باسمه تَبَارَكَ وَتَعَالَى والحوالة على شاهد الحال
أبلغ من الحوالة على شاهد النطق (بدائع الفوائد ١ / ١٦-٢٥).

📖 قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٣- كونه رب العالمين، فلا يليق به أن يترك عباده سدى هملا لا يُعرِّفهم ما ينفعهم
في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما، فهذا هضم للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى ما
لا يليق به، وما قدَّره حق قدَّره من نسبه إليه.

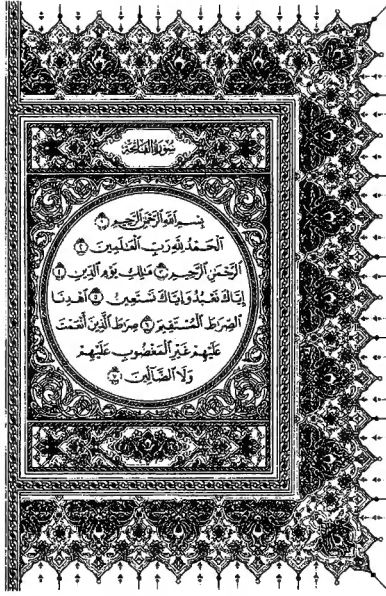
📖 قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ﴾.

٤- من اسم الله، وهو المألوه المعبود، ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من
طريق رسله.

- من اسمه «الرحمن»، فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون
به غاية كمالهم، فمن أعطى اسم «الرحمن» حقه، عرف أنه متضمن لإرسال الرسل،

وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه إنزال الغيث، وإنبات الكلاء، وإخراج الحب، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضاءها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب، وأدرك منه أولو الأبواب أمراً وراء ذلك.

📖 قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

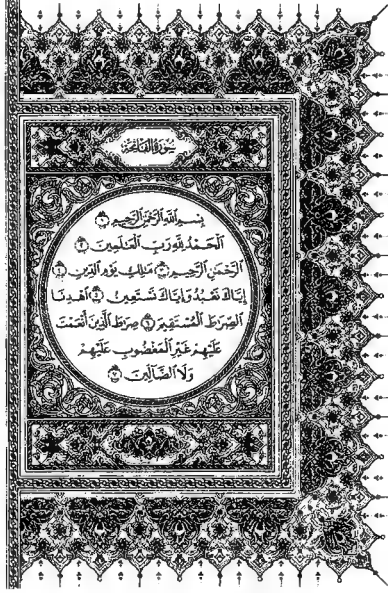


٥- يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه، وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه واستعانه على عبادته.

٦- وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ «العبادة» غاية العباد التي خلقوا لها، و«الاستعانة» وسيلة إليها، ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بالوحيته واسمه الله، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته واسمه «الرب»، فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما قدم اسم «الله» على «الرب» في أول السورة.

ولأن العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة من غير عكس، فكل عابد لله عبودية تامة مستعين به ولا ينعكس، لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم، ولهذا كانت قسم الرب.

ولأن الاستعانة جزء من العبادة من غير عكس، ولأن الاستعانة طلب منه، والعبادة طلب له.



ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص، والاستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص.

ولأن العبادة حقه الذي أوجهه عليك، والاستعانة طلب العون على العبادة، وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته.

ولأن العبادة شكر نعمته عليك، والله يحب أن يشكر، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك، فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقها، أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سبباً لنيل الإعانة،

وكلما كان العبد أتم عبودية، كانت الإعانة من الله له أعظم.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

٧- وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين، ففيه: أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم، وفيه الاهتمام وشدة العناية به، وفيه الإيذان بالاختصاص، المسمى بالحصص، فهو في قوة: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك، والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها.

وتأمل قوله تعالى ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿وَإِنِّي فَأَقْنُونَ﴾ [البقرة: ٤١] كيف تجده في قوة: لا ترهبوا غيري، ولا تتقوا سواي، وكذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هو في قوة: لا نعبد غيرك، ولا نستعين بسواك، وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من علّة السياق.

قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١﴾

٨- ثم يشهد من «اهدنا» عشر مراتب، إذا اجتمعت حصلت له الهداية.

المرتبة الأولى: هداية العلم والبيان، فيجعله عالماً بالحق مُدْرِكاً له.

الثانية: أن يقدره عليه، وإلا فهو غير قادر بنفسه.

الثالثة: أن يجعله مريدًا له.

الرابعة: أن يجعله فاعلاً له.

الخامسة: أن يثبتته على ذلك، ويستمر به عليه.

السادسة: أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادة له.

السابعة: أن يهديه في الطريق نفسها هداية خاصة، أخصَّ من الأولى، فإن الأولى

هداية إلى الطريق إجمالاً، وهذه هداية فيها وفي منازلها تفصيل.

الثامنة: أن يُشْهده المقصود في الطريق، ويُنبِّهه

عليه، فيكون مطالعاً له في سيره، ملتفتاً إليه، غير

محتجب بالوسيلة عنه.

التاسعة: أن يُشْهده فقره وضرورته إلى هذه

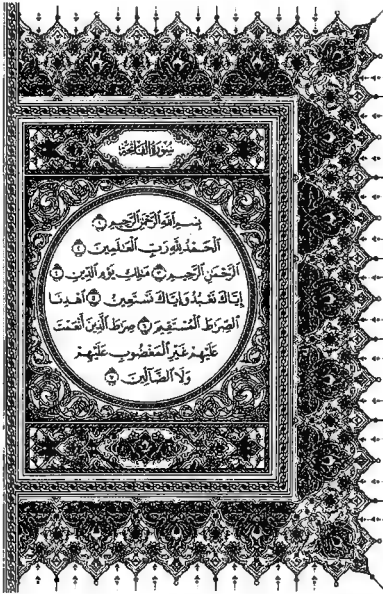
الهداية فوق كل ضرورة.

العاشرة: أن يُشْهده الطريقين المنحرفين عن

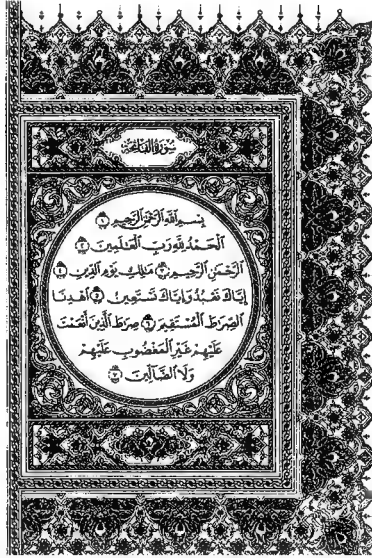
طريقها، وهما طريق أهل الغضب، الذين عدلوا

عن اتباع الحق قصداً وعناداً، وطريق أهل الضلال

الذين عدلوا عنها جهلاً وضلالاً، ثم يشهد جمع



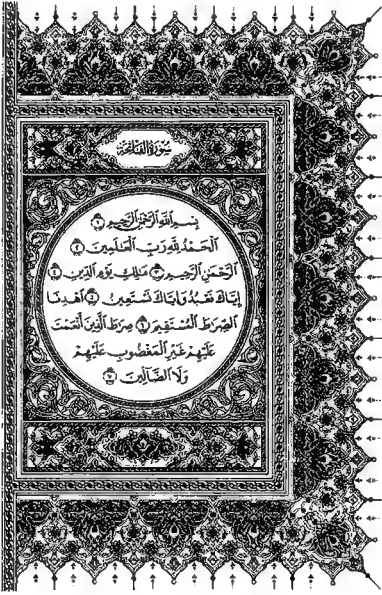
الصراط المستقيم في طريق واحد عليه جميع أنبياء الله ورسله، وأتباعهم من الصديقين والشهداء والصالحين (مدارج السالكين ٣/ ٥١٠).



٩- الإتيان بالضمير في قوله: ﴿أَهْدِنَا صِرَاطَكَ﴾ ضمير جمع، فالصواب أن يقال هذا مطابق لقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ والإتيان بضمير الجمع في الموضعين أحسن وأفخم، فإن المقام مقام عبودية وافتقار إلى الرب تعالى، وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانة بهدايته، فأتى به بصيغة ضمير الجمع، أي نحن معاشر عبيدك مقرون لك بالعبودية، وهذا كما يقول العبد للملك

المعظم شأنه: نحن عبيدك ومماليكك وتحت طاعتك، ولا نخالف أمرك. فيكون هذا أحسن وأعظم موقعا عند الملك من أن يقول: أنا عبدك ومملوكك. ولهذا لو قال: أنا وحدي مملوكك. استدعى مقتته، فإذا قال: أنا وكل من في البلد مماليكك وعبيدك وجند لك. كان أعظم وأفخم؛ لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثير جدا وأنا واحد منهم، وكلنا مشتركون في عبوديتك والاستعانة بك وطلب الهداية منك، فقد تضمن ذلك من الشاء على الرب بسعة مجده وكثرة عبيده وكثرة سائليه الهداية ما لا يتضمنه لفظ الأفراد فتأمل، وإذا تأملت أدعية القرآن رأيت عامتها على هذا النمط نحو: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة: ٢٠١) ونحو دعاء آخر البقرة وآخر آل عمران وأولها وهو أكثر أدعية القرآن الكريم (بدائع الفوائد ٢/ ٩-٤١).

١٠- يتضمن طلب الهداية ممن هو قادر عليها، وهي بيده إن شاء أعطاها عبده، وإن شاء منعه إياها، والهداية معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله تعالى عالماً



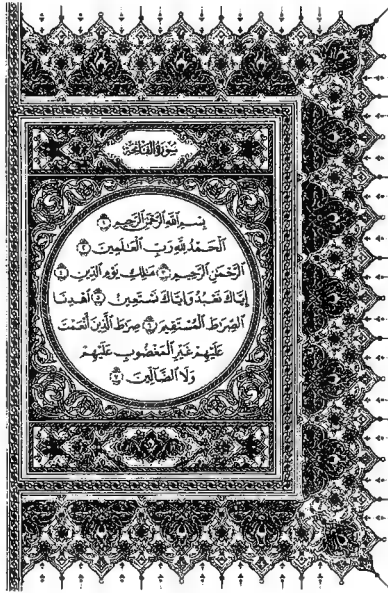
بالحق عاملاً به، لم يكن له سبيل إلى الاهتداء، فهو سبحانه المتفرد بالهداية الموجبة للاهتداء التي لا يتخلف عنها، وهي جعل العبد مريدًا للهدى مُحبًّا له مُؤثراً له، عاملاً به، فهذه الهداية ليست إلى ملك مُقرب ولا نبي مرسل، وهي التي قال سبحانه فيها: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] [شفاء العليل ٥٢-٥٣].

١١- يتضمن بيان أن العبد لا سبيل له إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربه له، كما لا سبيل له إلى عبادته بمعونته، فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلا بهدایتة.

١٢- ومن هنا يعلم اضطراب العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف.

المعلوم، وما لا نريد فعله تهاونا وكسلا مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وما نعرف جملة ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة، فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام.

١٣- ففي ذكر المنعم عليهم وهم من عرف الحق واتبعه، والمغضوب عليهم وهم من عرفه واتبع هواه، والضالين وهم من جهله ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة، لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود، وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة.



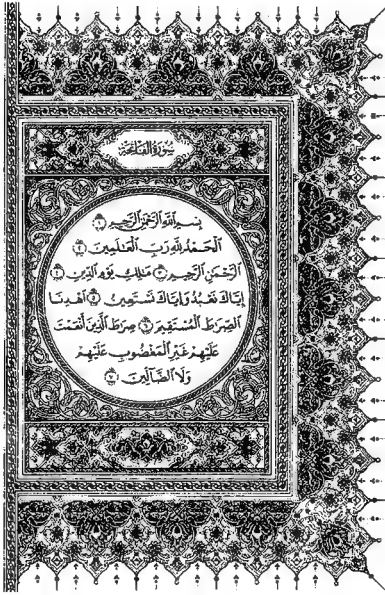
١٤- وتضمنت ذكر الصراط المستقيم مفردا مُعرِّفاً تعريفين: تعريفاً باللام، وتعريفاً بالإضافة، وذلك يفيد تعيينه واختصاصه، وأنه صراط واحد، وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فوَحَّدَ لفظ الصراط وسيله، وجمع السبل المخالفة له.

١٥- ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب، ونيله أشرف المواهب،

عَلَّمَ الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه، وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم، توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء.

١٦- في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها ما يدل على أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمن محمود، وملك محمود، فله بذلك جميع أقسام الكمال.

١٧- فائدة البدل في الدعاء: لقد وردت الآية في معرض التعليم للعباد والدعاء، وحق الداعي أن يستشعر عند دعائها ما يجب عليه اعتقاده مما لا يتم الإيمان إلا به؛ إذ الدعاء مخ العبادة، والمنح لا يكون إلا في عظم، والعظم في لحم ودم، فإذا وجب إحضار معتقدات الإيمان عند الدعاء، وجب أن يكون الطلب ممزوجاً بالثناء، فمن



ثم جاء لفظ الطلب للهداية والرغبة فيها مشوبا بالخير، تصريحاً من الداعي بمعتقده وتوسلاً منه بذلك الاعتقاد الصحيح إلى ربه، فكأنه متوسل إليه بإيمانه واعتقاده أن صراط الحق هو الصراط المستقيم، وأنه صراط الذين اختصهم بنعمته وجباهم بكرامته.

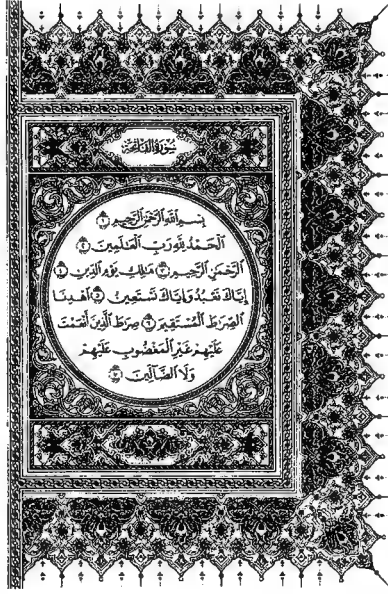
١٨- تعريف الصراط باللام: اعلم أن الألف

واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره، ألا ترى أن قولك: جالس فقيهاً أو عالماً. ليس كقولك: جالس

الفقيه أو العالم. ولا قولك: أكلت طيباً، كقولك: أكلت الطيب. ألا ترى إلى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق» ثم قال: «ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار حق» (رواه البخاري ومسلم)، فلم يدخل الألف واللام على الأسماء المحدثّة، وأدخلها على اسم الرب تعالى ووعد وكلامه، فإذا عرفت هذا فلو قال: أهدنا صراطاً مستقيماً، لكان الداعي إنما يطلب الهداية إلى صراطٍ ما مستقيم على الإطلاق، وليس المراد ذلك، بل المراد الهداية إلى الصراط المعين الذي نصبه الله تعالى لأهل نعمته وجعله طريقاً إلى رضوانه وجنته وهو دينه الذي لا دين له سواه، فالمطلوب أمر معين في الخارج والذهن لا شيء مطلق منكر.

١٩- إشارة إلى أن نفي التقليد عن القلب واستشعار العلم بأن من هُدي إلى هذا

الصراط فقد أنعم عليه، فالسائل مستشعر سؤاله الهداية وطلب الإنعام من الله عليه، والفرق بين هذا الوجه والذي قبله أن الأول يتضمن الإخبار بأن أهل النعمة هم أهل



الهداية إليه، والثاني يتضمن الطلب والإرادة وأن تكون منه.

﴿قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾﴾

٢٠- إن هذا جاء على الطريقة المعهودة في القرآن الكريم، وهي أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيذكر فاعلها منسوبة إليه ولا يبنى الفعل معها للمفعول، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة، حذف وبنى الفعل معها للمفعول أدباً في الخطاب، وإضافته

إلى الله تعالى أشرف قسمي أفعاله، فمنه هذه الآية فإنه ذكر النعمة فأضافها إليه ولم يحذف فاعلها، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول فقال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وقال في الإحسان: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

٢١- من ذكره وإضافته النعمة إليه ما ليس في ذكر المنعم عليهم لو قاله، فضمن هذا اللفظ الأصلين وهما الشكر والذكر المذكوران في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة: ١٥٢).

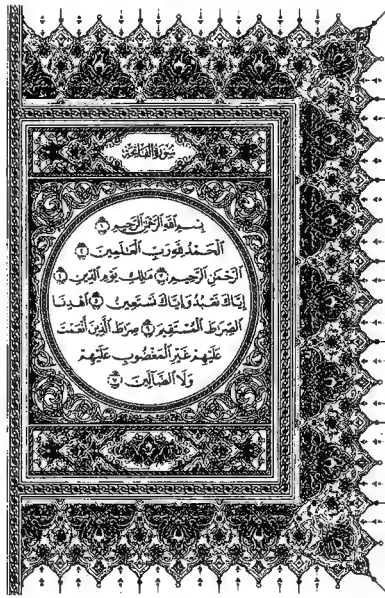
٢٢- فإذا عرفت هذا ففعل الهداية متى عدي بـ«إلى» تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة فأتى بحرف الغاية، ومتى عدي باللام تضمن التخصيص بالشيء المطلوب فأتى باللام الدالة على الاختصاص والتعيين، فإذا قلت: هديته لكذا. فهم معنى ذكرته له وجعلته له وهياته ونحو هذا، وإذا تعدى بنفسه تضمن المعنى الجامع لذلك كله وهو التعرف والبيان والإلهام.

﴿عَبْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. قوله تعالى: ﴿

٢٣- يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وأن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل (الفوائد ٢١-٢٢).

فأول السورة رحمة وأوسطها هداية وآخرها نعمة.

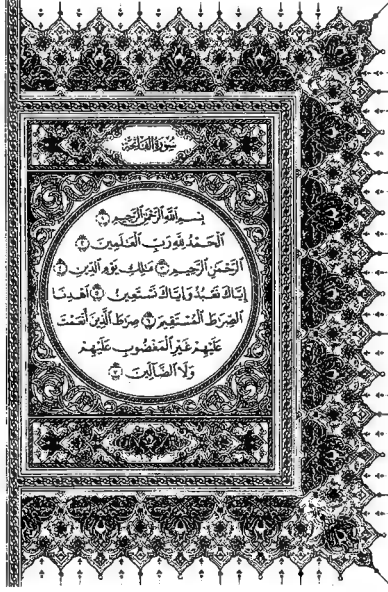
٢٤- قال: ﴿عَبْرَ الْمَغْضُوبِ﴾ ولم يقل: لا المغضوب عليهم. فيقال: لا ريب



أن «لا» يعطف بها بعد الإيجاب، كما تقول: جاءني زيد لا عمرو، وجاءني العالم لا الجاهل. وأما (غير) فهي تابع لما قبلها وهي صفة ليس إلا كما سيأتي، وإخراج الكلام هنا مخرج الصفة أحسن من إخراج مخرج العطف، وهذا إنما يعلم إذا عرف فرق ما بين العطف في هذا الموضع والوصف، فتقول: لو أخرج الكلام مخرج العطف وقيل: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ لا المغضوب عليهم، لم يكن في العطف بها أكثر من نفي إضافة

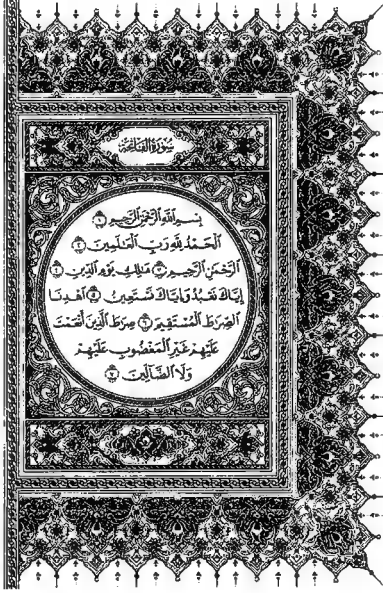
الصراط إلى المغضوب عليهم كما هو مقتضى العطف، فإنك إذا قلت: جاءني العالم لا الجاهل. لم يكن في العطف أكثر من نفي المجيء عن الجاهل وإثباته للعالم، وأما الإتيان بلفظ (غير) فهي صفة لما قبلها، فأفاد الكلام معها وصفهم بشيئين: أحدهما أنهم مُنعم عليهم، والثاني: أنهم غير مغضوب عليهم، فأفاد ما يفيد العطف مع زيادة الثناء عليهم ومدحهم.

٢٥- وفيها فائدة أخرى وهي أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ادعوا أنهم هم المنعم عليهم دون أهل الإسلام، فكأنه قيل لهم: المنعم عليهم غيركم لا أنتم. وقيل: للمسلمين المغضوب عليهم غيركم لا أنتم، فالإتيان بلفظة (غير) في هذا السياق أحسن وأدل على إثبات المغايرة المطلوبة.



٢٦- فتأمله وتأمل كيف قال: المغضوب عليهم ولا الضالين، ولم يقل: اليهود والنصارى، مع أنهم هم الموصوفون بذلك؛ تجريدا لوصفهم بالغضب والضلال الذي به غايروا المنعم عليهم ولم يكونوا منهم بسبيل؛ لأن الإنعام المطلق ينافي الغضب والضلال، فلا يثبت لمغضوب عليه ولا ضال، فتبارك من أودع كلامه من الأسرار ما يشهد بأنه تنزيل من حكيم حميد.

٢٧- الفائدة الثالثة: رفع توهم أن الضالين وصف للمغضوب عليهم وأنهما صنف واحد وصفوا بالغضب والضلال ودخل العطف بينهما كما يدخل في عطف الصفات بعضها على بعض نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣﴾ (المؤمنون: ١-٣) إلى آخرها، فإن هذه صفات المؤمنين، ومثل قوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ٣﴾ (الأعلى: ١-٣) ونظائره، فلما دخلت (لا) علم أنها صنفان متغايران مقصودان بالذكر، وكانت (لا) أولى بهذا المعنى من غير لوجوه: أحدها: أنها أقل حروفا. الثاني: التفادي من تكرار اللفظ. الثالث: الثقل الحاصل بالنطق به (غير) مرتين من غير فصل إلا بكلمة



مفردة، ولا ريب أنه ثقیل علی اللسان. الرابع: أن
(لا) إنما یعطف بها بعد النفي، فالإتيان بها مؤذن
بنفي الغضب عن أصحاب الصراط المستقیم كما
نفي عنهم الضلال، و(غير) وإن أفهمت هذا فلا
أدخل في النفي منها.



سورة البقرة

قوله تعالى: ﴿الْم ١﴾.



١- تأمل سر: ﴿الْم﴾ كيف اشتملت على هذه الحروف الثلاثة، فالألف إذا بدئ بها أولا كانت همزة، وهي أول المخارج من أقصى الصدر واللام من وسط مخارج، وهي أشد الحروف اعتمادا على اللسان، والميم آخر الحروف ومخرجها من الفم وهذه الثلاثة هي أصول مخارج الحروف أعني الحلق واللسان والشفيتين وترتيب في التنزيل من البداية إلى الوسط إلى النهاية. فهذه الحروف

معتمد المخارج الثلاثة التي تتفرع منها ستة عشر مخرجا، فيصير منها تسعة وعشرون حرفا عليها دار كلام الأمم الأولين والآخرين مع تضمنها سرا عجيبا، وهو أن للألف البداية واللام التوسط والميم النهاية، فاشتملت الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والواسطة بينهما (بدائع الفوائد ٣/ ١٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ٨﴾
يُخٰدِعُونَ اللّٰهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ اِلَّا اَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٩﴾.

٢- أخبر سبحانه وتعالى أن هؤلاء المخادعين مخدوعون، وهم لا يشعرون أن الله تعالى خادع من خدعه، وأنه يكفي المخدوع شر من خدعه.

والمخادعة: هي الاحتيال والمراوغة بإظهار الخير مع إبطان خلافه، ليحصل مقصود المخادع (إغائة اللفهان ١/ ٣٤٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢).

٣- حكم العزيز الحكيم بين الفريقين بأن سجل على المنافقين أربع إفسادات:

* أحدها: تكذيبهم.

* والثاني الإخبار بأنهم مفسدون.

* والثالث: حصر الفساد فيهم بقوله: ﴿هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾.

* والرابع: وصفهم بغاية الجهل وهو أنه لا شعور لهم البتة بكونهم مفسدين.

وتأمل كيف نفى الشعور عنهم في هذا الموضع، ثم نفى العلم في قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فنفى علمهم بسفاههم وشعورهم بفسادهم، وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل أن يكون الرجل مفسدا ولا شعور له بفساده البتة مع أن أثر فسادهم مشهور في الخارج مرئي لعباد الله وهو لا يشعر به،

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ خَسِرَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ وَرَبُّكَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢﴾ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْنَا الْقُرْآنَ وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَخْتَرِعُونَ لَهُمْ آيَاتٍ فَتَاهَتْ عَنْهُمْ لِيَنَسُوا بَاطِلًا أَفْهَقَ مِنَ الْقُرْآنِ هَاجَرُوا عَنْهُ وَمَا يُنسِفُونَ ﴿١٤﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يُنَادُونَ لِلْإِسْلَامِ أَنْ تُرَدَّ لَيْسَ لَهُمُ الْحَقُّ أَفَتَكْفُرُونَ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنَّا قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١٦﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنَّا قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١٨﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿٢٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

وهذا يدل على استحكام الفساد في مداركه وطرق علمه، وكذلك كونه سفيها والسفه غاية الجهل وهو مركب من عدم العلم بما يصلح معاشه ومعاذه وإرادته بخلافه، فإذا كان بهذه المنزلة وهو لا يعلم بحاله، كان من أشقى النوع الإنساني، فنفي العلم عنه بالسفه الذي هو فيه متضمن لإثبات جهله، ونفي الشعور عنه بالفساد الواقع منه متضمن لفساد آلات إدراكه، فتضمنت الآيتان الإِسْجَالَ عليهم بالجهل وفساد آلات الإدراك، بحيث يعتقدون الفساد صلاحًا والشر خيرًا (شفاء العليل ٩٨-٩٩).

٤- وحكم للمؤمنين وأسجل على المنافقين بأربعة أنواع:

* أحدها: تسفيهم.

* الثاني: حصر السفه فيهم.

* الثالث: نفي العلم عنهم.

* الرابع: تكذيبهم فيما تضمنه جوابهم من دعواهم التنزيه من السفه (بدائع الفوائد

١٣٠-١٣١).

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ

بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ ۚ صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ

مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْصِعُمْ فِي ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ

٥- أخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلى حظهم من الوحي، وأنهم بمنزلة من

استوقد نارا لتضيء له ويتنفع بها، وهذا لأنهم دخلوا

في الإسلام فاستضاءوا به، وانتفعوا به، وآمنوا به،

وخالطوا المسلمين، ولكن لما لم يكن لصحبته

مادة من قلوبهم من نور الإسلام طفى عنهم، وذهب

الله بنورهم، ولم يقل بنارهم؛ فإن النار فيها الإضاءة

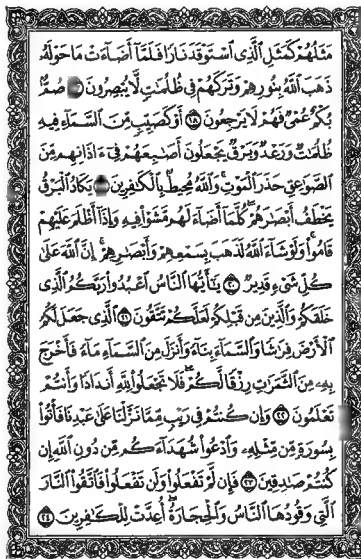
والإحراق، فذهب الله بما فيها من الإضاءة، وأبقى

عليهم ما فيها من الإحراق، وتركهم في ظلمات لا

يبصرون، فهذا حال من أبصر ثم عمي، وعرف ثم

أنكر، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه، فهو لا يرجع

إليه؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].





٦- وتأمل قوله تعالى: ﴿أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ [البقرة: ١٧] كيف جعل ضوءها خارجا عنه منفصلا، ولو اتصل ضوءها به ولا بسه لم يذهب، ولكنه كان ضوء مجاورة لا ملابسة ومخالطة، وكان الضوء عارضا والظلمة أصلية، فرجع الضوء إلى معدنه وبقيت الظلمة في معدنها فرجع كل منهما إلى أصله اللائق به، حجة من الله قائمة، وحكمة بالغة تعرف بها إلى أولي الأبواب من عباده (اجتماع الجيوش الإسلامية (٦٤/٢).

٧- وتأمل قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] ولم يقل: بنارهم. لتطابق أول الآية؛ فإن النار فيها إشراق وإحراق، فذهب بما فيها من الإشراق وهو النور، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق وهو النارية.

٨- وتأمل كيف قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] ولم يقل: بضوئهم. مع قوله: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ [البقرة: ١٧]؛ لأن الضوء هو زيادة في النور، ولو قيل: ذهب الله بضوئهم، لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، فلما كان النور أصل الضوء، كان الذهاب به ذهابا بالشيء وزيادته، وأيضا فإنه أبلغ في النفي عنهم وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم، وأيضا: فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَمَى كتابه نورًا، ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نورًا، ودينه نورًا، وهده نورًا، ومن أسمائه النور، والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم ذهاب بهذا كله.

٩- وتأمل كيف قال الله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] فوحده، ثم قال: ﴿وَتَرَكْنَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧] فجمعها، فإن الحق واحد وهو صراط الله

مَنَّا لَهُمْ كَيْفَ الَّذِي أَسْتَوْفَدْنَا قُلْنَا أَتَسَاءَتْ مَا سَأَلَهُ
 ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَكَّاهُمْ فَنُورُهُمْ لَيْسَ بِمُورٍ ۝ مُدَّ
 بِكَرْمِضٍ فَهَمَّ لَا يُرْجِعُونَ ۝ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ يَهُ
 طَارَتْ رِيحُهُ وَفَرَقَ بِجَعَلُونَ أَصْدِقَ مِنْهُ فَيُفَكِّدُهُ إِذَا هُمْ
 آمِنُونَ ۝ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ يَحْكُمُ بِالْكَافِرِينَ ۝ يَكْفُرُ الْبَرُّ
 بِتِلْكَ الْأَمْثَلِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَيْءٌ وَلَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ
 قَامُوا وَلَوْ سَاءَ لَهُمُ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
 خَبِيرٌ ۝ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي
 خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
 الْأَرْضَ وَفِئَا السَّمَاءِ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ مَاءً فَتُخَرِّجُ
 بِهِ مِنَ الشَّرْبِ رِيقًا لَّعَلَّكُمْ تَفْقَهُونَ ۝ وَإِن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ
 فَاذْكُرُوا أَن كُنْتُمْ شَرًّا فَنُصِّرْكُمْ وَنَجِّنَا مِنَ ظُلُمٍ أَكْثَرٍ
 ۝ يَسُورُونَ فِي ظُلُمٍ أَدْمُغُنُّوا فِيهَا وَهُمْ لَا يَخْرُجُونَ ۝ كَثُرُوا
 سُبُوحًا قَدِيسَةً قَالُوا لَا تَمْلِكُنَّ لَهُمْ شَيْئًا وَهُمْ يَحْكُمُونَ ۝
 الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاتَ فَتُصَوِّرُهَا فَيَكُونُ سَحَابًا مِّنْ مَّاءٍ
 مُّسَوًّى ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝

المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواء وهو عبادته وحده لا شريك له بما شرعه على لسان رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا بالأهواء والبدع وطرق الخارجين عما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق بخلاف طرق الباطل، فإنها متعددة متشعبة ولهذا يفرد سبحانه وتعالى الحق، ويجمع الباطل كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴿البقرة: ٢٥٧﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فجمع سبل الباطل ووحد سبيله الحق، ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦] (اجتماع الجيوش الإسلامية ٢/ ٦٧).

١٠- وتأمل مطابقة هذا المثل لما تقدمه من قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَّحَتْ بِحَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]، كيف طابق هذه التجارة الخاسرة التي تضمنت حصول الضلالة والرضا بها، وبذل الهدى في مقابلتها وحصول الظلمات التي هي الضلالة والرضا بها، بدلا عن النور الذي هو الهدى والنور، فبدلوا الهدى والنور وتعوضوا عنه بالظلمة والضلالة فبذلوا النور في تجارتها ما أخسرها وصفقة ما أشد غبنها.

١١- فوصفهم سبحانه بأنهم لا يفقهون الحق ولا تنطق به ألسنتهم، والعلم يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب: من سمعه، وبصره، وقلبه. وقد عليهم سدت هذه الأبواب

الثلاثة، فسد السمع بالصمم، والبصر بالعمى، أو القلب بالبكم (شفاء العليل (٩٦).

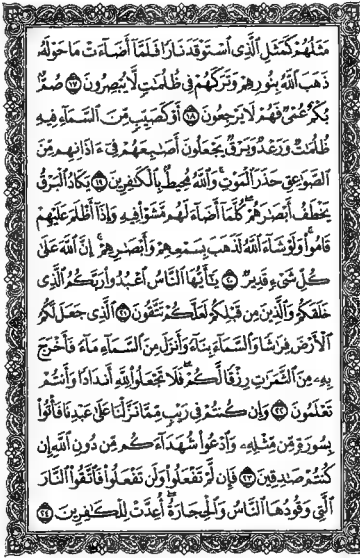
قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْصِعُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (١٩).

١٢- ثم ضرب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُمْ مثلاً آخر مائياً فقال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْصِعُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ

بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩] فشبه نصيبهم مما بعث الله تعالى به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من النور والحياة بنصيب المستوقد للنار التي طفئت عنه أحوج ما كان إليها، وذهب نوره وبقي في الظلمات حائراً تائها لا يهتدي سبيلاً ولا يعرف طريقاً، وبنصيب أصحاب الصيب وهو المطر الذي يصبوب -أي ينزل- من علو إلى سفلى، فشبه الهدى الذي هدى به عباده بالصيب، لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، ونصيب المنافقين من هذا الهدى بنصيب من لم يحصل له

من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق، ولا نصيب له فيما وراء ذلك مما هو المقصود بالصيب من حياة البلاد والعباد والشجر والدواب، وأن تلك الظلمات التي فيه وذلك الرعد والبرق مقصود لغيره، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيب، فالجاهل لفرط جهله يقتصر على الإحساس بما في الصيب من ظلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك من برد شديد وتعطل مسافر عن سفره وصانع عن صنعتته، ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يثول إليه أمر ذلك الصيب من الحياة والنفع العام، وهكذا شأن كل قاصر النظر ضعيف العقل لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب. وهذه حال

من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق، ولا نصيب له فيما وراء ذلك مما هو المقصود بالصيب من حياة البلاد والعباد والشجر والدواب، وأن تلك الظلمات التي فيه وذلك الرعد والبرق مقصود لغيره، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيب، فالجاهل لفرط جهله يقتصر على الإحساس بما في الصيب من ظلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك من برد شديد وتعطل مسافر عن سفره وصانع عن صنعتته، ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يثول إليه أمر ذلك الصيب من الحياة والنفع العام، وهكذا شأن كل قاصر النظر ضعيف العقل لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب. وهذه حال



أكثر الخلق إلا من صحت بصيرته، فإذا رأى ضعيف البصيرة ما في الجهاد من التعب والمشاق والتعرض لتلاف المهجة والجراحات الشديدة وملامة اللوام ومعاداة من يخاف معاداته، لم يقدم عليه؛ لأنه لم يشهد ما يتول إليه من العواقب الحميدة والغايات التي إليها تسابق المتسابقون وفيها تنافس المتنافسون.

١٣- منها: أن المستضيء بالنار مستضيء بنور من جهة غيره لا من قبل نفسه، فإذا ذهب تلك النار بقي في ظلمة. وهكذا المنافق لما أقر بلسانه من غير اعتقاد ومحبة بقلبه وتصديق جازم كان ما معه من النور كالمستعار.

١٤- ومنها: أن ضياء النار يحتاج في دوامه إلى مادة تحمله، وتلك المادة للضياء بمنزلة غذاء الحيوان، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة من العلم النافع والعمل الصالح يقوم بها ويدوم بدوامها فإذا انقطعت مادة الإيمان طفق كما تطفأ النار بفراغ مادتها.

١٥- ومنها: أن الظلمة نوعان: ظلمة مستمرة لم يتقدمها نور، وظلمة حادثة بعد النور وهي أشد الظلمتين وأشقهما على من كانت حظه، وظلمة المنافق ظلمة بعد إضاءة، فمثلت حاله بحال المستوقد للنار الذي حصل في الظلمة بعد الضوء، وأما الكافر فهو في الظلمات لم يخرج منها قط.

١٦- ومنها: أن في هذا المثل إيذانا وتنبها على حالهم في الآخرة وأنهم يعطون نورا ظاهرا كما كان نورهم في الدنيا ظاهرا، ثم يطفأ ذلك النور أحوج ما يكونون إليه إذ لم تكن له مادة باقية تحمله ويبقون على الجسر في الظلمة لا يستطيعون العبور؛ فإنه

لا يمكن أحد عبوره إلا بنور ثابت يصحبه حتى يقطع الجسر، فإن لم يكن لذلك النور مادة من العلم النافع والعمل الصالح وإلا ذهب الله تعالى به أحوج ما كان إليه صاحبه، فطابق مثلهم في الدنيا بحالتهم التي هم عليها في هذه الدار وبحالهم يوم القيامة عندما تقسم الأنوار دون الجسر ويثبت نور المؤمنين ويطفأ نور المنافقين.

ومن ها هنا تعلم السر في قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] الآية ولم يقل: أذهب الله نورهم.

١٧ - ومنها: أن المثل الأول متضمن لحصول الظلمة التي هي الضلال والحيرة التي ضدها الهدى، والمثل الثاني: متضمن لحصول الخوف الذي ضده الأمن، فلا هدى ولا أمن: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ

﴿[الأنعام: ٨٢] قال ابن عباس وغيره من السلف:

مثل هؤلاء في نفاقهم كمثل رجل أوقد نارا في ليلة مظلمة في مفازة، فاستدفا ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف، فبينما هو كذلك إذ طفت ناره، فبقي في ظلمة خائفا متحيرا، كذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان آمنوا على أموالهم وأولادهم وناكحوا المؤمنين ووارثوهم وقاسموهم الغنائم، فذلك نورهم، فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف (اجتماع الجيوش

الإسلامية (١٢-١٦).

مَنْ لَهُمْ كَذَلِكِ الَّذِي اسْتَعْتَدْنَا لَهُ لِقَاءَ آيَاتِهِ مَا حَوْلَهُ
ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٨٢﴾ ضُرُّ
بُكَرٍ مَعْنَى قَهْرٍ لَا يَرْتَدُّونَ ﴿٨٣﴾ أَوْ كَصَيْدٍ بَرْدٍ فَتُغْلِبُ فَتُضْلِمُ فِيهِ
ظُلُمَاتٌ وَزَعْفٌ وَزُفْرٌ يَجْتَلُونَ أَصْدِقَ حَقٍّ فِيهِ أَقَابِهِمْ مِنْ
الْقُرْآنِ حَدَّثَ النَّبِيَّ وَاللَّهُ لَهِيمٌ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٤﴾ بِكَذَا الْبَرُّ
يُضِلُّ أَصْدَقَ حَقٍّ لِّمَا آيَاتِهِ لَهْمُ قَهْرٌ وَفِيهِ وَلَئِنْ أَقْبَلْنَا عَلَيْهِمْ
قَاتِلُوا وَلَوْ إِنَّهُمْ لَكَابِبٌ وَمَنْ يَسْعَوْهُمْ وَأَصْدِقُهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨٥﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي
خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٨٦﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٨٧﴾ وَلَنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا
بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا كَانُوا
أَعْلَىٰ وَفَعَلُوا النَّاسَ وَلِجَارَةٍ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

﴿٨٦﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٧﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ

١٨- فقررت هذه الآيات هذه المطالب كلها على أحسن وجه، فصَدَّرَها تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وهذا خطاب لجميع بني آدم يشتركون كلهم في تعلقه بهم، ثم قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ فأمرهم بعبادة ربهم، وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته؛ لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمة وإحسانه وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا وكل ذرة من العبد فمملوكه له ملكا خالصا حقيقيا وقد رباه بإحسانه إليه وإنعامه عليه عبادته له وشكره إياه واجب عليه.

٢٠- ثم قال: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ فنبه بهذا أيضا على وجوب عبادته وحده وهو كونه

مَنْ لَهُمْ كَيْفَ الَّذِي اسْتَوْفَدْنَا قَالُوا مَا أَحْرَتْ مَا سَأَلْتَهُ
ذَهَبَ الْيَوْمُ بِهِ وَنَحْنُ نَعْمُ فِي ظُلُمَاتٍ لَيْسَ لَنَا بِهِ نَصْرٌ
لَا كَيْفَ فَقَالَ لَيْسَ بِشَيْءٍ أَوْ كَيْفَ وَفِي السَّمَاءِ فِيهِ
ظُلُومٌ وَفِي السَّمَاءِ وَفِي السَّمَاءِ وَفِي السَّمَاءِ وَفِي
السَّمَاءِ وَفِي السَّمَاءِ وَفِي السَّمَاءِ وَفِي السَّمَاءِ
يَخْلُقُ أَشْيَاءَ مِمَّا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَلَئِنْ كُنْتُمْ
قَائِلُونَ أَنَّهُ اللَّهُ لَذَّيْبُ الْمَذَلِّينَ أَفَلَا تَتَّقُونَ
عَلَىٰ شَيْءٍ قَوْلِهِمْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي
خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَازًا وَمَنْ فِي السَّمَاءِ مَا تَخَافُونَ
يَوْمَ هُمْ مِنَ النَّارِ رَوَّافًا أَكْثَرُ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا هُمْ أَشْيَاءُ
تَعْلَمُونَ وَلَئِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا
بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَا تَعْمَلُوا لَكُمْ أَعْمَالٌ فَلَا تَقْعُدُوا
عَنِ الْوَعْدِ وَأَعِذْ لَكُمْ بِالسَّعِيرِ ٥

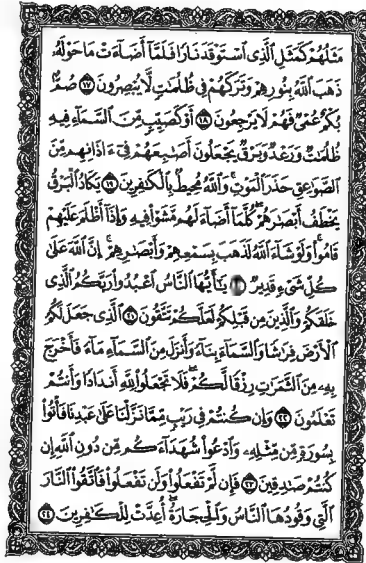
توحيد الإلهية.

٢١- ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فنبه بذلك على أنه وحده الخالق لكم ولا بآئكم ومن تقدمكم، وأنه لم يشركه أحد في خلق من قبلكم ولا في خلقكم، وخلقته تعالى لهم متضمن لكمال قدرته وإرادته وعلمه وحكمته وحياته، وذلك يستلزم لسائر صفات كماله ونعوت جلاله، فتضمن ذلك إثبات صفاته وأفعاله ووحدانيته في صفاته، فلا شبهة له فيها ولا في أفعاله، فلا شريك له فيها، ثم ذكر المطلوب من خلقهم وهو أن

يتقوه فيطيعونه ولا يعصونه، ويذكرونه فلا ينسونه، ويشكرونه ولا يكفرونه، فهذه حقيقة تقواه.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قيل: إنه تعليل للأمر. وقيل: تعليل للخلق. وقيل: المعنى اعبدوه لتقوه بعبادته. وقيل: المعنى خلقكم لتقوه. وهو أظهر لوجوه:

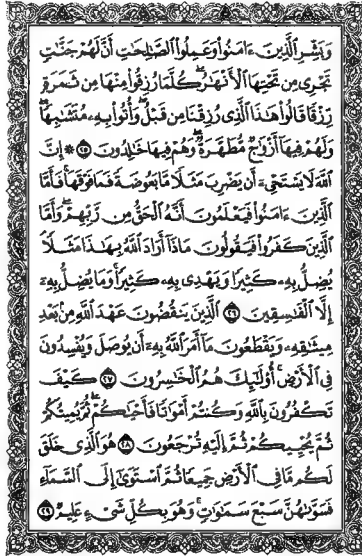
أحدها: أن التقوى هي العبادة، والشيء لا يكون علة لنفسه.



الثاني: أن نظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ٥٦.

الثالث: أن الخلق أقرب في اللفظ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ من الأمر.

٢٣- ثم قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فتأمل هذه النتيجة وشدة لزومها لتلك المقدمات قبلها وظفر العقل بها بأول وهلة وخلوصها من كل شبهة وريبة وقادح، وإن كل متكلم ومستدل ومحتاج إذا بالغ في تقرير ما يقرره وأطاله وأعرض القول فيه، فغايتة إن صح ما يذكره أن ينتهي إلى بعض ما في القرآن، فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من البرهان الشافي في التوحيد، أي إذا كان الله وحده هو الذي فعل هذه



الأفعال، فكيف يجعلون له أندادا وقد علمتم أنه لا ند له يشاركه في فعله (بدائع الفوائد ١٣١-١٣٦).

📖 قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِمْ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَنْجَارٌ مَطهرةٌ وَهُمْ فِيهَا خالدون ﴿٢٥﴾﴾

٢٤- فتأمل جلاله المبشر ومنزلته وصدقه وعظمه

من أرسله إليك بهذه البشارة وقدر ما بشرك به وضمنه لك على أسهل شيء عليك وأيسره وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات وما فيها من الأنهار والثمار ونعيم النفس بالأزواج المطهرة ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الأبد وعدم انقطاعه (بدائع الفوائد ٤/ ١٣١-١٣٦).

📖 قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

٢٥- أنه تعالى أحياهم بعد هذه الإماتة.

- أنه تعالى يميتهم بعد هذه الحياة.

- أنه يحييهم بعد هذه الإماتة فيرجعون إليه، فما بال العاقل يشهد الثلاثة الأطوار الأول ويكذب بالرابع، وهل الرابع إلا طور من أطوار التخليق؟! فالذي أحياكم بعد أن كنتم مواتا ثم أماتكم بعد أن أحياكم، ما الذي يعجزه عن إحيائكم بعد ما يميتكم؟! وهل إنكاركم ذلك إلا كفر مجرد بالله تعالى؟! فكيف يقع منكم بعد ما شاهدتموه؟! وهل إنكاركم ذلك إلا كفر مجرد بالله تعالى؟! فكيف يقع منكم بعد ما شاهدتموه؟!

وَقَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ يَبْنَوْا فِي جَعَلَنِي فِي الْأَرْضِ حَلِيقَةً قَالُوا أَتَعْجَلُ بِمَا يَمُنُّ بِفِيهِمَا وَتَسْفِكُ الدِّمَاطَ وَتَنْقُضُ السَّيِّحَ بِحَدِّكَ وَتَقْدُسُ الْفَقَالَ إِنِّي أَغْلَظُ الْأَسْلَحِينَ ۖ وَنَعَمْ عَذَابُ الْأَلَمَةِ عَلَى مَا تَوَعَّدْنَهُ عَلَى الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ أَنِيبُوا بِمَا نَسِيتُمْ حَقِّي إِلَىٰ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۖ قَالَ أَنَسِفْتُ الْأَرْضَ إِنِّي أَدْعَاكُم بِأَلْفِ أَلْفٍ أَنْتَ الْعِلْمُ وَالْحَكِيمُ ۖ قَالَ يَدْعُوهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَرَأَيْتُمْ أَكْفُرُ إِنِّي أَغْلَظُ غَيْبَ السَّكْرَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَأَغْلَظُ مَا تَشِينُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۖ وَقَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ يَسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ۖ كَانَ مِن آسِفِي كَثَرِي ۖ وَقَالَ يَكْفُرُ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنْتَ وَرَبُّكَ الْخَلْقَ وَرَبُّكَ إِنَّمَا تَعْبُدُ شَيْئًا وَتَأْتُرُ كَاهِنَهُ الشَّجَرَةَ وَكَانَ مِنَ الْقَابِلِينَ ۖ قَالَ أَنَا الْفَتِيلُ خَلَقْتُهَا وَأَغْلَظُهَا مِمَّا كَانِي فِيهِ ۖ وَلَمَّا أَطْلَعْتُهَا تَضَعُهَا بِعِصَى عَدُوٍّ لِّكَوْفِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَسْكَنٌ لِلَّذِينَ ۖ فَلَمَّا عَلِمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتِ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۖ

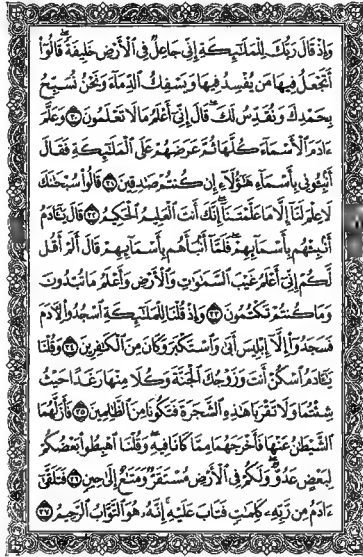
٢٧- ومنها خبره لهذا الخليفة وابتدأه له بالإكرام والإنعام لما علم مما يحصل له من الانكسار والمصيبة والمحنة، فابتدأه بالجبر والفضل، ثم جاءت المحنة والبلية

والذل وكانت عاقبتها إلى الخير والفضل والإحسان، فكانت المصيبة التي لحقته محفوفة بإنعامين إنعام قبلها وبعدها ولذريته المؤمنين نصيب مما لأبيهم، فإن الله تعالى أنعم عليهم بالإيمان ابتداء، وجعل العاقبة لهم فما أصابهم بين ذلك من الذنوب والمصائب، فهي محفوفة بإنعام قبلها وإنعام بعدها، فتبارك الله رب العالمين.

٢٨- ومنها استخراجها تعالى ما كان كامنا في نفس عدوه إبليس من الكبر والمعصية الذي ظهر عند أمره بالسجود فاستحق اللعنة والطرود والإبعاد على ما كان كامنا في نفسه عند إظهاره والله تعالى كان يعلم منه ولم يكن ليعاقبه ويلعنه على علمه فيها بل على وقوع معلومة فكان أمره بالسجود له مع الملائكة مظهرا للخبث والكفر الذي كان كامنا فيه ولم تكن

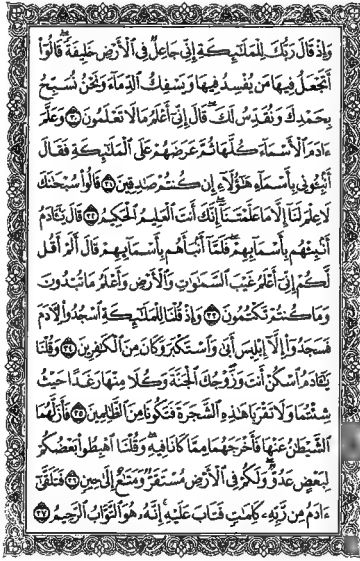
الملائكة تعلمه فأظهر لهم سبحانه ما كان يعلمه وكان خافيا عنهم من أمره فكان في الأمر بالسجود له تكريما لخليفته الذي أخبرهم بجعله في الأرض وجبرا له وتأديبا للملائكة وإظهارا لما كان مستخفيا في نفس إبليس وكان ذلك سببا لتمييز الخبيث من الطيب وهذا من بعض حكمه تعالى في إسجادهم لآدم (بدائع الفوائد ٤/ ١٣٧-١٣٩).

٢٩- بيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه أحدها أنه سبحانه رد على الملائكة لما سأله كيف يجعل في الأرض من هم أطوع له منه فقال إني أعلم ما لا تعلمون فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمونه وهو العليم الحكيم فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه ورسله وأنبيائه وصالحى عباده والشهداء والصديقين والعلماء وطبقات أهل العلم والإيمان من هو خير من الملائكة



وظهر من إبليس من هو شر العالمين فأخرج سبحانه هذا وهذا والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا ولا بهذا ولا بما في خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة.

٣٠- الثاني أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ميزه عليهم



بالعلم فعلمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين جاء في التفسير أنهم قالوا لن يخلق ربنا خلقا هو أكرم عليه منا فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذي يجعله الله في الأرض فلما امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة أقروا بالعجز وجهل ما لم يعلموه فقالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصه به من العلم فقال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم أقروا له بالفضل.

٣١- الثالث أنه سبحانه لما أن عرفهم فضل آدم وعجزهم عن معرفة ما

علمه قال لهم ألم أفل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم وأنه أحاط علما بظواهرهم وباطنهم وبغيب السماوات والأرض فتعرف إليهم بصفة العلم وعرفهم فضل نبيه ووكليمه بالعلم.

٣٢- الرابع أنه سبحانه جعل في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره

من المخلوقات وأراد سبحانه أن يظهر لملائكته فضله وشرفه فأظهر لهم أحسن ما فيه وهو علمه فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم

وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾

٣٣- في ذكر مناظرة إبليس عدو الله في شأن آدم وإبائه من السجود له وبيان فسادها وقد كرر الله تعالى ذكرها في كتابه وأخبر فيها أن امتناع إبليس من السجود كان كبرا منه وكفرا ومجرد إباء وإنما ذكر الشبهة تعنتا وإلا فسبب معصيته الاستكبار والإباء والكفر وإلا فليس في أمره بالسجود لآدم ما يناقض الحكمة بوجه وأما شبهته الداحضة وهي أن أصله وعنصره النار وأصل آدم وعنصره التراب ورتب على ذلك أنه خير

من آدم ثم رتب على هاتين المقدمتين أنه لا يحسن منه الخضوع لمن هو فوقه وخير منه فهي باطلة من وجوه عديدة منها أن دعواه كونه خيرا من آدم دعوى كاذبة باطلة واستدلاله عليها بكونه مخلوقا من نار وآدم من طين استدلال باطل وليست النار خيرا من الطين والتراب بل التراب خير من النار وأفضل عنصرا من وجوه:

أحدها: أن النار طبعها الفساد وإتلاف ما تعلقت به بخلاف التراب (مفتاح دار السعادة ٥٦-٥٧).

الثاني: أن طبعها الخفة والحدة والطيش والتراب طبعه الرزانة والسكون والثبات.

الثالث: أن التراب يتكون فيه ومنه أرزاق الحيوان وأقواتهم ولباس العباد وزيتهم وآلات معاشهم ومساكنهم والنار لا يتكون فيها شيء من ذلك.

الرابع: أن التراب ضروري للحيوان لا يستغني عنه البتة ولا عما يتكون فيه ومنه

والنار يستغني عنها الحيوان البهيم مطلقا وقد يستغني عنها الإنسان الأيام والشهور فلا

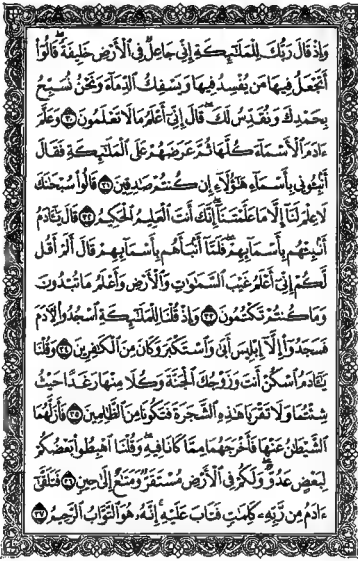
تدعوه إليها الضرورة فأين انتفاع الحيوان كله بالتراب إلى انتفاع الإنسان بالنار في بعض الأحيان.

الخامس: أن التراب إذا وضع فيه القوت أخرجه أضعاف أضعاف ما وضع فيه فمن بركته يؤدي إليك ما تستودعه فيه مضاعفا ولو استودعته النار لخانتك وأكلته ولم تبق ولم تذر.

السادس: أن النار لا تقوم بنفسها بل هي مفتقرة إلى محل تقوم به فيكون حاملا لها والتراب لا يفتقر إلى حامل فالتراب أكمل منها.

السابع: أن النار مفتقرة إلى التراب وليس بالتراب فقر إليها فإن المحمل الذي تقوم به النار لا يكون إلا مكونا من التراب أو فيه فهي الفقيرة إلى التراب وهو الغني عنها.

الثامن: أن المادة الإبلسية هي المارج من النار وهو ضعيف يتلاعب به الهوى فيميل معه كيفما مال ولهذا غلب الهوى على المخلوق منه فأسره وقهره ولما كانت المادة الآدمية التراب وهو قوي لا يذهب مع الهوى أينما ذهب وقهر هواه وأسره ورجع إلى ربه فاجتباها واصطفاه فكان الهوى الذي مع المادة الآدمية عارضا سريع الزوال فزال وكان الثبات والرزانة أصليا له فعاد إليه وكان إبليس بالعكس من ذلك فرجع كل من الأبوين إلى أصله وعنصر آدم إلى أصله الطيب الشريف واللعين إلى أصله الرديء.



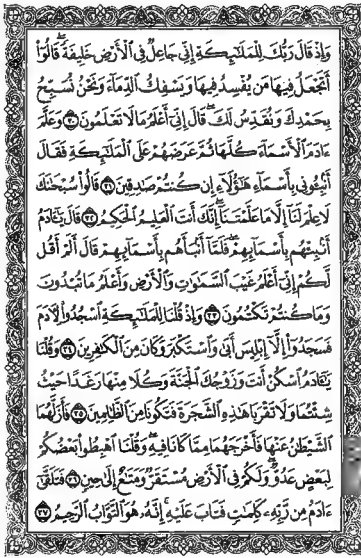
قَالَ قَالَ رَأَيْتَ الْمَلَكِ يَكُونُ فِي جَائِلٍ فِي الْأَرْضِ خَلْقَةً قَالُوا
أَفَجَعَلَ فِيهَا سَمْعًا يَسْمَعُ فِيهَا وَبَصَرًا يَرَى فِيهَا وَنَفْسًا تَسْمَعُ
يَحْسُدُكَ وَيَقْدِرُ لَكَ قَالَ إِنْ أَنْعَمْنَا لَا تَحْسُدُونَ وَنَعَمْ
عَادَمْنَا لَا نَسْمَعُ كَمَا تَعْرِضُونَ عَنْ الْمَلَكِ فَقَالَ
أَيُّهُنَّ بِأَسْمَاءَ حَوْلَاءٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالَُوا سَمِعْنَا
لَا يَلْقَا إِلَّا مَا عَلَّمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَقْدَمُ
أَلْفُ مِائَةٍ بِأَسْمَاءٍ فَلَمَّا كَتَبَ أَسْمَاءُ عَلَيْهِمْ قَالَ أَرَأَيْتُمْ
لَكُمْ إِنْ أَغْرَقْنَا عِثَابَ السَّكَرَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمْنَا مَا تُبْذَرُونَ
وَمَا كُنْتُمْ تَحْسَبُونَ وَإِذَا فَتَنَّا الْمَلَكِ يَكُونُ وَاسْتَجِدُّوا لَهُمْ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ إِنْ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقَالَ
يَتَقَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا لَنَا
الْحَقُّ عَلَى مَا نَقُولُ وَهَذَا مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ وَقَالَ أَهْبِطَا مِنْ هَاهُنَا
بَعْضُ عَذَابِكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرًّا وَمُسْتَوْدَعًا قَلِيلًا
عَادِمٍ مِنْ زِينَةٍ كَذِبَتْ فَنَاتٍ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الْغَايِبُ الرَّجِيمُ

التاسع: أن النار وإن حصل بها بعض المنفعة والمتاع فالشر فيها لا يصددها عنه إلا قسرها وحبسها ولولا القاسر والحابس لها لأفسدت الحرث والنسل وأما التراب فالخير والبر والبركة كامن فيه كلما أثر وقلب ظهرت بركته وخيره وثمرته فأين أحدهما من الآخر.

العاشر: أن الله تعالى أكثر ذكر الأرض في كتابه وأخبر عن منافعها وخلقها وأنه جعلها مهادا وفرشا وبساطا وقرارا وكفاتا للأحياء والأموات ودعا عباده

إلى التفكير فيها والنظر في آياتها وعجائب ما أودع فيها ولم يذكر النار إلا في معرض العقوبة والتخويف والعذاب إلا موضعا أو موضعين ذكرها فيه بأنها تذكرة ومتاع للمقوين تذكرة بنار الآخرة ومتاع لبعض أفراد الإنسان وهم المقوون النازلون بالأرض الخالية إذا نزلها المسافر تمتع بالنار في منزله فأين هذا من أوصاف الأرض في القرآن.

الحادي عشر: أن الله تعالى وصف الأرض بالبركة في غير موضع من كتابه خصوصا وأخبر أنه بارك فيها عموما فقال: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلْسَائِلِينَ ١٠﴾ فهذه بركة عامة وأما البركة الخاصة ببعضها فكقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْسًا لِّلْعَالَمِينَ ٧١﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَهْرَةً ٧٢﴾ وقوله: ﴿وَلَسَلِمْنَا مِنَ الرِّيحِ غَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ رَبِّهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ٧٣﴾ وأما النار فلم يخبر أنه جعل فيها بركة أصلا بل المشهور أنها مذهب للبركة ماحقة لها فأين المبارك في نفسه المبارك فيما وضع فيه إلى مزيل البركة وماحقها.



الثاني عشر: أن الله تعالى جعل الأرض محل بيوته التي يذكر فيها اسمه ويسبح له فيها بالغدو والآصال عموما وبيته الحرام الذي جعله قياما للناس مباركاً فيه وهدى للعالمين خصوصاً ولو لم يكن في الأرض إلا بيته الحرام لكفاها ذلك شرفاً وفضلاً على النار.

الثالث عشر: أن الله تعالى أودع في الأرض من المنافع والمعادن والأنهار والعيون والثمرات والحبوب والأقوات وأصناف الحيوانات وأمتعته والجبال والجنان والرياض والمراكب البهية والصور

البهيجة ما لم يودع في النار شيئاً منه فأى روضة وجدت في النار أو جنة أو معدن أو صورة أو عين فوارة أو نهر مطرد أو ثمرة لذيدة أو زوجة حسنة أو لباس وستر.

الرابع عشر: أن غاية النار أنها وضعت خادمة لما في الأرض فالنار إنما محلها محل الخادم لهذه الأشياء المكمل لها فهي تابعة لها خادمة فقط إذا استغنت عنها طردتها وأبعدتها عن قربها وإذا احتاجت إليها استدعتها المخدم لخدمة ومن يقضي حوائجه.

الخامس عشر: أن اللعين لقصور نظره وضعف بصيرته رأى صورة الطين تراباً ممتازاً بماء فاحتقره ولم يعلم أن الطين مركب من أصلين الماء الذي جعل الله تعالى منه كل شيء حي والتراب الذي جعله خزانة المنافع والنعم هذا وكم يجيء من الطين من المنافع وأنواع الأمتعة فلو تجاوز نظره صورة الطين إلى مادته ونهايته لرأى أنه خير من النار وأفضل وإذا استقرت الوجوه التي تدل على أن التراب أفضل من النار وخير منها وجدت كثيراً جداً وإنما أشرنا إليها إشارة.

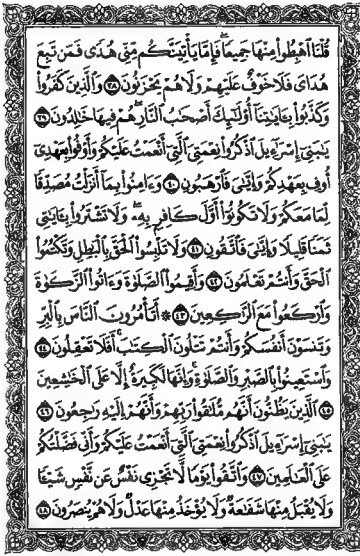
قَالَ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ كُنْ فِي جَنَّةٍ فِي الْأَرْضِ حَيْثُ قَالُوا
أَقْبَلُ فِيهَا مَنْ يُقْبَلُ فِيهَا وَتَسْجُدُ لَكَ الْوَلَدَةُ وَتَقْرَأُ سُحُوحَ
يَحْمَدُكَ وَتَقْرَأُ لَكَ قَالَ إِنَّ أَعْلَمَ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾ وَبَعَثَ
مَادَرُ الْأَنْسَاءِ كُنْ أَمَّا عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْمَلَكِ كُنْ فَقَالَ
أَكُونُ بِأَسْمَاءِ هَذِهِ إِنْ كُنْتُ صَادِقًا ﴿٣٦﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ
لَا يَكُونُ لَكَ إِلَّا مَا عَزَّ وَجَلَّ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ قَالُوا قَدْ
أَكُونُ بِأَسْمَاءِ هَذِهِ قَالُوا أَسْمَاءُ هَذِهِ قَالُوا أَسْمَاءُ هَذِهِ
لَكُمْ إِنْ أَقْبَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ وَأَقْبَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ
وَمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَكَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ نَارُ الْأَرْضِ
مَسْجُودًا لِلْإِلَهِ إِنَّ أَسْمَاءَ هَذِهِ وَكَانَ مِنَ الْكَلْبِ ﴿٣٩﴾ قَالُوا
يَقْدُمُ أَسْمَاءُ أَنْتَ وَرَبُّكَ الْجَنَّةَ وَكَلَّا مِنْهَا رَغَدًا سَبِيحًا
يَسْتَقْبَلُ وَلَا تَقْرَأُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا
الْظَّالِمِينَ عَنْهَا قَالُوا هَذَا مَا كَانُوا يَكُونُونَ قَالُوا أَهْطُوا
بَعْضُ عَدُوِّكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٤١﴾ قَالُوا
عَادِمٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَبَ الْفُتُورِ قَالَتْ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الْوَرْدُ الرَّبِيعُ ﴿٤٢﴾

فقياسه باطل نصا وعقلا وكل من عارض
نصوص الأنبياء بقياسه ورأيه فهو من خلفائه وأتباعه
فنعوذ بالله من الخذلان ونسأله التوفيق والعصمة من
هذا البلاء الذي ما رمي العبد بشر منه ولأن يلقي الله
بذنوب الخلائق كلها ما خلا الإشراف به أسلم له من
أن يلقي الله وقد عارض نصوص أنبيائه برأيه ورأي
بني جنسه وهل طرد الله تعالى إبليس ولعنه وأحل
عليه سخطه وغضبه إلا حيث عارض النص بالرأي
والقياس ثم قدمه عليه.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَتَّخِذُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَرَوْحُكَ الْجَنَّةَ وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا
تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَآزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا
فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾.

٣٤- فهذا يدل على أن هبوطهم كان من الجنة إلى الأرض من وجهين أحدهما
من لفظة ﴿أَهْبِطُوا﴾ فإنه نزول من علو إلى سفلى، والثاني ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾
عقب قوله ﴿أَهْبِطُوا﴾ فدل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في الأرض، ثم أكد هذا بقوله
في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿١٥﴾﴾ ولو كانت الجنة
في الأرض لكانت حياتهم فيها قبل الإخراج وبعده.

قالوا وقد وصف سبحانه جنة آدم بصفات لا تكون إلا في جنة الخلد فقال: ﴿إِنَّ
لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١٣٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١٣٩﴾﴾ وهذا لا يكون في الدنيا
أصلا فإن الرجل ولو كان أطيب منازلها لا بد أن يعرض له شيء من ذلك.



قالوا وأيضا فلو كانت تلك الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب إبليس في قوله: ﴿هَلْ أَذُكَّ عَلَى شَجَرَةٍ الْخَلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ فإن آدم كان يعلم أن الدنيا منقضية فانية وأن ملكها يبلى.

قالوا وأيضا هذه القصة في سورة البقرة ظاهرة جدا في أن الجنة التي أخرج منها فوق السماء فإنه سبحانه قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَتَّخِذُمْ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا

حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَلَقِيَ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّجِيمُ ﴿٣٧﴾ (حادي الأرواح (٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ غَافِلِينَ﴾ ﴿٤٢﴾

٣٥- نهى عن لبس الحق بالباطل وكتمانه ولبسه به خلطه به حتى يلتبس أحدهما بالآخر ومنه التلبيس وهو التدليس والغش الذي يكون باطنه خلاف ظاهره فذلك الحق إذا لبس بالباطل يكون فاعله قد أظهر الباطل في صورة الحق وتكلم بلفظ له معنيان معنى صحيح ومعنى باطل فيتوهم السامع أنه أراد المعنى الصحيح ومراده الباطل فهذا من الإجمال في اللفظ (الصواعق المرسلة ٣/ ٩٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَأَسْعَيْنُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾

وَلَا تَلْعَنُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ هُمْ يُرِيدُونَ ۚ فَلَئِمَّا هُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾
وَعَذَابُ أُولَٰئِكَ أَثَابُ النِّيبِ ۖ سَيُجَنَّبُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ فَهُمْ لَهُمُ الْمَسْكَنُ ۖ فَضْفُورٌ لَهُمْ
خَلْقُ كَعْبٍ وَثَرِيدٌ مِنَ الْجَوْشَنِ ۖ ﴿٥١﴾ قَبُولُ الْوَيْلِ
ظَلَمُوا أَقُولَٰ خَيْرٌ ۚ قَالَ فَبِئْسَ لَهُمُ الْقَوْلُ تَعَالَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
يَجْرُؤْنَ كَثِيرًا بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٢﴾ وَلَا تَأْتِي
مُوسَىٰ رُؤْيَاهُ ۖ فَلَمَّا أَصْرَبَ بِعَبْسٍ إِلَىٰ الْحَجَرِ فَأَلْفَجَتْ
فِيهِ أَلْفَا عَشْرَةً ۚ عَنَّا ذِكْرُ كُلِّ أَنبَاءٍ قَدْ مَضَتْ ۚ كَلَّا
وَأَنصُرُوا مَن رَزَقْنَا اللَّهُ ۚ لَا تَعْلَمُونَ فِي الْأَرْضِ مَن مُّسَدِّدٌ ﴿٥٣﴾
وَلَا تَلْعَنُوا مَن مَّنَّ مَن لَّنْ يَضْرِبَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمْ وَجَعَلْنَاهُمْ أَسْمَٰ
رَبَّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ فَنفُثُ الْأَرْضُ وَمَن يَنْزِلُهَا وَمَقَالِهَا
وَهُوَ بِعِزَّةِ سِمَانٍ مَّالِكٌ ۚ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ
أَدْنَىٰ بِالَّذِي أَعْزَمُ ۚ فَأَعْطَاهُ صَبْرًا ۚ قَالَ لَكُمْ مَا شِئْتُمْ
وَصُرَّتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ ۚ وَأَلْهَكْتُمُوهَا ۚ وَبَآءَ وَبَعْضُ مَن
أَلَّهِ ذَٰلِكَ ۚ بِأَنَّهُمْ كَانُوا كُفْرًا ۚ وَعَلَىٰ اللَّهُ يَتَوَلَّوْنَ
الَّذِينَ يَغِيثُ الْحَيَّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٥٤﴾

٣٧- ومن تلاعب الشيطان بهم: أنهم كانوا في البرية قد ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، فملوا ذلك، وذكروا عيش الثوم والبصل، والعدس، والبقل، والقثاء، فسألوه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وهذا من سوء اختيارهم لأنفسهم، وقلة بصرهم بالأغذية النافعة الملائمة، واستبدال الأغذية الضارة القليلة التغذية منها، ولهذا قال لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهَيْطُوا مِصْرًا﴾ أَي مِصْرًا مِنَ الْأَمْصَارِ ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١].

فكانوا في أفصح الأمكنة وأوسعها، وأطيبها هواء، وأبعدها عن الأذى، ومجاورة
الأنثان والأفذار، سقفهم الذي يظلمهم من الشمس الغمام، وطعامهم السلوى، وشرابهم
المن.

وكانوا مع ذلك يتفجر لهم من الحجر اثنتا عشرة عينا من الماء، فطلبوا الاستبدال بما هو دون ذلك بكثير، فذموا على ذلك فكيف بمن استبدل الضلال بالهدى، والغى بالرشاد، والشرك بالتوحيد، والسنة بالبدعة، وخدمة الخالق بخدمة المخلوق، والعيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار الله تعالى بحظه من العيش النكد الفاني في هذه الدار؟ (إغاثة اللهفان ٢/ ٣٠٨).

﴿قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾. إلى قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.﴾

٣٨- ومن تلاعب الشيطان باليهود بهم في حياة نبيهم أيضا ما قصه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتُخْذُوا هُرُوتًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَكَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ

تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٨٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْاِنَّ جِئْتُ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٨٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٨٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [البقرة: ٦٧ - ٧٤] في كتابه

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ مِنَ
عَامِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ
رَبِّهِمْ وَلَا يَخَافُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٧﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا
مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَقُوا فَخَذُوا مَا آتَيْنَاهُمْ
يَتَوَفَّوْنَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا ادْعُ
لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا
بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَكَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا
مَا تَأْمُرُونَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ
إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٨٠﴾
قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ
وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْاِنَّ
جِئْتُ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨١﴾
وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ
مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٨٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا
كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٨٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ
لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ
فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ
وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

من قصة القتيل الذي قتلوه وتدافعوا فيه، حتى أمروا بذبح بقرة وضربه ببعضها.

❁ وفي القصة أنواع من العبر:

٣٩- منها: أن الإخبار بها من أعلام نبوة رسول الله تعالى عليه وآله وسلم.

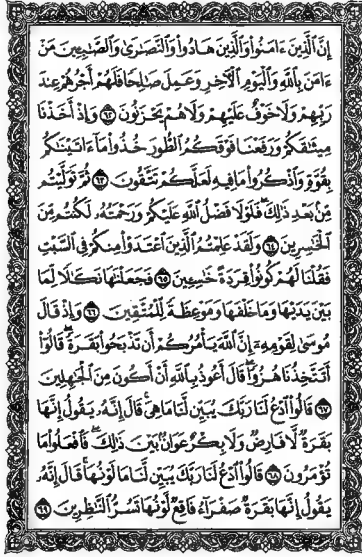
٤٠- ومنها: الدلالة على نبوة موسى، وأنه رسول رب العالمين.

٤١- ومنها: الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم، من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.

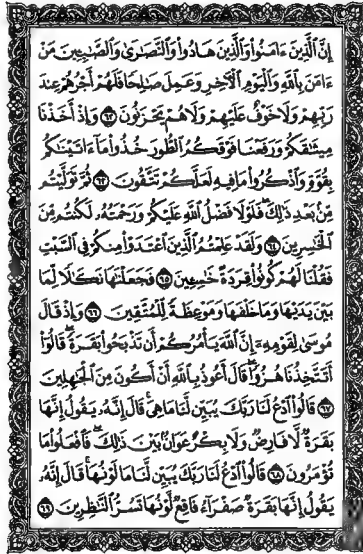
٤٢- ومنها: إثبات الفاعل المختار، وأنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء، عدل لا يجوز عليه الظلم والجور، حكيم لا يجوز عليه العبث.

٤٣- ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات، زيادة في هداية المهتدين، وإعذارًا وإنذارًا للضال.

٤٤- ومنها: أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله تعالى بالتعنت، وكثرة الأسئلة، بل يبادر إلى الامتثال، فإنهم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أي بقرة اتفقت فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا إشكال، بل هو بمنزلة قوله: أعتق رقبة، وأطعم مسكينًا، وصم يومًا، ونحو ذلك، ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، فإن الآية غنية عن البيان المنفصل، مبينة بنفسها، ولكن لما تعنتوا وشددوا شدد عليهم.



قال أبو جعفر بن جرير عن الربيع عن أبي العالية: «لو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها. ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم».



٤٥- ومنها: أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار. وذلك نوع من الكفر، فإن القوم لما قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧].

قابلوا هذا الأمر بقولهم: ﴿قَالُوا أَلَنُخَذُّنَا هُزُؤًا﴾ [البقرة: ٦٧].

فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سأله عنه، قالوا: ﴿أَلَنُخَذُّنَا هُزُؤًا﴾ [البقرة: ٦٧].

وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله، فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الأمر به. ولو كان هو الأمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك، فلما قال لهم: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

وتيقنوا أن الله سبحانه أمره بذلك، أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها. فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة عن عينها. فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال، توقفوا في الامتثال، ولم يكادوا يفعلون.

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم قولهم لنبيهم: ﴿الْأَنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١].

فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردة وكفر

ظاهر. وإن أرادوا: أنك الآن بينت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها فذلك جهل ظاهر، فإن البيان قد حصل بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فإنه لا إجمال في الأمر، ولا في الفعل، ولا في المذبوح، فقد جاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحق من أول مرة.

٤٦- ومنها: الإخبار عن قساوة قلوب الأمة وغلظها، وعدم تمكن الإيمان فيها.

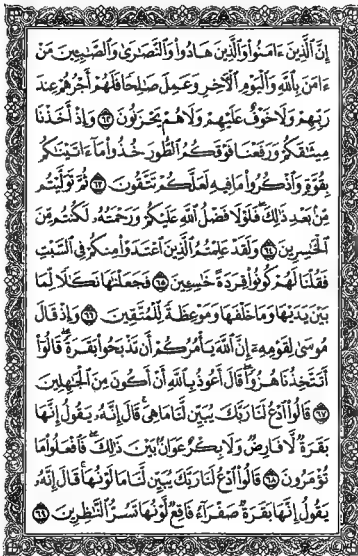
قال عبد الصمد بن معقل عن وهب: كان ابن عباس يقول: «إن القوم بعد أن أحيا الله تعالى الميت فأخبرهم بقاتله، أنكروا قتله. وقالوا: والله ما قتلناه، بعد أن رأوا الآيات والحق». قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

٤٧- ومنها: مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعا وقدرًا، فإن القاتل قصده ميراث المقتول، ودفع القتل عن نفسه، ففضحه الله تعالى وهتكه وحرمه ميراث المقتول.

٤٨- ومنها: أن بني إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب، ففتنوا

بعبادة العجل وفتنوا بالأمر بذبح البقرة، والبقر من أبلد الحيوان، حتى ليضرب به المثل.

٤٩- والظاهر: أن هذه القصة كانت بعد قصة العجل؛ ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي، لا يصلح أن يكون إلها معبودا من دون الله تعالى، وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل (إغاثة اللهفان ٢/ ٣١٤-٣١٧).



قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

٥٠- أي لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة بل إن لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها وهذا المعنى أحسن والطف وأدق من قول من جعل (أو) في هذه المواضع بمعنى (بل) ومن قول من جعلها للشك بالنسبة إلى الرأي وقول من جعلها بمعنى الواو (التيان في أقسام القرآن ٢٥٠-٢٥١).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٥١- فهذا مطالبته لهم بتصحيح دعواهم وترديد لهذه المطالبة بين أمرين لا بد من واحد منهما وقد تعين بطلان أحدهما فلزم ثبوت الآخر فإن قولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ خبر عن غيب لا يعلم إلا بالوحي فإما أن يكون قولاً على الله بلا علم فيكون كاذباً وإما أن يكون مستنداً إلى وحي من الله وعهد عهده إلى المخبر وهذا منتف قطعاً فتعين أن يكون خبراً كاذباً قائله كاذب على الله تعالى (بدائع الفوائد ١٤٣/٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ

أَوْ لَا تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ
وَعَنْهُمْ رَأْيُهُمْ لَا يَكْتُمُونَ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أُنْثَرُوا زُلْفًا
وَلَا يَكْتُمُونَ قَوْلَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ السَّيِّئَاتِ يَكْتُمُونَ بِالْأَيْدِي
فَتُؤْتَوْنَهُنَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْفِيَ بِهِمْ وَهُوَ كَسْبٌ أَفَلَا
تُؤْمِنُونَ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ تُكْتَبُونَ
﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يَكْتُمُونَ سَيِّئَاتِهِمْ
وَأَحْطَطَ بِهِمْ خَلِيفَتُهُ فَأَوَّلِيكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا
مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَرَأَوْنَا
إِسْرَءِيلَ وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ

ونظير هذا التفريق من يرد آيات الصفات وأخبارها ويقبل آيات الأوامر والنواهي فإن ذلك لا ينفعه لأنه آمن ببعض الرسالة وكفر ببعض فإن كانت الشبهة التي عرضت

[illegible]

فإن قيل فهلا أظهروا التمني وإن كانوا كاذبين فقالوا فنحن نتمناه قيل وهذا أيضا معجزة أخرى وهي أن الله تعالى حبس عن تمنيه قلوبهم وألستهم فلم ترده قلوبهم ولم تنطق به ألستهم تصديقا لقوله: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ (بدائع الفوائد ٤/ ١٤٩-١٥٠).

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَوْحِيَ إِلَيْكُمْ عَزَّ وَجَلَّ خَالِصَةً مِنْ
 دُونِ الْأَشْيَاءِ فَقَسَمْتُ الْمَوْتِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ وَلَنْ
 يَسْتَوْفَى إِلَهُ الْبَاطِلِ مَا قَسَمْتُ إِلَيْكُمْ بِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧٢﴾
 وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مِنْ آفَافٍ عَلَى حِينٍ وَمِنْ الْأَيْدِ الْأَعْلَى
 يُؤَيِّدُكُمْ هُمْ قُلُوبُهُمْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَاتَّبَعُوا أَوْحِيَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّهِمْ
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا تُرْفَضُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَمْ
 يَكُنْ عَذَابُ الْآخِرِينَ قَلِيلًا مِمَّا نَزَّلَهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ قُلُوبِ الْبَاطِلِ
 أَلَمْ تَقْرَأْ مَقْصُودَ الْفَاتِنِ الَّذِي يَدْعُو وَيُخْشَى لِلَّذِينَ آمَنُوا
 ﴿٧٤﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ
 وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
 إِلَيْكَ مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْقَضَ آيَاتُنَا عَنْ يَدَيْهِ وَأَوَّاهَ بِغَيْرِهَا إِلَى آلِ فِرْعَوْنَ
 أَوْسَمَا عَنْهَا وَعُلَاهَا وَفِرْعَوْنَ يُوقِظُ صُنْهُهُ بِأَنَّ الْكُفْرَ
 لَا يُلْهِمُ عِلْمًا ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقُ
 لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ قُلُوبًا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ أَوَّلُهَا الْكَتَبُ
 كَتَبَ اللَّهُ وَلِلَّهِ ظُهُورُهُمْ إِنَّهُمْ لَا يَحْتَسِبُونَ ﴿٧٧﴾

ونظير هذا أن يشهد رجل بشهادة فيخبر فيها بما يقطع به أنه صادق في شهادته صدقا لا يتطرق إليه شبهة فيجيء آخر من بلاد أخرى لم يجتمع بالأول ولم يتواطأ معه فيخبر بنظير تلك الشهادة سواء مع القطع بأنه لم يجتمع به ولا تلقاها عن أحد اجتمع به فهذا يكفي في صدقه إذا تجرد الأخبار فكيف إذا اقترن بأدلة يقطع بها بأنه صادق أعظم

بينه وبين نسله علامة العهد أن يختنوا كل مولود منهم ويكون عهدي هذا ميسما في أجسادهم فالختان علم للدخول في ملة إبراهيم وهذا موافق لتأويل من تأول قوله تعالى: ﴿صَبَغَةَ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨] على الختان (تحفة الودود (١٦٢)).

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُلُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٥) قُلُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦).

٦٠- وهذا الجواب مع اختصاره قد تضمن

المنع والمعارضة: أما المنع مما تضمنه حرف (بل) من الإضراب أي ليس الأمر كما قالوا. وأما المعارضة ففي قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي أتبع أو يتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وفي ضمن هذه المعارضة إقامة الحجة على أنها أولى بالصواب مما دعوتهم إليه من اليهودية والنصرانية لأنه وصف صاحب الملة بأنه حنيف غير مشرك ومن كانت ملته الحنيفية والتوحيد فهو أولى بأن يتبع ممن ملته اليهودية والنصرانية (بدائع الفوائد (١٥٥-١٥٧/٤)).

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ

الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِبَانَهُ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ زُرَى تَقَلُّبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ

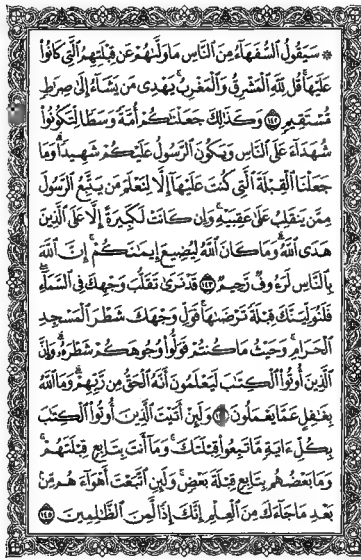
وَجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّهَا فَاسْتَبِقُوا الْحَيَرَةَ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ إِلَّا لَيَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

• سَبَقُوا الشَّعْهَةَ مِنَ النَّاسِ مَا لَمْ يَنْهَوْا عَنْ قِبْلَتِهِمْ إِلَى كَأَلَا
عَلَيْهِمْ أَقْلَ اللَّهِ الشَّرْقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَتَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا
جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ
مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ
هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِبَانَهُ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ
لَرءُوفٌ رَحِيمٌ قَدْ زُرَى تَقَلُّبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ
فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا
اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ
قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ
أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ
الظَّالِمِينَ

٦١- قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ

وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ يدل على وجوب اتباع الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ووجه

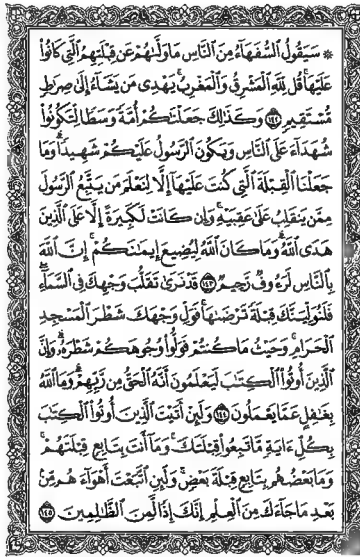
الاستدلال بالآية أنه تعالى أخبر أنه جعلهم أمة خيارا عدولا، هذا حقيقة الوسط، فهم خير الأمم، وأعدلها في أقوالهم، وأعمالهم، وإرادتهم ونياتهم، وبهذا استحقوا أن يكونوا



شهداء للرسول على أممهم يوم القيامة، والله تعالى يقبل شهادتهم عليهم، فهم شهداؤه، ولهذا نوه بهم ورفع ذكرهم، وأثنى عليهم؛ لأنه تعالى لما اتخذهم شهداء أعلم خلقه من الملائكة وغيرهم بحال هؤلاء الشهداء، وأمر ملائكته أن تصلي عليهم وتدعو لهم وتستغفر لهم، والشاهد المقبول عند الله هو الذي يشهد بعلم وصدق فيخبر بالحق مستندا إلى علمه به كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

[الزخرف: ٨٦] (إعلام الموقعين ٤ / ١٦٦-١٦٧).

٦٢- وتأمل حكمه العزيز الحكيم ولطفه وإرشاده في هذه القصة لما علم أن هذا التحويل أمر كبير كيف وطأه ومهده وذلك بقواعد قبله فذكر النسخ وأنه إذا نسخ شيئا أتى بمثله أو خيرا منه وأنه قادر على ذلك فلا يعجزه ثم قرر التسليم للرسول وأنه لا ينبغي أن يعترض عليه ويسأل تعنتا كما جرى لموسى مع قومه ثم ذكر البيت الحرام وتعظيمه وحرمة وذكر بانيه وأثنى عليه وأوجب اتباع ملته فقرّر في النفوس بذلك توجهها إلى البيت بالتعظيم والإجلال والمحبة وإلى بانيه بالاتباع والموالاة والموافقة وأخبر تعالى أنه جعل البيت مثابة للناس يؤثوبون إليه ولا يقضون منه وطرا فالقلوب عاكفة على محبته دائمة الاشتياق إليه متوجهة إليه حيث كانت ثم أخبر أنه أمر إبراهيم وإسماعيل بتطهيره للطائفين والقائمين والمصلين وأضافه إليه بقوله: ﴿لَا أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي﴾ وهذه الإضافة هي التي أسكنت في القلوب من محبته والشوق إليه ما أسكنت



وهي التي أقبلت بأفئدة العالم إليه فلما استقرت هذه الأمور في قلوب أهل الإيمان وذكروا بها فكأنها نادتهم أن استقبلوه في الصلاة ولكن توقفت على ورود الأمر من رب البيت فلما برز مرسوم ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ تلقاه رسول الله والراسخون في الإيمان بالبشرى والقبول وكان عيداً عندهم.

٦٣- وفي هذه الآية أيضاً تثبيت للرسول والمؤمنين على لزوم قبلتهم وأنه لا يشتغل بما يقوله أهل الكتاب ارجعوا إلى قبلتنا فتتبعكم على دينكم

فإن هذا خداع ومكر منهم فإنهم لو رأوا كل آية تدل على صدق ما تبعوا قبلتك لأن الكفر قد تمكن من قلوبهم فلا مطمع للحق فيها ولست أيضاً بتابع قبلتهم فليقطعوا مطامعهم من موافقتك لهم وعودك إلى قبلتهم وكذلك هم أيضاً مختلفون فيما بينهم فلا يتبع أحد منهم قبة الآخر فهم مختلفون في القبة ولستم أيها المؤمنون موافقين لأحد منهم في قبلته بل أكرمكم الله بقبة غير قبة هؤلاء المختلفين اختارها الله لكم ورضيها وأكد تعالى هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فهذا كله تثبيت وتحذير من موافقتهم في القبة وبراءة من قبلتهم كما هم براء من قبلتك وكما بعضهم بريء من قبله بعض فأنتم أيها المؤمنون أولى بالبراءة من قبلتهم التي أكرمكم الله تعالى بالتحويل عنها ثم أكد ذلك بقوله: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١٥٧).

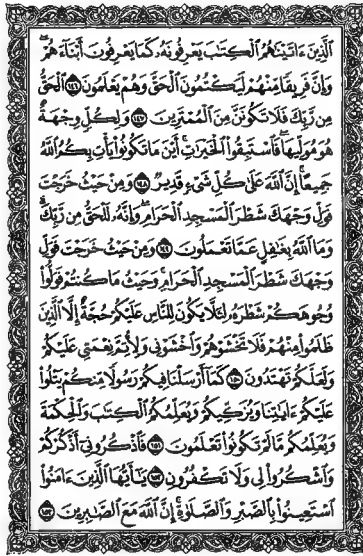
٦٤- وتحت هذا سر بديع يفهمه من يفهمه وهو أنه عند الاختلاف في الطرائق والمذاهب والشرائع والقبل يكون أقربها إلى الحق ما كان أدل على الله وأوصل إليه

لأن مرجع الجميع إليه يوم القيامة وحده وإن اختلفت أحوالهم وأزمتهم وأمكتهم فمرجعهم إلى رب واحد وإله واحد فهكذا ينبغي أن يكون مرد الجميع ورجوعهم كلهم إليه وحده في الدنيا فلا يعبدون غيره ولا يدينون بغير دينه إذ هو إلههم الحق في الدنيا والآخرة فإذا كان أكثر الناس قد أبى ذلك إلا كفورا وذهابا في الطرق الباطلة وعبادة غيره وإن دانوا غير دينه فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون للخيرات وبادروا إليها ولا تذهبوا مع الذين يسارعون في الباطل والكفر.

٦٥- فقله ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ يتناول مبدأ الخروج وغايته له وللأمة وكان أولى بهذا الخطاب لأن مبدأ التوجه كان على يديه وكان شديد الحرص على التحويل.

وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ يتناول أماكن الكون كلها له وللأمة وكانوا أولى بهذا الخطاب لتعدد أماكن أكوانهم وكثرتها بحسب كثرتهم واختلاف بلادهم وأقطارهم واستدارتها حول الكعبة شرقا وغربا ويمنا وعراقا فكان الأحسن في حقهم أن يقال لهم وحيث ما كنتم أي من أقطار الأرض في شرقها وغربها وسائر جهاتها ولا ريب أنهم أدخل في هذا الخطاب منه. فتأمل هذه النكت البديعة فلعلك لا تنظر بها في موضع غير هذا والله أعلم (بدائع الفوائد ٤/ ١٥٧-١٧٤).

٦٦- وتأمل قصة نسخ القبله لما كانت شديده على النفوس جدا كيف وطأ سبحانه قبلها عدة موطئات: منها: ذكر النسخ، ومنها: أنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله، ومنها: أنه على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم؛ فعموم قدرته وعلمه صالح لهذا الأمر الثاني كما كان صالحاً للأول.



٦٧- ومنها: تحذيرهم الاعتراض على رسوله

كما اعترض من قبلهم على موسى، بل أمرهم بالتسليم والانقياد.

٦٨- ومنها: تحذيرهم بالإصغاء إلى اليهود،

وأن لا تستخفهم شبههم، فإنهم يودون أن يردوهم كفارا من بعد ما تبين لهم الحق.

٦٩- ومنها: إخباره أن دخول الجنة ليس بالتهود

ولا بالتنصر، وإنما هو بإسلام الوجه والقصد والعمل والنية لله مع متابعة أمره.

٧٠- ومنها: إخباره سبحانه عن سعته، وأنه حيث ولى المصلي وجهه فثم وجهه

تعالى، فإنه واسع عليم، فذكر الإحاطتين الذاتية والعلمية، فلا يتوهمون أنهم في القبلة الأولى لم يكونوا مستقبلين وجهه تَبَارَكَ وَتَعَالَى ولا في الثانية، بل حيثما توجهوا فثم وجهه تعالى.

٧١- ومنها: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حذر نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن اتباع أهواء الكفار من

أهل الكتاب وغيرهم، بل أمر أن يتبع هو وأمته ما أوحى إليه فيستقبلونه بقلوبهم وحده.

٧٢- ومنها: أنه ذكر عظمة بيته الحرام، وعظمة بانيه وملته، وسفه من يرغب

عنها، وأمر باتباعها، فنهو بالبيت وبانيه وملته، وكل هذا توطئة بين يدي التحويل، مع ما في ضمنه من المقاصد الجليلة والمطالب السنية.

ثم ذكر فضل هذه الأمة وأنهم الأمة الوسط العدل الخيار، فاقتضى ذلك أن يكون

نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوسط الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وخيارهم، وكتابهم

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٣)
وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ءَمُوتٌ بَلْ ءَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَتَبْلُوُنَّكُمْ
بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾
الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن
رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُبْعَثُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْتَاتٌ بَلْ أَهْوَاءَ وَلَكِن
لَّا تُفْعَلُونَ ﴿١٠﴾ وَلَيُؤْتِيَنَّهُمْ بَخْسًا بَعِثًا مِنْ عِلْفٍ وَالْغُلَامُ
وَيَقُولُونَ مِنَ الْقَوْلِ أَوَلَمْ تَحْشُرْ وَالْمُتَرَفِّعِينَ الْعَصِيفَةَ ﴿١١﴾
الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٢﴾
أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُنْتَفِعُونَ ﴿١٣﴾ إِنَّ فِي الْعِزِّ وَالْمَرْوَةِ مِنْ شِمَائِلِ اللَّهِ
فَمَنْ حَبِطَتِ الْأُفُفُ وَتَفَرَّتْ وَجَنَّتِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتْلُوَنَّ هُوَ
وَمَنْ تَطَّلَعَ بِخِزْيَانٍ فَإِنَّ اللَّهَ شَاحِدٌ عَلَيْهِ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْيَتِيمَ
يَكْبُرُونَ مَا نُوَلِّكُنَا مِنَ الْيَتِيمَتِ وَالْيَتِيمَ مِنْ بَدْنِهَا يُؤْتِيهِ
الْيَتِيمَ مِنَ الْيَتِيمَةِ أُولَئِكَ يَتْلُمُهُ اللَّهُ وَرَأَاهُمُ الْمُسْلِمُونَ
﴿١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَانُوا وَأَنْفُسُهُمْ يَتْلُمُونَ أُولَئِكَ أَفْرَأُ عَلَيْهِمْ
وَأَنَا الْقَوِيُّ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ
كُفَرَاءَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لعنةُ اللَّهِ وَالْعَلَمِ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ
﴿١٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُونَ خَشْيَةَ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَحْشُرُوا
وَالَّذِينَ كَانُوا يُسَبِّحُونَ أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الرَّحِيمِ

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه
«نعم العدلان، ونعمت العلاوة» فبالهدى خلصوا
من الضلال، وبالرحمة نجوا من الشقاء والعذاب،
وبالصلاة عليهم نالوا منزلة القرب والكرامة (إغاثة اللهفان)

٧٤- الأسباب التي تقطعت بهم هي العلائق التي بغير الله ولغير الله، تقطعت

بهم أحوج ما كانوا إليها، وذلك لأن تلك الغايات لما اضمحلت وبطلت اضمحلت أسبابها وبطلت، فإن الأسباب تبطل ببطلان غاياتها وتضمحل باضمحلالها، وكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه، وكل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه. وكل سعي لغيره باطل ومضمحل، وهذا كما يشاهده الناس في الدنيا من اضمحلال السعي والعمل والكد والخدمة التي يفعلها العبد لمتولٍ أو أمير أو صاحب منصب أو مال، فإذا زال ذلك الذي عمل له عدم ذلك العمل وبطل ذلك السعي ولم يبق في يده سوى الحرمان، ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة: «أليس عدلاً مني أني أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في الدنيا»، فيتولى عباد الأصنام والأوثان أصنامهم وأوثانهم فتساقط بهم في النار، ويتولى عابدو الشمس والقمر آلهتهم، فإذا كورت الشمس وانتشرت النجوم اضمحلت تلك العبادة وبطلت وصارت حسرة عليهم (طريق الهجرتين ١٢٦).

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ
وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا
وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ
الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ فَمَا لَمْ لَحْزُوا بِالْمُحْرِبِينَ وَالْمُحْرِبُونَ
بِالْأَعْيُنِ فَتَمْنُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ فَتَنَزَّاهُمْ فَتَنَزَّاهُمْ فَتَنَزَّاهُمْ
إِلَهُ يَخْتَصِمُونَ ذَلِكَ تَخْوِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَتَحْذِيرٌ مِنْ أَنْ تَكُونُوا
بَعْدَ ذَلِكَ قَوْمًا لَعِينًا ﴿١٧٨﴾ وَكَرِهِيَ الْقِتَالُ حِينَ تَأْتِي
الْأَنْفُسُ بِالْمُوتِ تَخْوِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَتَحْذِيرٌ مِنْ أَنْ تَكُونُوا
بَعْدَ ذَلِكَ قَوْمًا لَعِينًا ﴿١٧٩﴾ قُلْ مَنْ يَمْلِكُ أَنْ يَنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءٌ مَذْجًا لَوَاقِيًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَاءِ رُسُلِهِ
فَلَمَّا أَشْرَكُوا عَلَى الَّذِينَ يَدْعُونَ أَنْ يَنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ مَذْجًا
لَوَاقِيًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَاءِ رُسُلِهِ فَلَمَّا أَشْرَكُوا

٧٥- قد جمع الله خصال البر في هذه الآية الكريمة، فأخبر سبحانه أن البر هو الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذه هي أصول الإيمان الخمس التي لا قوام للإيمان إلا بها، وأنها الشرائع الظاهرة من إقامة الصلاة، وإيتاء

الزكاة، والنفقات الواجبة، وأنها الأعمال القلبية التي هي حقائقه من الصبر والوفاء بالعهد فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين حقائقه وشرائعه والأعمال المتعلقة بالجوارح والقلب وأصول الإيمان الخمس. ثم أخبر سبحانه عن هذا أنها هي خصال التقوى بعينها فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (الرسالة التبوكية ١٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٦).

لَقَدْ آتَى الْوَيْلَ أَنْ تُولُوا وَجْهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
وَالْأَيْمَنِ وَالْأَيْمَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالْكِتَابِ وَالرَّسُولِ وَآتَى السَّالَ عَلَى جِهَةِ ذِي الْقُرْبَى وَالْقُرْبَى
وَالْمَسْكِينِ وَآتَى السَّبِيلِ وَالْمَسْكِينِ وَآتَى الرِّقَابِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِمَعَاهِدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالْكُرْهِاءِ وَالْحَبَاسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ
عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ لَكُمْ فِيهِ نَفْعٌ وَالْعَدْوُ وَالْأَخْفُ
بِالْأَخْفِ أَفَمَنْ غَيَّرَ لَهْ مِنْ أَجْدِهِ قَتْلَ عَدُوِّهِ بِالْعَدْوِ وَالْأَخْفِ
إِلَى يَوْمٍ خَيْرٌ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِمَّنْ كُتِبَ عَلَيْهِ قَتْلُ عَدُوِّهِ
بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ
الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٨﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا خَضَرَ
عَدُوُّكُمُ الْمُؤْتُونَ أَنْ تَرْفَعُوا إِلَيْهِمُ الْيَدَ وَالْأَفْوَاقَ
وَالْعُدْوُ حَقٌّ عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٧٩﴾ قَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ بَعْدَ مَا سَمِعْتُمْ
قَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ يَبْذُلُونَ أَنْ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨٠﴾

٧٦- وتأمل ما تحت هذه الألفاظ الشريفة من الجلالة والإيجاز والبلاغة والفصاحة والمعنى العظيم فصدر الآية بقوله: لكم. المؤذن بأن منفعة القصاص مختصة بكم عائدة إليكم، فشرعه إنما كان رحمة بكم وإحساناً إليكم، فمنفعته ومصلحته لكم لا لمن لا يبلغ العباد ضره ونفعه.

٧٧- ثم عقبه بقوله: ﴿فِي الْقِصَاصِ﴾ إيذاناً بأن الحياة الحاصلة إنما هي في العدل وهو أن يفعل به كما فعل والقصاص في اللغة المماثلة وحقيقته راجعة

إلى الاتباع ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه﴾ أي اتبعي أثره ومنه قوله: ﴿فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أي يقصان الأثر ويتبعانه. ومنه قص الحديث واقتصاصه لأنه يتبع بعضه بعضاً في الذكر فسمى جزاء الجاني قصاصاً لأنه يتبع أثره فيفعل به كما فعل وهذا أحد ما يستدل به على أن يفعل بالجاني كما فعل فيقتل بمثل ما قتل به لتحقيق معنى القصاص.

٧٨- ونكر سبحانه الحياة تعظيماً وتفخيماً لشأنها وليس المراد حياة ما، بل المعنى أن في القصاص حصول هذه الحقيقة المحبوبة للنفوس المؤثرة عندها

المستحسنة في كل عقل والتنكير كثيرا ما يجيء للتعظيم والتفخيم كقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ وقوله: ﴿وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ﴿٤﴾.

٧٩- ثم خص أولي الأبواب وهم أولو العقول التي عقلت عن الله أمره ونهيه وحكمته إذ هم المنتفعون بالخطاب ووازن بين هذه الكلمات وبين قولهم: القتل أنفى للقتل. ليتبين مقدار التفاوت وعظمة القرآن وجلالته (مفتاح دار السعادة ٤٣١-٤٣٢).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَكُمْ لَمَلَكُمُ تَنْقُوتَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ. وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾.

٨٠- فرق الشارع بين أيام رمضان وبين أيام القضاء، فجعل أيام رمضان محدودة الطرفين لا يجوز تقدمها ولا تأخرها، وأطلق أيام قضاؤه فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَكُمْ لَمَلَكُمُ تَنْقُوتَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فأطلق العدة ولم يوقتها، وهذا يدل على أنها تجزئ في أي أيام كانت، ولم يجئ نص عن الله ولا عن رسوله، ولا إجماع على تقيدها بأيام لا تجزئ في غيرها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۚ﴾.

فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ. وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ. وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ. وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ. وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾.

الْحُجَّجُ إِلَيْهِمْ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِمْ الْحُجَّجَ لَا
رَيْبَ وَلَا شَكَّ وَلَا جِدَالَ فِي الْحُجَّجِ وَمَا تَعْلَمُونَ مِنْ
خَبَرٍ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا مِنْكُمْ فَقَدْ خَلَقْنَا لَهُ الْقُوَّةَ
وَأَكْفَرْنَا بِمَا أُولَى الْأَنْبِيَاءُ ۝ لَيْسَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ
أَنْ يَتَّبِعُوا أَهْلًا مِنْكُمْ فِي كَيْفَةٍ فَإِنْ أَهْلُهُمْ مِنْ
عَرَبَيْنِ فَإِنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ عَنِ الْمَشْرِقِ الْحَرَامَةِ
وَأَنْ كُنُوا مِنْ عَرَبَيْنِ فَإِنَّكُمْ مِنْكُمْ مِنْ قَبْلِهِ
لَعِنْ الضَّالِّينَ ۝ ثُمَّ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ فَإِنْ أَقَامُوا
الْعَهْدَ وَأَسْتَفْعَوْا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَاصْبِرْ لَهُمْ
إِنَّمَا فَتْنَتُهُمْ فَصْبِرْ لَهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ كَذِبُكُمْ
بِأَمْرِهِمْ أَوْ أَمْرًا فَذَكِّرْ لَعِنْ الْقَائِمِينَ الْقَائِمِينَ
رَبَّنَا أَلَيْسَ فِي الْأَنْبِيَاءِ مَثَلٌ لِيَا أَعْجَبَ مِنْ خَلْقٍ
وَقَدْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا أَلَيْسَ فِي الْأَنْبِيَاءِ حَسَنَةٌ
وَفِي الْأَمْثَلِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آذَابَ الْقَارِ ۝ أُولَئِكَ
لَهُمْ قَصِيدٌ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُ مَنَسِكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾.

٨٣- ففيه الأمر بالذكر بالكثرة والشدة لشدة حاجة العبد إليه وعدم استغنائه عنه

وقال بعض العارفين: لو أقبل عبد على الله تعالى كذا وكذا سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاتته أعظم مما حصله (الوابل الصيب ٥٩).

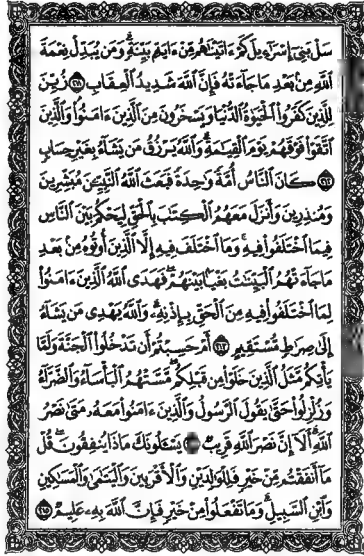


المصرف؛ إذ هو أهم مما سألوه عنه، ونبهم عليه بالسياق، مع ذكره لهم في موضع آخر، وهو قوله تعالى ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] وهو ما سهل عليهم إنفاقه ولا يضرمهم إخراجَه (إعلام الموقعين ٤/ ٢٠١).

٢١٦

قد يأتي بالمحبوب والمحبوب قد يأتي بالمكروه لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة لعدم علمه بالعواقب فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد وأوجب له ذلك أموراً منها أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شق عليه في الابتداء لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح وإن كرهته

نفسه فهو خير لها وأنفع وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهي وإن هويته نفسه ومالت إليه وإن عواقبه كلها آلام وأحزان وشُرور ومصائب وخاصة العقل تحمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبه من الألم العظيم والشر الطويل فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غاياتها والعاقل



الكيس دائما ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحموده والمذمومة فيرى المناهي كطعام لذيذ قد خلط فيه سم قاتل فكلما دعه لذته إلى تناوله نهاه ما فيه من السم ويرى الأوامر كدواء كريحه المذاق مفض إلى العافية والشفاء وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله أمره نفعه بالتناول ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق لما يثول عند الغاية فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك وإذا قوي يقينه وصبره هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم واللذة الدائمة.

٨٦- ومن أسرار هذه الآية أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور والرضا بما يختاره له ويقضيه له لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

٨٧- ومنها أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه ولا يسأله ما ليس له به علم فلعل مضرته وهلاكه فيه وهو لا يعلم فلا يختار على ربه شيئا بل يسأله حسن الاختيار له وأن يرضيه بما يختاره فلا أنفع له من ذلك.

٨٨- ومنها أنه إذا فوض إلى ربه ورضي بما يختاره له أمده فيما يختاره له بالقوة

مطابقاً لما ذكرنا من القاعدة فإن قيل: فما الفائدة في إعادة ذكر القتال بلفظ الظاهر

قوله تعالى: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْرِضُوا لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾.

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَسْئُودَكَ عَنِ الْإِسْمِ قُلْ رَاضٍ لَكُمْ
 خَيْرٌ لَّكُمْ فَعَالِظُهُمْ فَإِذَا قُلْتُمْ لَهُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدِينَ
 الْمُضِلِّينَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَخَذْتُمْ مِنْ آلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
 وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَلَا مُمْسِكَةٌ
 خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَا تُقْبَلُ عَنْهُ وَلَا تُشْكِرُوا لِلَّهِ الْكَافِرِينَ
 حَتَّى يُولُوا وَلَهُمْ فِيهِمْ خَيْرٌ مِنْكُمْ وَلَا تَنْكِحُوا
 أُولَئِكَ بَدْعُنَ إِلَى الذَّنْبِ فَلَهُنَّ فِي الذَّنْبِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ
 يَوْمَ يُدْعَوْنَ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كُفْرُهُمْ وَلَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَمَلُهُمْ
 وَمَسْئُودَكَ عَنِ الْمَجِيئِ قُلْ لَمْ أَدَى فَأَعْتِدْ لِلْوَسْطَةِ فِي
 الْمَجِيئِ وَلَا تَقْرَبُوا حَتَّى يَأْتِيَ الْفُتُورَ وَلَا تَقْرَبُوا قُلُوبَكُمْ
 مِنْ حَيْثُ أَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُخَيِّرُ لَكُمْ أَحْسَنَ الْخِيَرَاتِ
 يَسْأَلُكُمْ خَيْرَ شَيْءٍ فَمَا أُخْرَجُوا لَكُمْ شَيْئًا وَقَدْ جَاءُوا
 لَكُمْ بِشَيْءٍ وَكَذَّبُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْكُهُ وَلَمْ يَنْتَهِ
 الْمُفْسِدِينَ وَلَا تَحْمِلُوا اللَّهَ عَرِضَةً أَنْ لَا يَمُنَّ كَأَنْ مَسَرُّوا
 وَتَقْرَبُوا وَأَنْفُسُكُمْ يُخَابِتُ النَّاسَ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

نفس كونه حيضاً بخلاف تعليق الحكم به فإنه إنما يعلم بالشرع فتأمله (بدائع الفوائد ٤٨/٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

٩٣- أن الطهر طهران طهر بالماء من الأحداث والنجاسات وطهر بالتوبة من الشرك والمعاصي وهذا الطهور أصل لظهور الماء وظهور الماء لا ينفع بدونه بل هو

لَا يُخْلَعُ اللَّهُ بِاللَّهِ فِي أَمْرٍ كَرِهَ وَلَكِنْ تَوَلَّى كَمَا كَسَبَتْ
 قُلُوبُهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ الَّذِينَ يُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ رِضًا
 أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَإِنْ عَزَمُوا
 الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَفَعْنَ وَأَقْبِرْنَ
 ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكُنَّ مَخْلُوقَاتٍ لِلَّهِ فِي أَرْبَاعِهِمْ
 إِنْ كُنَّ نَوَافِلَ وَاللَّهُ وَالْيَوْمُ الْآخِرُ وَلَهُمُ الْهَدْيُ أَشَقُّ مِنْ هَذَا فِي
 ذَلِكَ إِنْ أَرَادَ إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ وَالْمَعْرُوفُ
 وَالرِّجَالُ عَلَيْهِمْ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ
 فَإِن تَفَافَا بَعَثَ فِيهِمَا رِجَالٌ لِلَّهِ لِكُلِّ أَتَّعِدُوا
 وَمَنَافِعَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُغْنِيَا عَنْهُمَا اللَّهُ
 فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُغْنِيَا عَنْهُمَا اللَّهُ فَاجْتَنِبَا عَلَيْمَا فِيمَا أَفْتَدَتْ
 بِهِمَا ذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْبُدُوا مِنْ بَيْنِهِمَا حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ
 هُمُ الظَّالِمُونَ ۝ فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا حِلَّ لَهُنَّ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَنْ يَكُنَّ
 عَوْرَةً فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا حِلَّ لَهَا عَلَيْهِمَا أَنْ يَكُنَّ حِلًّا أَنْ تَلَاقَا
 بَيْنَهُمَا حُدُودُ اللَّهِ وَذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝

أن الإيلاء إنما يكون في حال الغضب دون الرضا، كما
 وقع لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع نسائه، وظاهر القرآن
 مع الجمهور.

وقد تناظر في هذه المسألة محمد بن سيرين،
 ورجل آخر، فاحتج على محمد بقول علي، فاحتج
 عليه محمد بالآية، فسكت.

وقد دلت الآية على أحكام منها هذا.

٩٦- ومنها: أن من حلف على ترك الوطء أقل

من أربعة أشهر لم يكن مؤلّياً، وهذا قول الجمهور، وفيه قول شاذ أنه مؤل.

٩٧- ومنها: أنه لا يثبت له حكم الإيلاء حتى يحلف على أكثر من أربعة أشهر،
 فإن كانت مدة الامتناع أربعة أشهر، لم يثبت له حكم الإيلاء؛ لأن الله جعل لهم مدة
 أربعة أشهر وبعد انقضائها إما أن يطلقوا، وإما أن يفيثوا، وهذا قول الجمهور، منهم
 أحمد، والشافعي، ومالك، وجعله أبو حنيفة مؤلّياً بأربعة أشهر سواء، وهذا بناء على
 أصله أن المدة المضروبة أجل لوقوع الطلاق بانقضائها، والجمهور يجعلون المدة
 أجلاً لاستحقاق المطالبة، وهذا موضع اختلف فيه السلف من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
 والتابعين ومن بعدهم (زاد المعاد ٥/ ٣٤٤-٣٥٣).

قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾

﴿ ٣٧ ﴾

٩٨- فختم حكم الفیء الذي هو الرجوع والعود إلى رضا الزوجة والإحسان
 إليها بأنه غفور رحيم يعود على عبده بمغفرته ورحمته إذا رجع إليه والجزاء من جنس

العمل فكما رجع إلى التي هي أحسن رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا
الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢٢٧] فإن الطلاق لما كان لفظا يسمع ومعنى يقصد عقبه باسم
السميع للنطق به العليم بمضمونه (جلاء الأنهام ٩٣-٩٤).

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ
اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ .

٩٩- فيه جواز الخلع كما دل عليه القرآن.

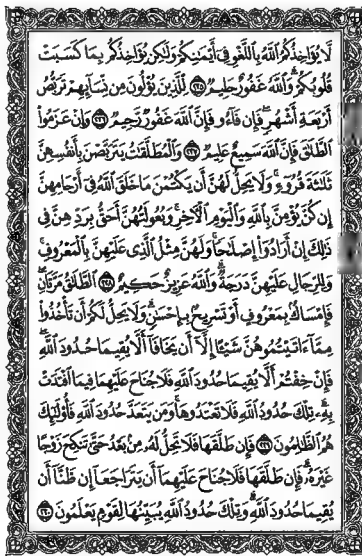
ومنع الخلع طائفة شاذة من الناس خالفت
النص والإجماع.

١٠٠- وفي الآية دليل على جوازه مطلقا بإذن
السلطان وغيره، ومنعه طائفة بدون إذنه، والأئمة
الأربعة والجمهور على خلافه.

١٠١- وفي الآية دليل على حصول البينة به؛
لأنه سبحانه سماه فدية، ولو كان رجعيًا كما قاله

بعض الناس لم يحصل للمرأة الافتداء من الزوج بما بذلته له، ودل قوله سبحانه: ﴿ فَلَا
جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ [البقرة: ٢٢٩] على جوازه بما قل وكثر وأن له أن يأخذ منها أكثر
مما أعطاهما (زاد المعاد ٥/١٩٣).

١٠٢- وهذا دليل على أن الخلع المأذون فيه إنما هو إذا خاف الزوجان أن لا
يقيما حدود الله، وأن النكاح الثاني إنما يباح إذا ظنا أن يقيما حدود الله، فإنه شرط في
الخلع عدم خوف إقامة حدوده، وشرط في العود ظن إقامة حدوده.



قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾.

١٠٣ - إن الله سبحانه قال ذلك في المطلقة ثلاثاً أي إن طلقها الثاني فلا جناح عليها وعلى الزوج الأول أن يتراجعا والمراد به تجديد العقد، وليس ذلك مختصاً بالصورة التي يطلق فيها الثاني فقط، بل متى تفارقا بموت أو خلع أو فسخ أو طلاق حلت للأول، قياساً على الطلاق (إعلام الموقعين ١/ ٢٢٦ - ٢٢٧).

لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَنْكِحَ بِهَا لَوْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنْ يُؤَيِّدُ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝ لِلَّذِينَ يُؤَلِّقُونَ مِنْ زِينَتِهِمْ زُجُجًا أَرِيحَةً أَوْ شَهْرًا فَإِنْ قَالَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَلَنْ عَزِمُوا إِلَّا طَلَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ وَالطَّلَاقُ يَرْتَضِنُّ بِالْمُتَرَفِّعِينَ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُمْ أَنْ يَكُونُوا مَخْلُوعًا لِلَّهِ فِي أَنْصَابِهِمْ إِنْ كُنْ يُؤَيِّدُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَهُمْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَرَى فِي ذَلِكَ إِذَا أُلْحِقُوا بِأَهْلِهِمْ وَلَهُمْ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِمْ وَالْمُتَرَفِّعُونَ وَالْمُتَرَفِّعُونَ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ الطَّلَاقُ مَرَّتَيْنِ فَإِنِ انْقَضَى عَمْدُهُمَا أَوْ تَرَكَهُمَا أَحْسَنُ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَتَّخِذُوا مِنْهُمَا عِتْقًا أَوْ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ يَخْلُفَا إِلَّا الْيَمِينَ حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُمْسِكَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَبِذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝

١٠٤ - وذلك نص في أن الرجعة إنما ملكها الله تعالى لمن قصد الصلاح دون من قصد الضرر لم يملكه الله تعالى الرجعة (إغاثة اللهفان ١/ ٣٧٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا مَنْ ضَرَّكُمْ لِنَعْدُوا﴾.

١٠٥ - وذلك نص في أن الرجعة إنما ملكها الله تعالى لمن قصد الصلاح دون من قصد الضرر، فإذا قصد الضرر لم يملكه الله تعالى الرجعة (إغاثة اللهفان ١/ ٣٧٧).

قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِيَ الرِّضَاعَةُ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَزِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَاتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْفُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فدلت الآية على عدة أحكام:

١٠٦- أحدها أن تمام الرضاع حولين وذلك حق للولد إذا احتاج إليه ولم يستغن عنه

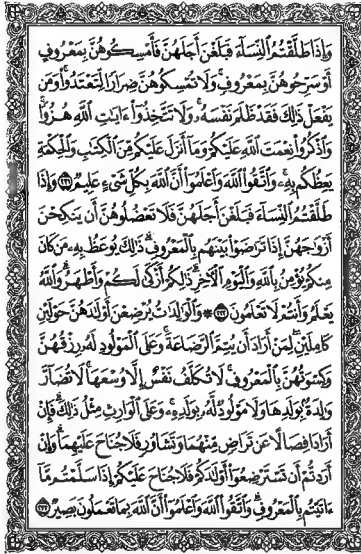
وأكدهما بكاملين لثلا يحمل اللفظ على حول وأكثر.

١٠٧- وثانيها أن الأبوين إذا أرادا فطامه قبل

ذلك بتراضيهما وتشاورهما مع عدم مضرة الطفل فلهما ذلك.

١٠٨- وثالثها أن الأب إذا أراد أن يسترضع

لولده مرضعة أخرى غير أمه فله ذلك وإن كرهت الأم إلا أن يكون مضارا بها أو بولدها فلا يجاب إلى ذلك ويجوز أن تستمر الأم على رضاعه بعد الحولين إلى نصف الثالث أو أكثر.



وأحمد أوقات الفطام إذا كان الوقت معتدلا في الحر والبرد وقد تكامل نبات

أسنانه وأضراسه وقويت على تقطيع الغذاء وطحنه ففطامه عند ذلك الوقت أجود له ووقت الاعتدال الخريفي أنفع في الطعام من وقت الاعتدال الربيعي لأنه في الخريف يستقبل الشتاء والهواء يبرد فيه والحرارة الغريزية تنشأ فيه وتنمو والهضم يزداد قوة وكذلك شهوة (تحفة الودود ٢٠٥-٢٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾.

١٠٩- فهذا يتناول المدخول بها وغيرها، والصغيرة والكبيرة، ولا تدخل فيه

الحامل؛ لأنها خرجت بقوله: ﴿وَأُولَئِذَا أَجْلُهَا أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهَا﴾ [الطلاق: ٤]

فجعل وضع حملهن جميع أجلهن، وحصره فيه.

بخلاف قوله في المتوفى عنهن: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ فإنه فعل مطلق لا عموم له، وأيضا فإن قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] في غير الحامل بالاتفاق، فإنها لو تمادى حملها فوق ذلك تربصته (زاد المعاد ٥/ ٥٩٥).

📖 قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾.

١١٠- فكبر قدره في باطنه بالعلم وفي ظاهره باشتداد الجسم، فكمل ظاهره وباطنه ومعناه وصورته، وهذا أكمل من أن يكمل معناه وفكره دون ذاته وصورته، وهذا شأنه سبحانه فيما يريد تكميله من خلقه فإنه يكمله ذاتا ومعنى ظاهرا وباطنا (الصواعق المرسلة ٤/ ١٣٧٦).

📖 قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ.

١١١- ففي الآية أربعة أدلة على خلق الله

سبحانه الأعمال وتكوينه وإيجاده لها.

أحدها: قولهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ والصبر فعلهم الاختياري فسألوه ممن هو بيده ومشيتته وإذنه إن شاء أعطاهموه وإن شاء منعهموه.

والثاني: قولهم: ﴿وَتَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ وثبات الأقدام فعل اختياري ولكن التثبيت فعله والثبات فعلهم ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

فَلَمَّا أَفْصَلَ عَالُوتَ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلَاكُمْ
بِنَهَرٍ مِّنْ شَرِبٍ وَمَن شَرِبَ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ
فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنهُ
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ
قَالَ الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ أَنَّهُمْ قَالُوا اللَّهُ كَرِيمٌ فَتَوَقَّعُوا
فَلَمَّا جَاءَهُمْ فَتَنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ
الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ أَيْمَانِهِمْ وَأُفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ
بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَكَانَ ذَلِكَ
وَالْحَيْكَةِ وَكَانَ تَمِيمًا وَكَانَ دَاوُدُ ذُو الْقُوَّةِ
بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
فَتَقَبَّلَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٥١﴾ فَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى
عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَالْحَقُّ لَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٥٢﴾

الرابع: قوله: ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وإذنه هاهنا هو الإذن الكوني القدري أي بمشيئته وقضائه وقدره وليس هو الإذن الشرعي الذي بمعنى الأمر فإن ذلك لا يستلزم الهزيمة بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني فإن المأمور المكون لا يتخلف عنه البتة (شفاء العليل ٦٣ - ٦٤).

• بَلَاةُ الرُّسُلِ قَدْ أَتَتْكُمْ لَعْنَةُ رَبِّ عَلَى بَعْضِهِمْ مِنْكُمْ أَن كَذَّبُوا اللَّهَ
وَرَفَعُوا بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَاتَّخَذُوا ابْنَهُ ذَرِيَّتِهِنَّ مَوَدَّةً
وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْقُدُسِ أَن رَأَوْا آيَاتِ اللَّهِ مَا اقْتُلُوا الَّذِينَ مِنْ
بَدْوِهِمْ فَإِذَا جَاءَهُمْ الْقُرْآنُ يَأْتِيهِمْ مِنْ أَلْفٍ مِّنْ أَلْفَيْنِ
فَيَكْفُرُوا بِهِ وَيَخْتَلِفُوا أَوَّامًا وَمَسَاجِدًا يُسَبِّحُونَ فِيهَا اللَّهَ
حَمْدًا وَكَمَلًا وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَرَأَوْا آيَاتِ اللَّهِ مَا اقْتُلُوا
وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُؤْلَى • يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّي أَنفِصُ
عَنَّا ذِكْرًا مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَاعْلَمُوا
شَعْنَهُمْ وَأَلْكَاهُمْ وَهُمْ كَرِهُوا الْقَالُونَ • اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْعَزِيزُ الْقُدُّوسُ الْأَعْلَى مُسْتَعِينٌ وَلَا يُؤْتَمَرُ بِهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ
مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا
بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا
وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ • لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِينَ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ
الْفُتُونِ يَوْمَ تُغْلَبُ السَّيُوفُ وَيُخْلَبُونَ وَرَأَوْا آيَاتِ اللَّهِ قَدْ أَتَتْكُمْ
بِالْمَوْتِ وَأَلْفَاقٍ لَا يَنْصَرُونَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ •

١١٢- ففي آية الكرسي ذكر الحياة التي هي أصل جميع الصفات وذكر معها قيوميته المقتضية لذاته وبقائه وانتفاء الآفات جميعها عنه من النوم والسنة والعجز وغيرها ثم ذكر كمال ملكه ثم عقبه بذكر وحدانيته في ملكه وأنه لا يشفع عنده أحد

إلا بإذنه ثم ذكر سعة علمه وإحاطته ثم عقبه بأنه لا سبيل للحلق إلى علم شيء من الأشياء إلا بعد مشيئته لهم أن يعلموه ثم ذكر سعة كرسيه منبها به على سعة سبحانه وعظمته وعلوه وذلك توطئة بين يدي ذكر علوه وعظمته ثم أخبر عن كمال اقتداره وحفظه للعالم العلوي والسفلي من غير اكتراث ولا مشقة ولا تعب ثم ختم الآية بهذين الاسمين الجليلين الدالين على علو ذاته وعظمته في نفسه وقال في سورة طه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴿طه ١١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ﴾.

١١٣- وهذا نفي في معنى النهي، أي لا تكرهوا أحدا على الدين، نزلت هذه الآية في رجال من الصحابة كان لهم أولاد، قد تهودوا وتنصروا قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء وأرادوا إكراه الأولاد على الدين، فنهاهم الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** عن ذلك حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام.

والصحيح: الآية على عمومها في حق كل كافر، وهذا ظاهر على قول من يجوز أخذ الجزية من جميع الكفار، فلا يكرهون على الدخول في الدين، بل إما أن

يدخلوا في الدين، وإما أن يعطوا الجزية، كما تقوله أهل العراق، وأهل المدينة، وإن استثنى هؤلاء بعض عبدة الأوثان (هداية الحيارى ٣٧-٣٨).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ .

• تلك أرسل قسداً ليعصمهم عن بعض منهن من علم الله
وزعم بعضهم من حديثه وانما دعوا ابن مريم النبي
واثبتنه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من
بعدهم من بعد ما جاءتهم النبيات ولكن استأمنوا
فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا
ولكن الله يفعل ما يريد • يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقوبات
مما تذكرون قبل أن يأتيكم آياتي فيه ولا تخفوا ولا
تخضعوا ولا تحزنوا هم أظلمون • الله لا إله إلا هو
الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات
وما في الأرض من الذي يشفع عنده ولا يبدل فيه يعلم
ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا
بما شاء وترى حكمته السموات والأرض لا يحيطون بحفظه
ومما أنزل العظمير • لا أكفر بالذين قد تبين الرشدين
التي فمن يكفر بالعلويين ولؤلؤين بالله فقد استعك
بالشروة والوثوق لا أنصاهم الله سمع عليه •

١١٥- وهذا يتضمن إخراج الشياطين لهم من نور الفطرة إلى ظلمة الكفر والشرك، ومن النور الذي جاءت به الرسل من الهدى، والعلم إلى ظلمات الجهل والضلال (أحكام أهل الذمة ٢/ ٥٣٢).

إِذْ رَأَوْهُمُ بِالْبَاسِ إِذْ يَقُولُ أَبَوَاهُ لِمَنِ الْبَنَانُ ۚ
وَأُمِّيَّتٌ قَالَتْ إِنَّهُمْ فَأْتِ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ
الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ^ط
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

[illegible]

فإن كان صادقا فليتصرف في الشمس تصرفا تصح به دعواه وليس هذا انتقالا من حجة إلى حجة أو اوضح منها كما زعم بعض النظار وإنما هو إلزام للمدعي بطرد حجته

إن كانت صحيحة (الصواعق المرسلة ٢ / ٤٩٠-٤٩١).

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٦١).

١١٧- هذه الآية كالتفسير والبيان لمقدار

الأضعاف التي يضاعفها للمقرض، ومثل سبحانه بهذا المثل إحضاراً للصورة التضعيف في الأذهان بهذه الحبة التي غابت في الأرض فأنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، حتى كأن القلب ينظر إلى هذا التضعيف ببصيرته كما تنظر العين إلى هذه السنابل التي من الحبة الواحدة فينضاف الشاهد العياني الشاهد الإيماني القرآني فيقوى إيمان المنفق وتسخو نفسه بالإنفاق.

وَلَا قَالَ إِنْزَعَهُ رَبِّي أَوْ بَدَّلَهُ رَبِّي كَيْفَ عَنِ التَّوَكُّلِ قَالَ أُولَئِكَ
تُؤْمِنُونَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيُطَمِّئَنَّ قُلُوبُكَ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ
الْأَنْبُوتِ فَصَرِّهِنَّ لِيَكُنَّ لَكَ سَبْعًا وَلَا تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ
السَّاعِةِ ۚ وَمَنْ يَتَذَكَّرْ فَإِنَّهُ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ۝١١٧
﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ
سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝٣٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تُؤْتَاهُمْ أُجْرًا كَثِيرًا مَّا أَتَوْا بِهَا وَلَا
أَذَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ۝٣٦٢ ﴿قَوْلَ مَعْرُوفٍ وَمَغْفِرَةً خَيْرٌ مِّنْ سَدَقَةٍ
يَصْنَعُهَا ۚ أَدَّىٰ وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ ۝٣٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَطْلُوا أَسَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي كَانُوا يُنْفِقُونَ مَالَهُ
رِثَةً لِّالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَا لَهُمْ كَمَثَلِ
صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَاتٌ فَأَلَسَّاهُمُ الذِّلَّةَ وَلِئَالٍ فَتَرَكَهُمْ صَالَةً لَا يَقْدِرُونَ
عَلَيْهَا ۚ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ لَا يَهْدِيَ الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝٣٦٤

١١٨- وتأمل كيف جمع السنبلة في هذه الآية على سنابل وهي [مجموع]

الكثرة، إذ المقام مقام تكثير وتضعيف، وجمعها على سنابل في قوله تعالى: ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف: ٤٣]، فجاء بها على جمع القلة لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير.

١١٩- ثم ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنی مطابقين لسياقها، وهما الواسع

والعليم، فلا [يستبعد] العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عطنه، فإن المضاعف [سبحانه] واسع العطاء واسع الغنى واسع الفضل، ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضى حصولها لكل منفق فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها، ومن

لا يستحقها ولا هو أهل لها، فإن كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته، بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته، ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه.

﴿قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِنْهَا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾﴾ (البقرة: ٢٦٢).

١٢٠- نبّه بقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِنْهَا وَلَا أَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٢]، على أن

المنّ والأذى ولو تراخى عن الصدقة وطال زمنه ضر بصاحبه ولم يحصل له مقصود الإنفاق، ولو أتى بالواو وقال: ولا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى، لأوهمت تقييد ذلك بالحال، وإذا كان المن والأذى المتراحي مبطلاً لأثر الإنفاق مانعاً من الثواب فالمقارن أولى وأحرى.

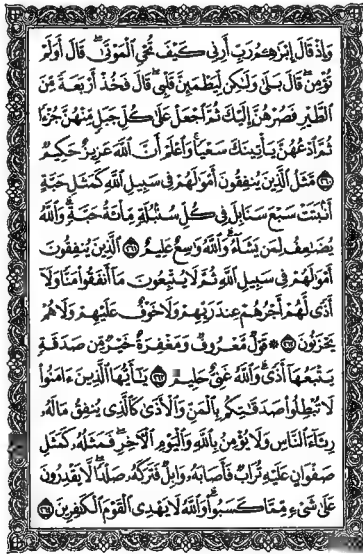
١٢١- وتأمل كيف جرد الخبر هنا عن الفاء

فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٢]، وقرنه بالفاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

بِالْإِثْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، فإن الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف تفهم معنى الشرط والجزاء [وأن الخبر] مستحق بما تضمنه المبتدأ من الصلة أو الصفة، فلما كان هنا يقتضي بيان حصر المستحق للجزاء دون غيره.

١٢٢- وفي الآية الأخرى ذكر الإنفاق بالليل والنهار سرّاً وعلانية، فذكر عموم

الأوقات وعموم الأحوال، فأتى بالفاء في الخبر ليدل على أن الإنفاق في أي وقت وجد



من ليل أو نهار، وعلى أي حالة وجد من سر وعلانية فإنه سبب للجزاء على كل حال فليبادر إليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله، ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار ولا نفقة النهار إلى الليل، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر ولا بنفقة السر وقت العلانية، فإن نفقته في أي وقت وعلى أي حال وجدت سبب لأجره وثوابه، فتدبر هذه الأسرار في القرآن فلعلك لا تظفر بها تمر بك في التفاسير، والمنة والفضل لله وحده لا شريك له.

📖 قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ

حَلِيمٌ ۝١٢٣﴾

وَأَذَىٰ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَبُّ أَرَىٰ كَيْفَ غَنَى الْمَرْءُ قَالَ أَوْلَىٰ
تَوْبَةٍ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِّطَمْسٍ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ
الطَّيْرِ فَصَرِّهِنَّ إِلَىٰ ذِكْرِكَ فَيَجْمَعْنَ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جَبَلًا
فَنُزِّلَ عَلَيْكَ مَائِدَاتُكَ سَجِيًا وَاعْتَرَاكَ اللَّهُ غَنِيًّا وَحَكِيمًا
﴿قَوْلُ الَّذِينَ يُبْغِفُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَا كُنْتَ جَنَّةً
أَنْبَتَتْ سَمْعًا سَتَائِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ وَأَتَتْ حَبْرَةً وَاللَّهُ
يُصَدِّقُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ الَّذِينَ يُبْغِفُونَ
أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُبْغِفُونَ مَا أَتَوْا بِهَا وَلَا
أَذَىٰ لَهُمْ أَفْغَرُ مِنْ عَذَابِهِمْ وَلَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿قَوْلُ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ
يَتْبَعُهَا أَذَىٰ ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ
رِيشَ الطَّيْرِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَتُبَذَّ كَمَا تَكُنْ
صَفْوَانٌ عَلَيْهِ قُرْآنٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْبًا لَا يَقْدِرُونَ
عَلَيْ شَيْءٍ وَمَتَّاعٌ كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿

١٢٣- والصدقة المقرونة بالأذى حسنة مقرونة بما يبطلها، ولا ريب أن حسنتين خير من حسنة باطلة. ويدخل في المغفرة مغفرته للسائل إذا وجد منه بعض الجفوة والأذى بسبب رده، فيكون عفو عنه خيرًا من أن يتصدق عليه ويؤذيه.

١٢٤- ثم ختم الآية بصفتين مناسبتين لما تضمنته فقال: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣]، وفيه معنيان:

أحدهما: أن الله غني عنكم لن يناله شيء من صدقاتكم، وإنما الحظ الأوفر لكم في الصدقة فنفعها عائد عليكم لا إليه سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فكيف يمنُّ بنفقته ويؤذي مع غنى الله التام عنها وعن كل ما سواه، ومع هذا فهو حلِيمٌ إذ يعاجل المانَّ بالعقوبة، وضمن هذا الوعيد والتحذير.

والثاني: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع غناه التام من وجهه فهو الموصوف بالحلم والتجاوز والصفح، مع عطائه الواسع وصدقاته العظيمة، فكيف يؤدي أحدكم بمنه وأذاه، مع قلة ما يعطي ونزارته وفقره.

📖 قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْتَطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُبْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

وَأَذَى قَالَ ابْنُ هُرَيْرٍ أَرَى كَيْفَ تُحَى الْمَوْتُ قَالَ أُولَئِكَ نَفْسٌ قَالَتْ بَلْ وَلَكِنْ يُبْتَطِلُونَ قَالَتْ قَالَتْ فَتَحَذَّرُ نَفْسٌ مِنَ الْقَطْرِ فَصَبَّ مِنْهَا إِلَيْكَ ثُمَّ كُنَّ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُمْ جَبَلٌ ثُمَّ دَعَاهُمْ يَتَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَكِيمٌ ﴿١٢٦﴾ فَمَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَلْبَنَتْ سَعْيَ سِتِّ آلٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ وَمَا تُدْرِكُهُ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٧﴾ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتُرَاكِبُ لِأَنْ يُبْعَثُوا مَا أَنْفَقُوا مَتًى وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢٨﴾ قَوْلُ قَسْرٍ وَفَرْقٍ وَخَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿١٢٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْتَطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُبْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾

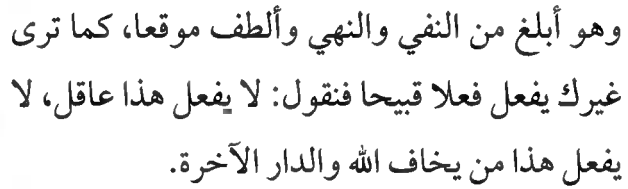
١٢٥- تضمنت هذه الآية الإخبار بأن المن والأذى يحبط الصدقة، وهذا دليل على أن الحسنة قد تحبط بالسيئة مع قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات: ٢] وقد يقال: إن المن والأذى المقارن للصدقة هو الذي يبطلها دون ما يلحقها بعدها، إلا أنه ليس في اللفظ ما يدل على هذا التقيد والسياق يدل على إبطالها به مطلقاً.

١٢٦- وهذا من أبلغ الأمثال وأحسنها، فإنه يتضمن تشبيه قلب هذا المنفق المرائي - الذي لم يصدر إنفاقه عن [إيمانه] واليوم الآخر - بالحجر لشدته وصلابته وعدم الانتفاع به. وتضمن تشبيه ما علق به من أثر الصدقة بالغبار الذي علق بذلك الحجر، والوابل الذي أزال ذلك التراب عن الحجر فأذهب بالمانع الذي أبطل صدقته وأزالها كما يذهب الوابل التراب الذي على الحجر فيتركه صلداً فلا يقدر المنفق على شيء من ثوابه لبطلانه وزواله.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَاءٌ أَكَلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٦٥﴾﴾.

وَمَثَلُ الْيَرُبَةِ يُبْدِي قُوتَ اقْتِرَالِهِمْ أَيْ تَحْتِهَا مَرَصَدَاتُ اللَّهِ
وَتَحْتِهَا تَضَامُنُ أَهْلِيهِمْ وَكَذَلِكَ جَعَلَ بِرُوحِهَا أَسْبَابَهَا وَأَبْوَابَ
فَقَاتِهَا أَكْثَلَهَا يَصْغِفُ عَنْ قِيَانِ رُوحِهَا وَأَبْوَابِهَا قَطْلَ
وَاللَّهُ يَسْأَلُ عَنْ بَصِيرَةِ **أَبْوَادِهَا** عَنْ أَنْ تَكُنْ اللَّهُ
جَنَّةً مِنْ تَحْيِيلِ وَأَعْيَابِ غَيْرِي مِنْ تَحْيِيلِ الْأَنْفُسِ لَهُ
يَعِيَانِ مِنْ كُلِّ الْفِتَنِ وَأَسْبَابِ الْكَرْبِ لَهُ ذُرِّيَّةٌ
مُضَعَّةٌ فَأَسْبَابُهَا الْغَصَارِيُّدُ تَالِهَا تَعْرِفُ عَنْ ذَلِكَ
يَسْئَلُ اللَّهُ عَنْ الْأَقْبَابِ أَمَّا عَنْ تَعْرِفُ كَرَمِ **تَالِهَا**
الَّذِينَ أَسْمَاؤُهَا الْوُفُورُ مِنْ طَلِبَتِ مَا كَسَبَتْ رُوحَهَا الْخُرْقَا
لِطَرَفِ الْأَرْضِ وَلَا تَسْمَعُوا الْخَبَرَ مِنْهُ ضَعُفُوتُ
وَلَمْ يَجَازِئْهُ إِلَّا أَنْ يَفْضُولِيهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
حَكِيمٌ **الْحَقُّ** الْعَيْنُ يَهْدِي كُرْ الْفَقْرَ وَيَأْتِي مَرُءٌ بِالْحَقِّ حَسْبَهُ
وَاللَّهُ يُهْدِي كُرْ مَقْصُودَهُ وَفَضْلُ اللَّهِ وَاسِعٌ حَيْلُهُ
يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ
أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَكِّرُ إِلَّا الْأُولَى **الْأَلْبَابُ** ٥

١٢٩- فقوله تعالى: ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ﴾ أخرجه مخرج الاستفهام الإنكاري،



١٣١- وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ خص هذين النوعين من الثمار بالذكر لأنهما أشرف أنواع الثمار وأكثرها نفعاً، فإن منهما القوت والغذاء والدواء والشراب والفاكهة والحلو والحامض، ويؤكلان رطباً ويابساً، ومنافعهما كثيرة جداً.

أحدها: أنه قد كبر سنه عن الكسب والتجارة ونحوها.

الثاني: أن ابن آدم عند كبر سنه يشتر حرقه.

الثالث: أن له ذرية فهو حريص على بقاء جنته لحاجته وحاجة ذريته.

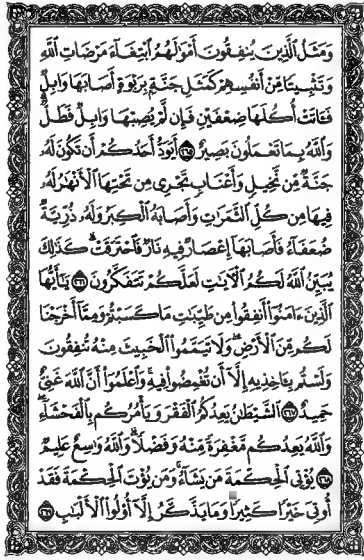
الرابع: أنهم ضعفاء فهم كل عليه لا ينفعونه بقوتهم وتصرفهم.

الخامس: أن نفقتهم عليه، لضعفهم وعجزهم.



وهذه نهاية ما يكون من تعلق القلب بهذه الجنة:
لخطرها في نفسها وشدة حاجته وذريته إليها.

فإذا تصورت هذه الحال وهذه الحاجة فكيف
تكون مصيبة هذا الرجل إذا أصاب جنته إعصار - وهي
الريح التي تستدير في الأرض ثم ترتفع في طبقات
الجو كالعمود - وفيه نار مرت بتلك الجنة فأحرقتها
وصيرتها رمادا، فصدق والله الحسن - هذا مثل قل من
يعقله من الناس - ولهذا نبه سبحانه وتعالى على عظم هذا
المثل، وحدا القلوب إلى التفكير فيه لشدة حاجتها إليه

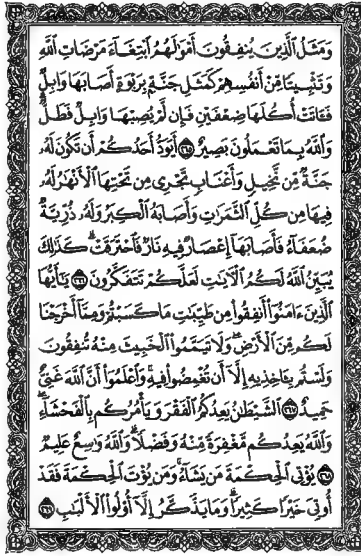


فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

فلو فكر العاقل في هذا المثل وجعله قبلة قلبه لكفاه وشفاه، فهكذا العبد إذا
عمل بطاعة الله ثم أتبعها بما يبطلها ويفرقها من معاصي الله كانت كالإعصار ذي النار
المحرق للجنة التي غرسها بطاعته وعمله الصالح، ولولا أن هذه المواضع أهم مما
كلامنا بصده - من ذكر مجرد الطبقات - لم نذكرها، ولكنها من أهم المهم، والله
المستعان الموفق لمرضاته.

فلو تصور العامل بمعصية الله بعد طاعته هذا المعنى حق تصوره وتأمله كما ينبغي
لما سولت له نفسه والله إحراق أعماله الصالحة وإضاعته، ولكن لا بد أن يغيب عنه
علمه عند المعصية، ولهذا استحق اسم الجهل فكل من عصى الله فهو جاهل.

١٣٣ - وتأمل كيف ضرب سبحانه المثل للمنق المرائي الذي لم يصدر إنفاقه
عن الإيمان: بالصفوان الذي عليه التراب، فإنه لم ينبت شيئاً أصلاً، بل ذهب بذره
ضائعاً، لعدم إيمانه وإخلاصه.



ثم ضرب المثل لمن عمل بطاعة الله مخلصا بنيته لله ثم عرض له ما أبطل ثوابه بالجنة التي هي من أحسن الجنان وأطيبها وأزهرها، ثم سلط عليها الإعصار الناري فأحرقها، فإن هذا نبت له شيء وأثمر له عمله ثم احترق، والأول لم يحصل له شيء يدركه الحريق.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِكَافِرِينَ بِهِ إِلَّا أَن تُغْلِبُوا فِيهِ ءَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِ حَيْدٍ أَن يَفْتُرَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۚ﴾

١٣٤ - أضاف سبحانه الكسب إليهم وإن كان هو الخالق لأفعالهم، لأنه فعلهم القائم بهم، وأسند الإخراج إليه لأنه ليس فعلا لهم، ولا هو مقدور لهم، فأضاف مقدورهم إليهم وأضاف مفعوله الذي لا قدرة لهم عليه إليه، ففي ضمنه الرد على من سوى بين النوعين وسلب قدرة العبد وفعله وتأثيره عنها بالكلية.

١٣٥ - وخص سبحانه هذين النوعين - وهما الخارج من الأرض والحاصل بكسب التجارة دون غيرهما من المواشي - إما بحسب الواقع فإنهما كانا أغلب أموال القوم إذ ذاك، فإن المهاجرين كانوا أصحاب تجارة وكسب والأنصار كانوا أصحاب حرث وزرع، فخص هذين النوعين بالذكر لحاجتهم إلى بيان حكمهما وعموم وجودهما، وإما لأنهما أصول الأموال وما عداهما فعنهما يكون ومنهما ينشأ، فإن الكسب تدخل فيه التجارات كلها على اختلاف أصنافها وأنواعها من الملابس والمطاعم والرقيق والحيوانات والآلات والأمتعة وسائر ما تتعلق به التجارة والخارج

١٣٦- ثم قال: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، فنهى سبحانه عن قصد إخراج الرديء [كما هو عادة أكثر النفوس تمسك الجيد لها وتخرج الرديء]

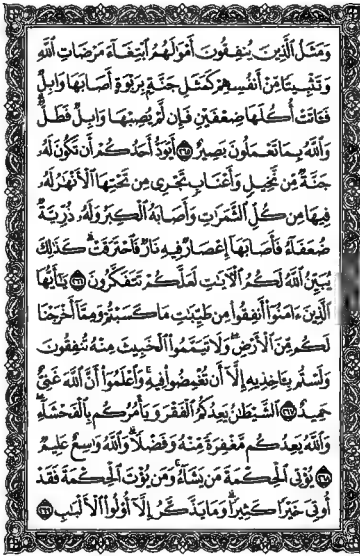
للفقير، ونهيه سبحانه عن قصد ذلك وتيممه فيه ما يشبه العذر لمن فعل ذلك لا عن قصد وتيمم بل [إما] عن اتفاق، إذا كان هو الحاضر إذ ذاك أو كان ماله من جنسه، فإن هذا لم يتيمم الخبيث بل تيمم إخراج بعض ما من الله عليه.

١٣٧- ثم ختم الآيتين بصفتين يقتضيهما
سياقهما فقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة:
٢٦٧] فغناه وحمده يأبى قبول الرديء، فإن قابل
الرديء الخبث إما أن يقبله لحاجته إليه، وإما أن

نفسه لا تأباه لعدم كمالها وشرفها، وأما الغنى عنه الشريف القدر الكامل الأوصاف فإنه لا يقله.

قوله تعالى: ﴿الْشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

١٣٨- هذه الآية تتضمن الحض على الإنفاق والحث عليه بأبلغ الألفاظ وأحسن المعاني، فإنها اشتملت على بيان الداعي إلى البخل والداعي إلى البذل والإنفاق، وبيان ما يدعو إليه البخل وما يدعو إليه الإنفاق وبيان ما يدعو به داعي الأمرين.



فأخبر سبحانه أن الذي يدعوهم إلى البخل والشح هو الشيطان، وأخبر أن دعوته هي بما يعدمهم به ويخوفهم من الفقر إن أنفقوا أموالهم، وهذا هو الداعي الغالب على الخلق، فإنه يهم بالصدقة والبذل فيجد في قلبه داعياً يقول له: متى أخرجت هذا دعتك الحاجة إليه وافترقت إليه بعد إخراجها، وإمساكه خير لك حتى لا تبقى مثل الفقير، فغناك خير لك من غناه.

فإذا صور له هذه الصورة أمره بالفحشاء وهي البخل الذي هو من أقبح الفواحش. وهذا إجماع من

المفسرين أن الفحشاء هنا البخل، فهذا وعده وهذا أمره، وهو الكاذب في وعده، الغار الفاجر في أمره. [فالمستجيب] لدعوته مغرور مخدوع مغبون، فإنه يدلي من يدعو به غروره، ثم يورده شر الموارد.

١٣٩- وتأمل كيف ختم هذه الآية بهذين الاسمين، فإنه واسع العطاء عليم بمن يستحق فضله ومن يستحق عدله، فيعطى هذا بفضله ويمنع هذا بعدله وهو بكل شيء عليم. فتأمل هذه الآيات ولا تستطل بسط الكلام فيها، فإن لها شأنًا لا يعقله إلا من عقل عن الله خطابه وفهم مراده: ﴿وَلَوْلَا أَلَمْتُ لِنَاسٍ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٤٣). [العنكبوت: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٣١) وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٠) إِنْ تَبَدُّوا لَصَّدَقَاتِ

وَمَا تَنْفَقُونَ مِنْ ثَمَرَةٍ أَوْ مِنْ ثَمَرَةٍ تَنْفَقُونَ تَذَرُّهَا اللَّهُ
يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧١﴾ إِنْ بُدُوا
الْصَّدَقَاتِ فَرِيضَةً فَإِنْ خُفُّوا وَتَوَنُّوا
الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ
سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧٢﴾ هَلْ لَيْسَ
عَلَيْكَ هُدًى مِمَّنْ وَلَكَ مِنَ اللَّهِ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا
تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِقُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ وَمَا تُنْفِقُونَ
إِلَّا أَنْتُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَنْفِقُونَ ﴿٢٧٣﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَاهُ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْأَلُونَ حَسْبَكَافِ الْأَرْضِ
يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنَاءَ مِنَ الْقُرْبَىٰ نَقَرَهُمْ
يَسْمَعُونَ لَا يَسْقُونَ النَّاسَ إِلَّا سَاءًا وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ
خَيْرٍ فَلَا يُبْدِيهِمْ اللَّهُ يَسْقُونَ ﴿٢٧٤﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
بِالْأَيْلِ وَالْإِهْرَاقِ وَالْعَلَانِيَةِ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٥﴾

فَنِعْمًا هِيَ وَإِنْ تُخَفُّوْهَا وَتَوَنُّوْهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ
خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ لَيْسَ عَلَيْكَ
هُدًى لَهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا
تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ
إِلَّا أَنْتُمْ وَجَهَ اللَّهُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفِّ
إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَنْظُمُونَ ﴿٢٧٢﴾

١٤٠- أخبر أن هذا من حكمته التي يؤتيها من

يشاء من عبادته، وأن من أوتيها فقد أوتي خيرا كثيرا:

أوتي ما هو خير وأفضل من الدنيا كلها، لأنه سبحانه وصف الدنيا بالقلّة فقال تعالى:
﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا
كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

فدل على أن ما يؤتيه عبده من حكمته خير من الدنيا وما عليها ولا يعقل هذا
كل أحد بل لا يعقله إلا من له لب وعقل زكي، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا
الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

١٤١- ﴿إِنْ بُدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعْمًا هِيَ﴾ [البقرة: ٢٧١] أي فنعم شيء هي، وهذا
مدح لها موصوفة بكونها ظاهرة بادية، فلا يتوهم مبدئها بطلان أثره وثوابه فيمنعه ذلك
من إخراجها ويتنظر بها الإخفاء فتفوت أو تعترضه الموانع ويحال بينه وبين قلبه أو بينه
وبين إخراجها، فلا يؤخر صدقة العلانية بعد حضور وقتها إلى وقت السر، وهذه كانت
حال الصحابة.

ثم قال: ﴿وَلِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، فأخبر أن إعطاءها للفقير في خفية خير للمنفق من إظهارها وإعلانها.

وَمَا الْفَقِيرُ مِنْ تَقِيَّةٍ أَوْ كَذِبٍ مَنْ كَذَبَ فَإِنَّ اللَّهَ يَكْفُرُ بِهِ وَأَمَّا لِلْعَالِيَةِ مِنَ الْأَصَابِ إِنْ شُدَّ الْأَصْدَقَاتُ قَبِيحًا مَرِيئًا وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَلْزَمَكُمْ عِنْدَكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ يَمُنُّ بِمَا تَكُونُ خَيْرٌ * أَلَيْسَ عَلَيْنَا هُدًى مِمَّا يَكُونُ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يُضِلُّوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُفْسِدُوا مِمَّا تَحْسِنُونَ إِلَّا أَنْتُمْ تَصْنَعُونَ وَجَدَ اللَّهُ وَمَا تَفْعَلُونَ مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْأَلُونَ ضَرْبًا مِنَ الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تَفْعَلُونَ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ الْبَالِغِ وَالْقَارِئِينَ عَنَاءَ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُفُّوا عَنْهُمْ

١٤٢ - وتأمل تقييده تعالى الإخفاء بإيتاء الفقراء خاصة ولم يقل: وإن تحفوها فهو خير لكم، فإن من الصدقة ما لا يمكن إخفاؤه كتجهيز جيش وبناء قنطرة وإجراء نهر أو غير ذلك، وأما إيتاؤها الفقراء ففي إخفائها من الفوائد الستر عليه وعدم تخجيله بين الناس وإقامته مقام الفضيحة، وأن يرى الناس أن يده هي اليد السفلى وأنه [فقير] لا شيء له فيزهدون في معاملته ومعاوضته، وهذا قدر زائد من الإحسان إليه بمجرد الصدقة مع تضمنه الإخلاص وعدم المراعاة وطلبهم المحمدة من الناس، وكان إخفاؤها للفقير

خيرًا من إظهارها بين الناس، ومن هذا مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صدقة السر وأثنى على فاعلها وأخبر أنه أحد السبعة الذين هم في ظل عرش الرحمن يوم القيامة.

ولهذا جعله سبحانه خيرا للمنفق وأخبر أنه يكفر عنه بذلك الإنفاق من سيئاته، ولا يخفى عليه سبحانه أعمالكم ولا نياتكم، فإنه بما تعملون خير.

📖 قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْأَلُونَ ضَرْبًا مِنَ الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

١٤٣ - ثم ذكر المصرف الذي توضع فيه الصدقة فوصفهم بست صفات:

إحداها: الفقر.

وَمَا أَفْعَدُكُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذْرٍ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غُيُوبَهُ وَالْعَدْلُ لِيَدْرِي مِنْ أَهْلِهِ إِنَّ شَيْئُوا الصِّدْقَ قَدْ قُبِلَ إِلَيْهِمْ وَأَنْ تُخَفُوا وَتُؤْمَرُوا الْقُرْآنَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَلَكُمْ فِيهِ نَصِيحَةٌ مِنْ سَيِّدِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ كُنْتُمْ مُرْضِينَ وَمَا يُضِلُّ اللَّهُ شَيْئًا وَلَكِنْ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُدْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُفْسِدُكُمْ وَمَا تَصِفُوا إِلَّا أَنْفُسَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُدْفِقُونَ فَاِذْ يَخُوفُ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَنْظُرُونَ ۝ وَالْقُرْآنُ الَّذِي أَنْصَبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُ الْجَاهِلُ أَغْنَاءَ مِنَ التَّعْقُفِ تَعْرِفُهُمْ بِسَيِّئَاتِهِمْ لَا يُنْفَعُونَ النَّاسَ وَالْحَقُّ وَمَا تَصِفُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غُيُوبَهُمْ ۝ الَّذِينَ يُدْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْأَيْدِي وَالْأَنْفُسِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝

الثانية: حبسهم أنفسهم في سبيله تعالى وجهاد أعدائه ونصر دينه، وأصل الحصر المنع، فمنعوا أنفسهم من تصرفها في أشغال الدنيا، وقصروها على بذلها لله في سبيله.

الثالثة: عجزهم عن الأسفار للتكسب، والضرب في الأرض هو السفر، قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضٍ وَأَخْرُجُونَ بِضَرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِسُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١].

الرابعة: شدة تعففهم، وهو حسن صبرهم، وإظهارهم الغنى حتى يحسبهم الجاهل أغنياء من تعففهم وعدم تعرضهم وكتمانهم حاجتهم.

الخامسة: أنهم يعرفون بسيماهم، وهي العلامة الدالة على حالتهم التي وصفهم الله بها، وهذا لا ينافي حسابان الجاهل أنهم أغنياء لأن الجاهل له ظاهر الأمر، والعارف هو المتوسم المتفرس الذي يعرف الناس بسيماهم، فالمتوسمون خواص المؤمنين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ (٧٥) [الحجر: ٧٥].

السادسة: تركهم مسألة الناس فلا يسألونهم [شيئا] والإلحاف هو الإلحاح والنفي متسلط عليهما معا، أي لا يسألون ولا يلحفون، فليس يقع منهم سؤال يكون بسببه إلحاف.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُونَ الَّذِي
يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَيْمَنِ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ أَتَوَالِبًا أَلَمَّا لَبِثُوا
وَقَالَ الرِّبَا وَأَحْلَ اللَّهُ السِّمَّ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ
مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّقَ اللَّهَ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ
عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٩﴾ يَنْبَغِي
اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُجِبُ كُلَّ كَذَّابٍ أَجِيرٍ
﴿٢٨٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ
وَلَنُحِبِّبَنَّهُمْ نِسَاءً مِمَّنْ يَدِينُونَ ﴿٢٨١﴾ إِنَّمَا اللَّهُ اللَّهُ
وَدُرُومًا بَيْنَ الرِّبَا وَالْكَفْرِ فَمَنْ يَدِينُ ﴿٢٨٢﴾ فَإِنْ لَمْ تَقْعُدُوا
فَأَذْنُوا بِخَيْرٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْشِرُوا فَبَشِّرُوا
أَنْفُسَكُمْ لَا تَقْظِلُكُمْ وَلَا تَقْظِلُكُمْ ﴿٢٨٣﴾ فَإِنْ كَانَ
ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِيرَةٌ إِلَى مَقْصُودِهِ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٤﴾ وَأَقْرَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ إِلَى اللَّهِ
أَلَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٥﴾ قُلْ نَفْسٌ مَا أُكَلِّمُ أَهْلًا لَا تَقْظِلُكُمْ وَلَا تَقْظِلُكُمْ

١٤٤ - فقال تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [البقرة: ٢٧٩] ففي ضمن هذا الوعيد أن المرابي محارب لله ورسوله، قد آذنه الله بحربه، ولم يجئ هذا الوعيد في كبيرة سوى الربا وقطع الطريق والسعي في الأرض بالفساد، لأن كل واحد منهما مفسد في الأرض، قاطع الطريق على الناس، هذا بقره لهم وتسليطه عليهم، وهذا بامتناعه من تفريج كرباتهم إلا بتحصيلهم كربات أشد منها.

فأخبر عن قطاع الطريق بأنهم يحاربون الله ورسوله وأذن هؤلاء إن لم يتركوا الربا بحربه وحرب رسوله.

١٤٥ - فذكر سبحانه المحسن وهو المتصدق ثم عقبه بالظالم وهو المرابي.

ثم ذكر العادل في آية التداين فقال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] الآية، ولولا أن هذه الآية تستدعي سفرا وحدها لذكرت بعض تفسيرها. والغرض إنما هو التنبيه والإشارة، وقد ذكر أيضا العادل، وهو أخذ رأس ماله من غريمه لا بزيادة ولا نقصان، ثم ختم السورة بهذه الخاتمة العظيمة التي هي من كنز تحت عرشه، والشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه، وفيها من العلوم والمعارف وقواعد الإسلام وأصول الإيمان ومقامات الإحسان ما يستدعي بيانه كتابا مفردا (طريق الهجرتين ٣٣٩-٣٥٣).

قوله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ



الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهَا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعْمَلَ هُوَ فَلْيُؤْمَلْ وَلِيَهُ بِالْعَدْلِ
وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ
تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ
إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكُنُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ
وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَحَرَّةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ
فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكُنُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ
وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

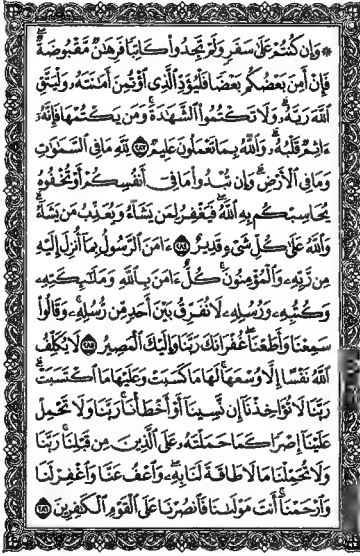
١٤٦- وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة:

٢٨٢]، فيه دليل على أن الشاهد إذا نسي شهادته فذكره بها غيره لم يرجع إلى قوله حتى
يذكرها وليس له أن يقلده، فإنه سبحانه قال: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة:
٢٨٢] ولم يقل: فتخبرها، وفيها قراءتان: التثقيف والتخفيف، والصحيح: أنهما بمعنى

واحد من الذكر وأبعد ممن قال: فيجعلها ذكرا، لفظا

ومعنى، فإنه سبحانه جعل ذلك علة للضلال الذي
هو ضد الذكر، فإذا ضلت أو نسيت ذكرتها الأخرى
فذكرت، وقوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ﴾ [البقرة: ٢٨٢] تقديره
عند الكوفيين: لثلاث تضل إحداهما، ويطردون ذلك
في كل ما جاء من هذا، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ
تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] ونحوه. ويرد عليهم نصب قوله:
﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢] إذ يكون
تقديره: لثلاث تضل، ولثلاث تذكر.

يَتَأْتِيهَا الْكِبَرُ أَمْ تَكُونُ إِذَا قَدْ لَيْسَ بِكُمْ إِلَهٌ إِلَّا أَجَلٌ مُسَمًّى
فَأَكْتُبُوا وَلَا تَكْتُبُوا كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ
كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيُخَيِّرْهُ وَلَا يَحْجَسْ مِنْهُ شَيْئًا
فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهَا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ
أَنْ يُعْمَلَ هُوَ فَلْيُؤْمَلْ وَلِيَهُ بِالْعَدْلِ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ
مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ
مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا
أَنْ تَكُنُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَمْ أَقْسَطُ
عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ
تَحَرَّةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكُنُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ
وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا
اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾



قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝﴾

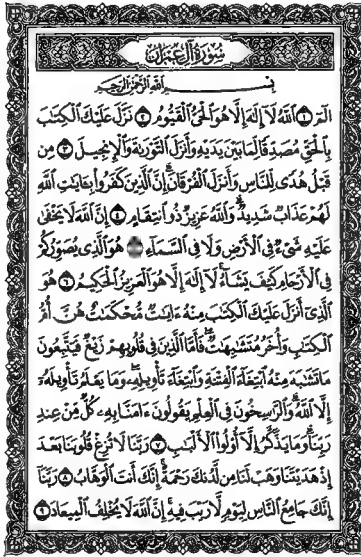
١٤٧ - وقد أثنى الله عليهم سبحانه بهذا الدعاء الذي سألوه فيه أن لا يحملهم ما لا طاقة لهم به وقد فسر ذلك بالعشق وليس المراد اختصاصه به بل المراد أن العشق مما لا طاقة للعبد به وقال مكحول

هو شدة الغلظة وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا ينبغي للمرء أن يذل نفسه. قال الإمام أحمد تفسيره: أن يتعرض من البلاء لما لا يطيق وهذا مطابق لحال العاشق فإنه أذل الناس لمعشوقه ولما يحصل به رضاه والحب مبناه على الذل والخضوع للمحبيب (روضة المحبين ١٨١).



سورة آل عمران

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾



١- لقد دل سبحانه على نفسه أوضح دلالة بما أشهده كل عبد على نفسه من حاله وحدوثه وإتقان صنعه وعجائب خلقه وآيات قدرته وشواهد حكمته فيه.

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴿١٩﴾

٢- تضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع هذه الطوائف، والشهادة ببطلان أقوالهم ومذاهبهم، وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية ببيان ما تضمنته من المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية.

فتضمنت هذه الآية أجل شهادة، وأعظمها، وأعدلها، وأصدقها، من أجل شاهد، بأجل مشهود به.

وعبارات السلف في ﴿شَهِدَ﴾ تدور على الحكم والقضاء، والإعلام والبيان، والإخبار.

قال مجاهد: حكم، وقضى. وقال الزجاج: بين. وقالت طائفة: أعلم وأخبر. وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره، وقوله،

[illegible]

طوائف أهل البدع لا يقومون بها (مدارج السالكين ٣/ ٤٥٠-٤٧٤).

يستشهد من خلقه إلا العدول ومنه الأثر المعروف عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين (مفتاح دار السعادة ٥٢-٥٣).

٦- دل قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] على أنه دين جميع أنبيائه ورسله وأتباعه من أولهم إلى آخرهم، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواه. فالإسلام دين أهل السماوات، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض، لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، فأديان أهل الأرض ستة: واحد للرحمن، وخمسة للشيطان، فدين الرحمن: هو الإسلام، والتي للشيطان: اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، والصابئة، ودين المشركين.

فهذا بعض ما تضمنته هذه الآية العظيمة من أسرار التوحيد والمعارف، ولا تستطـل الكلام فيها (مدارج السالكين ٣/ ٤٧٤-٤٧٦).

٩- الذي يظهر في الآية -والله أعلم بمراحه من كلامه- أنها اشتملت على مطلق العبادة وتفصيلها، فذكر الأعم ثم ما هو أخص منه، ثم ما هو أخص من الأخص، فذكر القنوت أولاً وهو الطاعة الدائمة، فيدخل فيه القيام والذكر والدعاء وأنواع الطاعة، ثم

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْفَعْكَ إِلَىٰ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ وَإِن تَبْصُرْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّهُ صَهٌ بَدِيدٌ ۖ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَجَلُ الَّذِينَ أَتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۖ﴾

النصارى إلى يوم القيامة (إغاثة اللهفان ٢/ ١٨٥).

بجامع ما يشتركان فيه من المعنى الذي تعلق به وجود سائر المخلوقات، وهو مجيئها طوعا لمشيئته وتكوينه، فكيف يستنكر وجود عيسى من غير أب من

وَبَنَاءِ امْتَابِهَا أَنْزَلَتْ وَاقْبَحَتْ الزُّمُورَ فَأَسْفَهَتْ بُنْيَانَ مَعَ
الشَّاهِدِينَ ۝ وَكَرَّوْا أَوْ مَكَرَّهُ وَأَلْفَتْهُمُ السَّكِينُ ۝
۞ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسُفُ إِنَّكَ مُتْرَكٌ لَكَ وَلِإِخْوَتِكَ فِى الْبُقْعَةِ
مِنَ الدِّينِ فَكَرَّوْا وَلِيَايِلَ الْيَتِيمَ اتَّبَعُوهُ دَقُّوا الْيَتِيمَ
كَفَرُوا لَكَ يَدْرِى الْقِيَمَةَ ثُمَّ لَكَ رَجْعُهُمْ فَالْتَمَحُوا
بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ فَشَفَعُوا عِنْدَ لَدُنِّكَ فَأَلَّا الْيَتِيمَ كَفَرُوا
فَالْتَمَحُوا عِنْدَ عَدَابِ عَسَدِ بَنِي إِدْزِيلَ وَأَلْفَحُوا وَمَا لَهُمْ
مِنْ نَّجْوَى ۝ وَأَلَّا الْيَتِيمَ عَامَهُمْ وَاعْمَلُوا الْقِيلَاسَ
بِقِيَمَةِ أَعْمَارِهِمْ وَأَلَّا لِيُخَيِّبَ الظَّالِمِينَ ۝ ذَلِكَ تَتْلُو
عَلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَذَالِ الْخُرُوجِ ۝ إِنْ تَحْتَلَّ
عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَعَتَلِ إِدَامَ عَقْلَهُ مِنْ رُكْبَتَيْ قَوْلِ اللَّهِ
كَيْفَ يَكُونُ ۝ الْحَقُّ مِنْ رُوكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ
۝ قَدْ حَاطَ الْفُؤَادُ بِشِدَّةٍ مَاجِدَةٍ مِنَ الْعَمَلِ فَقَدْ حَاطَ
تَدْنِ أَتَمَّتْ تَارَاتُهَا كَفَرُوا وَبَسَّاتُهَا وَكَرَّوْا وَفَسَّاتُهَا
وَأَنْفَسَكَ كُفْرُهُ تَهْتَلُ فَتَجْعَلُ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ۝

يقر بوجود آدم من غير أب ولا أم؟ ووجود حواء من غير أم؟ فآدم وعيسى نظيران يجمعهما المعنى الذي يصح تعليق الإيجاد والخلق به (إعلام الموقعين ١/ ١٨١).

قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ شَيْفَعُوا لِمَا نُحِبُّ وَلَمْ يُغْفَرْ لَكُمْ عَنْهُ ﴿١٣٠﴾ قُلْ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ كُلُّ شَيْءٍ قَانٍ بِالتَّوْرَةِ قَانٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣١﴾ قُلْ أَفَرَأَيْتُ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٢﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنْ أُولَئِكَ يُضِلُّوا لِمَنْ لِلَّهِ يَكْفُكُهُمْ رَبُّكَ وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٣٤﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٥﴾ قُلْ يَتَذَكَّرُ لَكُمْ فِيهَا آيَاتُ اللَّهِ وَلِيُخَذِّبَهُمْ عَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٦﴾ قُلْ يَتَذَكَّرُ لَكُمْ فِيهَا آيَاتُ اللَّهِ وَلِيُخَذِّبَهُمْ عَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٧﴾ قُلْ يَتَذَكَّرُ لَكُمْ فِيهَا آيَاتُ اللَّهِ وَلِيُخَذِّبَهُمْ عَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ يَتَذَكَّرُ لَكُمْ فِيهَا آيَاتُ اللَّهِ وَلِيُخَذِّبَهُمْ عَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قُلْ يَتَذَكَّرُ لَكُمْ فِيهَا آيَاتُ اللَّهِ وَلِيُخَذِّبَهُمْ عَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾

مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاتَّبِعُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتَّبِعُوا
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣٠﴾ فَمَنْ أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣١﴾
قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٢﴾

١٢- تضمنت هذه الآيات بيان كذبهم صريحا

في إبطال النسخ، فإنه سبحانه وتعالى أخبر أن الطعام كله كان حلالا لبني إسرائيل، قبل نزول التوراة، سوى ما حرم إسرائيل على نفسه منه.

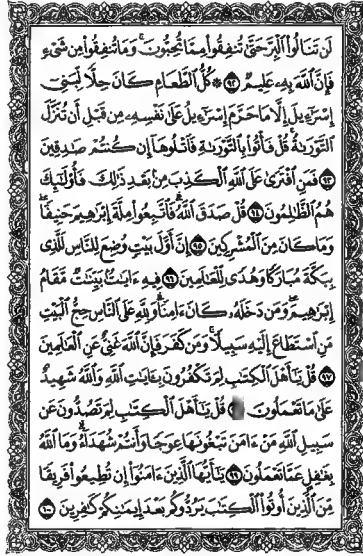
ومعلوم أن بني إسرائيل كانوا على شريعة أبيهم إسرائيل وملته، وأن الذي كان لهم حلالا إنما هو بإحلال الله تعالى له على لسان إسرائيل والأنبياء بعده إلى حين نزول التوراة، ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المأكّل عليهم، التي كانت حلالا لبني إسرائيل، وهذا محض النسخ (مفتاح دار السعادة ٩٩-١٠٠).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾

١٣- حج البيت مبتدأ وخبره في أحد المجرورين قبله، والذي يقتضيه المعنى

أن يكون في قوله: ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ لأنه وجوب والوجوب يقتضي (على). ويجوز أن يكون في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ لأنه يتضمن الوجوب والاستحقاق، ويرجح هذا التقدير أن

الخبر محط الفائدة وموضعها وتقديمه في هذا الباب في نية التأخير، وكان الأحق أن يكون ﴿وَلِلَّهِ﴾. ويرجح الوجه الأول بأن يقال قوله: «حج البيت على الناس» أكثر



استعمالا في باب الوجوب، من أن يقال: «حج البيت لله تعالى»، أي حق واجب لله، فتأمله، وعلى هذا ففي تقديم المجرور الأول وليس بخبر فائدتان:

إحدهما: أنه اسم للموجب للحج، فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب، فتضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع: أحدها: الموجب لهذا الفرض فبدئ بذكره، والثاني: مؤدي الواجب وهو المفترض عليه وهم الناس، والثالث: النسبة والحق المتعلق به إيجابا وبهم وجوباً وأداءً وهو الحج.

والفائدة الثانية: أن الاسم المجرور من حيث كان لله تعالى اسماً سبحانه، وجب الاهتمام بتقديمه تعظيماً لحرمة هذا الواجب الذي أوجبه، وتخويفاً من تضييعه، إذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمثابة ما أوجبه غيره.

١٤ - ومن فوائد الآية وأسرارها أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجبه ويحرمه يذكره بلفظ الأمر والنهي وهو الأكثر، أو بلفظ الإيجاب والكتاب والتحريم، نحو: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾، ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي﴾، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾، وفي الحج أتى بهذا النظم الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه:

أحدها: أن قدّم اسمه تعالى.

وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص.

ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف (على).

ثم أبدل منه أهل الاستطاعة.

ثم نكر السبيل في سياق الشرط إيذاناً بأنه يجب الحج على أي سبيل تسرت

من قوت أو مال، فعلق الوجوب بحصول ما يسمى
سبيلاً، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال:
(وَمَنْ كَفَرَ) أي بعدم التزام هذا الواجب وتركه.

ثم عظم الشأن وأكد الوعيد بإخباره باستغنائه
عنه والله تعالى هو الغني الحميد ولا حاجة به إلى
حج أحد.

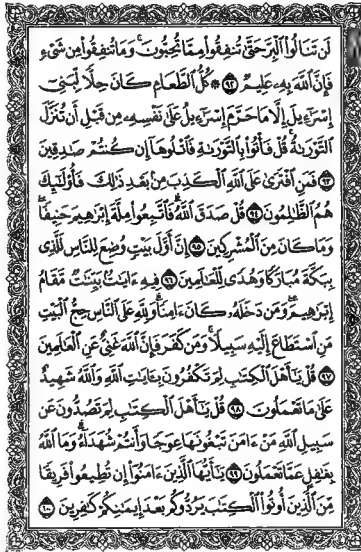
وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته
له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه ما هو من أعظم
التهديد وأبلغه.

ثم أكد ذلك بذكر اسم العالمين عموماً ولم يقل: فإن الله غني عنه. لأنه إذا كان
غنياً عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه عن كل أحد بكل اعتبار،
وكان أدل على عظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه.

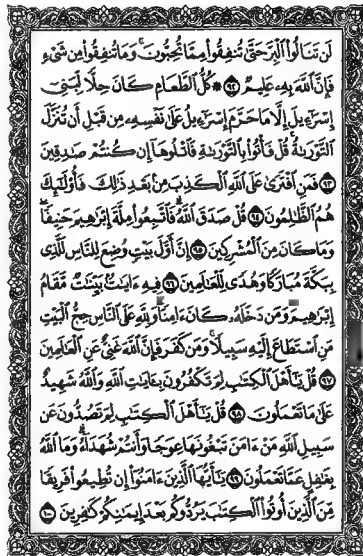
ثم أكد هذا المعنى بأداة (إن) الدالة على التوكيد.

فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكيد هذا الغرض العظيم.

١٥ - وتأمل سر البدل في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين مرة بإسناده إلى عموم
الناس، ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين، وهذا من فوائد البدل تقوية المعنى
وتأكيده بتكرار الإسناد، ولهذا كان فيه نية تكرار العامل وإعادته.



١٦- ثم تأمل ما في الآية من الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وحلتين اعتناء به وتأكيدها لشأنه.



١٧- ثم تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما يدعو النفوس إلى قصده وحجه وإن لم يطلب ذلك منها فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴿١٧﴾ فوصفه بخمس صفات:

أحدها: أنه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض.
الثاني: أنه مبارك والبركة كثرة الخير ودوامه
وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيرا ولا أدام ولا أنفع للخلائق.

الثالث: أنه هدى وصفه بالمصدر نفسه مبالغة حتى كأنه هو نفس الهدى.

الرابع: ما تضمنه من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية.

الخامس: الأمن لداخله.

وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حجه وإن شطت بالزائرين الديار وتناءت بهم الأقطار ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات وهذا يدل على الاعتناء منه سبحانه بهذا البيت العظيم والتنويه بذكره والتعظيم لشأنه والرفعة من قدره.

١٨- ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله: ﴿وَوَهَّارَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ لكفى بهذه الإضافة فضلا وشرفا وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب

العالمين إليه وسلبت نفوسهم حبا له وشوقا إلى رؤيته، فهو المثابة للمحبين يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرا أبدا كلما ازدادوا له زيادة ازدادوا له حبا وإليه اشتياقا فلا الوصال يشفيهم ولا البعاد يسليهم (بدائع الفوائد ٢/٤٢٤٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنَادُونَ عَلَى آلِهَةٍ أَنْتُمْ لَكُمْ رُسُلُهُمْ ۚ وَمَنْ يَحْتَسِبْ بِأَلْفٍ مِمَّا يَدْعُونَ بِهٖ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۚ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَلْقِمْ سَيْتَ الْبَغْلِ ۖ إِنَّ الْبَغْلَ يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَقَدْ كُنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ مُلُوكًا مُسْتَضِئِينَ ۚ فَاصْبِرْ عَلَى مَا تُصِيبُ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ شَقَا حَافِظٌ ﴿١٠٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا قَدْ كَذَّبْنَا بِكَ الْأَيَّاتِ ۚ فَاتَّقِ اللَّهَ ۚ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُنْكَرِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلَكِنْ قَدْ كُنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ مُدْعَوِينَ إِلَى الْخَيْرِ وَمَأْمُورِينَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٩﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَقَرَّوْا وَخَلَقُوا ۚ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ بِهِ ۚ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَنْبُطُ الرُّجُودُ وَتُسَوَّدُ الرُّجُودُ ۚ أَلَمْ تَرَ أَنَّا قَدْ كَذَّبْنَا بِكَ الْأَيَّاتِ ۚ فَاتَّقِ اللَّهَ ۚ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُنْكَرِينَ ﴿١١١﴾ قَدْ كُنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ مُدْعَوِينَ إِلَى الْخَيْرِ وَمَأْمُورِينَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَقَرَّوْا وَخَلَقُوا ۚ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ بِهِ ۚ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٣﴾

١٩- خص هؤلاء بالفلاح دون من عداهم، والداعون إلى الخير هم الداعون إلى كتاب الله وسنة رسوله، لا الداعون إلى رأي فلان وفلان (إعلام الموقعين ٢/٢٢٤).

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾

٢٠- وتقدير الدخول في هذا أظهر؛ إذ المعنى:

لن ينالوا منكم إلا أذى. وأما الضرر فإنهم لن ينالوه منكم ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ فنفي لحوق ضرر كيدهم بهم مع أنهم لا يسلمون من أذى يلحقهم بكيدهم ولو أنه بالإرهاب والكلام والجائهم إلى محاربتهم وما ينالهم بها من الأذى والتعب ولكن ليس ذلك بضارهم ففرق بين الأذى والضرر (بدائع الفوائد ٣/٧٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾

وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٤﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٥﴾



٢١- في قوله: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٧] تنبيه على أن سبب إصابتها لحرثهم هو ظلمهم؛ فهو الذي سلط عليهم الريح المذكورة حتى أهلكت زرعهم وأبيسته، فظلمهم هو الريح التي أهلكت أعمالهم ونفقاتهم وأتلفتها (إعلام الموقعين ١/ ٢٤١-٢٤٢).

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَعَلُوا عِزَّهُمْ
الْأَعْلَى وَالْأَرْضَ أَهْلَتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١١٧﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ
فِي السَّرَّاءِ وَالْغَمِّ وَالْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ
عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا
فَلْحَقَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ تَعَالَى فَاسْتَغْفَرُوا
لِذُنُوبِهِمْ وَمِنْ يَقُولِهِمْ الذُّلُوبُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا
فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١١٩﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُ مَن قَدَّرَ مِنْ
رَبِّهِمْ وَسَيَكُونُ جَزَاءُ الْآخَرِينَ كَمَا يَكُونُ جَزَاءُ
أُولَئِكَ سَائِلِينَ ﴿١٢٠﴾ قَدْ عَلِمْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ سَاءَ مَا
فَعَلُوا فِي الْأَرْضِ فَأَنظَرُوا عَنَّا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢١﴾
هَذَا نَسِيتُ النَّاسَ وَمَعِيَ لَقِيتُهُمْ وَمَا يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٢﴾
وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٣﴾
إِنْ يَسْتَكْبِرُوا فَسَخَّرْنَا الْقَوْمَ قَرْحًا مِّثْلَهُ وَلَيْسَ
بِأَلَمٍ لِّمَنْ يَدَّوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيسَ اللَّهُ الْغَنِيُّ
وَلَيْسَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَلِلَّهِ الْغَيْبُ وَهُوَ
الْعَلِيمُ ﴿١٢٤﴾

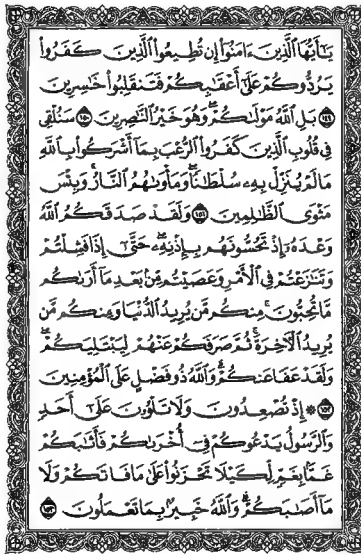
قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [١٣٦] إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَلِلَّهِ الْآيَاتُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمْنُونَ الْوَيْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَآيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

٢٢- قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] تنبيه لطيف الموقع جدا على كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخدلوا عن نبيه يوم أحد فلم يشهدوه ولم يتخذ منهم شهداء، لأنه لم يحبهم فأركسهم وردهم ليحرمهم ما خص به المؤمنين في ذلك اليوم، وما أعطاه من استشهاد منهم، فبسط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أوليائه وحزبه (عدة الصابرين ١٦٦-١٦٧).

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ يَدْعُوكُمْ فِيْ أَخْرَجَكُمْ فَأَتَيْتُكُمْ عَمَّا بَعَثَ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [١٥٧].

٢٣- تنبيه على حكمة هذا الغم بعد الغم، وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم من الظفر وعلى ما أصابهم من الهزيمة والجراح، فنسوا بذلك السبب، وهذا إنما يحصل بالغم الذي يعقبه غم آخر.

٢٤- وقوله: ﴿يَغْمِرُ﴾ من تمام الثواب، لا أنه سبب جزاء الثواب، والمعنى: أثابكم غما متصلا بغم جزاء على ما وقع منهم من الهروب، وإسلامهم بينهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وترك استجابتهم له، وهو يدعوهم، ومخالفتهم له في لزوم مركزهم، وتنازعهم في الأمر وفشلهم، وكل واحد من هذه الأمور يوجب غما يخصه، فترادفت عليهم الغموم، كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها، ولولا أن تداركهم بعفوه لكان أمرا آخر.



ومن لطفه بهم ورأفته ورحمته أن هذه الأمور التي صدرت منهم كانت من موجبات الطباع، وهي من بقايا النفوس التي تمنع من النصر المستقرة،

فقيض لهم بلطفه أسبابا أخرجها من القوة إلى الفعل، فترتب عليها آثارها المكروهة، فعلموا حينئذ أن التوبة منها، والاحتراز من أمثالها، ودفعها بأضدادها أمر متعين لا يتم لهم الفلاح والنصرة الدائمة المستقرة إلا به، فكانوا أشد حذرا بعدها ومعرفة بالأبواب التي دخل عليهم منها.

وربما صحت الأجسام بالعلل.

📖 قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدِّ الْأَعْمِ أَمْنَةً نُعَاسًا يَعْشَى طَآئِفَةً مِنْكُمْ

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدِّ الْقُرْآنِ أَمْنَةً شَاسِعَةً يَنْتَبِهُنَّ طَآئِفَةٌ
مِنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ
الْحَقِّ عَلَى الْبَهْلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ
الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يَخْفُونَ فِي
أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ
الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ
لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ
وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي
قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

وَأَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ
غَيْرَ الْحَقِّ ظَنُّ الْبَهْلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ
الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يَخْفُونَ فِي
أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ
الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ
لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ
وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي
قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

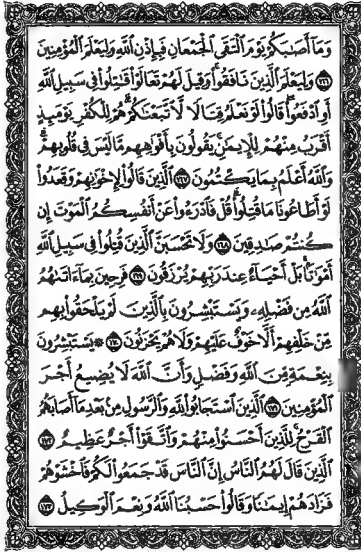
٢٥- فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا

الموضع، وليتب إلى الله تعالى، وليستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن
السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبع كل شر، المركبة على الجهل والظلم،
فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وأرحم الراحمين، الغني
الحميد الذي له الغنى التام والحمد التام والحكمة التامة، المنزه عن كل سوء في ذاته
وصفاته، وأفعاله وأسمائه والمقصود ما ساقنا إلى هذا الكلام من قوله: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدِّ الْقُرْآنِ أَمْنَةً شَاسِعَةً يَنْتَبِهُنَّ طَآئِفَةٌ مِنْكُمْ وَأَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنُّ الْبَهْلِيَّةِ﴾.

📖 قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

٢٦- وقد تضمنت هذه الكلمات مراعاة حق الله وحق الخلق، فإنهم إما يسيئون في
حق الله وفي حق رسوله، فإن أساءوا في حقك فقابل ذلك بعفوك عنهم، وإن أساءوا في

حقني فاسألني أغفر لهم وأستجلب قلوبهم، وأستخرج ما عندهم من الرأي بمشاورتهم، فإن ذلك أحرى في استجلاب طاعتهم وبذل النصيحة، فإذا عزمت فلا استشارة بعد ذلك بل توكل وامض لما عزمت عليه من أمرك فإن الله يحب المتوكلين (تفسير هذه الآية جاء في الرسالة النبوية ٨٦).



قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (٣٣) ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٧٠).

٢٧- وإذا كان الشهداء إنما نالوا هذه الحياة بمتابعة الرسل وعلى أيديهم، فما الظن بحياة الرسل في البرزخ؟ ولقد أحسن القائل:

فالعيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال ساري

فللرسل والشهداء والصديقين من هذه الحياة التي هي يقظة من نوم الدنيا أكملها وأتمها، وعلى قدر حياة العبد في هذا العالم يكون شوقه إلى هذه الحياة، وسعيه وحرصه على الظفر بها، والله المستعان (مدارج السالكين ٢٨٢/٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٠).

٢٨- من كيد عدو الله تعالى: أنه يخوِّف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم ولا يأمرؤنهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر، وهذا من أعظم كيده

بأهل الإيمان، وقد أخبرنا الله سبحانه عنه بهذا فقال: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَائِهِ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥].

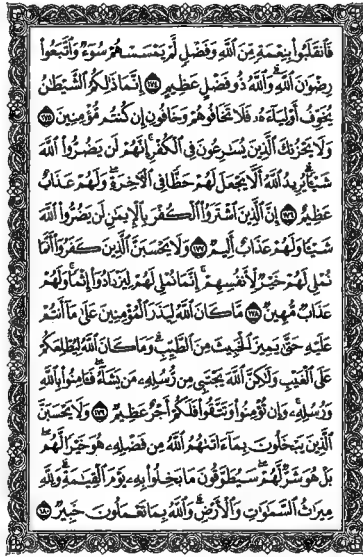
المعنى عند جميع المفسرين: يخوفكم بأوليائه. قال قتادة: «يعظمهم في صدوركم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧٥﴾ فكلما قوى إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمان العبد قوى خوفه منهم» (إغاثة اللهنان ١/ ١١٠).

٢٩- وقد أمر سبحانه بالخوف منه في قوله:

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فجعل الخوف منه شرطاً في تحقق الإيمان، وإن كان الشرط داخلاً في الصيغة على الإيمان فهو المشروط في المعنى، والخوف شرط في حصوله وتحقيقه.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٧٦﴾.

٣٠- هذه الآية من كنوز القرآن نبه فيها على حكمته تعالى المقتضية تمييز الخبيث من الطيب، وأن ذلك التمييز لا يقع إلا برسله، فاجتبي منهم من شاء وأرسله إلى عباده، فيتميز برسالتهم الخبيث من الطيب، والولي من العدو، ومن يصلح لمجاورته وقربه وكرامته ممن لا يصلح إلا للوقود، وفي هذا تنبيه على الحكمة في إرسال الرسل وأنه لا بد منه، وأن الله تعالى لا يليق به الإخلال به، وأن من جحد رسالة رسله فما قدره حق



قدره ولا عرفه حق معرفته ونسبه إلى ما لا يليق به كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ فتأمل هذا الموضع حق التأمل وأعطه حظه من الفكر، فلو لم يكن في هذا الكتاب سواه لكان من أجل ما يستفاد، والله الهادي إلى سبيل الرشاد (مفتاح دار السعادة ٤١٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١١١﴾.

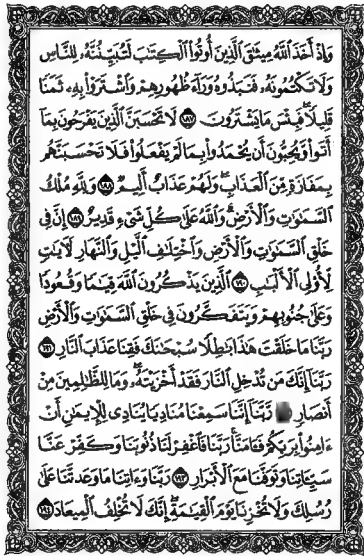
وَمَا أَفَعَدَّ اللَّهُ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوا الْقِبْلَةَ لَأَيُّهَا النَّاسُ وَلَا تَكْفُرُونَ قَدْرَهُ وَنَزَّلَهُ عَلَيْهِمْ وَأَنزَلَ بِهِ كِتَابًا فَلَا يَفْقَهُونَ إِلَّا مَا يَشَاءُ اللَّهُ ۝١١٠ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١١١ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١١٢

٣١- تأمل كيف أخبر سبحانه عنه بنفي الباطلية عن خلقه دون إثبات الحكمة؛ لأن بيان نفي الباطل على سبيل العموم والاستغراق أوغل في المعنى المقصود وأبلغ من إثبات الحكم لأن بيان جميعها لا يفي به إفهام الخليفة وبيان البعض يؤذن بتناهي الحكمة ونفي البطلان والخلو عن الحكمة والفائدة تفيد أن كل جزء من أجزاء العالم علويّه وسفليّه متضمن لحكم جمة وآيات باهرة، ثم أخبر سبحانه عنهم بتنزيهه عن الخلق باطلا خلوا عن الحكمة (مفتاح دار السعادة ٤١٩-٤٢٠).

٣٢- فعم بذكره أحوال العباد كلها لأن العبد إما أن يكون قائما أو قاعدا أو مضطجعا، فأراد منه ذكره في هذه الأحوال كلها (الصواعق المرسله ٤/ ١٤٨٠).

٣٣- وقال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ ولا يجوز أن يكون المراد أنه تعالى خلقها ليستدل بتركيبها وتأليفها على وجود

الصانع؛ لأن هذا القدر حاصل في تركيب البقعة والبعوضة، وفي حصول الحياة في بنية الحيوانات على وجود الصانع أقوى من دلالة تركيب الأجرام الفلكية على وجود الصانع لأن الحياة لا يقدر عليها أحد إلا الله، أما تركيب الأجسام وتأليفها فقد يقدر على جنسه غير الله، فلما كان هذا النوع من الحكمة حاصلًا في غير الأفلاك، ثم إنه تعالى خصها بهذا التشريف وهو قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ علمنا أن له تعالى في تخليقها أسرارًا عالية وحكما بالغة تتقاصر عقول البشر عن إدراكها (مفتاح دار السعادة ٥٢٩).



قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ۝١٩٣ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝١٩٤﴾

٣٤- تأمل كيف تضمن إيمانهم به والإيمان بأمره ونهيه ورسله ووعدده ووعيدته وأسمائه وصفاته وأفعاله وصدق وعده والخوف من وعيده واستجابتهم لأمره، فبمجموع ذلك صاروا مؤمنين بربهم تعالى، فبذلك صح لهم التوسل إلى سؤال ما وعدهم به والنجاة من عذابه.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣٥﴾

٣٥- قيل في قوله تعالى ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] إنه انتقال

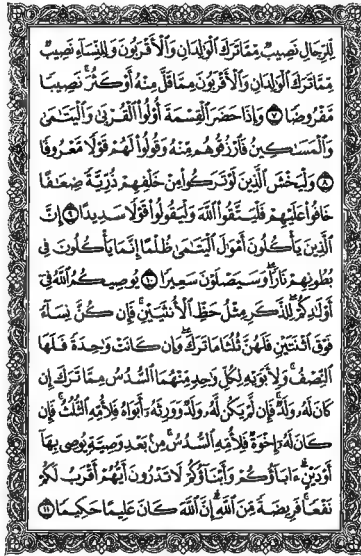
[illegible]

ولا يتم أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة، فلا يتم الصبر إلا بمصابرة العدو، وهو مقاومته ومنازلته،

فهؤلاء أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير الخلق بعد النبيين والمرسلين، وأعظمهم حماية وحراسة من الشيطان، وقد أدخلوا المكان الذي أمروا بلزومه يوم أحد، فدخل منه العدو، فكان ما كان.

سورة النساء

﴿قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ غَيْرِ مُضَارٍّ﴾.﴾



١- فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِنَّمَا قدم على الميراث وصية من لم يضار الورثة، فإذا كانت الوصية وصية ضرار كانت حراماً، وكان للورثة إبطالها، وحرم على الموصي له أخذ ذلك بدون رضا الورثة، وأكد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذلك بقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

٢- وتأمل كيف ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الضرار في هذه الآية دون التي قبلها؛ لأن الأولى تضمنت ميراث العمودين، والثانية تضمنت ميراث الأطراف: من الزوجين، والإخوة. والعادة أن الميت قد يضار زوجته وإخوته، ولا يكاد يضار والديه وولده.

﴿قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لَتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ﴾.﴾

٣- استنبط بعضهم من الآية أنه لا يحل للرجل أن يمسك امرأته ولا أرب له فيها، طمعاً أن تموت فيرث مالها، وفيه نظر، والله أعلم.

٤ - فهذا دليل على أنه إذا عضلها لتفتدي نفسها منه وهو ظالم لها بذلك، لم يحل له أخذ ما بذلته له ولا يملكه هو.

(إغاثة اللفهان ١ / ٣٧٨).

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَبْرُتَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدَ الْيَتِيمَ أَنْ يَتَّخِذَ
أَسْمَهُمْ أَنْ يَقُولُوا قَوْلًا عَظِيمًا ۖ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ
عَنكُمْ وَيُخَلِّقَ الْإِنْسَانَ حَضَبًا ۖ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَكُنُوا أَمْوَالَكُمْ يَتَخَذَنَّهَا بِالطَّيْلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ
حِجْرَةً ۚ عَنْ قَرَائِينَ فُقَاتًا ۚ وَلَا تَقُولُوا أَلَسْ كُنَّا فِي
اللَّهِ كَاتِبِينَ ۚ بَعْضُكُمْ رَجِيمًا ۚ وَمَنْ يَقُولْ ذَلِكَ عُدَا
وُطْلَمَا فَسَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ۚ كَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
يَسِيرٌ ۚ إِنْ تَجِدُوا كَافِرًا تَشَابَهَكُمْ فِي غَدَابَتِهِ
فَعَلَيْكُمْ سَيَافِرُهُ ۚ وَمَنْ يَجْعَلْهُ مِثْلَ كَافِرٍ يَمَسْ
وَلَا تَسْتَمْتُوا فَوَاقِلَ اللَّهِ ۚ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ يَرْتَدَّ
تَحِيْبًا ۚ وَمَا كُنْتُمْ بِأَوْلَىٰ ذَٰلِكَ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَلِيظَ قَوِّهِ
عِلْمًا ۚ وَلَا تَكُنْ جَمَلًا مِّثْلَ مَوْتٍ ۚ وَمَنْ تَرَكِ الْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ ۚ وَالْيَتِيمَ ۚ عَقَدْتُ أَيْدِيَكُمْ فَمَاؤُهُ
نَصِيبُهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا غَنِيًّا ۚ

إله إلا الله خالصا من قلبه»، بل محو التوحيد الذي هو توحيد الكبائر أعظم من محو اجتناب الكبائر للصغائر. (إعلام الموقعين ١ / ٢٩٠-٢٩١).

٧- جعل الغاية التي يزول بها حكم السكران أن يعلم ما يقول، فمتى لم يعلم ما يقول، فهو في السكر، وإذا علم ما يقول، خرج عن حكمه، وهذا هو حد السكران عند جمهور أهل العلم.



قيل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: بماذا يعلم أنه سكران؟ فقال: إذا لم يعرف ثوبه من ثوب غيره، ونعله من نعل غيره. (روضة المحبين ١٥١).

قوله تعالى: ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهٗ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا



أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ مَّجْدَلَهُ تَصَدَّقُوا ۝
أُولَٰئِكَ نَجْزِيهِمْ مِنْ ذَلَالِكُمُ الْمَالُ مَا لَكُمُ مِنَ النَّاسِ تَقْوِيًّا ۝ أَمْ
يَحْسَبُونَ أَنَّ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ أَفْهَقْنَا
عَالِي الْأَرْبَابِ الْأَكْثَرَ وَلِكَيْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
قَدِيرٌ ۝ قَدْ آمَنَ بِرَبِّهِمْ وَلَكِنْ يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ
إِنْ أَرَادَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ آيَاتًا سَوَّاهُ كَمَا كَانَ اللَّهُ
يُنَزِّلُ آيَاتِهِ عَلَى رُسُلِهِ مِنْ قَبْلُ ۝ وَلَئِنْ
عَرَفْتُمْ أَحْسَنَ مَا يَخْتَارُ ۝ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
أُولَٰئِكَ هُمْ فِيهَا ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝
أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝

٨- أمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله، وافتتح الآية بالنداء باسم الإيمان المشعر بأن المطلوب منهم من موجبات الاسم الذي نودوا به وخطبوا به، كما يقال: يا من أنعم الله عليه وأغناه من فضله، أحسن كما أحسن الله إليك. ويا أيها العالم، علم الناس ما ينفعهم. ويا أيها الحاكم، احكم بالحق. ونظائره.

ولهذا كثيرا ما يقع الخطاب في القرآن بالشرائع،

كقوله تعالى: ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا كُنِبَ عَلَيْكُمْ

الصِّيَامُ ۝﴾، ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ ۝﴾، ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۝﴾. ففي هذا إشارة إلى أنكم إن كنتم مؤمنين فالإيمان يقتضي منكم كذا وكذا فإنه من موجبات الإيمان وتمامه.

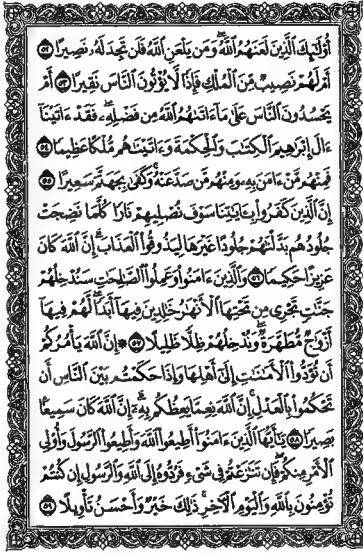
٩- قرن بين طاعة الله والرسول وطاعة أولي الأمر، وسلط عليهما عاملا واحدا. وقد كان ربما يسبق إلى الوهم أن الأمر يقتضي عكس هذا، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله، ولكن الواقع هنا في الآية المناسب.

وتحته سر لطيف وهو دلالة على أن ما يأمر به رسوله يجب طاعته فيه وإن لم

يكن مأمورا به بعينه في القرآن طاعة الرسول مفردة ومقرونة، فلا يتوهم متوهم أن ما يأمر به الرسول إن لم يكن في القرآن وإلا فلا تجب طاعته فيه.

١٠- تأمل كيف اقتضت إعادة هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾،

ولم يقل: وإلى الرسول. فإن الرد إلى القرآن رد إلى الله والرسول، فما حكم به الله



تعالى هو بعينه حكم رسوله، وما يحكم به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو بعينه حكم الله. فإذا رددتم إلى الله ما تنازعتم فيه يعني كتابه، فقد رددتموه إلى رسوله. وكذلك إذا رددتموه إلى رسوله فقد رددتموه إلى الله، وهذا من أسرار القرآن.

١١- وهذا دليل قاطع على أنه يجب رد موارد

النزاع في كل ما تنازع فيه الناس من الدين كله إلى الله ورسوله لا إلى أحد غير الله ورسوله، فمن أحال الرد على غيرهما فقد ضاد أمر الله، ومن دعا عند النزاع

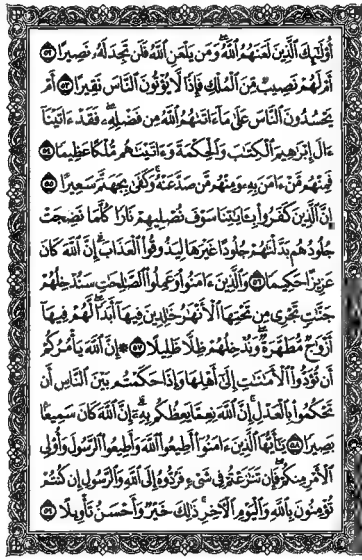
إلى حكم غير الله ورسوله فقد دعا بدعوى الجاهلية، فلا يدخل العبد في الإيمان حتى يرد كل ما تنازع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله.

١٢- ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وهذا مما ذكرنا

أنفا أنه شرط ينتفي المشروط بانتفائه، فدل على أن من حكم غير الله ورسوله في موارد مقتضى النزاع كان خارجا من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر، وحسبك بهذه الآية العاصمة القاصمة بيانا وشفاء؛ فإنها قاصمة لظهور المخالفين لها، عاصمة للمتمسكين بها الممثلين ما أمرت به.

قال الله تعالى ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وقد اتفق السلف والخلف على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته والرد إلى سنته بعد وفاته.



١٣- فدل هذا على أن طاعة الله ورسوله وتحكيم الله ورسوله هو سبب السعادة عاجلا وآجلا. ومن تدبر العالم والشور الواقعة فيه علم أن كل شر في العالم سببه مخالفة الرسول والخروج عن طاعته، وكل خير في العالم، فإنه بسبب طاعة الرسول. وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها إنما هو من موجبات مخالفة الرسول ومقتضياتها، فعاد شر الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول وما يترتب عليه، فلو أن الناس أطاعوا الرسول حق طاعته، لم يكن في الأرض

شر قط، وهذا كما أنه معلوم في الشرور العامة والمصائب الواقعة في الأرض، وكذلك هو في الشر والألم، والغم الذي يصيب العبد في نفسه، فإنما هو بسبب مخالفة الرسول، ولأن طاعته هي الحصن الذي من دخله كان من الآمنين، والكهف الذي من لجأ إليه كان من الناجين.

فعلم أن شرور الدنيا والآخرة إنما هو الجهل بما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخروج عنه، وهذا برهان قاطع على أنه لا نجاة للعبد ولا سعادة إلا بالاجتهاد في معرفة ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علما والقيام به عملا.

الَّذِينَ إِلَى اللَّهِ يَرْجِعُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُرْسِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُرْسِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ
وَقَدْ لَوْ أَنَّكَ تَوَلَّيْتَ الْفِتْنَةَ وَفَرَيْدَ الشَّيْطَانِ أَنْ يُضِلَّهُمْ
خَلْقًا بَعْضًا ۖ وَلَئِنْ أَقْبَلُ لَهُمْ قَوْلًا إِلَّا مَا أُنْزِلَ
إِلَى الْوَسْلِ وَأَنْتَ الْمُنْتَفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنَّا
صُدُّوكَ ۖ فَكَتَبَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا
قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ فَجَاءَهُمْ بِخُلُوفٍ وَأَقْوَامٍ أَرَادُوا أَنْ
يَخْتَصِمُوا فِي قِيَامِ ۖ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَضِلُّ اللَّهُ مَا
فِي قُلُوبِهِمْ فَانْزِلْ عَنْهُمْ وَعَظِّمْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي
أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُلِهِ إِلَّا
لِنُطَاعِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَوَّلُهُمْ إِذْ عَلَّمُوا أَنْفُسَهُمْ
جَاهَهُ ۖ فَانْزِلْ عَنْهُمْ وَاللَّهُ وَأَنْتَ تَعْقِلُ لَهُمُ الرُّسُلَ
لِيُجِدُوا اللَّهَ وَأَوَّلَ آيَاتِهِمْ ۖ وَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي
أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾.

١٤- أقسم سبحانه بنفسه المقدسة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم، ولا يكفي ذلك في حصول الإيمان حتى يزول الحرج من نفوسهم بما حكم به في ذلك أيضا حتى يحصل منهم الرضا والتسليم، فقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَيْكَ

لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]. فأكد ذلك بضروب من التأكيد:

أحدها: تصدير الجملة المقسم عليها بحرف النفي المتضمن لتأكيد النفي المقسم عليه وهو في ذلك كتصدير الجملة المثبتة بـإن.

الثاني: القسم بنفسه سبحانه.

الثالث: أنه أتى بالمقسم عليه بصيغة الفعل الدالة على الحدث أي لا يقع منهم إيمان ما حتى يحكموك.

الرابع: أنه أتى في الغاية بـ(حتى) دون (إلا) المشعرة بأنه لا يوجد الإيمان إلا بعد حصول التحكيم؛ لأن ما بعد (حتى) يدخل فيما قبلها.

الخامس: أنه أتى المحكم فيه بصيغة الموصول الدالة على العموم وهو قوله: ﴿ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي في جميع ما تنازعوا فيه من الدقيقة والجليلة.

الثامن: أنه أتى بذكر ما قضى به بصيغة العموم، فإنها إما مصدرية أي من قضائك،

[illegible]

العاشر: أنه أكد فعل التسليم بالمصدر المؤكد.

١٥- إن لفظة (ما) من صيغ العموم، فإنها موصلة تقتضي نفي الإيمان، أو يوجد تحكيمه في جميع ما شجر بينهم. ولم يقتصر على هذا حتى ضم إليه انشراح صدورهم بحكمه حيث لا يجدون في أنفسهم حرجا - وهو الضيق والحصر - من حكمه، بل يقبلون حكمه بالانشراح، ويقابلونه بالتسليم لأنهم يأخذونه على إغماض، ويشربونه على قذى، فإن هذا مناف للإيمان، بل لا بد أن يكون أخذه بقبول ورضا وانشراح صدر.

١٦- لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم إليه قوله تعالى: ﴿وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ فذكر الفعل مؤكداً بمصدره القائم مقام ذكره مرتين، وهو التسليم والخضوع

يَعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ ۖ ﴿١٠﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾، وقوله: ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾، فقولهُ: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ هو من هذا القسم الذي يصيبه العبد لا باختياره، وهذا إجماع من السلف في تفسير هذه الآية.

١٩- ولهذا قال سبحانه: ﴿فَالِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ فإنهم لو فقهوا الحديث، لعلموا أنه ليس في الحديث الذي أنزله الله على رسوله ما يوجب شرا البتة، ولعلموا أنه سبب كل خير، ولو

وَمَا كُنَّا لَنُفْتِنَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
فَالْقَائِلُ لَهُمُ الْمَخْرُجُ لَمَّا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ رَجُلٌ تَمَنَّاهُ أَنَّ لَهُكَ فَيْصًا
الَّذِينَ آمَنُوا يَفْتَنُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَفْتَنُوا فِي
سَبِيلِ الظَّالِمِينَ فَيَقْبِلُوا أَوْلِيَاءَ الظَّالِمِينَ إِنَّ كَيْدَ الظَّالِمِينَ
كَانَ ضَعِيفًا ۝ الْقَوْمَ الَّذِينَ يَقُولُ لَكُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ
يَتَحَنَّنُونَ أَلَيْسَ لَكُمُ اللَّهُ أَوْلَىٰ خَشْيَةً ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَتَحَنَّنُوا
عَلَيْهِ الْقِتَالُ كَلِمَاتُ الْأَعْرَابِ لِمَنِ وَقِفُوا أَيْدِيكُمْ ۚ فَمَنْ مَتَّعَ الدُّنْيَا قَلِيلًا
وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّمَا تَتَكَلَّفُونَ
بِذِكْرِ كَلِمَاتٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ فِي بَروُجٍ مِّمَّنْ مَنَعَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ خَيْرُ حَسَنَةٍ
يَقُولُوا أَخَذُوا مِنْ عِندِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ خَيْرُ حَسَنَةٍ يَقُولُوا أَخَذُوا مِنْ
عِندِ كُلِّ مَلَكٍ عِندَ مَا هَلْ يَخْلُقُ اللَّهُ فَمَا لَبِثُوا بِكُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرُونَ
سُورَةُ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ قُلْ اللَّهُ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ
فَمِنْ نَفْسِكُمْ ۚ وَأَلْزَمْنَا كَلِمَاتٍ يُسَوَّلُونَ ۚ وَكَلِمَاتُ اللَّهِ شَهِيدًا ۝

فَقَهُوا عِلْمُوا أَنَّ الْعُقُولَ وَالْفِطْرَةَ تَشْهَدُ بِأَنَّ مَصَالِحَ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، فَلَوْ فَقَهُوا الْقُرْآنَ عِلْمُوا أَنَّهُ أَمَرُهُمْ بِكُلِّ خَيْرٍ وَنَهَاهُمْ عَنِ كُلِّ شَرٍّ، وَهَذَا مِمَّا يَبِينُ أَنَّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ يَعْلَمُ حَسَنَهُ بِالْعَقْلِ، وَأَنَّهُ كُلُّهُ مُصْلِحَةٌ وَرَحْمَةٌ وَمَنْفَعَةٌ وَإِحْسَانٌ، بِخِلَافِ مَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ الْبَاطِلِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَأْمُرُ الْعِبَادَ بِمَا لَا مُصْلِحَةَ لَهُمْ فِيهِ، بَلْ يَأْمُرُهُمْ بِمَا فِيهِ مُضَرَّةٌ لَهُمْ، وَقَوْلُهُ هَؤُلَاءِ تَصْدِيقٌ وَتَقْرِيرٌ لِقَوْلِ الْمُتَطَهِّرِينَ بِالرَّسُولِ. (شفاء العليل ١٥٩-١٧٢).

٢٠- فذم من لم يفقه كلامه، والفقه أخص من الفهم، وهو فهم مراد المتكلم من كلامه، وهذا قدر زائد على مجرد فهم وضع اللفظ في اللغة، وبحسب تفاوت مراتب

الناس في هذا تتفاوت مراتبهم في الفقه والعلم. (إعلام الموقعين ١/ ٢١٩).

٢١- ومما يوضح الأمر في ذلك أنه سبحانه لما قال: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ مِنْ اللَّهِ﴾ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴿ عقب ذلك بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ وذلك يتضمن أشياء:

وَمَا كُنَّا مُنْجِلِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ لِأَهْلِهَا لَنَا بَئْسَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ لَكَ إِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ فَيَقْبَلُونَ أَوْلِيَاءَهُ الَّذِينَ الظَّالِمِينَ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿١٦﴾ أَلَمْ يَأْتِ الْبَنِيَّانِ قِيلَ لَهُمَا كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَكَذَّبَ عَلَيْهِمَا قَوْمَهُمَا فَذُكِّرَا فِي الْمِثْقَلِ الَّذِي فِيهِ يَتَوَضَعُونَ الْقُلُوبُ فَكَذَّبَا أُولَئِكَ سَخِيَّةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو قُرْبَىٰ ﴿١٧﴾ عَلَيْنَا الْقِتَالُ فَوَلَا أَخْرَجْنَا إِلَيْنَا أَجَلَ قَرِيبٍ فَلَمَّا مَتَّعْنَا الدُّنْيَا قَلِيلًا وَالْآخِرَةَ حَزَنًا لِمَنْ أَتَىٰ وَلَا يَنْظُرُونَ فَيُجِزِلُ ﴿١٨﴾ أَلَيْسَ تَأْتِيكَ الْبُيُوتُ بِذِكْرٍ لِّلْمَوْتِ وَذِكْرُهَا فِي بُرُوجٍ مُّشْتَدَّةٍ وَأَنْ تُبْشِرَ حَسَنَةً يَقُولُوهَا أَهْلُوهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَلَنْ تُبْشِرَ بِحَسَنَةٍ يَقُولُوهَا أَهْلُوهَا مِنْ عِنْدِكَ قُلْ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ قَالَ هَلْ أَدْرَاكَ الْقَوْمَ لَا كَذِبُ إِنَّهُمْ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿١٩﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٠﴾

منها تنبيه أمته على أن رسوله الذي شهد له بالرسالة إذا أصابه ما يكره فمن نفسه، فما الظن بغيره؟! ٢٢- ومنها أن حجة الله قد قامت عليهم بإرساله، فإذا أصابهم سبحانه بما يسوءهم لم يكن ظالما لهم في ذلك؛ لأنه قد أرسل رسوله إليهم يعلمهم بما فيه مصالحهم وما يجلبها لهم وما فيه مضرتهم وما يجلبها لهم، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلو من إلا نفسه.

٢٣- ومنها أنه سبحانه قد شهد له بالرسالة بما أظهره على يديه من الآيات الدالة على صدقه، وأنه رسوله حقا فلا يضره جحد هؤلاء الجاهلين الظالمين المتطيرين به لرسالته ومن شهد له رب السماوات والأرض.

٢٤- ومنها أنهم أرادوا أن يجعلوا سيئاتهم وعقوباتها حجة على إبطال رسالته، فشهد له بالرسالة وأخبر أن شهادته كافية، فكان في ضمن ذلك إبطال قولهم إن المصائب من عند الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإثبات أنها من عند أنفسهم بطريق الأولى.

٢٥- ومنها ذم من لم يتدبر القرآن ولم يفقهه، وإن إعراضه عن تدبره وفقهه يوجب له من الضلال والشقاء بحسب إعراضه.

٢٦- ومنها إثبات الأسباب وإبطال قول من ينفىها ولا يرى لها ارتباطا بمسبباتها.

٢٧- ومنها أن الخير كله من الله والشر كله من النفس، فإن الشر هو الذنوب

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ قَوْلَ: فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِنَّا بَرَاءٌ لِمَنِ عِبَادَةٌ ۖ بَيِّنَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ وَمِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي يَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْهُ كَانُوا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ أَوْ لَعَنُوا أَوْ إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ وَمِنْهُمْ لَعُتِمَ الَّذِينَ لَا يَسْئَلُونَ اللَّهَ مِنْهُمْ وَلَوْ أَفَضَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحِمَهُمْ لَآتَمَّتْهُ الشَّيْطَانُ إِلَّا قَلِيلًا ۝ فَتَنَبَّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلَفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكْفِيَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنَكُّلًا ۝ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا ۝ وَلَا تَحْسَبُ أَنَّ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَعْيُنِ وَأَنْ يَكُنْ لَهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ وَاللَّهُ يَخْتَبِرُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝

وعقوبتها والذنوب من النفس وعقوباتها مترتبة عليها، والله هو الذي قدر ذلك وقضاه، وكل من عنده قضاء وقدر، وإن كانت نفس العبد سببه بخلاف الخير والحسنات، فإن سببها مجرد فضل الله ومنه وتوفيقه كما تقدم تقريره.

٢٨- ومنها أنه سبحانه لما رد قولهم أن الحسنة من الله والسيئة من رسوله وأبطله بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، رفع وهم من توهم أن نفسه لا تأثير لها في السيئة ولا هي منها أصلاً بقوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ وخاطبه بهذا تنبيهاً لغيره كما تقدم. (شفاء العليل ١٥٩-

١٧٢).

قوله تعالى: ﴿فَقَنِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٩- لما أمره بالقتال أخبره أنه لا يكلف بغيره، بل إنما كلف نفسه، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لثلاث توهم سامع أنه وإن لم يكلف بهم فإنه يهملهم ويتركهم. (الصواعق المرسلة ١/ ٣٩٠-٣٩١).

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾.

٣٠- تأمل قوله تعالى في الشفاعة الحسنة ﴿يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ وفي السيئة ﴿يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ فإن لفظ الكفل يشعر بالحمل والثقل، ولفظ النصيب يشعر بالحظ الذي ينصب طالبه في تحصيله، وإن كان كل منهما يستعمل في الأمرين عند الانفراد، ولكن لما قرن بينهما حسن اختصاص حظ الخير بالنصيب وحظ الشر بالكفل. (روضة المحبين ٣٤٥-٣٤٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ١٠٠﴾.

لَا يَسْتَعْرِضُ الْقُدُورَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ الْوَلِيِّ الْقَسْرَ وَالْمُجَاهِدِينَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْرِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَحَسْبُ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْرِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَوْمِ دَرَكَةٌ وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخَسْرَ وَفَضَّلَ اللَّهُ
الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَوْمِ أَمْرًا عَظِيمًا ١٠٠ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً
وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ١٠١ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ
ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَسْجِدٌ مِّنْ فِي الْأَرْضِ
قَالُوا الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ سَبْعَةً وَثَلَاثِينَ مَرَّةً قَالُوا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ
جَنَّةٌ مِّنْ مَّوَسَّاتٍ مَّصِدًا ١٠٢ إِلَّا الْمَسْجِدَ حَقِّينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنَّسْلِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَمُوتُونَ سَيِّئًا ١٠٣
قَالُوا لَيْسَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَتَوَعَّدَ نَفْسًا كَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَدِيرًا ١٠٤ وَتَمَّ
يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ
يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ
وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ١٠٥ وَإِذَا خَرُجُوا
فِي الْأَرْضِ فَلْيَسْ عَلَى كُرُوحَاتِهِمْ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنَّهُمْ خُفَّاءُ
أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ كَمَا يَتَّقُونَ الْكُفْرَانَ كَالْوَالِدِ الْمَرْعُورِ ١٠٦

٣١- مغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له، فموافقته فيها من كمال العبودية، وشرع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمصلي إذا سها في صلاته سجدين، وقال «إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان»، وفي رواية «ترغيمان للشيطان» وسماها المرغمتين.

فمن تعبد الله بمراغمة عدوه، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر، وعلى قدر محبة العبد لربه

وموالاته ومعاداته لعدوه يكون نصيبه من هذه المراغمة، ولأجل هذه المراغمة حمد التبخر بين الصفين، والخيلاء والتبخر عند صدقة السر، حيث لا يراه إلا الله، لما في ذلك من إرغام العدو، وبذل محبوبه من نفسه وماله لله عزَّ وجلَّ.

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس، ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول.

وبالله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان، ولاحظه في الذنب، راغمه بالتوبة النصوح، فأحدث له هذه المراغمة عبودية أخرى. (مدارج السالكين ١/ ٢٢٦-٢٢٧).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١٣٥﴾.

٣٢- قال في الآية الأخرى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ فنصمنا الآيات

أمورًا أربعة:

أحدهما: القيام بالقسط.

الثاني: أن يكون لله.

الثالث: الشهادة بالقسط.

الرابع: أن تكون لله.

واحتضنت آية النساء بالقسط والشهادة لله، وآية

المائدة بالقيام لله والشهادة بالقسط لسر عجيب من

أسرار القرآن ليس هذا موضع ذكره.

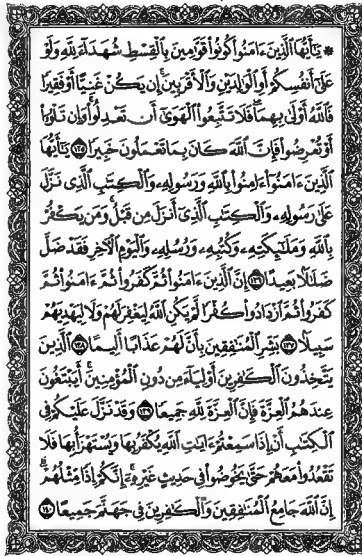
٣٣- ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ نهاهم عن اتباع الهوى الحامل

على ترك العدل.

٣٤- ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ذكر

سبحانه السببين الموجبين لكتمان الحق محذرا منهما ومتوعدا عليهما: أحدهما:

اللي. والآخر: الإعراض.



قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾

[illegible]

والتحقيق: أنها مثل هذه الآيات، وأن انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم، فهم

﴿قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ

[illegible]

وفي هذا رد لقول من زعم أنه سبحانه يكلفه ما لا يطيقه، ثم يعذبه على ما لا يدخل تحت قدرته، تعالى الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علوا كبيرا، فشكره سبحانه اقتضى ألا يعذب المؤمن

قوله تعالى: ﴿فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طِبَّاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ .

٣٧- أي شيء أصرح من هذا حيث أخبر سبحانه بأنه حرمه عليهم مع كونه طيباً في نفسه، فلولا أن طيبه أمر ثابت له بدون الأمر، لم يكن ليجمع الطيب والتحريم، وقد أخبر تعالى أنه حرم عليهم طيبات كانت حلالاً عقوبة لهم، فهذا تحريم عقوبة بخلاف التحريم على هذه الأمة، فإنه تحريم صيانة وحماية. (مفتاح دار السعادة ٣٣٧).

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَآلِ هَارُونَ وَنُوحٍ وَأَلْفَ نَفْسٍ مِنْ بَيْنِهِمْ ۖ وَقَدْ قَفَضْنَاهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَرُسُلًا قَدْ قَفَضْنَاهُمْ عَلَيْكَ ۚ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْضِصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۝ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا ذَكِيًّا ۝ لَنُكَلِّمَنَّكَ اللَّهُ تَشَهُدًا بِمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِ أَنْزِلَهُ بِهِ لِقَاءَ رَبِّكَ ۚ فَذَلِكُنَّ أَصْدَقُ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ قَدْ خَلَّوْا مِنْهُ لَدُنَّا أَيُّدًا ۚ إِنَّ الْآيِينَ كَثِيرًا ۚ وَأَنْتَ ذُو الْبَاطِنِ ۚ جَهَنَّمَ خَلَّيْتُ فِيهَا أُنثَادًا ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۚ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ ۚ مِنْ رَبِّكُمْ فَاعْبُدُوا خَيْرَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۚ وَإِنْ تَكْفُرُوا ۚ فَإِنَّ

قوله تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَفَضْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْضِصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۝ ﴾

٣٨ - والآية صريحة في أن المراد بها تكليم أخص من الإيحاء، فإنه ذكر أنه أوحى إلى نوح والنبیین من بعده، وهذا الوحي هو التكليم العام المشترك، ثم خص موسى باسم خاص وفعل خاص وهو كلم تكليما، ورفع توهم إرادة التكليم العام عن الفعل بتأكيده بالمصدر، وهذا يدل على اختصاص

موسى بهذا التكليم، ولو كان المراد تكليما ما لكان مساويا لما تقدم من الوحي أو دونه وهو باطل.

٣٩ - وأيضا فإن التأكيد في مثل هذا السياق صريح في التعظيم وتثبيت حقيقة الكلام والتكليم فعلا ومصدرا ووصفه بما يشعر بالتقليل مضاد للسياق، فتأمل.

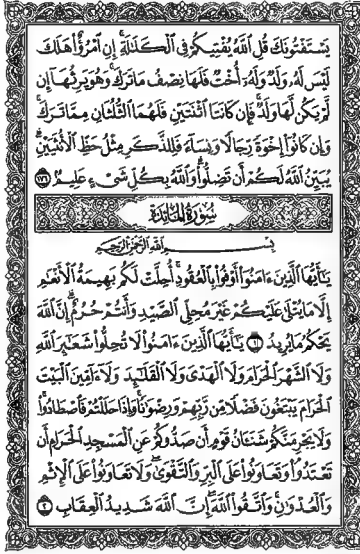
٤٠ - وأيضا فإن الله سبحانه قال لموسى: ﴿ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي ۚ وَبِكَلِمَةٍ ۚ فَلَوْ كَانَ التَّكْلِيمُ الَّذِي حَصَلَ لَهُ تَكْلِيمًا مَا كَانَ مَشَارَكًا لِسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ فِيهِ فَلَمْ يَكُنْ لَتَخْصِيصِهِ بِالْكَلامِ مَعْنَى. ۚ

٤١ - وأيضا فإن وصف المصدر هاهنا مؤذن بقلته وإن نوعا من أنواع التكليم حصل له وهذا محال هاهنا فإن الإلهام تكليم ما ولهذا سماه الله تعالى وحيا والوحي تكليم ما فقال: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ۚ ﴾ ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ۚ ﴾ ونظائره وقال عبادة بن الصامت: «رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه.

[illegible]

سورة المائدة

قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾

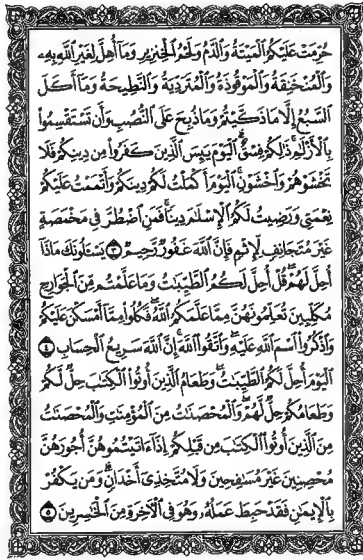


١- قد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم فيما بينهم بعضهم بعضا، وفيما بينهم وبين ربهم، فإن كل عبد لا ينفك عن هاتين الحالتين وهذين الواجبين: واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق. فأما ما بينه وبين الخلق: من المعاشرة والمعاونة والصحبة، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم وصحبته لهم تعاونا على مرضاة الله وطاعته التي هي غاية سعادة العبد

وفلاحه، ولا سعادة له إلا بها، وهي البر والتقوى اللذان هما جماع الدين كله، وإذا أفرد كل واحد من الاسمين دخل في مسمى الآخر إما تضمنا وإما لزوما، ودخوله فيه تضمنا أظهر لأن البر جزء مسمى التقوى، وكذلك التقوى فإنه جزء مسمى البر، وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند الاقتران لا يدل على أنه لا يدخل فيه عند انفراد الآخر.

٢- وأما عند اقتران أحدهما بالآخر كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ﴾ فالفرق بينهما فرق بين السبب المقصود لغيره والغاية المقصودة لنفسها، فإن البر مطلوب لذاته، إذ هو كمال العبد وصلاحه الذي لا صلاح له بدونه كما تقدم.

٣- فأرشدت الآية إلى ذكر واجب العبد بينه وبين الخلق وواجبه بينه وبين الحق. ولا يتم له أداء الواجب الأول إلا بعزل نفسه من الوسط، والقيام بذلك لمحض



النصيحة والإحسان، ورعاية الأمر، ولا يتم له أداء الواجب الثاني إلا بعزل الخلق من البين، والقيام له بالله إخلاصاً ومحبة وعبودية.

فينبغي التفطن لهذه الدقيقة التي كل خلل يدخل على العبد في أداء هذين الأمرين الواجبين إنما هو عدم مراعاتها علماً وعملاً، وهذا معنى قول الشيخ عبد القادر - قدس الله روحه - : «كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس، ومن لم يكن كذلك لم يزل في تخييط ولم يزل أمره فرطاً».

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

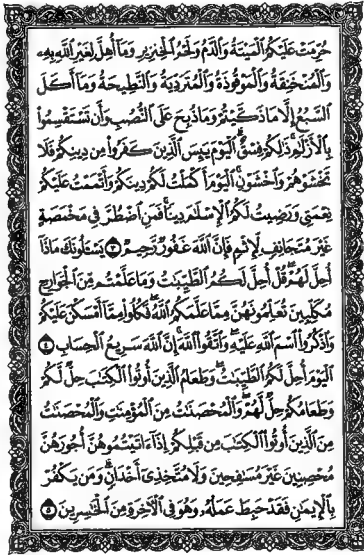
٤- تأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام إيداناً في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ولا شيء خارجاً عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته ووصف النعمة بالتمام إيداناً بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها، بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار.

٥- وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة وحسن اقتران الكمال بالدين وإضافة الدين إليهم؛ إذ هم القائمون به المقيمون له، وأضاف النعمة إليه؛ إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم فهي نعمته حقاً وهم قابلوها.

٦- وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص وأنه شيء خصوا به دون الأمم

وفي إتمام النعمة بـ(على) المؤذنة بالاستعلاء والاشتغال والإحاطة، فجاء أتممت في

مقابلة أكملت، وعليكم في مقابلة لكم، ونعمتي في مقابلة دينكم، وأكد ذلك وزاده تقريراً وكمالاً وإتماماً للنعمة بقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. (مفتاح دار السعادة ٣٢٤).



٧- ونسب الكمال إلى الدين والتمام إلى النعمة مع إضافتها إليه؛ لأنه هو وليها ومسديها إليهم، وهم محل محض لنعمه قابلين لها، ولهذا يقال في الدعاء المأثور للمسلمين: (واجعلهم مثين بها عليك قابليها، وأتممها عليهم).

وأما الدين فلما كانوا هم القائمين به الفاعلين له بتوفيق ربهم نسبه إليهم، فقال: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]. وكان الكمال في جانب الدين والتمام في جانب النعمة، واللفظتان وإن تقاربتا وتوازنتا فبينهما فرق لطيف يظهر عند التأمل، فإن الكمال أخص بالصفات والمعاني ويطلق على الأعيان والذوات، وذلك باعتبار صفاتها وخواصها كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمَلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مِزَاحِمَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ». وقال عمر بن عبد العزيز: «إن للإيمان حدوداً وفرائض وسنناً وشرائع، فمن استكملها فقد استكمل الإيمان». (اجتماع الجيوش الإسلامية ١-٣).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾.

٨- أما تقديم غسل الوجه، ثم اليد، ثم مسح الرأس، ثم الرجلين في الوضوء، فمن

يقول: إن هذا الترتيب واجب وهو الشافعي وأحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ومن وافقهما، فالآية عندهم اقتضت التقديم وجوبا لقرائن عديدة:

أحدها: أنه أدخل ممسوحا بين مغسولين وقطع النظر عن نظيره، ولو أريد الجمع المطلق لكان المناسب أن يذكر المغسولات متسقة في النظم والممسوح بعدها، فلما عدل إلى ذلك دل على وجوب ترتيبها على الوجه الذي ذكره الله.



٩- الثاني: أن هذه الأفعال هي أجزاء فعل واحد

مأمور به وهو الوضوء، فدخلت الواو عاطفة لأجزائه بعضها على بعض، والفعل الواحد يحصل من ارتباط أجزائه بعضها ببعض، فدخلت الواو بين الأجزاء للربط فأفادت الترتيب؛ إذ هو الربط المذكور في الآية، ولا يلزمه من كونها لا تفيد الترتيب بين أفعال لا ارتباط بينها نحو أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، ألا تفيد بين أجزاء فعل مرتبطة بعضها ببعض، فتأمل هذا الموضع ولطفه، وهذا أحد الأقوال الثلاثة في إفادة الواو للترتيب، وأكثر الأصوليين لا يعرفونه ولا يحكونه، وهو قول ابن أبي موسى من أصحاب أحمد، ولعله أرجح الأقوال.

١٠- الثالث: أن لبداء الرب تعالى بالوجه دون سائر الأعضاء خاصة فيجب مراعاتها، وألا تلغى وتهدر فيهدر ما اعتبره الله تعالى ويؤخر ما قدمه الله، وقد أشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن ما قدمه الله، فإنه ينبغي تقديمه ولا يؤخر، بل يقدم ما قدمه الله ويؤخر ما أخره الله تعالى، فلما طاف بين الصفا والمروة بدأ بالصفا وقال: «نبدأ بما بدأ الله تعالى به».

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

١٢- تأمل: تلتطف نبي الله تعالى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بهم، وحسن خطابه لهم، وتذكيرهم بنعم الله عليهم، وبشارتهم بوعده الله لهم: بأن القرية مكتوبة لهم، ونهيهم عن معصيته بارتدادهم على أدبارهم، وأنهم إن عصوا أمره، ولم يمتثلوا انقلبوا خاسرين، فجمع لهم بين الأمر والنهي، والبشارة والندارة، والترغيب والترهيب، والتذكير بالنعم

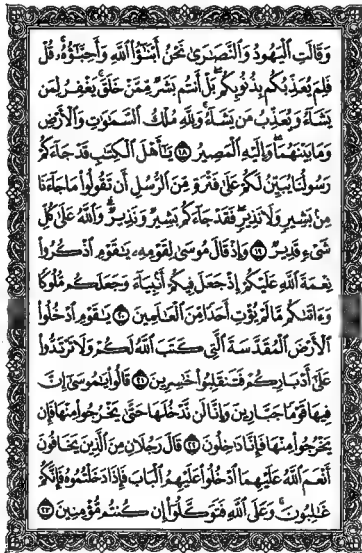
السالفة. فقابلوه أقبح المقابلة. فعارضوا أمر الله تعالى بقولهم: ﴿يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢].

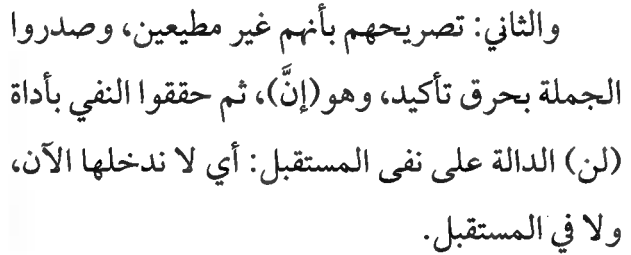
فلم يوقروا رسول الله وكليمه، حتى نادوه باسمه، ولم يقولوا: يا نبي الله. وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ ونسوا قدرة جبار السماوات والأرض الذي يذل الجبابرة لأهل طاعته. وكان خوفهم من أولئك الجبارين - الذين نواصيهم بيد الله - أعظم من خوفهم من الجبار الأعلى سبحانه وكانوا أشد رهبة في صدورهم منه.

ثم صرحوا بالمعصية والامتناع من الطاعة، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [المائدة: ٢٢].

فأكدوا معصيتهم بأنواع من التأكيد:

أحدها: تمهيد عذر العصيان بقولهم: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢].





ثم علقوا دخولها بشرط خروج الجبارين منها
فقال لهم: ﴿رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ
عَلَيْهِمَا﴾ [المائدة: ٢٣].

بطاعته والانقياد إلى أمره، من الذين يخافون الله. هذا قول الأكثرين، وهو الصحيح.

١٣- فسبحان من عظم حلمه حيث يقابل أمره بمثل هذه المقابلة، ويواجه رسوله بمثل هذا الخطاب، وهو يحلم عنهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل وسعهم حلمه وكرمه، وكان أقصى ما عاقبهم به: أن ردهم في برية التيه أربعين عاما يظل عليهم الغمام من الحر، وينزل عليهم المن والسلوى. (شفاء العليل ١٢١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾

١٤ - أحسن ما قيل في تفسير الآية: إنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل، وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره، وهذا إنما يحصل بالعلم، وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه، علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله، والله أعلم. (مفتاح دار السعادة ٩٠).

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ الدِّينِ مَا قَمَّ بِهِ خَيْرٌ حِينَئِذٍ
لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٥﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا
أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا كَذَلِكُمْ اللَّهُ وَلَهُ عِلْمٌ غَيْرُ
مُحْكَمٍ ﴿٥٦﴾ مَن تَابَ مِن ذُنُوبِهِ وَأَصْلَحَ لَاقِ اللَّهَ
بِخَيْرٍ عَظِيمٍ ﴿٥٧﴾ اللَّهُ غَلُومٌ رَّجِيمٌ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ تَنَزَّلَ اللَّهُ
لَهُ مُلَافٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيُعْظِ
لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٥٩﴾ يَأْتِيَهُ
الرَّسُولُ لِيُخْرِجَهُ مِنَ الْظُلُمِ لِيُشْرِعَ فِي الْكُفْرَيْنِ
الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَنبِيَائِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَفْهَمُونَ
الَّذِينَ هَادُوا وَسَيَعْمُونَ لِلْكَذِبِ فَسَعْمُونَ لِقَوْمِهِ
الْآخِرِينَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ الْخُرُوفَ الْكَافِرِينَ يَتَّبِعُونَ
يَقُولُونَ إِنَّا نَرِيكَ عَرَاكِنًا حُفْدًا وَلَئِن لَّمْ تَنفُتْ
فَأَحْذَرْنَا أَن يَسُرَّكَ اللَّهُ فَنُنْتَفِثَنَّ فَلَنتَمَكَّكَ اللَّهُ يَوْمَ
نَسُفُكُ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِيدُوا اللَّهَ أَن يُطَهِّرَهُمْ وَلَهُمْ
فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٠﴾

١٦- مما يدل على أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفا للحق عن مواضعه، فإنه إذا قبل الباطل أحبه ورضيه، فإذا جاء الحق بخلافه رده وكذبه إن قدر على ذلك، وإلا حرفه.

على إرادة الله تعالى، وأنه سبحانه لما لم يرد أن يطهر قلوب القائلين بالباطل، المحرفين للحق، لم يحصل لها الطهارة.

ولا يصح أن تفسر الإرادة هاهنا بالإرادة الدينية، وهي الأمر والمحبة، فإنه سبحانه قد أراد ذلك لهم أمراً ومحبة، ولم يرده منهم كوناً، فأراد الطهارة لهم وأمرهم بها، ولم يرد وقوعها منهم، لما له في ذلك من الحكمة التي فواتها أكره إليه من فوات الطهارة منهم.

وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا الكبير في القدر.

١٨- ودلت الآية على أن من لم يطهر الله قلبه فلا بد أن يناله الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، بحسب نجاسة قلبه وخبثه؛ ولهذا حرم الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره؛ فإنها دار الطيبين. ولهذا يقال لهم: ﴿طَبِّئْ فَأَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] أي ادخلوها بسبب طيبكم. والبشارة عند

لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٩﴾ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٠﴾

١٩- أكد هذا التأكيد وكرر هذا التقرير في موضع واحد؛ لعظم مفسدة الحكم بغير ما أنزله، وعموم مضرته، وبلية الأمة به. (إعلام الموقعين ١/ ٢٢٨).

والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكافرين (الأصغر، والأكبر) بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصياناً، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه، مع تيقنه أنه حكم الله، فهذا كفر أكبر، وإن جهله وأخطأه فهذا مخطئ، له حكم المخطئين. (مدارج السالكين ١/ ٣٣٦ - ٣٣٧).

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾

٢٠- بذلك وصف أهل المحبة في قوله:

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة:

٥٤]. فوصفهم بست صفات:

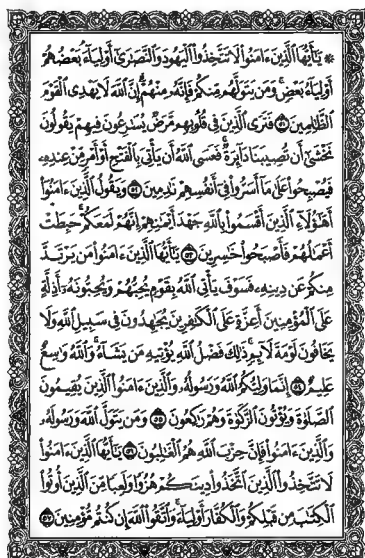
أحدها: محبتهم له.

والثانية: محبته لهم.

والثالثة: ذلُّهم ولينهم على أوليائه.

والرابعة: عزُّهم وشِدَّتْهم على أعدائه.

والخامسة: جهادهم في سبيله.



والسادسة: احتمالهم لوَمَ الخلق لهم على ذلك، وأنهم ليسوا ممن يصدُّه الكلام والعُدْلُ عن الجهاد في سبيل الله، وأنهم ليسوا بمنزلة مَنْ يحتمل الملام والعذل في محبة ما لا يحبه الله، ولا بمنزلة مَنْ أظهر من مكروهات الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى ما يُلامون عليه، ويُسمَّون بالملامتية؛ إظهاراً منهم لما يُلامون عليه في الظاهر، وهم مُنْطَوون في الباطن على الصدق والإخلاص، سترًا لحالهم عن الناس، فهم فعلوا ذلك لعدم احتمالهم الملام، والأولون احتملوا الملام فيما لا يحبه الله، وأحبَّاء الله فعلوا ما أحبه الله، ولم تأخذهم فيه لومة لائم.

٢١- فالأقسام ثلاثة:

أحدها: مَنْ يصدُّه اللوم عن محابِّ الله.

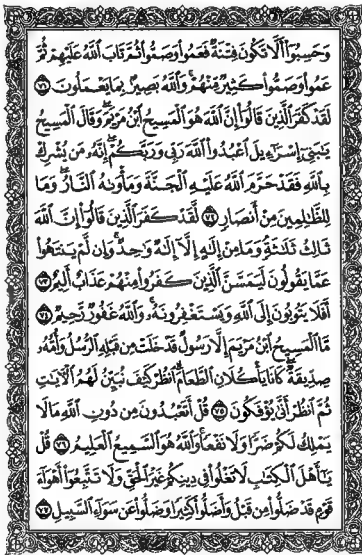
والثاني: مَنْ لا تأخذه في محبة الله لومة لائم.

والثالث: مَنْ يُظهر ما يُلام عليه إخفاءً لقيامه بمحابِّ الله.

فالأول مفرط، والثالث مؤمن ضعيف، والوسط هو الوسط الخيار، وهو المؤمن

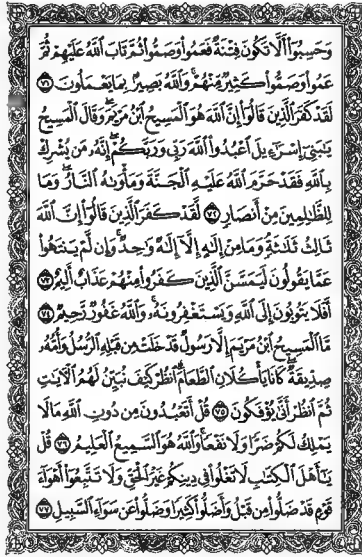
القوي، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. وأعلى ما يحبه الله ورسوله الجهاد في سبيل الله، واللائمون عليه كثير، إذ أكثر النفوس تكرهه. (الكلام على مسألة السماع ٢٨٨-٢٨٩).

📖 قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾.



٢٢- قد تضمنت هذه الحجة دليلين ببطان إلهية المسيح وأمه:

أحدهما: حاجتهما إلى الطعام والشراب وضعف بنيتهما عن القيام بنفسهما،



بل هي محتاجة فيما يقيمها إلى الغذاء والشراب والمحتاج إلى غيره لا يكون إلها؛ إذ من لوازم الإله أن يكون غنيا.

الثاني: أن الذي يأكل الطعام يكون منه ما يكون من الإنسان من الفضلات القذرة التي يستحي الإنسان من نفسه وغيره حال انفصالها عنه، بل يستحي من التصريح بذكرها.

ولهذا والله أعلم كنى سبحانه عنها بلازمها من

أكل الطعام الذي ينتقل الذهن منه إلى ما يلزمه من

هذه الفضلة، فكيف يليق بالرب سبحانه أن يتخذ صاحبة وولدا من هذا الجنس. ولو كان يليق به ذلك أو يمكن لكان الأولى به أن يكون من جنس لا يأكل ولا يشرب ولا يكون منه الفضلات المستقذرة التي يستحي منها ويرغب عن ذكرها.

فانظر ما تضمنه هذا الكلام الوجيز البليغ المشتمل على هذا المعنى العظيم الجليل الذي لا يجد سامعه مغمزا له ولا مطعنا فيه ولا تشكيكا ولا سؤالا يورده عليه بل يأخذ بقلبه وسمعه (الصواعق المرسلة ٢/ ٤٨٢-٤٨٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا

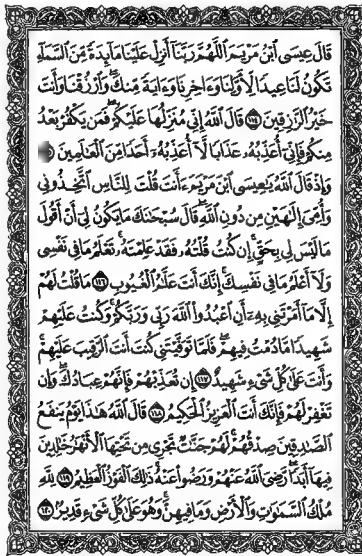
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾

٢٣- أخبر سبحانه أن الهداية في طاعة الرسول لا في غيرها، فإنه معلق بالشرط

فيتنفي بانتفائه وليس هذا من باب دلالة المفهوم، كما يغلط فيه كثير من الناس ويظن أنه محتاج في تقريره الدلالة منه لا تقرير كون المفهوم حجة، بل هذا من الأحكام التي ترتبت على شروط وعلقت، فلا وجود لها بدون شروطها، إذا ما علق على الشرط فهو عدم عند عدمه، وإلا لم يكن شرطاً له.

إذا ثبت هذا، فالآية نص على انتفاء الهداية عند عدم طاعته. (إعلام الموقعين ١/ ١٠٩-١١١).

﴿قوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾﴾



٢٤- وتحتة سر عجيب دال على كمال معرفة

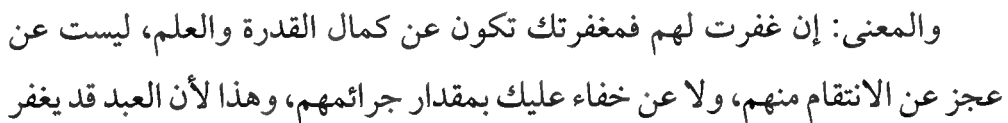
المسيح بربه وتعظيمه له فإن هذا السؤال كان عقيب سؤال قومه له: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ فخوفهم الله وأعلمهم أن هذا مما لا يليق أن يسأل عنه، وأن الإيمان يرده، فلما ألحوا في الطلب وخاف المسيح أن يداخلهم الشك إن لم يجابوا إلى ما سألوا، بدأ في السؤال باسم ﴿اللَّهُمَّ﴾ الدال على الثناء على الله بجميع أسمائه وصفاته، ففي ضمن ذلك تصويره بصورة المثني الحامد الذاكر

لأسماء ربه المثني عليه بها، وأن المقصود من هذا الدعاء وقضاء هذه الحاجة إنما هو أن يشني على الرب بذلك ويمجده به ويذكر آلاءه، ويظهر شواهد قدرته وربوبيته، ويكون برهانا على صدق رسوله، فيحصل بذلك من زيادة الإيمان والثناء على الله أمر يحسن معه الطلب، ويكون كالعذر فيه فأتى بالاسمين اسم الله الذي يشني عليه به، واسم الرب الذي يُدعى ويُسأل به، لما كان المقام مقام الأمرين، فتأمل هذا السر العجيب ولا يثب عنه فهمك، فإنه من الفهم الذي يؤتاه الله من يشاء في كتابه وله الحمد. (بدائع الفوائد ٢/ ١٩٤).

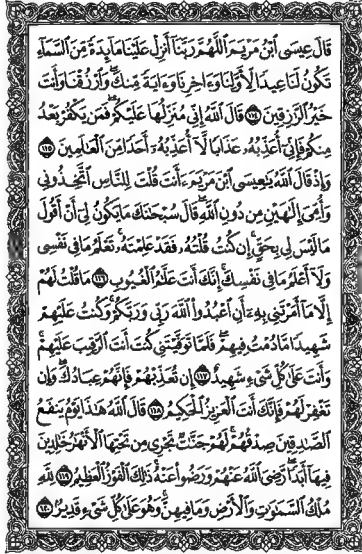
قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا ارحم علينا مائة يوم من السنة
تكون لنا بعد الايام اخرا وتوبة ذنوبنا وكفرنا وتوالت
خيرات الزمان **١٠** قال الله يا منزلها علمكم منكم بعد
ينكموا يا عذبه عذابا لا اعذبه احدكم العالين **١١**
واذ قال الله لعيسى ابن مريم انا قلت للناس اتخذوني
وآلتي الهة من دون الله قال سمعتك ما يكون يا انا اقول
ما ليس لي بشئ انا كنت فاعلم عذبتك قد علمتاني نفسي
ولا اعلمتاني نفسي اذك انت عذبتك العريب **١٢** ما كنت لهم
إلا ما اتوا به انا اعز الله ربي وذكركم وكنت عليهم
شهودا ما أدعيت فيهم فاما وقفتي كنت انت القريب عليهم
وانت عذبت كل قبيح شهيد **١٣** انا عذبتهم انا عذبتهم
تفهم اذك انت العزيز الحكيم **١٤** قال الله هذا الذي يتبع
الصدوقين فسمعهم لهم حديث تجري من تحت ايامهم خلائق
فيما انا حي الله عنهم ورضع اذك القوي الطويل **١٥** الله
ملك السموات والارض واليهين وهو على كل شئ قدير **١٦**

ما أمره ربه به - وهو محض التوحيد - فقال: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة: ١١٧]، ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم، وأن الله عزَّ وجلَّ وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم، فقال: ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة: ١١٧]، ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم، فقال: ﴿ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧].

٢٦- ثم قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]. وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام، أي شأن السيد رحمة عبده والإحسان إليهم، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدا لغيرك، فإذا عذبتهم - مع كونهم عبيدك - فلو لا أنهم عبيد سوء من أبخس العبيد، وأعتاهم على سيدهم، وأعصاهم له - لم تعذبهم؛ لأن قربة العبودية تستدعي



لغيره لعجزه عن الانتقام منه، ولجهله بمقدار إساءته إليه، والكمال هو مغفرة القادر العالم، وهو العزيز الحكيم. وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب. (مدارج السالكين ٢/ ٣٧٨-٣٧٩).



٢٩- وفيه أيضا أمر آخر ألطف من هذا، وهو أن كونهم عباده يقتضي عبادته وحده وتعظيمه وإجلاله كما يجبل العبد سيده ومالكة الذي لا يصل إليه نفع إلا على يده ولا يدفع عنه ضرا إلا هو، فإذا كفروا به أقبح الكفر وأشركوا به أعظم الشرك ونسبوه إلى كل نقيصة مما تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا كانوا أحق عباده وأولاهم بالعذاب.

٣٠- وفيه أمر آخر أيضا لعله ألطف مما قبله،

وهو إن تعذبهم فإنهم عبادك وشأن السيد المحسن المنعم أن يتعطف على عبده ويرحمه ويحنو عليه، فإن عذبت هؤلاء وهم عبيدك، لا تعذبهم إلا باستحقاقهم وإجرامهم، وألا فكيف يشقى العبد بسيده وهو مطيع له متبع لمرضاته، فتأمل هذه المعاني ووازن بينها وبين قوله من يقول: إن تعذبهم فأنت الملك القادر وهم المملوكون المربوبون، وإنما تصرف في ملكك من غير أن يكون قام بهم سبب العذاب. (مفتاح دار السعادة ٤٤٥-٤٤٦).



سورة الأنعام

﴿قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾﴾



١- تأمل كيف أتت [السموات] مجموعة هنا لحكمة ظاهرة وهي تعلق الظرف بما في اسمه تَبَارَكَ وَتَعَالَى من معنى الإلهية، فالمعنى وهو الإله وهو المعبود في كل واحدة من السماوات ففي كل واحدة من هذا الجنس هو المألوه المعبود، فذكر الجمع هنا أبلغ وأحسن من الاختصار على لفظ الجنس الواحد، ولما عزب هذا المعنى عن فهم بعض المتسنة فسر الآية بما لا يليق بها فقال الوقف التام على السماوات، ثم يتدنى بقوله: وفي الأرض يعلم، وغلط في فهم الآية

وأن معناها ما أخبرتك به وهو قول محققي أهل التفسير. (بدائع الفوائد ١/١١٦).

﴿قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَهُمْ ثَمَرٌ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾﴾

٢- ذكر سبحانه إهلاك من قبلنا من القرون، وبين أن ذلك كان لمعنى القياس، وهو ذنوبهم، فهم الأصل ونحن الفرع، والذنوب العلة الجامعة، والحكم الهلاك؛ فهذا محض قياس العلة، وقد أكد سبحانه بضرب من الأولى، وهو أن من قبلنا كانوا أقوى منا، فلم تدفع عنهم قوتهم وشدتهم ما حل بهم. (إعلام الموقعين ١٨١-١٨٢).

📖 قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

٣- وهذا إيجاب منه على نفسه، فهو الموجب، وهو متعلق بالإيجاب الذي أوجبه، فأوجب بنفسه على نفسه، وقد أكد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا المعنى بما يوضحه كل الإيضاح ويكشف حقيقته بقوله في الحديث الصحيح: «لما قضى الله الخلق بيده

على نفسه في كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي» وفي لفظ «سبقت غضبي» (رواه البخاري ومسلم والترمذي)، فتأمل: كيف أكد هذا الطلب والإيجاب بذكر فعل الكتاب وصفة اليد ومحل الكتابة، وأنه كتاب وذكر مستقر الكتاب، وأنه عنده فوق العرش، فهذا إيجاب مؤكد بأنواع من التأكيد وهو إيجاب منه على نفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهذا حق أحقه

على نفسه. (الفوائد ٢/ ١٦١-١٦٢).

٤- أخبر سبحانه في هذه المواضع بشهادته لرسوله وكفى بشهادته إثباتا لصدقه وكفى به شهيدا.

فإن قيل: وما شهادته [سبحانه] لرسوله؟ قيل: هي ما أقام على صدقه من الدلالات والآيات المستلزمة لصدقه بعد العلم بها ضرورة، فدلالته على صدقه أعظم من دلالة كل بينة وشاهد على حق، فشهادته سبحانه لرسوله أصدق شهادة وأعظمها وأدلها على ثبوت المشهود به، فهذا وجه.

ووجه آخر: أنه صدقه بقوله وأقام الأدلة القاطعة على صدقه فيما يخبر به عنه، فإذا أخبر عنه أنه شهد له قولا لزم ضرورة صدقه في ذلك الخبر وصحت الشهادة له به قطعاً،

وَلَجَعَلَنَاهُ مَلَكًا أَجْمَعًا رَجُلًا وَلَكِنَّ سَائِرَهُمَا
يَلْمِزُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ أَسْمَعْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَحَقَّقْنَا بِالْأُذُنِ
سَمْعَنَا وَأَمْنَهُمَا مَا سَكَرُوا بِهِمْ وَتَشْتَبِهُونَ ﴿٢﴾ قُلْ سِوَا
فِي الْأَرْضِ قَدْ أَظْهَرَ وَأَكْثَرَ كَانَ عَقِيبَةُ الْمَكْذُوبِينَ
﴿٣﴾ قُلْ لِمَنْ قَاتَى السَّكْرَتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى
نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُنُوزُ الْيَوْمِ الْقِيَمَةِ لِأَرْبَابٍ
فِي الْأَرْضِ حَسْبُ الْفُتُونَةِ فَهُمْ لَا يُخْشَوْنَ ﴿٤﴾ وَلِلَّهِ
مَا سَكَنَ فِي الْأَرْضِ وَفِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْأَرْضِ وَالْأَرْضِ
أَعْبَادُ اللَّهِ أَفْخَرُ وَأَكْثَرُ أَفْخَرُ أَفْخَرُ أَفْخَرُ أَفْخَرُ
يُطْعِمُونَ وَلَا يَطْعَمُونَ قُلْ إِنْ أَرَادْتُمْ أَنْ تُكُونُوا مِنْ
وَلَا تُكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنْ أَرَادْتُمْ أَنْ تُكُونُوا
رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿٦﴾ مَنْ يَضُرُّ عَنْهُ قُوَّةٌ فَقَدْ ضَعُفَ
وَذَلِكَ الْقُوَّةُ الْمَعِينُ ﴿٧﴾ وَلَنْ يَمَسَّنِكَ اللَّهُ بَضْرًا وَلَا كَلِيفًا
لَهُ إِلَّا هُوَ وَلَنْ يَمَسَّنِكَ بَضْرٌ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
﴿٨﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْكَبِيرُ الْخَبِيرُ ﴿٩﴾

فهذا معنى الآية. (طريق الهجرتين ٣١٥-٣١٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَ لَنَا نَرْدُ وَلَا نَكْذِبُ بِمَا يَنْتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنْ

الْمُؤْمِنِينَ ٢٧﴾ بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا
لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَلَئِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ٢٨﴾.

٥- وتأمل مطابقة الإضراب لهذا المعنى وهو

نفي قولهم إنا لو رددنا لآمنا وصدقنا لأنه ظهر لنا
الآن أن ما قاله الرسل هو الحق أي ليس كذلك بل
كنتم تعلمون ذلك وتعرفونه وكنتم تخفونه، فلم
يظهر لكم شيء لتكونوا عالمين به لتعذروا، بل ظهر
لكم ما كان معلوما وكنتم تتواصون بإخفائه وكنتمانه
والله أعلم. (عدة الصابرين ١٨٧).

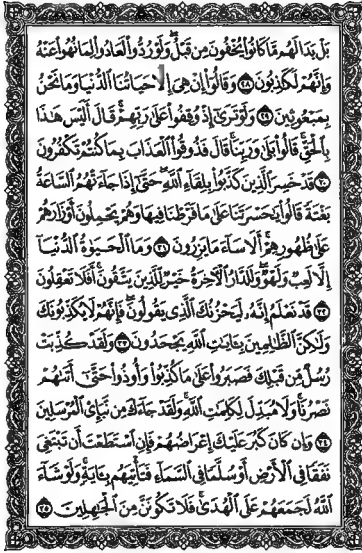
قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِمَا يَنْتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾.

٦- لا يكون الجحد إلا بعد الاعتراف بالقلب واللسان، ومنه قوله تعالى:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ ومنه ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِمَا يَنْتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ عقيب
قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ ومنه ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِمَا يَنْتِ إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾، ﴿وَمَا
يَجْحَدُ بِمَا يَنْتِ إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ وعلى هذا لا يحسن استعمال الفقهاء لفظ الجحد في
مطلق الإنكار في باب الدعاوى وغيرها؛ لأن المنكر قد يكون محقا فلا يسمى جاحدا.

(بدائع الفوائد ٤/ ١١٨-١١٩).

إنهم قد عرفوا صدقك وأنتك غير كاذب فيما تقول، ولكن عاندوا وجحدوا
بالمعرفة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والمفسرون، قال قتادة: يعلمون أنك رسول



قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ دَابَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَافَرَطْنَا فِي

﴿ إِنَّمَا نَحْنُ عِجَابُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْقِفُ يَسْمَعُ اللَّهُ الْكَلِمَ
 يَنْصَوْنَ ﴾ وَقَالُوا لَا تَزَلْ عَلَيْهِ عَائِلَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ
 قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُزِيلَ عَائِلَةَ الْكَافِرِينَ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْإِسْلَامَ
 مِنْ دُونِ الْكُفْرِ وَالْأَخْضَرُ مِنْ حُلِيِّهِمْ مَا يَفْتَحِيهِ اللَّهُ لَكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ
 تَقُولُ طَائِفًا فِي السَّيْرِ مِنْ قَبْلِي وَكَانَ إِلَى رَبِّهِمْ يَخْشَوْنَ ﴿ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠

وقد شبه الله تعالى أهل الجحيم والغى بالحرر تارة، وبالكلب تارة، وبالأنعام تارة، وتقوى هذه المشابهة باطنا حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهورا خفيا، يراه المتفرسون، وتظهر في الأعمال ظهورا يراه كل أحد. (الجواب الكافي ١٦٠).

٨- وهذا من أعظم الغرة أن تراه يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على ما يكره، فالشيطان وكل الغرور وطبع النفس الأمّارة بالاغترار، فإذا اجتمع الرأي والبغي والشيطان موكل بالغرور والنفس المغترّة لم يقع هناك خلاف، فالشياطين غروا المغترّين بالله وأطمعوهم مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه في عفوه وتجاوزه

وحدوئهم بالتوبة لتسكن قلوبهم، ثم دافعوهم بالتسويق حتى هجم الأجل فأخذوا على أسوأ أحوالهم. (الروح ١٩٨).

﴿قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (٥٢)﴾

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَكَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِعَاهِدِنَا فَقُلْ سَلَوْتُ عَنْكُمْ كِتَابَ رَبِّكُمْ عَلَى نَفْسِي وَالْحَقْمَةُ أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ وَنَحْنُ مَنْ نُوَايَاهُمْ لَكُمْ تَابَ مَنْ تَعَدَّوْهُ وَأَصْلَحَ فَأَنْتُمْ غَوَّارٌ رَجِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَغْبِيَ الَّذِينَ يَنْدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَجْعَلُ لَكُمْ فَرْقَةً فَكَيْفَ تَكْفُرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنَّمَا أَمْرٌ أَتَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عُدِدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ لَآيَاتٍ يُفْقَهُ الْحَقُّ وَرُفُو خَيْرٌ لِلْمُصْلِحِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُودِي الْأَمْزِجِي وَنَيْتُكُمْ وَأَنْتُمْ أَكْثَرُ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ وَهَذِهِ مَقَالِيُمُ الْقَبْرِ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا هُوَ وَيَسْمَعُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا تَنْشَاطُنَ وَرَقَّتْ الْأَيْمَانُ رَأْسَ الْخَيْفِ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا تَطْبَعُ وَلَا تَبْصُرُ إِلَّا فِي كِتَابِي يُدْرِكُ ﴿٥٨﴾

٩- لا ريب أن هذا تعليل لفعله المذكور وهو امتحان بعض خلقه ببعض كما امتحن السادات والأشراف بالعبيد والضعفاء والموالي، فإذا نظر الشريف والسيد إلى العبد والضعيف والمسكين قد أسلم أنف وحمى أن يسلم معه أو بعده ويقول هذا يسبقني إلى الخير والفلاح وأتخلف أنا، فلو كان ذلك خيرا وسعادة ما سبقنا هؤلاء إليه، فهذا القول منهم هو بعض الحكم والغاية المطلوبة بهذا الامتحان، فإن هذا القول دال على إباء واستكبار وترك الانقياد للحق بعد المعرفة التامة به وهذا وإن كان علة فهو مطلوب لغيره.

﴿قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٧٦) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوِّرُ إِنِّي بِرَبِّي مُّشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي

فَطَرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٨﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾

وَقَالَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازِرْ أَتَسْتَعِذُّ أُمِّي إِلَى اللَّهِ أَنَا رَبُّكَ وَقَوْمِي فِي حَسْبِكُلِّ مَرْبٍ وَكَذَلِكَ نَقُولُ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْسَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا جَاءَ عَلَيْهِ الْإِلَهُ قَالَ تَأْكُفُنَا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَصْنَانِ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقُسْمَ بَارِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ لَيْسَ يُهْدِينِي رَبِّي لَا أَكُونُ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقُسْمَ بَارِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ يَتَقَوَّمُ إِلَيَّ بَرِيَّةٌ وَمَتَانُ شُرَكَوتِ ﴿٨١﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٢﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٣﴾ وَكَيْفَ اتَّخَذَ مَثَلَهُمْ وَلَا تَحِثُّونَ عَلَيْهِمْ مُثَلًّا قَالُوا الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَمَّا الَّذِينَ لَا يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ فَهُمْ أَكْثَرُ الضَّالِّينَ ﴿٨٤﴾

١٠- قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٩] وفي ذلك إشارة إلى أنه سبحانه خالق أمكتها ومحالها التي هي مفترية إليها، ولا قوام لها إلا بها، فهي محتاجة إلى محل تقوم به، وفاطر يخلقها ويدبرها ويربها، والمحتاج المخلوق المربوب المدبر لا يكون إلها، فحاجة قومه في الله، ومن حاج في عبادة الله فحجته داحضة.

١١- قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ [الأنعام: ٨٠].

وهذا من أحسن الكلام، أي أتريدون أن تصرفوني عن الإقرار بربي وتوحيده، وعن عبادته وحده، وتشككوني فيه وقد أرشدني وبين لي الحق، حتى استبان لي كالعيان، وبين لي بطلان الشرك وسوء عاقبته، وأن أهتكم لا تصلح للعبادة، وأن عبادتها توجب لعابديها غاية الضرر في الدنيا والآخرة، فكيف تريدون مني أن أنصرف عن عبادته وتوحيده إلى الشرك به؟ وقد هداني إلى الحق وسبيل الرشاد؟

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨١) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ
وَهُمْ مُسْتَقِيمُونَ ﴿٨٢﴾ وَذَٰلِكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاكَ الْبُرْهَانَ عَلَى
قَوْمِهِمْ فَتَرَاهُمْ ذَرَجَةً مِّنْ فَتْنَةٍ إِنْ رَّبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾
وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا
مِن قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ
وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾
وَرَكَّبْنَا بِلَاقِيَّهِمُ الْبَارِئِينَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ
وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَحُوطَ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَی الْعَالَمِينَ ﴿٨٥﴾
وَمِنْ ءَاتَايَاهُمْ وَذُرِّيَّتِهِمُ الْوَاقِعِينَ وَنَجَّيْنَاهُمْ
وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٦﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي
بِهِ مَن يَشَاءُ مَن عَادَاهُ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَآكَأُهَا
يَسْلُونُ ﴿٨٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَلَقَدْ
كَتَبْنَا قَبْلَ هَٰذَا مِن قَبْلُ مَا هُوَ لَآ يَكْفُرُ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ
وُكِّلَتْ بِهَا قُلُوبُهُمْ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِمْ تَقْدِيرُهُ
قُلْ لَا أَتَاكُمُ بِغَيْرِ أَمْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا وَكَفَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٨﴾

١٢- يقول لقومه: كيف يسوغ في عقل أو عند
ذي لب أن أخاف ما جعلتموه لله شريكا في الإلهية
وهي ليست بموضع نفع ولا ضرر وأنتم لا تخافون
أنكم أشركتم بالله في إلهيته أشياء لم ينزل بها حجة
عليكم ولا شرعها لكم، فالذي أشرك بخالقه وفطره
وباريه الذي يقر بأنه خالق السماوات والأرض ورب
كل شيء ومليكه ومالك الضر والنفع آلهة لا تخلق
شيئا وهي مخلوقة ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها
ضرا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا وجعلها

ندا له ومثلا في الإلهية تعبد ويسجد لها ويخضع لها ويتقرب إليها أحق بالخوف ممن لم
يجعل مع الله إلها آخر، بل وحده وأفرده بالإلهية والربوبية والعظمة والسلطان والحب
والخوف والرجاء، فأَي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، فحكم الله سبحانه
بينهما بأحسن حكم خضعت له القلوب وأقرت به الفطر وانقادت له العقول فقال:
﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُسْتَقِيمُونَ﴾ (٨٢) [الأنعام: ٨٢].

فتأمل هذا الكلام وعجيب موقعه في قطع الخصوم وإحاطته بكل ما وجب في
العقل أن يرد به ما دعوه إليه وأرادوا حمله عليه وأخذه بمجامع الحجة التي لم تبق
لطاعن مطعنا ولا سؤالا. (الصواعق المرسلة ١٨٥-١٩٠).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مَن عَادَاهُ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ
مَآكَأُهَا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٨) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ
وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾.

وَمَا أَقْدَرُوا اللَّهَ عَلَىٰ قَدَرِهِ قَالُوا مَا أَزْدَلُ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّمَّنْ
قُلْ مَنْ أَزْدَلُ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ جَاءَهُ يَوْمَ مَوْتِهِ قَوْلًا وَمَذَى
لِلْبَاطِلِ يَحْصُلُونَ لَهُ قُلَاطِسُ يُذَوِّدُهُمْ وَيُخَفُّونَ كَثِيرًا وَقُلْتُمْ
مَا نَرَوْا قُلُوبُنَا أَشْرًا وَلَا نَبْهَاتُكُمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى تَعْمَىٰ
يَتَّبِعُونَ ﴿١٠﴾ هَٰذَا كَيْفَ أَفْرَأْتُمْ مِنْهُ أَفَلَا تُصْغِرُونَ الَّذِينَ
يَتَّبِعُونَ الَّذِينَ أَزْدَلَكُمْ وَمَنْ حَوْلَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هُوَ يُحِبُّ وَيُؤْتِيهِمْ
مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ وَلَهُمْ عِلْمٌ بِمَا يُصَلِّطُونَ ﴿١١﴾ وَمَنْ أَتْلُوهُنَّ
أَفَلَا تَعْلَمُونَ كَذِبَ بَارِئِ الْقَالِ أَيْحَىٰ إِنَّكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِمْ
وَمَنْ قَالَ سَأَلْتُ مِثْلَ مَا أَزْدَلُ اللَّهُ وَتَوَكَّلْتُ إِذَا الْكَلْبُومُ فِي
عَصَبِ الثَّوْبِ وَكَأَنَّكَ تَعْلَمُ بِمَا يَخْلُصُ إِلَيْهِمْ وَلَا يَخْلُصُ
إِلَيْهِمْ فَجَوَزُوا عِلَابَ الْكَلْبُومِ بِمَا كَسَبُوا قَوْلُونَ قَالَ تَوَكَّلْ
الْحَقُّ وَكَيْفَ تَعْلَمُونَ بِمَا يَتَوَكَّلُونَ سَمِعْتُمْ كُرْؤُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا
قَوْلَكُمْ كَمَا تَسْتَكْفِرُونَ أُولَٰئِكَ تَزَوَّجْتُمْ مَا تَحِلُّونَ وَتَنْهَوْنَ
عَلَيْهِمْ وَكُنْتُمْ أَعْيُنُكُمْ مَعَكُمْ شَفَعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا وَتَعَسَّىٰ أَنْفُسُهُمْ
شَرَّ كَلَامٍ لَقَدْ تَنَطَّلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ عَصِيَّةٌ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

مُوسَىٰ نُورًا وَهَدَىٰ لِلنَّاسِ مَجْعَلُونَهُ. قَرَأَ طَيْسٌ بُدُوَهَا وَتَحْفُونَ كَثِيرًا وَعِلْمَتُهُ مَالَهُ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا
ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٧٠﴾

١٥- أما قوله تعالى: (يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا) فمن قرأها بالياء فهو إخبار عن اليهود بلفظ الغيبة، ومن قرأها بالتاء للخطاب فهو خطاب لهذا الجنس الذين فعلوا ذلك، أن تجعلونه يا من أنزل عليه كذلك، وهذا من أعلام نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يخبر أهل الكتاب بما اعتمدوه في كتابهم، وأنهم جعلوه قراطيس، وأبدوا بعضه وأخفوا كثيرا منه، وهذا لا يعلم من غير جهتهم إلا بوحي من الله تعالى.

﴿قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٣)﴾.

لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٣﴾
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٤﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُهَا وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٥﴾ قَدْ جَاءَكُمْ
بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا
وَمَا أَنَا بِعَلَيْكُمْ بِحَافِظٍ ﴿١٦﴾ وَكَذَلِكَ نَصْرِي الْأَنْبِيَاءَ
وَلِيُقِيمُوا آدِنَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ اسْمِعْ
مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُغْنِي عَنِ الْفَرِيقَيْنِ
﴿١٨﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْرَكْنَا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا
وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٩﴾ وَلَا تَسْأَلُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ فَسَبِّحُوا اللَّهَ عَدُوًّا لِمَنْ يُغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ
عَلَيْكُمْ دُيُوتُمْ إِلَى رَبِّهِمْ فَرَجِعْنَاهُمْ إِلَيْكُمْ إِنِّي أَغْفِرُ
لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّهُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ
﴿٢٠﴾ وَأَسْأَلُ اللَّهَ جَهَنَّمَ أَنْ يَكْفِيَنِي زَيْنَ جَهَنَّمَ فَإِنِّي لَأَجِدُ
بِهَا كُلَّ شَيْءٍ أَتَى الْآدَمَ عَدُوًّا لِمَنْ يُغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ
لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُهَا وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ
﴿٢١﴾ يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ وَمَنْ يُشِمْ فِي طَعْنٍ يُشْمِمْ فِي طَعْنٍ وَهُوَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

١٦- فلو كان المراد بقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ

الْأَبْصَارُ﴾ أنه لا يرى بحال لم يكن في ذلك مدح ولا كمال لمشاركة المعدوم له في ذلك، فإن العدم الصرف لا يرى ولا تدركه الأبصار والرب جلَّ جلاله يتعالى أن يمدح بما يشاركه فيه العدم المحض، فإذا المعنى أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به، فقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ يدل على غاية عظمته وأنه أكبر من كل شيء وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء وهو قدر زائد

على الرؤية، فالرب تعالى يرى ولا يدرك كما يعلم ولا يحاط به وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية.

﴿قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدَاً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾﴾.

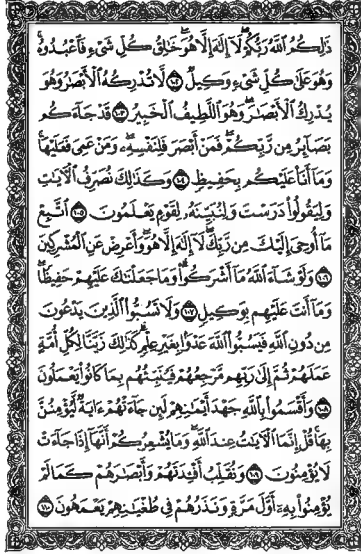
١٧- حرم الله تعالى سب آلهة المشركين - مع كون السب غيظاً وحمية لله وإهانة

لآلهتهم - لكونه ذريعة إلى سبهم الله تعالى، وكانت مصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة سبنا لآلهتهم، وهذا كالتنبيه بل كالتصريح على المنع من الجائر لئلا يكون سببا في فعل ما لا يجوز. (إعلام الموقعين ١/ ١٨١).

١٨ - قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾

وهذا التزيين سبحانه حسن إذ هو ابتلاء واختبار بعيد لتمييز المطيع منهم من العاصي والمؤمن من الكافر كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٧) وهو من الشيطان قبيح، وأيضا فتزيينه سبحانه للعبد عمله السيئ عقوبة منه له على إعراضه عن توحيده وعبوديته وإيثار سيئ العمل على حسنه، فإنه لا بد أن يعرفه سبحانه السيئ

من الحسن، فإذا أثر القبيح واختاره وأحبه ورضيه لنفسه زينه سبحانه له وأعماه عن رؤية قبحه بعد أن رآه قبيحا، وكل ظالم وفاجر وفاسق لا بد أن يريه الله تعالى ظلمه وفجوره وفسقه قبيحا، فإذا تمادى عليه ارتفعت رؤية قبحه من قلبه، فربما رآه حسنا عقوبة له، فإنه إنما يكشف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه وهو حجة الله عليه، فإذا تمادى في غيه وظلمه ذهب ذلك النور فلم ير قبحه في ظلمات الجهل والفسوق والظلم، ومع هذا فحجة الله قائمة عليه بالرسالة والتعريف الأول فتزيين الرب تعالى عدل وعقوبته حكمة وتزيين الشيطان إغواء وظلم وهو السبب الخارج عن العبد والسبب الداخل فيه حبه وبغضه وإعراضه والرب سبحانه خالق الجميع والجميع واقع بمشيئته وقدرته، ولو شاء لهدى خلقه أجمعين والمعصوم من عصمه الله والمخذول من خذله الله ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين (شفاء العليل ١٠٣-١٠٤).



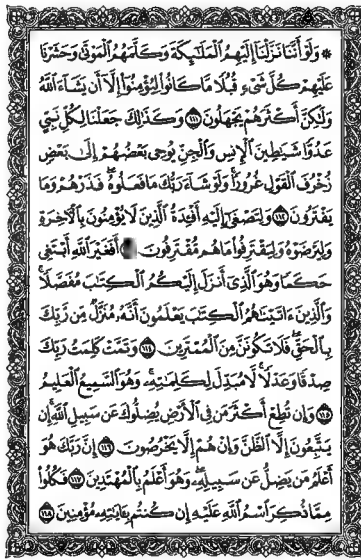
قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿١١٢﴾

١٩- ذكر سبحانه أنهم يستعينون على مخالفة أمر الأنبياء بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول فيغتر به الأغمار وضعفاء العقول، فذكر السبب الفاعل والقابل، ثم ذكر سبحانه انفعال هذه النفوس الجاهلة به بصغوها وميلها إليه ورضاها به لما كسي من الزخرف الذي يغر السامع، فلما أصغت إليه ورضيته اقترفت ما تدعو إليه من الباطل قولاً وعملاً، فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر الذي فيه بيان أصول الباطل والتنبيه على مواقع الحذر

منها وعدم الاغترار بها، وإذا تأملت مقالات أهل الباطل رأيتهم قد كسوها من العبارات وتخبروا لها من الألفاظ الرائقة ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، وأكثر الخلق كذلك حتى إن الفجار ليسمون أعظم أنواع الفجور بأسماء لا ينبو عنها السمع ويميل إليها الطبع فيسمون أم الخبائث أم الأفراح ويسمون اللقمة الملعونة لقيمة الذكر والفكر التي تثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن، ويسمون مجالس الفجور والفسوق مجالس الطيبة، حتى إن بعضهم لما عدل عن شيء من ذلك قال لعاذله: ترك المعاصي والتخوف منها إساءة ظن برحمة الله وجرأة على سعة عفوه ومغفرته. فانظر ماذا تفعل هذه الكلمة في قلب ممتلئ بالشهوات ضعيف العلم والبصيرة (الصواعق المرسلة ٢/ ٤٣٨).

قوله تعالى: ﴿وَلْيَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلْيَرْضَوْهُ وَلْيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ ﴿١١٢﴾

﴿وَلَوْ أَنَّا أَتَيْنَاكَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ وَكُنَّا مِنْهُمْ لَنَنبِتَنَّهُمْ فِي بَوَاحِشٍ مَّا نَكْتُمُكَ الْوَيْلُ لَكُم مِّنْ يَّوْمٍ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١١٢﴾



٢٠- سبحانه قد أخبر بمقصودهم من الإيحاء المذكور وهو أربعة أمور غرور من يوحون إليه وإصغاء أفئدتهم إليهم ومحبتهم لذلك وانفعالهم عنده بالاقتراف وإن كان ذلك تعليلاً لجعله سبحانه لكل نبي عدوا فيكون هذا الحكم من جملة الغايات والحكم المطلوبة بهذا الجعل وهي غاية وحكمة مقصودة لغيرها لأنها مفضية إلى أمور هي محبوبة مطلوبة للرب سبحانه وفواتها يستلزم فوات ما هو أحب إليه من حصولها وعلى التقديرين فاللام لام التعليل والحكمة. (شفاء العليل ١٩٣).

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾.

٢١- قرر أن ما أخبر به فهو صدق وما أمر به فهو عدل، وهذا يبين أن ما في النصوص من الخبر فهو صدق علينا أن نصدق به لا نعرض عنه ولا نعارضه، ومن دفعه أو عارضه بعقله لم يصدق به، ولو صدقه تصديقاً مجملاً ولم يصدقه تصديقاً مفصلاً في أعيان ما أخبر به لم يكن مؤمناً ولو أقر بلفظه مع جحد معناه أو حرفه إلى معانٍ أخرى غير ما أريد به لم يكن مصداقاً، بل هو إلى التكذيب أقرب. (الصواعق المرسلة ٣/ ١٠٤٢-١٠٤٦).

قوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيْسًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٢٢- قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ يتضمن أموراً: أحدها أنه يمشي في الناس بالنور وهم في الظلمة، فمثله ومثلهم كمثل قوم أظلم عليهم الليل

قَسِيَّةٌ أَوْجَعَتْ أَلْسَانَ الْقَتَنِينَ وَفِي الْمَعْنَى الْقَتَنِينَ
 قُلْ أَلَا أَدَّبْتُكُمْ حَزْرًا أَوْ الْأَتَنِينَ أَمَا اسْتَعْتَقْتُمْ عَلَيْهِ
 أَدَّبْتُكُمْ أَلَا أَدَّبْتُكُمْ حَزْرًا أَوْ الْأَتَنِينَ أَمَا اسْتَعْتَقْتُمْ عَلَيْهِ
 وَفِي الْأَوَّلِ الْقَتَنِينَ وَفِي الْآخِرِ الْقَتَنِينَ قُلْ أَلَا أَدَّبْتُكُمْ
 حَزْرًا أَوْ الْأَتَنِينَ أَمَا اسْتَعْتَقْتُمْ عَلَيْهِ أَدَّبْتُكُمْ أَلَا أَدَّبْتُكُمْ
 أَدَّبْتُكُمْ شَهْدَةً إِذَا وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنْ أَقْبَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِسُوءِ
 عِلْمِهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ لَا أَجِدُ
 فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مَحْرَمًا عَلَى طَاعِمٍ يَتَخَلَّصُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ
 مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ
 فِسْقًا أُولَئِكَ لَفِتْرَةُ اللَّهِ يُؤْمِنُونَ أَفَطَفَرُ غَيْرَ سُلُوحٍ وَلَا عَدُوٍّ
 فَإِنَّ رَبَّنَا غَفُورٌ ذَكِيٌّ ﴿٥٦﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَكَذَا وَاحْتَرَبْنَا
 كَلًّا ذِي ظُلْمٍ وَمَوْتٍ الْبَيْتِ وَالْقَتْرِ حَزْرًا عَلَيْهِمْ
 حُمُومُهُمْ أَلَا مَا حَسَنَتْ ظُهُورُهُمْ أَلَا الْحَرَبُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 يَنْظُرُونَ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَسِيئَتِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٥٧﴾

٢٥- فالضمير في قوله: ﴿فَاتَّهَهُ﴾ وإن كان عوده إلى الثلاثة المذكورة باعتبار لفظ المحرم، فإنه يترجح اختصاص لحم الخنزير به لثلاثة أوجه: أحدها: قربه منه.

والثاني: تذكيره دون قوله، فإنها رجس.

والثالث: أنه أتى (بالفاء) و (إن) تنبيهاً على علة التحريم لتزجر النفوس عنه، ويقابل هذه العلة ما في طباع بعض الناس من استلذاذه واستطابته، فنفي عنه

ذلك، وأخبر أنه رجس، وهذا لا يحتاج إليه في الميتة والدم، لأن كونهما رجساً أمر مستقر معلوم عندهم، ولهذا في القرآن نظائر، فتأملها. (زاد المعاد ٥/ ٧٦٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مَسَّ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾.

٢٦- مما يدل على أن لفظ الشهادة غير مشروط ومعلوم قطعاً أنه لم ينكر عليهم إلا مجرد قولهم إن الله حرم هذا، لم يخص الإنكار بقول من قال يشهد أن الله تعالى حرمه ولا نهى رسول الله أن يتلفظ بالشهادة على التحريم، بل هو نهي له أن يقول إن الله حرمه. (بدائع الفوائد ٥/ ٥٥).

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾.

٢٧- فلما ذكر إتيانه سبحانه ربما توهم متوهم أن المراد إتيان بعض آياته أزال هذا الوهم ورفع الإشكال بقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَكُ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ فصار الكلام مع هذا

التقسيم والتنويع نصا صريحا في معناه لا يحتمل غيره، وإذا تأملت أحاديث الصفات رأيت هذا لائحا على صفحاتها باديا على ألفاظها كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنكم ترون

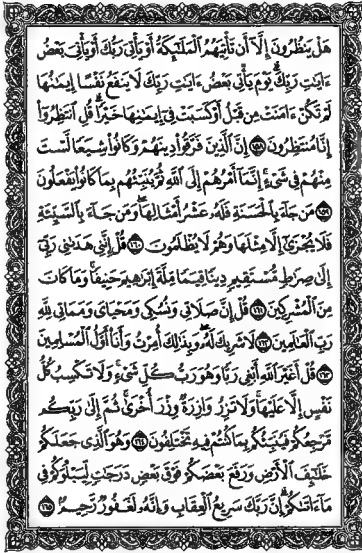
ربكم عيانا كما ترى الشمس في الظهيرة صحوا ليس دونها سحب، وكما يرى القمر ليلة البدر ليس دونه سحب». (بدائع الفوائد ٥/ ٥٥).

📖 قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

٢٨- أنت عدد الأمثال لتأويلها بحسنات ومثله قراءة أبي العالية: ﴿لَا يَفْعُ نَفْسًا إِيْمَتَهَا﴾ بالتاء والفعل مسند إلى الإيمان لكنه طاعة وإثابة في المعنى. (بدائع الفوائد ٤/ ٢٠٩).

📖 قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَىٰ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

٢٩- إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل، رأيتها هي نفس الرضا بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولا، ورأيت الحديث يترجم عنها، ومشتقا منها، فكثير من الناس يرضى بالله ربا، ولا يبغى ربا سواه، لكنه لا يرضى به وحده وليا وناصر، بل يوالي من دونه أولياء؛ ظنا منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك، وهذا عين الشرك.



سورة الأعراف

قوله تعالى: ﴿الْمَصَّ ۝ كَتَبُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾

١- الله تعالى رفع الحرج عن الصدور بكتابه، وكانت قبل إنزال الكتاب في أعظم الحرج والضيق، فلما أنزل كتابه ارتفع به عنها ذلك الحرج وبقي الحرج والضيق على من لم يؤمن به كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ۝﴾ [الأنعام: ١٢٥].



٢- ومن آمن به من وجهه دون وجهه ارتفع عنه الحرج والضيق من الوجه الذي آمن به دون ذلك الوجه، فمن أقر أنه منزل من عند الله أنزله على رسوله ولم يقر بأنه كلامه الذي تكلم به بل جعله مخلوقاً من جملة مخلوقاته، كان في صدره من الضيق والحرج ما يناسب ذلك، ومن أقر بأنه تكلم بشطره وهو المعاني دون شطره الآخر وهو حروفه، كان في صدره من الحرج منه ما يناسب ذلك.

٣- ومن زعم أنه غير كاف في معرفة الحق، وأن العباد يحتاجون معه إلى معقولات وآراء ومقاييس وقواعد منطقية ومباحث عقلية، ففي صدره منه أعظم حرج وأعظم حرجاً منه من اعتقد أن فيه ما يناقض العقل الصريح ويشهد العقل بخلافه وكذلك.

٤- من زعم أن آياته لا يستفاد منها علم ولا يقين، ففي صدره منه من الحرج ما الله به عليم، ومن زعم أن الخطاب به خطاب جمهوري يخيل للعامة ما ينتفعون به مما



ليس له حقيقة في نفس الأمر، ففي صدره منه أعظم حرج، ومن زعم أن أجل ما فيه وأشرفه وأفضله وهو قسم التوحيد المتضمن للأسماء والصفات مجازات واستعارات وتشبيهات لا حقائق، ففي صدره منه أعظم حرج، فكل هذه الطوائف في صدورهم منه حرج وريب، وليس في حقهم هدى ولا شفاء ولا رحمة، ولا هو كاف لهم بشهادتهم على أنفسهم وشهادة الله وملائكته والشهداء من عباده عليهم وبالله التوفيق. (الصواعق المرسلة ٤/ ١٥١٨-١٥١٩).

📖 قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢) ❦

٥- أمر سبحانه باتباع ما أنزل على رسوله ونهى عن اتباع غيره، فما هو إلا اتباع المنزل. واتباع أولياء من دونه، فإنه لم يجعل بينهما واسطة، فكل من لا يتبع الوحي فإنما يتبع الباطل واتبع أولياء من دون الله، وهذا بحمد الله ظاهر لا خفاء به. (الرسالة التبوكية ٥٤).

📖 قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ❦

٦- إن نفي كونه من الساجدين أخص من نفي السجود عنه؛ لأن نفي الكون يقتضي نفي الأهلية والاستعداد، فهو أبلغ في الذم من أن يقال لم يسجد. (بدائع الفوائد ٥٧/ ٣-٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ ۝٢١﴾ .

٧- الصواب في ذلك أن يقال: إن آدم - صلوات الله وسلامه عليه - لما قاسمه عدو الله أنه ناصح وأخرج الكلام على أنواع متعددة من التأكيد:

أحدها: القسم.

الثاني: تصديرها بالجملة اسمية لا فعلية.

الثالث: تصديرها بأداة التأكيد.

الرابع: الإتيان بلام التأكيد في الخبر.

الخامس: الإتيان به اسم فاعل لا فعلا دالا على الحدث.

السادس: تقديم المعمول على العامل فيه.

ولم يكن يظن أن أحدا يقسم بالله كاذبا يمين

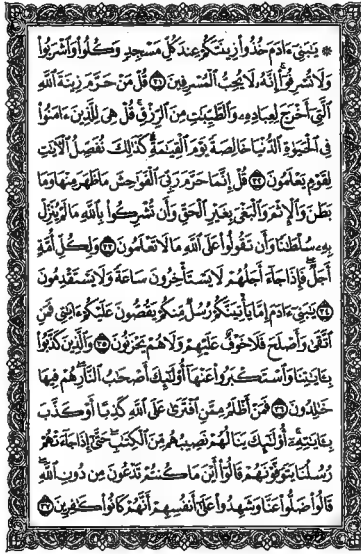
غموس يتجراً فيها على الله هذه الجرأة، فغره عدو الله

بهذا التأكيد والمبالغة، فظن آدم صدقه وأنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة، ورأى أن الأكل وإن كان فيه مفسدة فمصلحة الخلود أرجح، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة النهي أثناء ذلك إما باعتذار وإما بتوبة، وإما بغير ذلك. كما تجد هذا التأويل قائما في نفس كل من يؤمن بالله واليوم الآخر إيمانا لا شك فيه إذا أقدم على المعصية، فوازن بين هذا التأويل وبين تأويلات المحرفين، يظهر لك الصواب من الخطأ، والله الموفق للصواب. (الصواعق المرسلة ١/ ٣٧٢ ٣٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَنْقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾ .

قَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ ۝٢١﴾ .
وَعَلَّقَهُمْ مِنْ طِينٍ ۝ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ الشَّجَرَةِ ۝ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ ۝
قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۝ قَالَ فَمَا الْخُرْقَتَيْنِ ۝ قَالَ قَدْ دَخَلَا لَهْمَ
بِرَبِّكَ الْخُسْفَانِ ۝ قُلْ لَا يَنْفَعُكُمْ هُنَّ بَلَى يَوْمَ تَكُونُ مِنْ خِلَافِهِمْ
وَكُنْ لَيْسَ بِهِنَّ وَهْنٌ عَشِيًّا ۝ لَوْ لَا جَهَنَّمُ لَأَكُنَّ مِنْكُمْ شُرَكَاءُ ۝ قَالَ
لَا تُخْرِجُهُمَا مِنْهَا مَذْمُومًا مَضْمُونًا ۝ لَمْ يَمَعْكَ مِنْهُمَا لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ
أَجْمَعِينَ ۝ وَتَقَرَّرَ أَنَّكَ أَنْتَ وَرَبُّكَ الْجَنَّةُ فَكَلَامٌ حَيْثُ
يُشَارُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝ وَتُسَوِّدُ
لَهُمَا الشَّيْطَانُ الْيَمِينَ لَهَا مَا هُوَ عَنْهُمَا سَاعِدٌ ۝ وَهِيَ مَا قَالَ
مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ
أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ ۝
قَدْ لَهْمَا لَيْسَ بِهِنَّ وَهْنٌ عَشِيًّا ۝ لَوْ لَا جَهَنَّمُ لَأَكُنَّ مِنْكُمْ شُرَكَاءُ ۝
يَخْبِرُكَانَ عَنْهُمَا سَاعِدٌ وَرَبُّ الْجَنَّةِ وَكَانَ لَهَا مِثْقَالُ الْأَنْفَالِ كَقَرِ
يَا كَمَا الشَّجَرَةَ وَأَنَّ لَكُمَا إِلَى الشَّيْطَانِ كَمَا عَدُوَّيْنِ ۝

٨- قوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ دليل على أنها في نفسها فحشاء، وأن الله لا يأمر بما يكون كذلك، وأنه يتعالى ويتقدس عنه، ولو كان كونه فاحشة إنما علم بالنهي خاصة كان بمنزلة أن يقال إن الله لا يأمر بما ينهى عنه، وهذا كلام يسان عنه



آحاد العقلاء فكيف بكلام رب العالمين؟! ثم أكد سبحانه هذا الإنكار بقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فأخبر أنه يتعالى عن الأمر بالفحشاء، بل أوامره كلها حسنة في العقول مقبولة في الفطر، فإنه أمر بالقسط لا بالجور، وبإقامة الوجوه له عند مساجده لا لغيره، وبدعوته وحده مخلصين له الدين لا بالشرك، فهذا هو الذي يأمر به تعالى لا بالفحشاء. (مفتاح دار

السعادة ٣٣٦-٣٣٧).

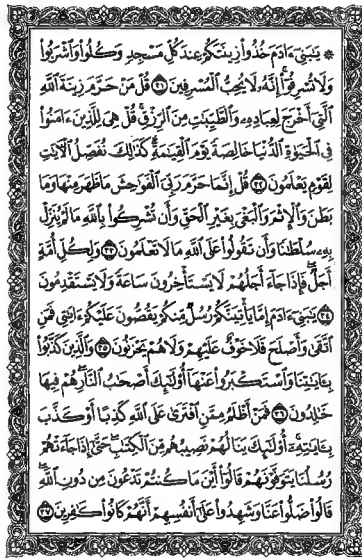
قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ مَا دَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١).

٩- جمعت أصول أحكام الشريعة كلها: فجمع الأمر، والنهي، والإباحة، والخبر.

(بدائع الفوائد ٧/٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ (٣٣).

١٠- هذا دليل على أنها فواحش في نفسها لا تستحسنها العقول، فتعلق التحريم بها لفحشها، فإن ترتيب الحكم على الوصف المناسب المشتق يدل على أنه هو العلة



المقتضية له، وهذا دليل في جميع هذه الآيات التي ذكرناها، فدل على أنه حرمها لكونها فواحش، وحرم الخبيث لكونه خبيثا، وأمر بالمعروف لكونه معروفا، والعلة يجب أن تغاير المعلول، فلو كان كونه فاحشة هو معنى كونه منهيّا عنه، وكونه خبيثا هو معنى كونه محرما، كانت العلة عين المعلول، وهذا محال فتأمل، وكذا تحريم الإثم والبغي دليل على أن هذا وصف ثابت له قبل التحريم. (مفتاح دار السعادة ٣٣٣).

ودخل في قوله تعالى تحريم كل فاحشة ظاهرة

وباطنة، وكل ظلم وعدوان في مال أو نفس أو عرض، وكل شرك بالله وإن دق في قول أو عمل أو إرادة بأن يجعل لله عدلا بغيره في اللفظ أو القصد أو الاعتقاد، وكل قول على الله لم يأت به نص عنه ولا عن رسوله في تحريم أو تحليل أو إيجاب أو إسقاط أو خبر عنه باسم أو صفة نفيا أو إثباتا أو خبرا عن فعله، فالقول عليه بلا علم حرام في أفعاله وصفاته ودينه. (إعلام الموقعين ١/ ٤١٣).

١١- وقوله: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ متضمن تحريم أصل الظلم في حق الله، وذلك يستلزم إيجاب العدل في حقه وهو عبادته وحده لا شريك له. (مفتاح دار السعادة ٤٥٨).

١٢- فذكر سبحانه المحرمات الأربع مبتدئا بالأسهل منها، ثم ما هو أصعب منه، ثم كذلك، حتى ختمها بأعظمها وأشدّها، وهو القول عليه بلا علم، فكيف بالكذب عليه؟ قالوا: ولأن الكذب عليه بأنه قال كذا ولم يقله، نسبة للقول المكذوب إليه بأنه قاله، فالكاذب يعلم أن ما اختلقه كذب، فإذا نسبته إلى رسول الله، فقد نسب إليه الكذب.

(الكلام على مسألة السماع ٣٢٤-٣٥٢).

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَهَا نَارٌ خِلَافُ مَا عَلَيْهَا وَإِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِضْنَاهُمْ لِرَبِّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُ مَا كُنْتُمْ عَذَابًا بِهِمْ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكَرْبِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَهَا نَارٌ أَخْبَهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِضْنَاهُمْ لِرَبِّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُ مَا كُنْتُمْ عَذَابًا بِهِمْ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٥٠﴾

لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا لَنَكُونُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُلُّ مِنْهُمْ رِيشٌ وَلَكِنْ لَنَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

١٣ - فليتدبر العاقل هذه الآيات وما اشتملت عليه من العبر.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ذكر الصنفين المبطلين:

أحدهما: منشئ الباطل والفرية وواضعها وداعي الناس إليها.

والثاني: مكذب بالحق.

فالأول: كفره بالافتراء وإنشاء الباطل.

والثاني: كفره بجحود الحق.

وهذان النوعان يعرضان لكل مبطل. فإن انضاف إلى ذلك دعوته إلى باطله وصد

الناس عن الحق، استحق تضعيف العذاب لكفره وشربه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٤٢﴾

قَالَ اذْهَابُوا فِي اَسْرِقَةٍ مَدَّ يَدَيْكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ الْاُولَى
فِي الْاَوَّلِ كُنْتُمْ اَعْدَاءُ لِمَنْ كُنْتُمْ لِحُفَّتُمْ اَتَاكُمْ اَتَاكُمْ اَتَاكُمْ
فِيهَا حَرٌّ مِثْلُ حَرِّ النَّارِ وَلَهُمْ فِيهَا حُلَّةٌ وَابْنُ اَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
عَلَيْهِمَا سَعَى مِنَ الْاَقْبَالِ لِكُلِّ وَجْهٍ وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ يَكُونُ
وَقَالَ اُولَهُمْ فِي الْحُفَّةِ قَمَاعٌ اَنْ لَكُمْ عَلَيْهِمْ يَسْتَلِ
فَقَدَرُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ اِذَا الْيُزُورُ
كُلُّ اُولٍ اُولَى وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَوْ اَشْفَعُ لَكُمْ اُولُو السَّلَ
وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاقِيَ اُولَى سِرِّهِمْ اُولَى اُولَى
عَنِّي الْمُغْرِبِينَ ۝ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مِثْلُ مَا فِي هَذِهِ مِثْلُ مَا فِي هَذِهِ
وَلَكِنَّهُ عَنِّي الظَّالِمِينَ ۝ وَالَّذِينَ اسْتَأْذَنُوا وَعَدُوا الصَّالِحِينَ
لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ اِلَّا مِنْ سَمَامَةٍ اُولَى اُولَى اُولَى اُولَى
فِيهَا حُلَّةٌ ۝ وَتَرَى عَنْ يَمِينِهِمْ جِبَالٌ مِثْلُ مِثْلِ
مِنْ تَحْتِهِمْ اُولَى اُولَى اُولَى اُولَى اُولَى اُولَى اُولَى
يَتَقَرَّبُونَ لَوْلَا اَنْ هَذَا اُولَى اُولَى اُولَى اُولَى اُولَى
وَلَوْلَا اَنْ وَلَكِنَّ الْجَنَّةَ اُولَى اُولَى اُولَى اُولَى اُولَى ۝

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ ۖ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ ۖ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَجَعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۖ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

الْظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾. هذا دليل على أنه بمكان مرتفع بين الجنة والنار، فإذا أشرفوا على أهل الجنة نادوهم بالسلام وطمعوا في الدخول إليها، وإذا أشرفوا على أهل النار سألوها الله ألا يجعلهم معهم.

قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ٥٥ وَلَا
نُفْسٍ دَا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ
الْمُحْسِنِينَ ٥٦.

وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكُتُبٍ مُّحْكِمَاتٍ عَلَّمْنَا عَلَيْهَا مِثْقَالَ نَجْدَةٍ ثُمَّ أَتَيْنَاهُمُ بِالْحَقِّ فَعُلُوا بُرْهَانَ الْحَقِّ ثُمَّ كَذَّبُوا وَحَسِبُوا أَنَّ الْفُتُورَ الَّذِي تَبَعُهُمْ فَاعِلُونَا كَآلِ الْفُتُورِ الَّذِي أَجْلَحُوا فِي آيَاتِنَا إِنَّهُم كَفَرُوا ۖ وَبَدَّلُوا بُرْهَانَ هَٰذَا الَّذِي جَاءَهُمْ فَاعِلُونَ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأَعْبَدُوا إِلَّا اللَّهَ فَبَدَّلَ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأَعْبَدُوا إِلَّا اللَّهَ فَبَدَّلَ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأَعْبَدُوا إِلَّا اللَّهَ فَبَدَّلَ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۚ

الدعاء (دعاء العبادة، ودعاء المسألة)، فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة، ويراد به مجموعهما وهما متلازمان، فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره أو دفعه، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقا، والمعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضرر، ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرا ولا نفعاً وذلك كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴿٦٩﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٦٩)، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ (٧٠) أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ عَلَيْهِمْ بَنَاءَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٧١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنكَفَيْنِ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَفْعَلُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾، وقوله

وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَخَرَقَهُ لِيُحَدِّثَ بِهِمْ وَجَهْدًا
 لِقَوْمِهِمْ ۖ قُلْ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ
 وَيُمْسِكُ النَّفْسَ الَّتِي قَدْ خَلَتْ ۖ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا
 لَهُ مَصِيرًا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَدْعِيكُمْ إِلَىٰ طَاعَةِ اللَّهِ
 وَلِطَاعَةِ رَسُولِهِ ۖ فَمَنِ اتَّبَعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
 وَأَصْلَحْ سَعْيَهُ لِلدِّينِ الْحَنِيفِ ۖ فَمِثْلُ خَيْرٍ
 لِّمَا كَانَ يَكُنِ الْمُشْرِكُونَ ۖ وَفَمَنْ أَضَلَّ اللَّهُ
 فََمَا لَهُ مَصِيرًا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَدْعِيكُمْ إِلَىٰ مَا
 بَدَأَ بِهِ ۖ وَمَا أَنَا بِمُصَلِّ ۚ قُلْ إِنَّمَا أَدْعِيكُمْ
 إِلَىٰ طَاعَةِ اللَّهِ ۖ وَلِطَاعَةِ رَسُولِهِ ۖ فَمَنِ
 اتَّبَعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَصْلَحْ سَعْيَهُ لِلدِّينِ
 الْحَنِيفِ ۖ فَمِثْلُ خَيْرٍ لِّمَا كَانَ يَكُنِ الْمُشْرِكُونَ
 ۚ وَفَمَنْ أَضَلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مَصِيرًا ۚ قُلْ إِنَّمَا
 أَدْعِيكُمْ إِلَىٰ طَاعَةِ اللَّهِ ۖ وَلِطَاعَةِ رَسُولِهِ ۖ
 فَمَنِ اتَّبَعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَصْلَحْ سَعْيَهُ
 لِلدِّينِ الْحَنِيفِ ۖ فَمِثْلُ خَيْرٍ لِّمَا كَانَ يَكُنِ
 الْمُشْرِكُونَ ۚ وَفَمَنْ أَضَلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مَصِيرًا ۚ

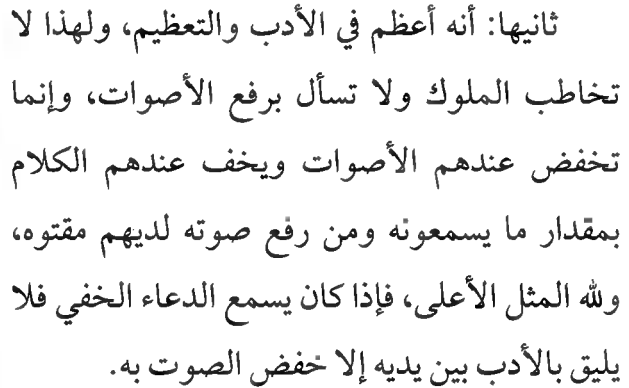
تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ (٢٠)، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ (٥٥) فنفي سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضرر القاصر والمتعدي فلا يملكونه لأنفسهم ولا لعابديهم. وهذا في القرآن كثير، بيد أن المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضرر فهو يدعى للنفع والضرر دعاء المسألة، ويدعى خوفا ورجاء دعاء العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان، فكل

دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، وعلى هذا فقله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ يتناول نوعي الدعاء، وبكل منهما فسرت الآية.

١٧- فقله تعالى: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ فإنه يتناول نوعي الدعاء، لكنه ظاهر في دعاء المسألة متضمن دعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه وإسراؤه. قال الحسن: «بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وأن الله تعالى ذكر عبدا صالحا ورضي بفعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (٣)».

١٨- وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها: أنه أعظم إيمانا لأن صاحبه يعلم أن الله تعالى يسمع دعاءه الخفي وليس كالذي قال: إن الله يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا.



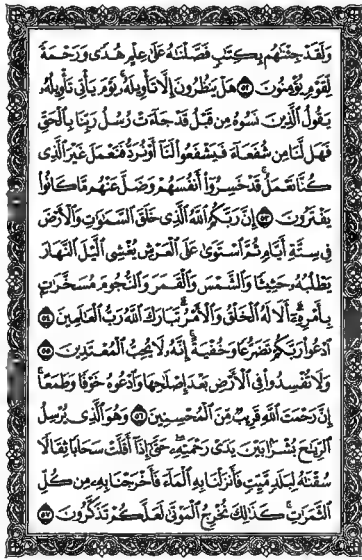
ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه

وذلت جوارحه وخشع صوته، حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته وكسره وضراعتة إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوله بالنطق فقلبه سائل طالب مبتهل ولسانه لشدة ذله وضراعتة ومسكنته ساكت، وهذه الحالة لا يتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلاً.

رابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

خامسها: أنه أبلغ في جمعه القلب على الله تعالى في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرقه ويشتهه، فكلما خفض صوته كان أبلغ في صمده وتجريد همته وقصده للمدعو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

سادسها: وهو من النكت السرية البديعة جدا: أنه دال على قرب صاحبه من الله، وأنه لا قترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة للقريب لا مسألة نداء البعيد للبعيد؛ ولهذا أثنى سبحانه على عبده زكريا بقوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ ﴿٣﴾ فكلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه وإنه أقرب إليه من كل قريب وتصور ذلك أخفى دعاءه ما أمكنه ولم يتأت له رفع الصوت به بل يراه



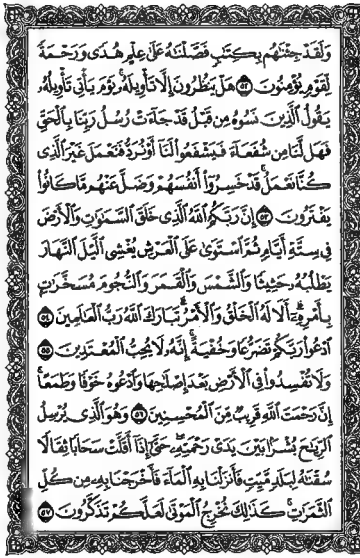
غير مستحسن، كما أن من خاطب جليسا له يسمع خفي كلامه فبالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه، والله المثل الأعلى سبحانه.

والمقصود ها هنا الكلام على هذه الآية.

سابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يكل لسانه وتضعف بعض قواه وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعا صوته، فإنه لا يطول له ذلك بخلاف من يخفض صوته.

ثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات، فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره، وإذا جهر به تفتنت له الأرواح الشريرة والباطولية والخبیثة من الجن والأنس، فشوش عليه ولا بد ومانعته وعارضته، ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته فيضعف أثر الدعاء لكفى، ومن له تجربة يعرف هذا، فإذا أسر الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة.

تاسعها: إن أعظم النعم الإقبال على الله والتعبد له والانقطاع إليه والتبتل إليه، ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلّت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وأن لا يقصد إظهارها له، وقد قال يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار، فأصبح يقلب كفيه ولهذا



يوصي العارفون والشيخوخ بحفظ السر مع الله، وألا يطلعوا عليه أحدا ويتكتمون به غاية التكم.

عاشرها: أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه، فهو ذكر وزيادة كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أفضل الدعاء: الحمد لله" فسمى الحمد لله دعاء وهو ثناء محض لأن الحمد يتضمن الحب والثناء والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب، فالحامد طالب لمحبوبه

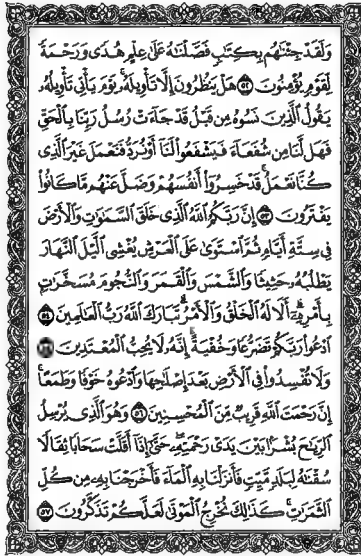
فهو أحق أن يسمى داعيا من السائل الطالب من ربه حاجة ما، فتأمل هذا الموضع ولا تحتاج إلى ما قيل إن الذاكر متعرض للنوال وإن لم يكن مصرحا بالسؤال، فهو داع بما تضمنه ثناؤه من التعرض كما قال أمية بن أبي الصلت:

أذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوما كفاه من تعرضه الثناء

وعلى هذه الطريقة التي ذكرناها فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب وهو طلب المحب، فهو دعاء حقيقة بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه.

١٩ - وقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب، وأما قرينة تَبَارَكَ وَتَعَالَى من محبه فنوع آخر وبناء آخر وشأن آخر، كما قد ذكرناه في كتاب التحف المكية على أن العبارة تنبؤ عنه ولا تحصل في القلب حقيقة معناه أبدا، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها يكون تصديق العبد بهذا القرب، وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية، أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها، فتزل قدم بعد ثبوتها.

٢٠- وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَأَذْكُرْكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ وفي آية الدعاء: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ فذكر التضرع فيهما معا وهو التذلل والتمسك

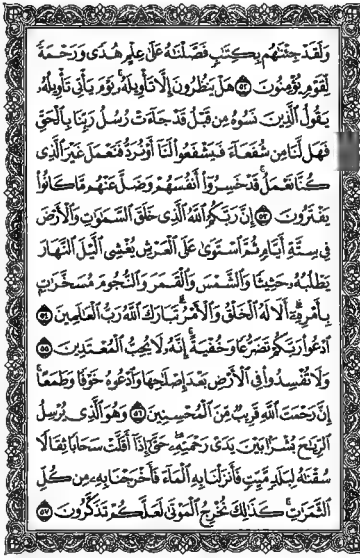


والانكسار وهو روح الذكر والدعاء وخص الدعاء الخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها، وخص الذكر بالخفية لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويشمرها ولا بد، فمن أكثر من ذكر الله تعالى أثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقرن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها بل قد تضره؛ لأنها توجب الإدلال والانبساط وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات.

٢١- فتأمل أسرار القرآن الكريم وحكمته في هذا الاقتران فإنه قال: ﴿وَأَذْكُرْكَ فِي نَفْسِكَ﴾ فلم يحتج بعدها أن يقول: (خفية) وقال في الدعاء: ﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فلم يحتج أن يقول في الأول: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ فانتظمت كل واحدة من الآيتين للخيفة والخفية والتضرع أحسن انتظام، ودلت على ذلك أكمل دلالة.

٢٢- وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء؛ لأن الدعاء مبني عليه، فإن الداعي ما لم يطمع في سؤله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه إذ طلب ما لا طمع فيه ممنوع.

٢٣- وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه كما تقدم، فذكر في كل آية ما هو اللائق بها والأولى بها من الخوف والطمع، فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين.



٢٤- وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين:

أحدهما محبوب للرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى مرض له وهو الدعاء تضرعا وخفية، الثاني: مكروه له مبغوض مسخوط وهو الاعتداء، فأمر بما يحبه الله وندب إليه، وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير، وهو أنه لا يحب فاعله، ومن لم يحبه الله فأى خير يناله؟!

٢٥- وفي قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

عقب قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ دليل

على أن من لم يدعه تضرعا وخفية فهو من المعتدين الذين لا يحبهم، فقسمت الآية الناس إلى قسمين: داع لله تضرعا وخفية، ومعتد بترك ذلك.

٢٦- وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ إنما كرر الأمر بالدعاء لما ذكر

معه من الخوف والطمع، فأمر أولا بدعائه تضرعا وخفية، ثم أمر بأن يكون الدعاء أيضا خوفا وطمعا، وفصل بين الجملتين إحداهما خبرية ومتضمنة للنهي وهي قوله:

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، والثانية طلبية وهي قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ

إِصْلَاحِهَا﴾، والجملتان مقررتان مقويتان للجملتين الأولى مؤكدتان لمضمونها. ثم

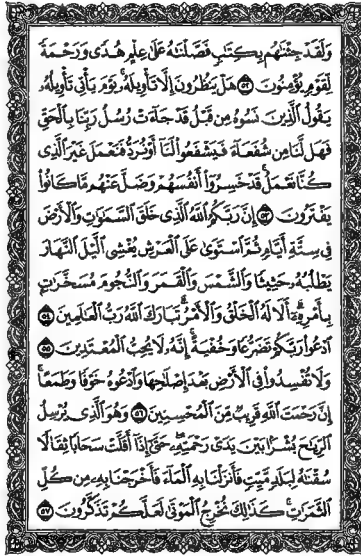
لما ثم تقريرها تقدم وبيان ما يضادها ويناقضها أمر بدعائه خوفا وطمعا، ثم قرر ذلك

وأكد مضمونه بجملته خبرية وهي ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فتعلق

هذه الجملة بقوله: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ كتعلق قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

بقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

٢٧- ولما كان قوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مشتقاً على جميع مقامات الإيمان والإحسان وهي الحب والخوف والرجاء عقبها بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي إنما ينال من دعاة خوفًا وطمعاً فهو المحسن والرحمة قريب منه لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة.



٢٨- ولما كان دعاء التضرع والخفية يقابله الاعتداء بعدم التضرع والخفية عقب ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْمُعْتَدِينَ﴾.

٢٩- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه تنبيه ظاهر على أن فعل هذا المأمور به هو الإحسان المطلوب منكم ومطلوبكم أنتم من الله هو رحمته ورحمته قريب من المحسنين الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه خوفاً وطمعاً فاقرب مطلوبكم

منكم وهو الرحمة بحسب أدائكم لمطلوبه منكم وهو الإحسان الذي هو في الحقيقة إحسان إلى أنفسكم، فإن الله تعالى هو الغني الحميد وإن أحسستم أحسستم لأنفسكم.

٣٠- وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ له دلالة بمنطوقه ودلالة بإيمائه وتعليله ودلالة بمفهومه فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالإحسان فهو السبب في قرب الرحمة منهم ودلالته بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة.

وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان لأن الجزاء من جنس العمل فكما

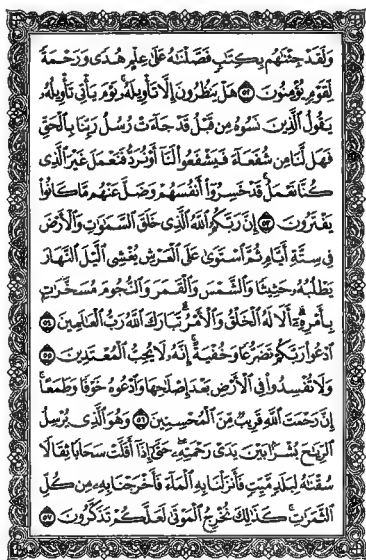
بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة بعدا يبعد وقربا
بقرب فمن تقرب بالإحسان تقرب الله إليه برحمته
ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته
والله سبحانه يحب المحسنين ويبغض من ليس من
المحسنين ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه
ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه.

والإحسان ما هنا هو فعل المأمور به سواء كان إحساناً إلى الناس أو إلى نفسه فأعظم الإحسان الإيمان والتوحيد والإنابة إلى الله والإقبال عليه

والتوكل عليه وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالا ومهابه وحياء ومحبة وخشية فهذا هو مقام الإحسان كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد سأله جبريل عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه» (رواه مسلم الترمذي والنسائي وغيرهم). وإذا كان هذا هو الإحسان فَرَحْمَةُ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ صَاحِبِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا يَرْحَمُ أَهْلَ تَوْحِيدِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَإِنَّمَا كَتَبَ رَحْمَتَهُ ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ والذين يتبعون رسوله فهو لاء هم أهل الرحمة كما أنهم هم المحسنون وكما أحسنوا جوزوا بالإحسان و﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ (٦٠) يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه؟ قال ابن عباس: «هل جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد إلا الجنة؟».

٣١- إن هذا من باب الاستغناء بأحد المذكورين عن الأخ لكونه تبعاً له ومعنى من معانيه، فإذا ذكر أغنى عن ذكره لأنه يفهم منه.

فعلى هذا يكون الأصل في الآية: إن الله قريب من المحسنين، وإن رحمة الله



قريبة من المحسنين، فاستغنى بخبر المحذوف عن خبر الموجود، وسوغ ذلك ظهور المعنى وهذا المسلك مسلك حسن إذا كسي تعبيراً أحسن من هذا وهو مسلك لطيف المنزع دقيق على الأفهام وهو من أسرار القرآن والذي ينبغي أن يعبر عنه به أن الرحمة صفة من صفات الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى والصفة قائمة بالموصوف لا تفارقه لأن الصفة لا تفارق موصوفها، فإذا كانت قريبة من المحسنين فالموصوف تَبَارَكَ وَتَعَالَى أولى بالقرب منه بل قرب رحمته تبع لقربه هو تَبَارَكَ وَتَعَالَى من المحسنين.

٣٢- ففي حذف التاء ها هنا تنبيه على هذه الفائدة العظيمة الجليلة وأن الله تعالى قريب من المحسنين، وذلك يستلزم القربين قربه وقرب رحمته، ولو قال إن رحمة الله قريبة من المحسنين لم يدل على قربه تعالى منهم لأن قربه تعالى أخص من قرب رحمته والأعم لا يستلزم الأخص بخلاف قربه، فإنه لما كان أخص استلزم الأعم وهو قرب رحمته فلا تستهن بهذا المسلك، فإن له شأنًا وهو متضمن لسر بديع من أسرار الكتاب وما أظن صاحب هذا المسلك قصد هذا المعنى ولا ألم به وإنما أراد أن الإخبار عن قرب الله تعالى من المحسنين كاف عن الإخبار عن قرب رحمته منهم

وَأَنكُرُوا إِذْ جَعَلُوا خَلْقَهُ مِنْ تَحْدِثِهِ وَنُوحُوا
فِي الْأَرْضِ تَتَجَفَّدُونَ مِنْ سُوءِهِمْ فَصُورُوا تَتَجَفَّدُونَ
الْجِبَالُ بَيُوتًا فَأَنكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْبُرُوا فِي
الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٠﴾ قَالَ السُّلَاطِينُ أَسْمَكُكُمْ
قَوِيَّةً لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لَنَا مِمَّنْ هُمْ أَفْضَلُونَ
أَمْ صَلَاحُهُمْ أَوْ عِلْمُهُمْ فَنُوحُوا قَالُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ إِلَهُهُ
مُؤْتَوَاتٍ ﴿٨١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا إِنَّا لَا نَدْرِي
عَمِّيهِمْ هُمْ كَيُودُونَ ﴿٨٢﴾ فَصَبَّوْا السَّاقَةَ وَغَضَبُوا
أَمْرَهُمْ وَقَالُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ إِلَهُهُمُ أَنْ يَكُونَ لَنَا
مِنْ الْقُرْآنِ حِكْمٌ ﴿٨٣﴾ فَأَخَذَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِ
جَاثِيِينَ ﴿٨٤﴾ فَتَرَى عَنْهُمْ وَهْلًا وَقَوْلًا يَكْفُرُونَ
رِسَالَةَ رَبِّي وَصَبَّحْتَ لَكُمُ اللَّيْلُ لَكُمُ اللَّيْلُ
وَالْوَيْلُ إِذْ قَالَ الْقَوِيُّ أَنَا أَنَا فَجَعَلَ مَا سَبَقَكُمْ
بِهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٥﴾ إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ لَرَجَالُ
شَهْوَةٍ مِنْ دُوبِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٦﴾

فهو مسلك سابع في الآية وهو المختار وهو من أليق ما قيل فيها. (بدائع الفوائد ٣/ ٣٥١).

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ لَرَجَالُ شَهْوَةٍ مِنْ دُوبِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

٣٣- من تأمل قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَةَ﴾

إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ [الإسراء: ٣٢]

وقوله في اللواط: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٨٠]، تبين له تفاوت ما بينهما، وأنه سبحانه نكّر الفاحشة في الزنى، أي هو فاحشة من الفواحش، وعرفّها في اللواط، وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة، كما تقول: زيد الرجل، ونعم الرجل زيد، أي أتأتون الخصلة التي استقر فحشها عند كل أحد، فهي لظهور فحشها وكمال غنية عن ذكرها، بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها، وهذا نظير قول فرعون لموسى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكْ أَلْتِي فَعَلْتَ﴾ [الشعراء: ١٩].

أي الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد. ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم، فقال: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، ثم زاد في التأكيد بأن صرح بما تشمئز منه القلوب، وتنبو عنه الأسماع، وتنفّر منه الطباع أشد نفرة، وهو إتيان الرجل رجلاً مثله ينكحه كما ينكح الأنثى.

٣٤- قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ [الأعراف: ٨١].

ثم نبه على استغنائهم عن ذلك، وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة لا الحاجة التي لأجلها مال الذكر إلى الأنثى، ومن قضاء الوطر ولذة الاستمتاع، وحصول المودة والرحمة التي تنسى المرأة لها أبويها، وتذكر بعلها، وحصول النسل الذي هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات، وتحصين المرأة وقضاء وطرها، وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب، وقيام الرجال على النساء، وخروج أحب الخلق إلى الله من جماعهن كالأنبياء والأولياء والمؤمنين، ومكاثرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



الأنبياء بأمته إلى غير ذلك من مصالح النكاح. (الداء والدواء ٢٥٨-٢٥٦).

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَإِجْرِهِنَّ بَعْدَ إِذْ بَخَسْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾.

قال الملأ الذين استكبروا من قومه لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَإِجْرِهِنَّ بَعْدَ إِذْ بَخَسْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ عِزَّتِنَا أَنْ تَقْتَرِحُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْغَيْبِ وَأَنْتُمْ أَنْتُمْ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٨﴾ وقال الملأ الذين كفروا من قومه لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَبًا مِنْ الْوَادِ الْغَيْرِ لَنَكْفُرُنَّ بِكُمْ لَتَكْفُرُنَّ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٩﴾ فَأَعَزَّنَا فِي الْوَادِ الْغَيْرِ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَفَرُوا شُعَبًا كَانَ لَوْ يَتَذَكَّرُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا شُعَبًا كَانُوا لَهُمْ الْقِيَمَةُ ﴿٩٠﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَافُوكُمْ لَقَدْ أَهْلَكْتُمْ بَكْرَتَكُمْ وَإِنَّكُمْ لَفِي غَیْبٍ فَكَيْفَ ءَامَنُوا عَلَى قَوْمِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٩١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَوْمِ بْنِ إِدْرِيسَ إِلَّا أَنْذَرْنَاهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِالنَّاسِ وَالْأَنْبِيَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٩٢﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آلَهُ تَلُوتًا ﴿٩٣﴾ فَالْتَمَزْنَا لَهُمُ الْغَمْلَ فَأَعَزَّنَاهُمْ بَقِيَّةَ وَهْمِهِمْ لَا تَعُودُونَ ﴿٩٤﴾

٣٥- [هذا ما قاله نبي الله شعيب لقومه]. وهذا

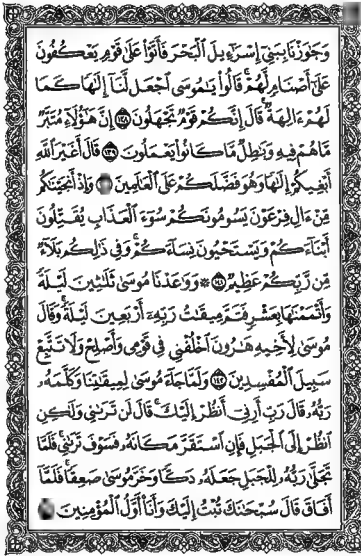
يبطل تأويل القدرية المشيئة في مثل ذلك بمعنى الأمر فقد علمت أنه من الممتنع على الله أن يأمر بالدخول

في ملة الكفر والشرك به، ولكن استثنوا بمشيئته التي يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء، ثم قال شعيب ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فرد الأمر إلى مشيئته وعلمه، فإن له سبحانه في خلقه علم محيط، ومشيئته نافذة وراء ما يعلمه الخلائق، فامتناعنا من العود فيها هو مبلغ علومنا ومشيتنا، والله علم آخر ومشية أخرى وراء علومنا ومشيتنا، فلذلك رد الأمر إليه. (الفوائد ١٦١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ تَرَنِى وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِى فَلَمَّا بَلَغَ رُبُّهُ لِّلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾.

٣٦- بيان الدلالة من هذه الآية من وجوه عديدة:

أحدها: أنه لا يظن بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه أن يسأل ربه ما لا يجوز عليه، بل ما هو من أبطل الباطل وأعظم المحال وهو عند فروخ اليونان والصابئة



والفرعونية بمنزلة أن يسأله أن يأكل ويشرب وينام ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه، فيا لله العجب كيف صار أتباع الصابئة والمجوس والمشركين عباد الأصنام وفروخ الجهمية والفرعونية أعلم بالله تعالى من موسى بن عمران وبما يستحيل عليه ويجب له واشد تنزيها له منه.

الوجه الثاني: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَنْكَرْ عَلَيْهِ سؤاله ولو كان محالا لأنكره عليه ولهذا لما سال إبراهيم الخليل ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يريه كيف يحيي الموتى لم ينكر عليه ولما سال عيسى ابن مريم ربه

إنزال المائدة من السماء لم ينكر عليه سؤاله ولما سال نوح ربه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله وقال: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧).

الوجه الثالث: أنه أجابه بقوله: ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾ ولم يقل: لا تراني، ولا إني لست بمرئي، ولا تجوز رؤيتي. والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمله، وهذا يدل على أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يرى ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته تعالى يوضحه.

الوجه الرابع: وهو قوله ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِّي﴾ فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت لتجليه له في هذه الدار، فكيف بالبشر الضعيف الذي خلق من ضعف؟!

الوجه الخامس: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قادر على أن يجعل الجبل مستقرا مكانه وليس هذا بممتنع في مقدوره بل هو ممكن وقد علق به الرؤية ولو كانت مجالا في ذاتها

[illegible]

الوجه السابع: أن ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد كلمه منه إليه وخاطبه وناجاه وناداه ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبه كلامه معه بغير واسطة، فرويته أولى بالجواز ولهذا لا يتم إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم، وقد جمعت هذه الطوائف بين إنكار الأمرين فأنكروا أن يكلم أحدا أو يراه أحد، ولهذا سأله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ النظر إليه وأسمعه كلامه وعلم نبي الله جواز رؤيته من وقوع خطأ به وتكليمه لم يخبره باستحالة ذلك عليه ولكن أراه أن ما سأله لا يقدر على احتماله كما لم يثبت الجبل لتجليه. وأما قوله تعالى: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ فإنما يدل على النفي في المستقبل، ولا يدل على دوام النفي، ولو قيدت بالتأبيد فكيف إذا أطلقت قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ مع قوله تعالى: ﴿وَنَادَا يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾. (حادي الأرواح ٢٢٩ - ٢٣٠).

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَئِفَتِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمْ خُورٌ آلَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾

٣٧- نبه بهذا الدليل على أن من لا يكلم ولا يهدي لا يصلح أن يكون ألقا.

قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

وَأَمَّا هَذَا فَمَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ
إِنَّمَا هَذَا الْبَيْتُ قَالَ عَدَائِي أَصِيبْ بِهِ مِنْ أَمَلَةٍ وَتَحْتِي
وَيَعْنِي كُلَّ مَنْ وَفَّقْتَنِيهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَائِدَتِنَا يُوَفُّونَ ۝ الَّذِينَ يَتَّقُونَ
الرَّسُولَ الَّذِي آتَى الْبَيِّنَاتِ يَهْدِيهِ إِلَى مَسْجِدٍ مُبَارَكٍ
فِي الْقُرْآنِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ
عَلَيْهِمْ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا
النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۝ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝
قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ خَرِجُوا الدِّينَ
لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ
قَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الَّذِينَ يَزُولُ فِيهِمُ النَّارُ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَسَيِّدِهِ وَآلِهِ وَآلِهِمْ ۝ لَسْتُ بِمُتَدَوِّتٍ ۝ زَيْن
قُرَيْشٍ مَوْحِي ۝ أَمَّا هَذِهِ دُونَ ۝ بِالْحَقِّ رُبُّهُ يَهْدِي لُونِ ۝

٣٨- هذا صريح في أن الحلال كان طيبا قبل حله، وأن الخبيث كان خبيثا قبل تحريمه، ولم يستفد طيب هذا وخبيث هذا من نفس التحليل والتحريم.

فتأمل هذا الموضوع حق التأمل يطلعك على أسرار الشريعة ويشرفك على محاسنها وكمالها وبهجتها وجلالها، وأنه من الممتنع في حكمة أحكم الحاكمين أن ترد بخلاف ما وردت به، وأن الله تعالى يتنزه عن ذلك كما يتنزه عن سائر ما لا يليق به. (مفتاح

دار السعادة ٣٣٢-٣٣٣).

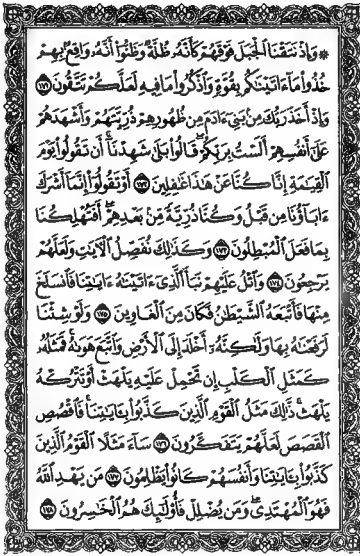
٣٩- وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ﴾ سمي الله التكليف الشاقة أغلالا في قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ فشبها بالأغلال لشدتها وصعوبتها. قال الحسن: "هي الشدائد التي كانت في العبادة كقطع أثر البول وقتل النفس في التوبة وقطع الأعضاء الخاطئة وتتبع العروق من اللحم" وقال ابن قتيبة: "هي تحريم الله سبحانه عليهم كثيرا مما أطلقه لأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعلها أغلالا لأن التحريم يمنع كما يقبض الغل اليد. (شفاء العليل ٩٤-٩٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾.

وأيضا فإنه قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ولم يقل: «من آدم»، ثم قال: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ولم يقل: «من ظهره»، ثم قال: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، ولم يقل: «ذريته»، ثم قال: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وهذا يقتضي إقرارهم بربوبيته إقرارا تقوم عليهم به الحجة.

٤١ - شبه سبحانه من آتاه كتابه وعلمه العلم

الذي منعه غيره، فترك العمل به، واتبع هواه وآثر
سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق، بالكلب الذي هو
من أخبث الحيوانات، وأوضعها قدرا، وأخسها نفسا، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدها
شرها وحرصا، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشم ويستروح



حرصاً وشرها، ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته، وهو من أمهن الحيوانات، وأحملها للهوان، وأرضاهما بالدنيا، والجيف القدرة المروحة أحب إليه من اللحم الطري، والعذرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلباً واحداً يتناول منها شيئاً إلا هز عليه وقهره لحرصه وبخله وشره.

٤٢- وفي تشبيهه من أثر الدنيا وعاجلها على الله

والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في حال لهثه سر

بديع، وهو أن هذا الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هو اهواه إنما كان لشدة لهفه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى.

٤٣- وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعاني: ﴿عَاتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]. فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته، فإنها نعمة، والله هو الذي أنعم بها عليه، فأضافها إلى نفسه، ثم قال: ﴿فَأَسْلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]. أي خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد يسلك عن اللحم.

٤٤- لم يقل: (فسلخناه منها)؛ لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباعه هو اهواه.

ومنها قوله سبحانه: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ١٧٥]. أي لحقه وأدركه كما قال في قوم فرعون: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ شُرَاقِبَ﴾ [الشعراء: ٦٠]. وكان محفوظاً محروساً بآيات الله، محمي الجانب بها من الشيطان، لا ينال منه شيئاً إلا على غرة وخطفة، فلما انسلخ

من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته، فكان من الغاوين العاملين بخلاف عملهم، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه، كعلماء السوء.

٤٥- ومنها أنه سبحانه قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ﴾



[الأعراف: ١٧٦]. فأخبر سبحانه أن الرفع عند الله ليست بمجرد العلم، فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره وقصد مرضاة الله.

فإن هذا كله من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه الله بعلمه ولم ينفعه به فتعوز بالله من علم لا ينفع، وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه الله فهو موضوع لا يرفع أحد به رأساً، فإن الخافض الرافع سبحانه خفضه ولم يرفعه،

والمعنى لو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناها.

٤٦- فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه. وتأمل ما تضمنته هذه الآية

من ذمه، وذلك من وجوه:

أحدها: أنه ضل بعد العلم واختار الكفر على الإيمان عمداً ولا جهلاً.

وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبداً، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها.

وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ ولم يقل (تبعه)، فإن في معنى أتبعه أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظاً ومعنى.



ورابعها: أنه غوي بعد الرشد والغي الضلال في العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر وإن اقرنا فالفرق ما ذكر.

وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه؛ لأنه لم رفع به فصار وبالاً عليه فلو لم يكن عالماً كان خيراً له وأخف لعذابه.

وسادسها: أنه سبحانه أخبر عن خسة همته وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

وسابعها: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض وميل بكليته إلى ما هناك وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام، كأنه قيل لزم الميل إلى الأرض، ومن هذا يقال: أخلد فلان بالمكان، إذا لزم الإقامة به.

قال مالك بن نويرة:

بأبناء حي من قبائل مالك وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

وعبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض لأن الدنيا هي الأرض وما فيها وما يستخرج منها من الزينة والمتاع.

وثامنها: أنه رغب عن هداة واتبع هواه فجعل هواه إماماً له يقتدي به ويتبعه.

وتاسعها: أنه شبهه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همة وأسقطها نفساً وأبخلها وأشدّها كلباً ولهذا سمي كلباً.

وعاشرها: أنه شبه لهته على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدائها وحرصه على

الكلب. (الفوائد ١٠٠-١٠٢).

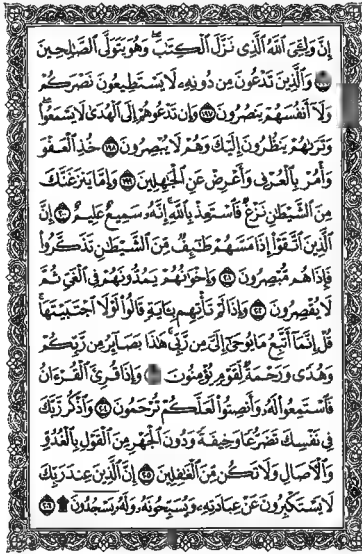
٤٧- لما لم يحصل لهم الهدى المطلوب بهذه الحواس كانوا بمنزلة فاقديها، قال تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فالقلب يوصف بالبصر والعمى والسمع والصمم والنطق والبكم، بل هذه له أصلا وللعين والأذن واللسان تبعاً، فإذا عدهما القلب

قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ .

٤٨- جعل علة السكون أنها منه، ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية، لوجب أن لا يستحسن الأنقص من الصور، ونحن نجد كثيرا ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره ولا يجد محيدا لقلبه عنه ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه، فعلمنا أنه شيء في ذات النفس وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب، فتفننى بفنائها. (روضة المحبين ٨٤).

٤٩- فجعل سبحانه عدم البطش والمشي والسمع والبصر دليلا على عدم إلهية من عدمت فيه هذه الصفات، فالبطش والمشي من أنواع الأفعال، والسمع والبصر من أنواع

الصفات. (الصواعق المرسلة ٣/ ٩١٥).



قوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾

٥٠- في هذه الآية من حسن المعاشرة مع الخلق وأداء حق الله فيهم والسلامة من شرهم. فلو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفّتهم وشفّتهم، فإن العفو ما عفى من أخلاقهم وسمحت به طبائعهم ووسعهم بذله من أموالهم وأخلاقهم.



سورة الأنفال

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾



فَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ

١- أخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء، وهو إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها، لعدم قبول المحل، فإنه لا خير فيه، فإن الرجل إنما يتقاد للحق بالخير الذي فيه، والميل إليه، والطلب له، ومحبته، والحرص عليه، والفرح بالظفر به، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك، فوصل الهدى إليها ووقع عليها كما يصل الغيث النازل من السماء ويقع على الأرض الغليظة العالية، والتي لا تمسك ماء، ولا تنبت كلاً،

فلا هي قابلة للماء ولا للنبات، فالماء في نفسه رحمة وحياة، ولكن ليس فيها قبول له.

ثم أكد الله هذا المعنى في حقهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾

[الأنفال: ٢٣].

فأخبر أن فيهم مع عدم القبول والفهم آفة أخرى، وهي الكبر والإعراض، وفساد القصد، فلو فهموا لم ينقادوا، ولم يتبعوا الحق. ولم يعملوا به، فالهدى في حق هؤلاء هدى بيان وإقامة حجة، لا هدى توفيق وإرشاد، فلم يتصل الهدى في حقهم بالرحمة. وأما المؤمنون: فاتصل الهدى في حقهم بالرحمة، فصار القرآن لهم هدى ورحمة ولأولئك هدى بلا رحمة.

والرحمة المقارنة للهدى في حق المؤمنين عاجلة وآجلة.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤).

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَكُمْ اللَّهُ فَتَاهُ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ
وَلَكُمْ اللَّهُ مِثْلَ نَبْتٍ الْغُلْبِيِّينَ وَمَنْ لَهَا حَسَنًا
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ قَالُوا وَأَنْ اللَّهُ مُوَيْهِنٌ كَرِيمٌ
الْمَكِيدِينَ ﴿٢٥﴾ إِنْ تَسْتَفْتِهُمْ حَوَاقِدُ جَنَّةٍ كَيْفَ تَخْرُجُ عَنْهَا
تَنْتَهُوا فَمَنْ حَزَرَ أَمْرَهُمْ قَالُوا تَعُودُوا نَعُدُّ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ
فِيكُمْ كُتُوبًا وَلَا تُكُونُ لَكُمْ أَعْيُنٌ عَلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَذَرْهُمْ
يَتَأَمَّلُوا الَّذِينَ آمَنُوا بِالْغَيْبِ عَلَىٰ الْحُكْمِ وَلَا تُلَاقُوا عَنَّهُ
وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ هُمْ يُرْسِلُ الْفُلُوفَ
الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ سَعْيَ الْوَدَّاعِ عِنْدَ اللَّهِ أَشْرُءُ الْيَسْرِ
وَلَوْ أَسْمَعْتَهُمْ لَقَرَأُوا لَهُمْ فُتُورًا ﴿٢٨﴾ يَتَأَمَّلُوا الَّذِينَ
آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٢٩﴾ وَأَنْتُمْ لَا تُصِيبُونَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

٢- الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرا وباطنا، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول، فإن كان ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول.

٣- وفي الآية سر آخر: وهو أنه جمع لهم بين الشرع والأمر به وهو الاستجابة وبين القدر والإيمان به، فهي كقوله: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾. (الفوائد ٨٧-٩٠، ١٣٠).

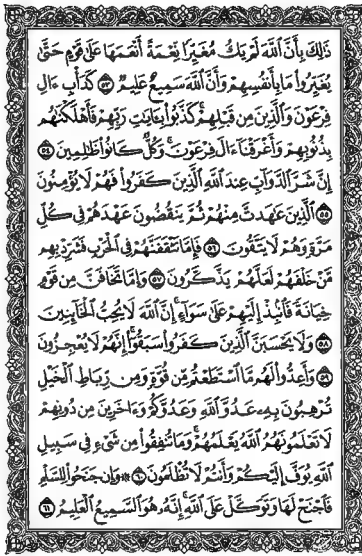
٤- وتأمل كيف أخبر عن حيلولته بين المرء وقلبه بعد أمره بالاستجابة له ولرسوله، كيف تجد في ضمن هذا الأمر والخبر أن من ترك الاستجابة له ولرسوله حال بينه وبين قلبه؛ عقوبة له على ترك الاستجابة، فإنه سبحانه يُعَاقِبُ الْقُلُوبَ بِإِزَاغَتِهَا عَنْ هَدَايَا ثَانِيًا، كما زاغت هي عنه أولاً. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾

وَأَنذَرْنَا أُمَّةً قَبْلَ لَئِنْ مَنَعْنَاهُمْ نَفْعًا أَنزَلْنَا
عَذَابَهُمْ فِي الْبَاقِ وَأَنذَرْنَا نَحْمَدُكَ وَنَزَّلْنَا
مِنَ الْقُرْآنِ لَعْنَةً مُّشْرِكُونَ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَتَّبِعُوا أَهْلَ الْوَلْوِ وَالْوَلْوِ الْأَشْتَبِغُ وَأَنذَرْنَا قُلُوبُكَ
﴿٦﴾ وَأَقْلَمُوا أَلْمَا أَوْلُوا لَمْ وَأَنذَرْنَا لَكُمْ فِتْنَةً وَأَنَّ اللَّهَ
عِنْدَهُ دَاجِرٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّبِعُوا
اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فَوْقَ أَعْيُنِكُمْ رُوحًا تَكُونُ مَعَكُمْ
وَيُخْرِجُ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ الْقُدْرَ الْعَظِيمَ ﴿٨﴾ وَأَنذَرْنَا كُرْ
الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَيْسَ لَكُمْ أَوْفَتْ لَكُمْ أَوْفَتْ لَكُمْ وَتَكُونُ
وَمَعَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْعَصِيبِ ﴿٩﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا تِلْكَ
أَهْلًا قُلُوبًا أَوْلَدَ سَمْعًا أَوْفَتْ لَكُمْ أَوْفَتْ لَكُمْ هَذَا نَحْنُ
إِلَّا أَسْطَرِجُ الْأَرْبَابِ ﴿١٠﴾ وَقَالَ أُولُو الْأَلْبَامِ إِن كَانَ هَذَا
مَوْعِدًا لِّمَنْ وَعَدَ اللَّهُ فَلَا تُغْنِي عَنْهُمْ آيَاتُ السَّمْعِ
أَوْ آيَاتُ الْبَصَرِ ﴿١١﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنَّهُ
فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٢﴾

٨- أما اللام فهي لام التعليل على بابها، فإنها مذكورة في بيان حكمته في جمع أوليائه وأعدائه على غير ميعاد ونصرة أوليائه مع قتلهم ورقتهم وضعف عددهم وعدتهم على أصحاب الشوكة والعدد والحد والحديد الذي لا يتوهم بشر أنهم ينصرون عليهم،

فكانت تلك آية من أعظم آيات الرب سبحانه صدق بها رسوله وكتابه ليهلك بعدها من اختار لنفسه الكفر والعناد عن بينة، فلا يكون له على الله حجة، ويحيي من حي بالإيمان بالله ورسوله عن بينة فلا يبقى عنده شك ولا ريب، وهذا من أعظم الحكم. (شفاء العليل ١٩٣).

📖 قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمْ يَكْ مُعِيرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.



٩- وإشارتها أنه إذا عاقب قومًا وابتلاهم، لم يغير ما بهم من العقوبة والبلاء، حتى يغيروا ما بأنفسهم من المعصية إلى الطاعة، كما قال العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رُفِعَ إلا بتوبة». ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة». فإذا منع الكلب والصورة دخول الملك إلى البيت، فكيف تدخل معرفة الرب ومحبته في قلب ممتلئ بكلاب الشهوات وصورها؟ (الكلام على مسألة السماع ٣٩٧-٣٩٨).

فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غيّر غيّر عليه، جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد؛ فإن غير المعصية بالطاعة، غير الله عليه العقوبة بالعافية، والذل بالعز. (الجواب الكافي ١٠٥).



سورة التوبة

قوله تعالى: ﴿ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبَهُمُ عَلَيْهِمْ وَيَسْفِ سُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَيُذْهِبَ غِطَّ قُلُوبِهِمْ ۖ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٥﴾ .

١ - الغيظ يؤلم القلب، ودواؤه في شفاء غيظه، فإن شفاه بحق اشتفى، وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضاً من حيث ظن أنه يشفيه، وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور بالمعشوق، فإن ذلك يزيد مرضه، ويوجب له أمراضاً أخرى أصعب من مرض العشق. (إغاثة اللهفان ١/ ١٩).

قَالُوا لَهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ يَا بَشِيعَةَ الْعَجْبَةِ وَيَحْزِينَةَ رَبِّهِمْ
عَلَيْهِمْ وَيَنْفِضُونَ قَوْمَهُمْ يَوْمَئِذٍ ۝ وَأَذْهَبَ غَيْظُ
قُلُوبِهِمْ وَتُحِبُّونَ اللَّهَ عَلَىٰ مَا تُبَدِّلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حِكْمَهُ ۝
أَحْسِبْتُمْ أَنَّكُمْ تُنْزَلُونَ وَلَقَدْ قَالَ اللَّهُ الَّذِينَ هَكَذَا لَوْ كُنْهُمْ
لَوْ يَخْلَعُونَ دُونَ اللَّهِ وَلَوْ لَا تَسْمَعُونَ إِلَّا التَّوْحِيدَ ۝ وَلَقَدْ
قَالَ اللَّهُ خُذُوا الْعَنْقَلُونَ ۝ مَا كَانَ لِلنَّاسِ أَنْ يَسْمَعُوا مِنْهُ
اللَّهُ سَمْعُهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْعَنْقَرِ أَوَّلَيْكَ حَبِطَتْ
أَعْيُنُهُمْ فِي الظَّالِمِ مَخْلُوفُونَ ۝ إِنَّمَا كُنْ مِنْ مُسْتَجِدٍّ
اللَّهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَالْوَيْلُ لِلْآخِرِ وَأَوَّلِ الْعَصَاةِ وَتَأْتِي
الْكَفْرَةَ وَالْعُشْرُ إِلَّا اللَّهُ فَتَسْمَعُ أَوَّلَيْكَ أَنْ يَكْفُرُوا مِنْ
الْمُتَعَبِينَ ۝ أَجَعَلْتُمْ سِقَاةَ النَّارِ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ كُنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالْوَيْلُ لِلْآخِرِ وَجَهَنِّي فِي سَبِيلِ
اللَّهُ لَا تَسْتَوِينَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاتُوا وَجْهَهُمْ لِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوَّلِيَّةً
وَأَنْفُسُهُمْ أَظْهَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأَوَّلَيْكَ هُمُ الْفَارِقُونَ ۝

قوله تعالى: ﴿۱۹﴾ أَجَعَلْتُمْ سَفَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿۲۰﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿۲۱﴾

٢- نفى التسوية بين المجاهدين وعُمرار المسجد

الحرام مع أنواع العبادة مع ثنائه على عَمَّارِهِ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْزُّ مُسَجِدَ اللَّهِ مِنْ أَمَنِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨] . فهؤلاء هم عَمَّارُ المساجد، ومع هذا فأهل الجهاد أرفع درجة عند الله منهم . (طريق الهجرتين ٣٣٢-٣٣٣).

يَبْسُرْ لَهُمْ دَأْمَهُمْ بِحَسْمِهِمْ وَنَدْمَهُمْ وَبِجَنَابِ أَهْلِهِمْ
فِيهِمْ قَوْمِي ۝ خَالِدِينَ فِيهَا أَمَّا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَحْسَنُ
عَذَابِهِ ۝ تَتَابَعُوا الَّذِينَ دَأَسُوا الْأَشْرَافَ وَأَتَابُوا كُفْرَهُمْ
وَأَخْلَوْا كُفْرَ قَوْمِيَّةِ إِنْ أَسْتَعِزُّوا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۝ قُلْ إِنْ
كَانَ آبَاءُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاءُكُمْ وَأَخْوَالُكُمْ وَآزْوَاجُكُمْ
وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ
كَفَادَهَا وَمَسْكِنَاتُكُمْ وَأَعْمَالُكُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
فَتَسْلُوْا بِهِمْ إِلَى سَبِيلِهِ فَتَعْلَمُوا أَصْحَابُ اللَّهِ
يَأْتُونَ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝ لَقَدْ نَصَرَكُمُ
اللَّهُ فِي مَوَاقِنَ كَثِيرَةٍ وَوَلَّاهُمْ مَحَنَهُمْ إِذَا فُجِّرَتْ
كُنُفُهُمْ قَالَمْ تَجِدْ فِي عَذَابِهِ مُبْتَلًى عَلَيْهِمْ
الْأَرْضُ بِمَا حَسَنَتْ وَرَأَيْكَ كُفْرُ الْيُودِ ۝ قُلْ إِنَّ اللَّهَ
سَكَنَ عِلِّيِّينَ قُلْ تَسْلُوْا عَلَى الْكُفَرَاءِ وَتُؤْمِنُونَ
لَهُمْ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ قُلْ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ

وتأمل هذا الترتيب البديع في تقديم ما قدم وتأخير ما أخر، يطلعك على عظمة هذا الكلام وجلالته، فبدأ أولاً بذكر أصول العبد وهم آباؤه المتقدمون طبعاً وشرفاً ورتبة، وكان فخر القوم بآبائهم ومحاماتهم عنهم أكثر من محاماتهم عن أنفسهم وأموالهم، وحتى عن أبنائهم، ولهذا حملتهم محاماتهم عن آبائهم ومناصلتهم عنهم إلى أن احتملوا القتل وسبي الذرية ولا يشهدون على آبائهم بالكفر والنقيصة ويرغبون عن دينهم لما في ذلك من إزرائهم بهم، ثم ذكر الفروع وهم الأبناء لأنهم يتلونهم في الرتبة وهم أقرب أقاربهم إليهم وأعلق بقلوبهم وألصق بأكبادهم من الإخوان والعشيرة، ثم

ذكر الأخوان وهم الكلالة وحواشي النسب.

٤- فذكر الأصول أولا، ثم الفروع ثانيا، ثم النظراء ثالثا، ثم الأزواج رابعا، لأن

الزوجة أجنبية عنده ويمكن أن يتعوض عنها بغيرها، وهي إنما تراد للشهوة، وأما الأقارب من الآباء والأبناء والإخوان فلا عوض عنهم ويرادون للنصرة والدفاع، وذلك مقدم على مجرد الشهوة.

٥- ثم ذكر القرابة البعيدة خامسا، وهي العشيرة وبنو العم، فإن عشائرهم كانوا بني عمهم غالبا وإن كانوا أجانبا فأولى بالتأخير.

٦- ثم انتقل إلى ذكر الأموال بعد الأقارب

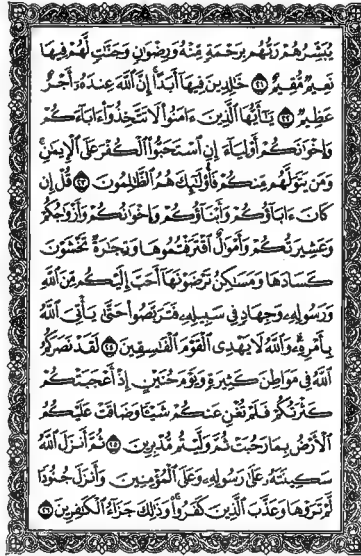
سادسا، ووصفها بكونها مقترفة أي مكتسبة لأن

القلوب إلى ما اكتسبته من المال أميل وله أحب وبقدرة أعرف لما حصل له فيه من التعب والمشقة، بخلاف مال جاء عفوا بلا كسب من ميراث أو هبة أو وصية، فإن حفظه للأول ومراعاته له وحرصه على بقاءه أعظم من الثاني والحس شاهد بهذا وحسبك به.

٧- ثم ذكر التجارة سابعا لأن محبة العبد للمال أعظم من محبته للتجارة التي يحصله بها فالتجارة عنده وسيلة إلى المال المقترف، فقدم المال على التجارة تقديم الغايات على وسائلها، ثم وصف التجارة بكونها مما يخشى كسادها، وهذا يدل على شرفها وخطرها وأنه قد بلغ قدرها إلى أنها مخوفة الكساد.

٨- ثم ذكر الأوطان ثامنا آخر المراتب؛ لأن تعلق القلب بها دون تعلقه بسائر ما

تقدم، فإن الأوطان تتشابه، وقد يقوم الوطن الثاني مقام الأول من كل وجه ويكون خيرا



منه فمناها عوض، وأما الآباء والأبناء والأقارب والعشائر فلا يتعوض منهما بغيرها، فالقلب وإن كان يحن إلى وطنه الأول فحنينه إلى آبائه وأبنائه وزوجاته أعظم، فمحبته الوطن آخر المراتب.

٩- وهذا هو الواقع إلا لعارض يترجح عنده إثارة البعيد على القريب، فذلك جزئي لا كلي فلا تناقض به، وأما عند عدم العوارض فهذا هو الترتيب المناسب والواقع. (بدائع الفوائد ١/ ٧٥-٧٦).

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا﴾.

إِنَّمَا اللَّهُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُخَلِّتَهُمْ عَمَّا رُفِعُوا لِغُلَامٍ أَكْبَرًا عِدَّةً مَا حَزَنَ اللَّهُ فَيَحْزَنُوا حَزَنًا إِنَّهُ لَكَنُفُوتٌ لَهُمْ شَرُّهُ لَقَدْ عَلِمَهُ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَنْضِبُوا بِالْحَيَاةِ الْآخِرَةِ قُلْتُمْ مَا مَنَعَ الْحَيَاةَ الْآخِرَةَ إِنَّا لَنَنظِرُ الْآخِرَةَ الْآخِرَةَ الْأَقِيلَ ﴿١١﴾ لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ عَذَابًا إِلَيْنَا فَتَسْتَجِيبُ قَوْلًا غَيْرَ كَقَوْلِهِمْ لَا تَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَلَى كُلِّ فِتْنَةٍ وَكَذَلِكَ ﴿١٢﴾ لَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَلَاثَ أَثْنِينَ إِذْ هَمَّ فِي الْقَارِإِ لْيَصْلِحَهُمْ لَمْ يَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُيُوشِهِ لَزَمُوا وَلَهُمْ أَسْلَافٌ لَدُنْهُ وَهُمْ أَغْلَابٌ وَكَذَلِكَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ وَالْكَافِرُونَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٣﴾

١٠- فمن أصح الإشارات إشارة هذه الآية، وهي أن من صحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما جاء به بقلبه وعمله وإن لم يصحبه ببذنه، فإن الله معه.

١١- فلما تركوا الإيمان به وبلقائه وارتابوا بما لا ريب فيه ولم يريدوا الخروج في طاعة الله ولم يستعدوا له ولا أخذوا أهبة ذلك، كره سبحانه انبعاث من هذا شأنه، فإن من لم يرفع به وبرسوله أو كتابه رأساً ولم يقبل هديته التي أهداها إليه على يد أحب خلقه إليه وأكرمهم عليه ولم يعرف قدر هذه النعمة

ولا شكرها بل بدلها كفراً، فإن طاعة هذا وخروجه مع رسوله يكرهه الله سبحانه فثبطه لئلا يقع ما يكره من خروجه وأوحى إلى قلبه قدراً وكوناً أن يقعد مع القاعدين. (شفاء العليل ١٠١-١٠٣).

١٢- قول الله تعالى ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]. أي قابلون مستجيون

لهم، فإذا كان جيل القرآن كان بينهم منافقون وفيهم سماعون لهم، فما الظن بمن بعدهم فلا يزال المنافقون في الأرض ولا يزال في المؤمنين سماعون لهم لجهلهم بحقيقة أمرهم وعدم معرفتهم بغور كلامهم. (الصواعق المرسلة ٤/ ١٤٠٤-١٤٠٥).

١٣- فإن قيل: انبعاثهم إلى طاعته طاعة له فكيف يكرها؟ وإذا كان سبحانه يكرها فهو يحب ضدها لا محالة إذ كراهة أحد الضدين تستلزم محبة الضد الآخر فيكون قعودهم محبوبا له فكيف يعاقبهم عليه؟

قيل: هذا سؤال له شأن، وهو من أكبر الأسئلة في هذا الباب.

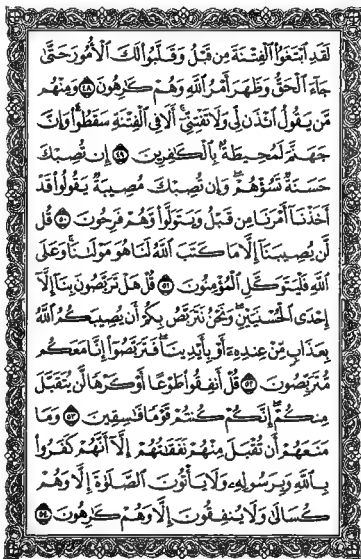
فالجواب الصحيح أنه سبحانه أمرهم بالخروج طاعة له ولأمره واتباعا لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصرة له وللمؤمنين، وأحب لك منهم ورضيه لهم ديناً، وعلم سبحانه أن خروجهم لو خرجوا لم يقع على هذا الوجه، بل يكون خروجهم خروج خذلان لرسوله وللمؤمنين، فكان خروجاً يتضمن خلاف ما يحبه ويرضاه ويستلزم وقوع ما يكرهه ويبغضه فكان مكروهاً له من هذا الوجه ومحبوباً له من الوجه الذي خرج

عليه أولياؤه وهو يعلم أنه لا يقع منهم إلا على الوجه المكروه إليه، فكرهه وعاقبهم على ترك الخروج الذي يحبه ويرضاه لا على ترك الخروج الذي يبغضه ويسخطه، وعلى هذا فليس الخروج الذي كرهه منهم طاعة حتى لو فعلوه لم يثبهم عليه ولم يرضه منهم.

(شفاء العليل ١٠١-١٠٣).

قوله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾.

١٤- قال قتادة: «ما سقط فيه من الفتنة بتخلفه



عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله سلم والرغبة بنفسه عنه أعظم.

فالفتنة التي فر منها - بزعمه - هي فتنة محبة النساء، وعدم صبره عنهن، والفتنة التي وقع فيها هي فتنة الشرك والكفر في الدنيا، والعذاب في الآخرة. (إغاثة اللهفان ٢/ ١٥٨-١٥٩).

📖 قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾.

١٥ - مما يدل على أن توبة الزنديق بعد القدرة لا تعصم دمه. قال السلف في هذه

الآية: ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ بالقتل إن أظهرتم ما في قلوبكم، وهو كما قالوا؛ لأن العذاب على ما يبطنونه من الكفر بأيدي المؤمنين لا يكون إلا بالقتل؛ فلو قبلت توبتهم بعد ما ظهرت زندقته لم يمكن المؤمنين أن يترصبوا بالزنادقة أن يصيبهم الله بأيديهم؛ لأنهم كلما أرادوا أن يعذبوهم على ذلك أظهروا الإسلام فلم يصابوا بأيديهم قط، والأدلة على ذلك كثيرة جدا، وعند هذا فأصحاب هذا القول يقولون: نحن أسعد بالتنزيل والسنة من مخالفينا في هذه المسألة المشنعين علينا بخلافها، وبالله التوفيق. (إعلام الموقعين ٣/ ١٧٥-١٧٦).

📖 قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

١٦ - الصواب - والله أعلم - أن يقال: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة، بالحرص على تحصيلها، والتعب العظيم

في جمعها ومقاساة أنواع المشاق في ذلك، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه، وهو حريص بجهد على تحصيلها. والعذاب هنا هو الألم والمشقة والتعب، كقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ»، وقوله: «إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ». أي: يتألم ويتوجع، لأنه يعاقب بأعمالهم. وهكذا من كانت الدنيا كل همه أو أكبر همه كما قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ. وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ». (إغاثة اللهفان ١/ ٣٥-٣٦).

فَلَا تَحْجِجْكَ أَمْرُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ لِإِسْرَائِيلَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
بِمَا فِي السَّيْرِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَتَعْرِضَ بَنَاتُ
وَيَحْلِلُونَ بِأَلْفِ أَلْفٍ لَيْسَ كُمْ وَتَاهِرُونَ وَلَكِنَّكُمْ
قَدْ بَشَّرْتُمْ قُلُوبُكُمْ مَلَكًا أَوْ مَلَكَيْنِ أَوْ مَلَكًا
لَوْ لَأَلَيْتُمْ وَتَمَّ بِكُمْ بَحْرُوتُكُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي
الصِّدْقِ فَإِنْ أَغْطَا بِمَنَافِعِهِمْ وَإِنْ لَمْ يَغْطُوا بِمَنَافِعِهِمْ
هُمْ يَسْخَرُونَ وَقَدْ أَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُفْعِلُنَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ
إِنَّمَا إِلَى اللَّهِ عَرْشُكُمْ وَإِنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ وَالْمُسْلِمِينَ
وَالْمُتَّبِعِينَ عَلَيْهِمْ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ
وَالْفَرِيدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا لِيَرْضَوْهُ
بِالْوَالِدِ وَاللَّهِ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ
الَّذِينَ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ فَوَيْلٌ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ اللَّهِ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ﴾. الآيات إلى قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾.

١٧- ذكر سبحانه هذه الآية عقب قوله: ﴿وَمِنْهُمْ

الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١].
فجعلهم مؤذنين له بقولهم: ﴿هُوَ أَذُنٌ﴾، ثم قال:
﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٦٣].

فجعلهم بهذا محادين، ومعلوم قطعاً أن من أظهر مسبة الله ورسوله والطعن في دينه أعظم محادة له ولرسوله، وإذا ثبت أنه محاد فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثُرَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَادُهُمْ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثُرَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَادُهُمْ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ هُمْ أَشَدُّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثُرَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَادُهُمْ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ هُمْ أَشَدُّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثُرَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَادُهُمْ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾

١٨- المقصود أنه سبحانه ألقى عليهم بهم في الوعيد، وسوى بينهم فيه كما تساوا في الأعمال، وكونهم كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فرق غير مؤثر، فعلق الحكم بالوصف الجامع المؤثر، وألقى الوصف الفارق، ثم نبه على أن مشاركتهم في الأعمال اقتضت مشاركتهم في الجزاء فقال: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩].

فهذه هي العلة المؤثرة والوصف الجامع، وقوله: ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [التوبة: ٦٩]. هو الحكم، والذين من قبلهم الأصل، والمخاطبون الفرع.

١٩- والمقصود أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض بالباطل؛ لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب وهو الاستمتاع بالخلاق، فالأول البدع، والثاني اتباع الهوى، وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء، وبهما كذبت الرسل، وعُصي الرب، ودخلت النار، وحلت العقوبات، فالأول من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات، ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى فتنه هواه، وصاحب دنيا أعجبته دنياه.

وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم.

٢٠- فقله تعالى: ﴿فَاسْتَمِعْتُمْ إِخْلَاقَكُمْ﴾

[التوبة: ٦٩]. إشارة إلى اتباع الشهوات وهو داء العصاة وقوله: ﴿وَخُضُّمٌ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]. إشارة إلى الشبهات، وهو داء المتبدعة وأهل الأهواء والخصومات، وكثيرا ما يجتمعان فقل من تجده فاسد الاعتقاد إلا وفساد اعتقاده يظهر في عمله.

٢١- فتأمل صحة هذا القياس وإفادته لمن

علق عليه من الحكم، وأن الأصل والفرع قد تساويا في المعنى الذي علق به العقاب، وأكدته كما تقدم بضرب من الأولى، وهو شدة القوة وكثرة الأموال والأولاد، فإذا لم يتعذر على الله عقاب الأقوى منهم بذنبه فكيف يتعذر عليه عقاب من هو دونه؟ (إعلام الموقعين ١/ ١٨٢-١٨٥).

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٧٢).

٢٢- كيف جاء بالرضوان مبتدأ منكرا مخبرا عنه بأنه أكبر من كل ما وعدوا به فأيسر شيء من رضوانه أكبر الجنات وما فيها من المساكن الطيبة وما حوته ولهذا لما يتجلى لأوليائه في جنات عدن ويمنيهم أي شيء يريدون، فيقولون: ربنا وأي شيء نريد أفضل مما أعطيتنا؟ فيقول تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «إن لكم عندي أفضل من ذلك أحل عليكم

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مَكْرُوهًا وَأَسْفَرُ أَمْرًا
وَأُولَئِكَ فَاسْتَمِعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمِعُوا بِخَلْقِهِمْ
كَأَنَّ اسْتَمِعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضُّمٌ
كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْيُنُهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَأْمُرْ
نَبِيَّ الْوَيْلِ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ رُوحٍ وَتَسْلُو وَتَسْمُو وَتَقْوِ
إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابَ مَدْيَنَ وَالَّذِينَ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ لَهُمُ
بِالْيَتِيمَةِ فَمَا كَانَ اللَّهُ يُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا
أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ يَتَّخِذُونَ
أُولِيَاءَهُمْ بَعْضُكُمْ بِأَمْوَالِهِمْ وَالْمَنْزُورُ فِي مَتْنِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَيُفْعَلُونَ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالصَّلَاةَ
وَرَسُولُهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَ عِلْمِهِ
﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ
وَرِضْوَانٌ مِّنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ (٧٢)

[illegible]

وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل، والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عددا فهم الأعظمون عند الله قدرا.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عٰهَدَ اللّٰهَ لَئِنْ اٰتٰنَا مِنْ فَضْلِهٖ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنُ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ﴾ (٧٥)

۲۴- فوعد العبد ربہ نذر يجب عليه أن يفی له

به؛ فإنه جعله جزاء وشكراً له على نعمته عليه، فجرى مجرى عقود المعاوضات لا عقود التبرعات، وهو أولى بالزوم من أن يقول ابتداء: «الله عليّ كذا» فإن هذا التزام منه لنفسه أن يفعل ذلك، والأول تعليق بشرط وقد وجد، فيجب فعل المشروط عنده؛ لالتزامه له به عده.

فإن الالتزام تارة يكون بصريح الإيجاب، وتارة يكون بالوعد، وتارة يكون بالشروع كشروعه في الجهاد والحج والعمرة، والالتزام بالوعد أكد من الالتزام بالشروع، وأكد من الالتزام بصريح الإيجاب؛ فإن الله سبحانه ذم من خالف ما التزمه له بالوعد، وعاقبه بالتفاق في قلبه، ومدح من وفى بما نذره له. (إعلام الموقعين ٢/ ١١٢).

قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفَجَّرُونَ﴾ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ
يَا حَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

٢٥- قيد سبحانه هذه التبعية بأنها تبعية بإحسان ليست مطلقة فتحصل بمجرد النية والإتباع في شيء والمخالفة في غيره، ولكن تبعية مصاحبة الإحسان، وأن الباء هنا للمصاحبة، والإحسان والمتابعة شرط في حصول رضا الله عنهم وجناته. (الرسالة التبوكية ٦٢).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَاتَّخَذَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا وَتَقْرِفًا بَيْنَ
الْمُؤْمِنِينَ وَاتَّخَذُوا مِنَ حَارِبِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قِبْلَةً
وَلَا يَخْلِفُونَ إِنِ اتَّخَذُوا إِلَّا الْخُسْفَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٠﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِّلْمَسْجِدِ أَشَدُّ حَرًّا عَلَى الْقَوْمِ
مَنْ أُولَٰئِكَ يَوْمَئِذٍ أَشَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ يَوْمَئِذٍ لَّا يُجِيبُونَ
بِقَوْلِهِمْ وَأَلَّا اللَّهُ يُجِيبَ الْمُطَّهِرِينَ ﴿١٠١﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ
عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ
عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَاتَّخَذَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ كَالْعَمُدِ
الْقَائِمَةِ الْفَالِاسِ ﴿١٠٢﴾ لَا تَزَالُ بِبُيُوتِهِمْ الَّذِينَ يَنْتَوِيضُونَ
فِي فَلْسِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ فُلُوقُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
﴿١٠٣﴾ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُخَلِّتُونَ
وَقُتِلُوا وَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَفْوَاجٍ يَهْدِيهِمُ اللَّهُ فَأَسْتَبْشِرُوا
بِيعَادِهِمُ الْوَالِدِينَ وَيَوْمَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٤﴾

٢٦- من أراد علو بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدته الاعتناء به، فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه، فالأعمال والدرجات بنيان وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقاً، حمل البنيان واعتلى عليه، وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد، فالعارف همته تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهل يرفع في البناء عن غير أساس، فلا يلبث

بنيانه أن يسقط، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَاتَّخَذَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قوية حملت البدن ودفعت عنه كثيراً من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفة ضعف حملها للبدن وكانت الآفات إليه أسرع شيء.

٢٧- فاحمل بنيانك على قوة أساس الإيمان، فإذا تشعث شيء من أعالي البناء وسطحه كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس وهذا الأساس أمران:

الأول: صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته.

والثاني: تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه فهذا أوثق أساس أسس العبد عليه بنيانه وبحسبه يعتلي البناء ما شاء، فأحكم الأساس واحفظ القوة ودم على الحمية واستفرغ إذا زاد بك الخلط والقصد القصد وقد بلغت المراد.

فإذا كمل البناء فبيّضه بحُسن الخلق والإحسان إلى الناس، ثم حظّه بسور من الحذر لا يقتحمه عدو ولا تبدو منه العورة، ثم أرخ الستور على أبوابه، ثم أقفل الباب الأعظم بالسكوت عما تخشى عاقبته، ثم ركب له مفتاحاً من ذكر الله به فتحة وتغلقه، فإن فتحت فتحت بالمفتاح وإن أغلقت الباب أغلقته به، فتكون حينئذ قد بنيت حصناً تحصنت فيه من أعدائك. (الفوائد (١٥٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ

وَالْآخِرَاتِ أَخَذُوا مَسْجِدًا بَعِيدًا وَمَسْجِدًا قَرِيبًا بَيْنَ
الْمُؤْمِنِينَ فَلَا يَصِلُونَ إِلَى حَازِئِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ قَبْلِ
وَلَا يَخْلُصُونَ إِلَّا إِلَى الْحُسُونِ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ لَأَقْتُمْ فِيهِ أَبَدًا لَسَجْدَ أَيسَى عَلَى الْقَوْصَى
مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ يَوْمَ لَا يُخْلِفُونَ أَنْ
يَسْلَمُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُظْهِرِينَ ﴿٢﴾ أَقْتُمْ أَتَسْتَبْتَهُمْ
عَلَى تَقْوَى مِثْلَ اللَّهِ وَرِيقُونَ خَيْرًا مَنْ أَتَسْتَبْتَهُمْ
عَلَى شَفَا جُرْأِي هَارٍ فَأَتَاهُ تَرْيَهُ فِي تَارِجَتِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٣﴾ لَا يَزَالُ بُنِيَ لَهُمُ الَّذِي يُكَلِّمُونَ
فِي ظُلُومِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ
﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ
مِنَ اللَّهِ فَاسْتَشِيرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ
وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥﴾ السَّيِّئُونَ
الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّيِّئُونَ ﴿٦﴾

الْجَنَّةَ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ
مِنَ اللَّهِ فَاسْتَشِيرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ
وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥﴾ السَّيِّئُونَ
الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّيِّئُونَ ﴿٦﴾

٢٨- جعل سبحانه ها هنا الجنة ثمناً لنفوس

المؤمنين وأموالهم بحيث إذا بذلوا فيه استحقوا



الثمن وعقد معهم هذا العقد وأكده بأنواع من التأكيد:

أحدها: إخبارهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَصِيغَةَ الخبر المؤكد بأداة (إِنَّ).

الثاني: الأخبار بذلك بصيغة المرضي الذي قد وقع وثبت واستقر.

الثالث: إضافة هذا العقد إلى نفسه سبحانه وأنه هو الذي اشترى هذا المبيع.

الرابع: أنه أخبر بأنه وعد بتسليم هذا الثمن وعدا لا يخلفه ولا يتركه.

الخامس: أنه أتى بصيغة على التي للوجوب أعلاما لعباده بأن ذلك حق عليه أحقه هو على نفسه.

السادس: أنه أكد ذلك بكونه حقا عليه.

السابع: أنه أخبر عن محل هذا الوعد، وأنه في أفضل كتبه المنزلة من السماء وهي التوراة والإنجيل والقرآن.

الثامن: إعلامه لعباده بصيغة استفهام الإنكار وأنه لا أحد أوفى بعهده منه سبحانه.

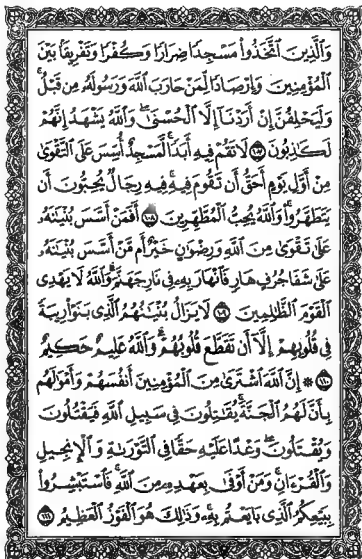
التاسع: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمرهم أن يستبشروا

بهذا العقد ويبشر به بعضهم بعضا بشارة من قد تم له العقد ولزم بحيث لا يثبت فيه خيار ولا يعرض له ما يفسخه.

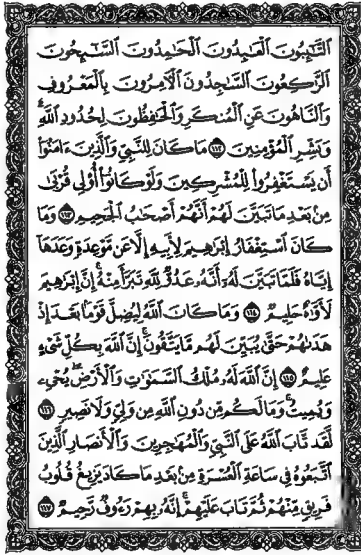
العاشر: أنه أخبرهم إخبارا مؤكدا بأن ذلك البيع

الذي بايعوه به هو الفوز العظيم والبيع ها هنا بمعنى المبيع الذي أخذوه بهذا الثمن وهو الجنة.

وقوله: ﴿بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ أي عاوضتم وثامنتم به.



٢٩- وتأمل كيف جعل الله سبحانه التوبة والعبادة قرينتين: هذه ترك ما يكره، وهذه فعل ما يحب والحمد والسياسة قرينتين هذا الشاء عليه بأوصاف كماله، وسياسة اللسان في أفضل ذكره، وهذه سياسة القلب في حبه وذكره وإجلاله. كما جعل سبحانه العبادة والسياسة قرينتين في صفة الأزواج فهذه عبادة البدن وهذه عبادة القلب. (حادي الأرواح ٧٥-٧٦).



قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

٣٠- هذا من أعظم ما يعرف العبد قدر التوبة وفضلها عند الله، وأنها غاية كمال المؤمن، فإنه سبحانه أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزوات بعد أن قضوا نحبهم، وبذلوا نفوسهم وأموالهم وديارهم لله،

وكان غاية أمرهم أن تاب عليهم، ولهذا جعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم توبة كعب خير يوم مر عليه منذ ولدته أمه إلى ذلك اليوم، ولا يعرف هذا حق معرفته إلا من عرف الله، وعرف حقوقه عليه، وعرف ما ينبغي له من عبوديته، وعرف نفسه وصفاتها وأفعالها، وأن الذي قام به من العبودية بالنسبة إلى حق ربه عليه كقطرة في بحر، هذا إذا سلم من الآفات الظاهرة والباطنة.

٣١- وتأمل تكريره سبحانه توبته عليهم مرتين في أول الآية وآخرها، فإنه تاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة، فلما تابوا تاب عليهم ثانياً بقبولها منهم، وهو الذي وفقهم لفعلها، وتفضل عليهم بقبولها، فالخير كله منه وبه وله وفي يديه، يعطيه من يشاء إحساناً وفضلاً، ويحرمه من يشاء حكمة وعدلاً.



قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾.

٣٢- أخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سببا مقتضيا لتوبتهم، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم، والحكم ينتفي لا انتفاء علته. (مدارج السالكين ١/ ٣١٣).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١١).

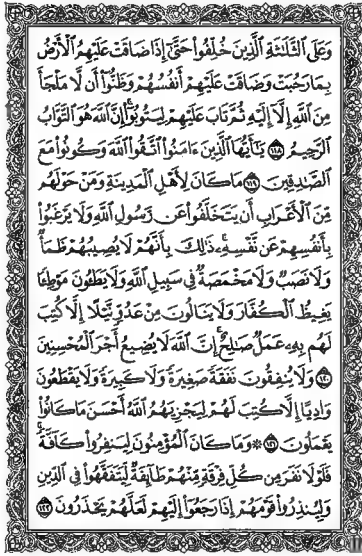
٣٣- معلوم أن من خالفهم في شيء وإن وافقهم في غيره لم يكن معهم فيما خالفهم

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا إِذْ أَصَابَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَآرِحِهَا وَصَادَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَلَمُوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيُتَوَلَّوْا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ﴿١١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَٰلِكُمْ يَأْتِيهِمْ لَا يَصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٣﴾ وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا ظَهْرُ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١١٥﴾

فيه، وحينئذ فيصدق عليه أنه ليس معهم، فتنتفي عنه المعية المطلقة، وإن ثبت له قسط من المعية وفيما وافقهم فيه، فلا يصدق عليه أنه معهم بهذا القسط، وهذا كما نفى الله ورسوله الإيمان المطلق عن الزاني والشارب والسارق والمنتهب بحيث لا يستحق اسم المؤمن، وإن لم ينتف عنه مطلق الاسم الذي يستحق لأجله أن يقال: معه شيء من الإيمان، وهذا كما أن اسم الفقيه والعالم عند الإطلاق لا يقال لمن معه مسألة أو مسألتان من فقه وعلم، وإن قيل: معه شيء من العلم. (إعلام الموقعين ٤/ ١٦٥-١٦٦).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٣) وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٤).

٣٤- أخبر الله سبحانه في الآية الأولى: أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب به



عمل صالح، وأخبر في الثانية: أن أعمالهم الصالحة التي باشروها تكتب لهم أنفسهم، والفرق بينهما: أن الأول ليس من فعلهم، وإنما تولد عنه فكتب لهم به عمل صالح، والثاني نفس أعمالهم فكتب لهم. (الدواء والدواء ٣٠٨).

فإن الظماً والنصب وغيظ العدو ليس من أفعالهم فلا يكتب لهم نفسه ولكن لما تولد عن أفعالهم كتب لهم به عمل صالح، وأما القسم الآخر وهو الأفعال المقدورة نفسها كالإنفاق وقطع الوادي فهو عمل

صالح فيكتب لهم نفسه إذ هو مقدور لهم حاصل بإرادتهم وقدرتهم، فعاد الثواب إلى الأفعال المقدورة والمتولد عنها، وبالله التوفيق. (مفتاح دار السعادة ١٩١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١٢٢).

٣٥- ندب تعالى المؤمنين إلى التفقه في الدين وهو تعلمه، وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم وهو التعليم وقد اختلف في الآية: فقيل: المعنى أن المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلهم للتفقه والتعليم، بل ينبغي أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة تتفقه تلك الطائفة، ثم ترجع تعلم القاعدين، فيكون النفير على هذا نفير تعلم، والطائفة يقال على الواحد فما زاد، قالوا: فهو دليل على قبول خبر الواحد، وعلى هذا حملها الشافعي وجماعة، وقالت طائفة أخرى: المعنى وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كلهم، بل ينبغي أن تنفر طائفة للجهاد وفرقة تقعد تتفقه في الدين، فإذا جاءت الطائفة التي نفرت

وَعَلَى الْفَالِقَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ
بِمَا صَحَّتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَلَمُوا أَنَّ لَهَا سَلْطَانًا
مِنَ اللَّهِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَكَانَ عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ الْغَنَاءُ عَنْ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ
الْحَجِجُ ﴿٣٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ
الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ مَا كَانَ لِلْأَنْفُسِ الْمُؤْمِنَةِ وَمَنْ كَفَلَهَا
مِنَ الْكَافِرِينَ أَنْ يَتَخَفَتُوا أَهْلَ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَخَفُوا
يَأْتِيهِمْ عَنْ نَفْسِهِمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ خَلْقًا
وَلَا تَحْزَنُوا وَلَا تَحْصِنُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَقُولُوا عَمَلٌ
يُغِيظُ الْكَافِرَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِلَّا أَكْبَرُ
لَهُمْ وَعَمَلٌ سَلَبٌ أَرَأَيْتَ لَئِنْ أَتَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
أُجْرًا لَمْ يَأْتِهِمْ مِنْهُ إِلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ الْكَبِيرَةَ وَلَا تَقُولُوا
وَلَوْ بَالُ الْكَافِرِ لَمْ يَلْبِسْهُمْ اللَّهُ آخِسِينَ تَكُنْ لَنَا
بَعَثُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً
قُلُوا لِمَنْ هُمْ عَنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِمَّنْ طَلَعَتْ لَيْلَتُهُمْ فِي الَّذِينَ
وَلِيَدُوا وَأَوْفَوْهُمْ إِذَا نُسِقُوا إِلَيْهِمْ لَأَمَرَهُمْ بِخُدُوعٍ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلْيَسِّرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

أحدها: أن الله سبحانه إنما أوجب عليهم قبول

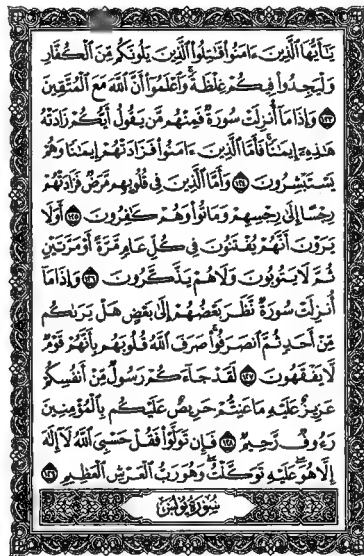
الثاني: أن الآية حجة عليهم ظاهرة؛ فإنه سبحانه نوع عبوديتهم وقيامهم بأمره إلى نوعين: أحدهما: نفير الجهاد، والثاني: التفقه في الدين، وجعل قيام الدين بهذين الفريقين، وهم الأمراء والعلماء أهل الجهاد وأهل العلم؛ فالنافرون يجاهدون عن القاعدين، والقاعدون يحفظون العلم للنافرين، فإذا رجعوا من نفيرهم استدرکوا ما فاتهم من العلم بإخبار من سمعه من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإن سميتم ذلك تقليدا فليس الشأن في الأسماء، ونحن لا ننكر التقليد بهذا المعنى، فسموه ما شئتم، وإنما ننكر نصب رجل معين يجعل قوله عيارا على القرآن

والسنن؛ فما وافق قوله منها قبل، وما خالفه لم يقبل، ويقبل قوله بغير حجة، ويرد قول نظيره أو أعلم منه والحجة معه، فهذا الذي أنكرناه، وكل عالم على وجه الأرض يعلن إنكاره وذمه وذم أهله. (إعلام الموقعين ٢/ ٢٥٢-٢٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢٧).

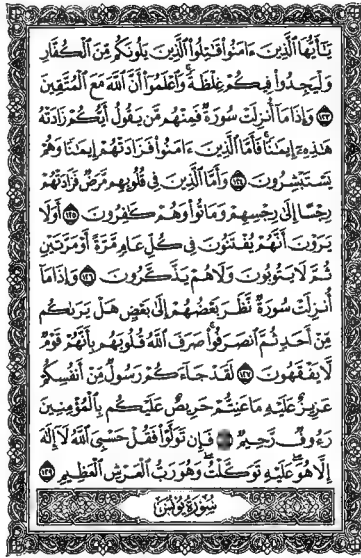
٣٧- أخبر سبحانه عن فعلهم وهو الانصراف وعن فعله فيهم وهو صرف قلوبهم عن القرآن وتدبره لأنهم ليسوا أهلاً له، فالمحل غير صالح ولا قابل، فإن صلاحية المحل بشيئين: حسن فهم، وحسن قصد. وهؤلاء قلوبهم لا تفقه وقصودهم سيئة، وقد صرح سبحانه بهذا في قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٣) فأخبر سبحانه عن عدم قابلية الإيمان فيهم، وأنهم لا خير فيهم يدخل بسببه إلى قلوبهم، فلم يسمعهم سماع إفهام ينتفعون به وإن سمعوه سماعاً تقوم به عليهم حجته فسماع الفهم الذي سمعه به المؤمنون لم يحصل لهم.



٣٨- ثم أخبر سبحانه عن مانع آخر قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماع الخاص وهو الكبر والتولي والإعراض، فالأول مانع من الفهم، والثاني مانع من الانقياد والإذعان، فأفهام

سيئة وقصود ردية وهذه نسخة الضلال وعلم الشقاء كما أن نسخة الهدى وعلم السعادة فهم صحيح وقصد صالح والله المستعان. وتأمل قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ كيف جعل هذه الجملة الثانية سواء كانت خبراً أو إعادة عقوبة

لأنصرفهم، فعاقبهم عليه بصرف آخر غير الصرف الأول، فإن انصرفهم كان لعدم إرادته سبحانه ومشيتته لإقبالهم لأنه لا صلاحية فيهم ولا قبول، فلم ينلهم الإقبال والإذعان فانصرفت قلوبهم بما فيها من الجهل والظلم عن القرآن، فجازاهم على ذلك صرفاً آخر غير الصرف الأول كما جازاهم على زيغ قلوبهم عن الهدى إزاغة غير الزيغ الأول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وهكذا إذا عرض العبد عن ربه



سبحانه جازاه بأن يعرض عنه فلا يمكنه من الإقبال عليه ولتكن قصة إبليس منك على ذكر تنتفع بها أتم انتفاع، فإنه لما عصى ربه تعالى ولم ينقد لأمره وأصر على ذلك عاقبه بأن جعله داعياً إلى كل معصية فعاقبه على معصيته الأولى بأن جعله داعياً إلى كل معصية وفروعها صغيرها وكبيرها وصار هذا الإعراض والكفر منه عقوبة لذلك الإعراض والكفر السابق فمن عقاب السيئة السيئة بعدها كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

٣٩- فهذا عدله فيهم وتلك حجته عليهم، فهم سدوا على أنفسهم باب الهدى إرادة منهم واختياراً، فسده عليهم اضطراراً، فخلاهم وما اختاروا لأنفسهم وولاهم ما تولوه، ومكنهم فيما ارتضوه، وأدخلهم من الباب الذي استبقوا إليه، وأغلق عنهم الباب الذي تولوا عنه وهم معرضون، فلا أقبح من فعلهم، ولا أحسن من فعله.



سورة يونس

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦).

١ - تأمل هاتين الحجتين القاطعتين تحت هذا اللفظ الوجيز:

إحداهما: أن هذا من الله لا من قلبي ولا هو مقدور لي ولا من جنس مقدور البشر، وأن الله سُبحَانَهُ وتَعَالَى لو شاء لأمسك عنه قلبي ولساني وأسماعكم وأفهامكم، فلم أتمكن من تلاوته عليكم، ولم تتمكنوا من درايته وفهمه.

الحجة الثانية: أني قد لبثت فيكم عمري إلى حين أتيتكم به، وأنتم تشاهدوني وتعرفون حالي وتصحبوني حضرا وسفرا وتعرفون دقيق أمري وجليله وتحققون سيرتي، هل كانت سيرة من هو من أكذب الخلق وأفجرهم وأظلمهم؟ فإنه لا أكذب ولا أظلم ولا أقبح سيرة ممن جاهر ربه وخالفه بالكذب والفرية عليه وطلب إفساد العالم وظلم النفوس والبغي في الأرض بغير الحق.

وإذا تأملنا عليه ما أتينا في السورة قال الذرير لا يرحموني
لقد أتيتكم به من غير أن أؤيدكم هذا أو أؤيدكم هذا أو أؤيدكم هذا
لأن أؤيدكم هذا من غير أن أؤيدكم هذا أو أؤيدكم هذا أو أؤيدكم هذا
إني أتيتكم به من غير أن أؤيدكم هذا أو أؤيدكم هذا أو أؤيدكم هذا
لقد أتيتكم به من غير أن أؤيدكم هذا أو أؤيدكم هذا أو أؤيدكم هذا
فمن أظلم مني أفترى على الله كذبا أو كذبا أو كذبا أو كذبا
إنه لا يظلم المجرمون ولا يظلم المجرمون ولا يظلم المجرمون
ما لا يظلمهم ولا يظلمهم ولا يظلمهم ولا يظلمهم ولا يظلمهم
عند الله فلا أتبعون الله بما لا يعلم في السموات ولا
في الأرضين سبحانه وتعالى عما يشركون وما
كان الناس إلا أئمة ورجدة فأتبعوا ولا كرامة
سبقت من ربك لقضي بينهم فيما هي بينهم القوت
وتقولون لو أنزل علينا آية من ربنا فقل إنما
الغيب لله فأتعظوا إني معكم من المنتظرين

هذا وأنتم تعلمون أني لم أكن أقرأ كتابا ولا أخطه يميني ولا صاحبت من أتعلم منه، بل صحبتكم أتم في أسفاركم لمن تتعلمون منه وتسالونه عن أخبار الأمم والملوك وغيرها ما لم أشارككم فيه بوجه، ثم جئتم بهذا النبأ العظيم الذي فيه علم الأولين والآخرين وعلم ما كان وما سيكون على التفصيل، فأني برهان أوضح من هذا وأي عبارة أفصح وأوجز من هذه العبارة المتضمنة له. (الصواعق المرسله ٢/ ٤٧٠ - ٤٧٢).

أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىٰ أَمْرِنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا
فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ
نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو
إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ ۚ

٢- لما كانت الدنيا عرضة لهذه الآفات، والجنة سليمة منها قال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥]. فسامها هنا دار السلام لسلامتها من هذه الآفات التي ذكرها في الدنيا، فعم بالدعوة إليها، وخص بالهداية من يشاء، فذاك عدله وهذا فضله. (إعلام الموقعين ١/ ٢٠٣).

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٦).

٣- لما عطف سبحانه الزيادة على الحسنى التي هي الجنة دل على إنها أمر آخر من وراء الجنة وقدر زائد عليها، ومن فسر الزيادة بالمغفرة والرضوان فهو من لوازم رؤية الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى. (حادي الأرواح ٢٣١-٢٣٤).

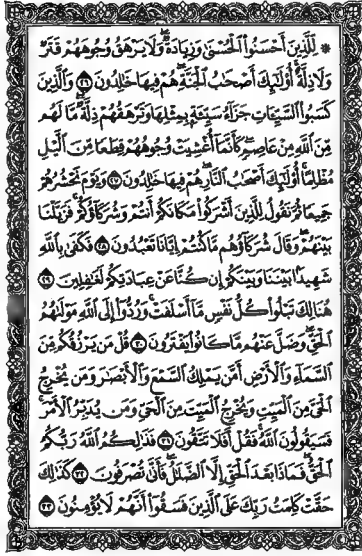
قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ .

٤- قيل هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها وألطفها فرفا فتدبر السياق تجده نقيضا لما وقع، فإن الآيات التي في يونس سيقّت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا

به ولم يمكنهم إنكاره من كون الرب تعالى هو رازقهم ومالك أسماعهم وأبصارهم

ومدبر أمورهم وغيرها ومخرج الحي من الميت والميت من الحي.

فلما كانوا مقرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم، إن فاعل هذا هو الله الذي لا إله غيره فكيف يعبدون معه غيره ويجعلون له شركاء لا يملكون شيئاً من هذا ولا يستطيعون فعل شيء منه؟ ولهذا قال بعد أن ذكر ذلك من شأنه تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي لا بد أنهم يقرون بذلك ولا يجحدونه فلا بد أن يكون المذكور مما يقرون به.



والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التي يشاهدونها بالحس، ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى تنتهي إليهم ولم يصل علمهم إلى هذا، فأفردت لفظ السماء هنا فإنه لا يمكنهم إنكار مجيء الرزق منها، لا سيما والرزق ها هنا إن كان هو المطر، فمجئيه من السماء التي هي السحاب ها هنا فإنه يسمى سماء لعلوه ها هنا وقد أخبر سبحانه أنه بسط السحاب في السماء بقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ والسحاب إنما هو مبسوط في جهة العلو لا في نفس الفلك، وهذا معلوم بالحس فلا يلتفت إلى غيره، فلما انتظم هذا بذكر الاحتجاج عليهم لم يصلح فيه إلا أفراد السماء؛ لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الأرزاق العظيمة للقلوب والأرواح، ولا بد من الوحي الذي به الحياة الحقيقية الأبدية، وهو أولى باسم الرزق من المطر الذي به الحياة الفانية المنقضية، فما ينزل من فوق ذلك من الوحي والرحمة

وأما الآية التي في سورة سبأ فلم ينتظم بها ذكر إقرارهم بما ينزل من السماوات؛ ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها ولم يذكر عنهم أنهم المجبيون المقرون فقال: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ وَلَمْ يَقُلْ: سَيَقُولُونَ اللَّهُ. فأمر تعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجيب بأن ذلك هو الله وحده الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السماوات السبع، وأما الأرض فلم يدع السياق إلى جمعها في واحدة من الاثنين؛ إذ يقرب به كل أحد مؤمن وكافر وبر وفاجر. (بدائع الفوائد ١/ ١١٧-١١٨).

٥ الَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّسْتُ وَرِبَادُهُمْ وَلَا يَرْهَقُ وَجْهَهُمْ قَتَرٌ
 وَلَا دُخَانٌ أَتَاهُمْ وَأَسْبَحُوا لَهُمْ سُبْحًا طَيِّبًا ۖ وَالَّذِينَ
 كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَابُ مِنْ قَبْلِهِمْ يَعْلَمُونَ مَا لَهُمْ
 مِنَ الْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ مَا كَانُوا يَعْلَمُونَ وَيُحِبُّهُمْ يُغْلِبُهُمْ أَمِ اتَّخَذُوا
 مُقَالَةً ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا سَبَّحُوا بُحْبُوحَةً عَلَيْهِمْ سُبْحًا
 وَفِيهِمْ نَجْوَى مُنْجِيَةً ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا سَبَّحُوا بُحْبُوحَةً
 عَلَيْهِمْ سُبْحًا وَفِيهِمْ نَجْوَى مُنْجِيَةً ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا
 سَبَّحُوا بُحْبُوحَةً عَلَيْهِمْ سُبْحًا وَفِيهِمْ نَجْوَى مُنْجِيَةً ۚ
 وَالَّذِينَ آمَنُوا سَبَّحُوا بُحْبُوحَةً عَلَيْهِمْ سُبْحًا وَفِيهِمْ
 نَجْوَى مُنْجِيَةً ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا سَبَّحُوا بُحْبُوحَةً
 عَلَيْهِمْ سُبْحًا وَفِيهِمْ نَجْوَى مُنْجِيَةً ۚ

٥- من عبد غير الله فما عبد إلا الضلال المحض
والباطل البحت، وأما من عبد الله بأمره، وكان في مقام
التمييز بين محابه ومساخطه مفرقا بينهما يحب هذا
ويبغض هذا، ناظرا بقلبه إلى ربه، عاكفا بهمته عليه،
منفذا لأوامره، فهو مع الحق المحض. والله أعلم.
(طريق الهجرتين ٣٢٤).

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

٦- أخبر أن من قبل المكذبين أصل يعتبر به، والفرع نفوسهم، فإذا ساووهم في المعنى ساووهم في العاقبة. (إعلام الموقعين ١/ ١٨٥-١٨٦).

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِمْ وَأُتُوا
الْعَذَابَ لَمَّا كَانُوا الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا
لَا يَنْظُرُونَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا إِلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا أَنْ
يَقُولَ اللَّهُ هُوَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ هُوَ يَخْبِي
وَهُوَ يُخْفِي ﴿٦٠﴾ وَيَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ
مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ
﴿٦١﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ قَدْ جَاءَكُمْ اللَّهُ بِخَبْرٍ وَمَا
يَعْلَمُونَهُ ﴿٦٢﴾ قُلْ أَنْ يَشْعُرَ أَنَّ اللَّهَ لَعَنَ قَوْمَ زُرْعِي
فَصَلَّوْهُ مِنْهُمْ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدَبَ لَكُمْ أَمْ عَلَى
اللَّهُ تَقَدَّرُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٤﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ
وَلَا تَهْتَفُ بِهِنَّ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شُفُوعًا إِلَّا لِمَنْ يَشَاءُ
فِي ذُنُوبِهِمْ عَنْ رَبِّكَ مِنْ تَقَالِي ذُرِّي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ وَلَا أَصْبَحَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَصْبَحَ إِلَّا يَكْفُرُ بِحُجَّتِهِ ﴿٦٥﴾

٧- هو شفاء لما في الصدور من مرض الجهل والغبي، فإن الجهل مرض شفاؤه العلم والهدى. والغبي مرض شفاؤه الرشد، وقد نزه الله سبحانه نبيه عن هذين الداءين، فقال: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النجم: ١-٢].

ووصف رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم خلفاء بضدهما فقال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي».

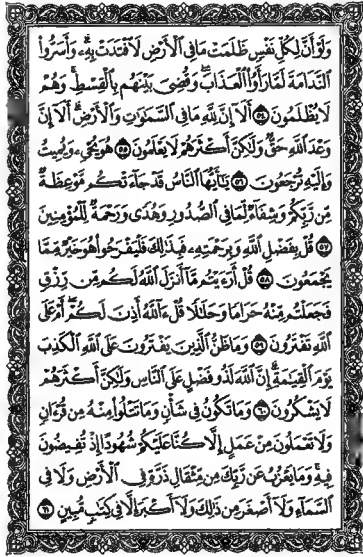
وجعل كلامه سبحانه موعظة للناس عامة، وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة، وشفاء تاما لما في الصدور، فمن استشفى به صح وبرئ من مرضه، ومن لم يستشف به فهو كما قيل:

إِذَا بَلَ مِنْ دَاءٍ بِهِ ظَنَّ أَنَّهُ نَجَا وَبِهِ الدَّاءُ الَّذِي هُوَ قَاتِلُهُ

قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ قَدْ جَاءَكُمْ اللَّهُ بِخَبْرٍ وَمَا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

٨- الله سبحانه إنما رفع من رفع بالكتاب والإيمان، ووضع من وضع بعدمهما.

فإن قيل: فقد وقع تسمية ذلك تكليفا في القرآن كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وقوله: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].



قيل: نعم، إنما جاء ذلك في جانب النفي، ولم يسم سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفا قط، بل سماها روحا ونورا، وشفاء وهدى ورحمة، وحياة، وعهدا، ووصية، ونحو ذلك. (إغاثة اللهفان ١/ ٣١-٣٢).

٩- فذلك خير من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها. أي هذا هو الذي ينبغي أن يفرح به. ومن فرح به فقد فرح بأجل مفروح به، لا ما يجمع أهل الدنيا منها، فإنه ليس بموضع للفرح؛ لأنه عرضة للآفات، ووشيك الزوال، ووخيم العاقبة،

وهو طيف خيال زار الصب في المنام، ثم انقضى المنام، وولى الطيف، وأعقب مزاره الهجران.

١٠- وقد جاء الفرح في القرآن على نوعين: مُطلق، ومُقيد.

فالمُطلق: جاء في الذم. كقوله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصاص: ٧٦]، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

والمُقيد نوعان أيضا: مقيد بالدنيا، ينسي صاحبه فضل الله ومته، فهو مذموم، كقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

والثاني: مقيد بفضل الله وبرحمته، وهو نوعان أيضا: فضل ورحمة بالسبب، وفضل بالمسبب، فالأول كقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨).

[يونس: ٥٨]. والثاني كقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

فالفرح بالله، وبرسوله، وبالإيمان، وبالسنة، وبالعلم، وبالقرآن، من أعلى مقامات العارفين.

١١- فالفرح بالعلم والإيمان والسنة دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته له، وإيثاره له على غيره، فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله له على قدر محبته له، ورغبته فيه، فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله له، ولا يحزنه فواته، فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

والفرق بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحسوب بعد حصوله، والاستبشار يكون به قبل حصوله إذا كان على ثقة من حصوله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

والفرح صفة كمال؛ ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها: كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقدته لها، واليأس من حصولها. (مدارج

السالكين ٣/ ١٥٦-١٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٢- هو من أحسن النظم وأبدعه، فإنه ثنى أولاً؛ إذ كان موسى وهارون هما الرسولان المطاعان ويجب على بني إسرائيل طاعة كل واحد منهما سواء،

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَدْعُونِي إِلَىٰ كُلِّ مُجْرِمٍ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ النَّصْحُ
قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْكُونَ ۖ فَلَمَّا أَفْتَرَا قَالُوا
مُوسَىٰ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَاتٍ ۖ وَأَنْتَ بِالْغَاثِ ۖ وَأَنْتَ بِالْمُرِيدِ ۖ
عَلَىٰ الْمُدَسِّدِينَ ۖ وَنَحْنُ إِلَهُ ۖ وَكَانَ الْفَرَقَ ۖ وَكَانَ
الْمُجْرِمُونَ ۖ فَمَاءَ أَمْنٍ لِمُوسَىٰ ۖ وَأَذْرَءَةً مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ
خَوَافِهِمْ ۖ فَرِحُوا بِمَا جَاءَهُمْ مِنَ الْفَتْحِ ۖ وَكَانَ فِرْعَوْنُ لَمَّا
فِي الْأَرْضِ قَالَهُ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ وَقَالَ مُوسَىٰ يَقُولُونَ
كُنْزُهُمْ ۖ فَاتَّبَعَهُمْ وَكَانَ كُنْزُهُمْ سُلَيْمِينَ ۖ
فَقَالُوا لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ لَا يَحْمِلُونَ أَوْنَهُ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
وَجِئْتَنَا بِبَيِّنَاتٍ ۖ وَنَحْنُ بِالْكَافِرِينَ ۖ وَكَانَ مُوسَىٰ
وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ
قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَقَالَ مُوسَىٰ
رَبَّنَا آتِنَا ذِكْرَكَ وَفَعَلْنَا بِرَبِّكَ ذُنُوبًا ۖ وَنَحْنُ بِذُنُوبِنَا
الَّذِينَ نَارُ الْبُيُوتِ لَمُؤْمِنِينَ ۖ وَنَحْنُ بِذُنُوبِنَا ظَالِمُونَ ۖ
وَأَشْهَدُ عَلَىٰ نَفْسِي أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ۖ وَنَحْنُ بِذُنُوبِنَا
ظَالِمُونَ ۖ وَنَحْنُ بِذُنُوبِنَا ظَالِمُونَ ۖ وَنَحْنُ بِذُنُوبِنَا ظَالِمُونَ ۖ

وإذا تبوءا البيوت لقومهما فهم تبع لهما، ثم جمع الضمير فقال: ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ﴾ لأن إقامتها فرض على الجميع، ثم وحده في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن موسى هو الأصل في الرسالة وأخوه ردها ووزيرا، وكما أرسلنا برسالة واحدة كانا رسولا واحدا، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فهذا الرسول هو الذي قيل له: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. (بدائع الفوائد ٤/ ١٠).

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١٦).

قَالَ قَدْ أَجِبتُ دَعْوَتَكَ فَأَسْتَقِيمُوا لَا تَتَّبِعُوا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يُحْسِنُونَ ﴿١٦﴾ وَتَحْذَرُوا نَارَ النَّارِ بِأَنْ تَسْأَلَ بِلَ الْبَحْرِ وَالْمَعْدِنِ وَتَعْرِضُوا لِحُكْمِهِمْ وَتَعْبُدُوا أَوْ تَعْبُدُوا أَهْلَهُ إِذَا أَدْرَكْتُمْ الْقُرْآنَ قَالَ مَا تَقُولُونَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي عَمِلْتُمْ بِهِمْ وَأَنْتُمْ تَسْأَلُونَ عَنْهُ وَأَنْتُمْ الْمُسْلِمُونَ ﴿١٧﴾ وَأَلْفَنْ وَقَدْ عَصَيْتُمْ قَبْلَ وَكُنْتُمْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿١٨﴾ فَأَلْبِسُوا نَجْوَاهُ بِبَيْتِكُمْ لَتَكُونُوا لَعْنَةً خَلَقْتُكُمْ مِنْ نَارٍ وَأَنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ أَلْفَتِنَا لَقَوْلُونَ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَسْجِدًا فَجَعَلُوا فِيهِ مَقَامًا لِلْعَذَابِ فَكُنْتُمْ أَقْصَىٰ قَوْمًا فَكُنْتُمْ أَهْلًا لَهَا فَجَاءَهُمُ الْمَوْتُ وَأَنْتُمْ تَعْبُدُونَ بَيْنَهُمْ قَوْمًا لَا يَفْقَهُونَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٠﴾ كَانَتْ فِي سَكِّهِ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٢١﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَكَانُوا مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَنْهُمْ كَيْفَ رَبِّكَ لَا يُلَاحِظُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ نَهْيٌ عَلَىٰ مَا بَوَّأُوا مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٢٤﴾

١٣ - قد أشكلت هذه الآية على كثير من الناس، وأورد اليهود والنصارى على المسلمين فيها إيرادا وقالوا: كان في شك فأمر أن يسألنا. وليس فيها بحمد الله إشكال، وإنما أتى أشباه الأنعام من سوء قصدهم وقلة فهمهم.

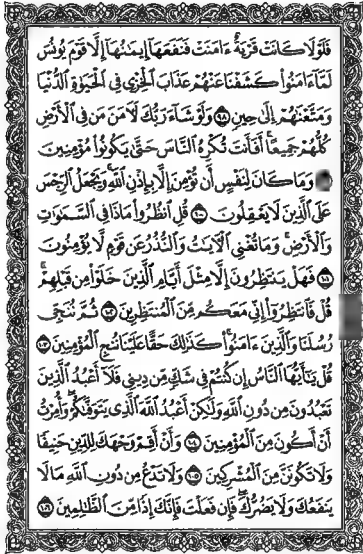
والأ فالآية من أعلام نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليس في الآية ما يدل على وقوع الشك ولا السؤال أصلا، فإن الشرط لا يدل على وقوع المشروط، بل ولا على إمكانه كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبُطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]. ونظائره، فرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يشك ولم يسأل.

ولا أسأل».

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ
وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]. والمراد أتباعه بهذا الخطاب.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخطاب شامل للخلق، والمعنى: وإن كنتم في شك والدليل على ذلك قوله تعالى في آخر السورة: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٤].

(أحكام أهل الذمة ١٢-١٥).



سورة هود

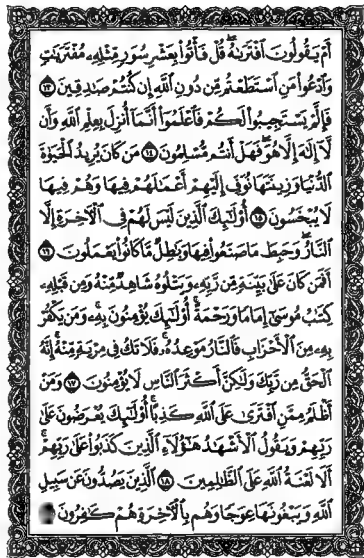
قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾



١- هؤلاء ثَبِيَّةُ الله من نوع الإنسان المذموم الموصوف باليأس والكفر عند المصيبة والفرح والفخر عند النعمة، ولا خلاص من هذا الذم إلا بالصبر والعمل الصالح . (عدة الصابرين ٧٣-٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۝١٨﴾
الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝١٩﴾

٢- هؤلاء المعارضون للوحي بعقولهم جمعوا بين الأمور الثلاثة: الكذب على الله، والصد عن سبيل الله، وبغيها عوجا. أما الكذب على الله فإنهم نفوا عنه ما أثبتته



لنفسه من صفات الكمال ووصفوه بما لم يصف به نفسه، وأما صدهم عن سبيله وبغيها عوجا فإنهم أفهموا الناس بل صرحوا لهم بأن كلام الله ورسوله ظواهر لفظية لا تفيد علما ولا يقينا، وأن العقول عارضتها فيجب تقديم العقول عليها، وأي عوج أعظم من عوج مخالفة العقل الصريح وقد وصف الله كتابه بأنه غير ذي عوج، ولا ريب أن الله هو الصادق في ذلك وأنهم هم الكاذبون.

٣- وعلى كل تقدير فسييل الله هداه وكتابه الهادي للطريق الأقوم والسبيل الأqvص، فمن زعم أن في العقل ما يعارضه فقد بغاه عوجا ودعا إلى الصد عنه، ومن له خبرة بالمعقول الصحيح يعلم أن العوج في كلام هؤلاء المعوجين الذين هم عن الصراط ناكبون، وعن سبيل الرشd حائدون، وعن آيات الله بعيدون وبالباطل والقضايا الكاذبة يصدقون، وفي ضلالهم يعمهون وفي رييهم يترددون، وهم للعقل الصريح والسمع الصحيح مخالفون. (الصواعق المرسلة ٣/١١٤٢-١١٤٤).

﴿قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾﴾

أُولَٰئِكَ لَوْ كُنُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ مَا كَانَ لِمَنْ فِي دُونِ
الَّذِينَ أُولَٰئِكَ يَتَّبِعُونَ الْقَدَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ
الْتَمُعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَيْرُوا
أَنفُسَهُمْ وَعَمِلُوا عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أَجْرَهُ أَهْلَهُ
فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَيْرُونَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَالْخَبِيرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَخْضَرِ
وَالْأَبْيَضِ وَالسَّيْفِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ أَنْ يَخُذَهُمْ لِيَوْمِ
الْبَاسِ ﴿إِلَّا أَنَّهُ إِذْ أَخَذَ عَلَيْهِمْ عَذَابَ يَوْمِ الْبَاسِ﴾
فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا تَرَىٰ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا
وَمَا تَرَىٰ إِلَيْنَا إِلَّا الْآدَمُ الْأُولَىٰ هُمْ أَتَوَّلُونَا ﴿أُولَٰئِكَ
وَمَا تَرَىٰ إِلَيْنَا إِلَّا الْآدَمُ الْأُولَىٰ هُمْ أَتَوَّلُونَا﴾
وَمَا تَرَىٰ إِلَيْنَا إِلَّا الْآدَمُ الْأُولَىٰ هُمْ أَتَوَّلُونَا﴾
قَالَ يَوْمَ أُدْبِثُوا فِي سَخِرَ كُلُّ شَيْءٍ مِّن رَّبِّي وَآتَنِي رَحْمَةً مِّنْ
عِنْدِي فَقَبِيتُ عَلَىٰكُمْ أَنَا بِكُمْ كَرِهًا وَأَنْتُمْ كَارِهُونَ﴾

٤- التواضع، والسكون إلى الله عزَّجَل، ولذلك عدي بـ(إلى) تضمينا لمعنى الطمأنينة، والإنابة والسكون إلى الله. (مدارج السالكين ٢/٣).

﴿قوله تعالى: ﴿مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا﴾﴾

٥- اعتبروا صورة مجرد الآدمية وشبه المجانسة فيها، واستدلوا بذلك على أن حكم أحد الشبهين حكم الآخر؛ فكما لا نكون نحن رسلا

فكذلك أنتم، فإذا تساوينا في هذا الشبه فأنتم مثلنا لا مزية لكم علينا، وهذا من أبطل القياس؛ فإن الواقع من التخصيص والتفضيل وجعل بعض هذا النوع شريفا وبعضه دنيا، وبعضه مرءوسا وبعضه رئيسا، وبعضه ملكا وبعضه سوقة، يبطل هذا القياس.

(إعلام الموقعين ١/١٩٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذْ أَلَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَئِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا اللَّهُ وَمَا أَنَا إِلَّا
بَطَّارِدُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْغَوْنَ فِيهِمْ وَلَكِنِّي أَنَا كَرِيمٌ
يَقُولُونَ ﴿وَيَقُولُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَكُلَّ
نَاسِكَةٍ يَوْمَ﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا
أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي
أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي
إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا نَبِيٌّ مِثْلَ نَبِيِّنَا قَالَتْ كَلَّا إِنَّ
قُلُوبَنَا بِمَا قَالُوا كَانَتْ مَغْفُورَةً مِنَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَتْ إِنَّمَا
يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَا يَنْتَعِلُكُمْ
فَضِيحٌ إِنْ أَرَادَتْ أَنْ أَوْصِيَ كَمَا كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ
يُفَرِّقَ كُرُوهٌ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٣٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُفِذُ
قُلُوبَنَا إِنْ أَفَرَضْنَاهُ فَهَلْ يَنْفَعُنَا إِنْ جَاءَنَا نَارٌ مِنْ سَحَابٍ مِمَّنْ
﴿٣٤﴾ وَأَوْصِيَ إِلَىٰ آلِهِ فَفِي الْقَوْمِ مَنْ يُؤْمِنُ وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ وَمَنْ
لَمْ يَنْتَهِمْ يَسْكُوهَ أَفَتُفْعَلُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَمَّا هَٰذَا فَكَانَ بِالْحَقِّ
وَرَحْمَةً وَلَا تُخْطِئُنِي فِي الْإِيمَانِ فَلَمَّا رَأَوْهُمُ مُغْتَابًا ﴿٣٦﴾

٦- أخبر الله سبحانه: أنه أعلم بمن يؤهله لذلك لسر عنده: من معرفة قدر النعمة، ورؤيتها من مجرد فضل المنعم، ومحبه وشكره عليها. وليس كل أحد عنده هذا السر. فلا يؤهل كل أحد لهذا العطاء. (مدارج السالكين ٣/ ١٧٠-١٧١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾

٧- [الاستثناء منقطع] على أصح الوجوه في الآية، فإنه تعالى لما ذكر العاصم استدعى معصوما مفهوما من السياق، فكأنه قيل لا معصوم اليوم من أمره إلا من رحمة فإنه لما قال لا عاصم اليوم من أمر الله، بقي الذهن طالبا للمعصوم، فكأنه قيل: فمن الذي يعصم؟ فأجيب بأنه لا يعصم إلا من رحمه الله، ودل هذا اللفظ باختصاره وجلالته وفصاحته على نفي كل عاصم سواه، وعلى نفي كل معصوم سوى من رحمه الله، فدل الاستثناء على أمرين: على المعصوم من هو، وعلى العاصم وهو ذو الرحمة. وهذا من أبلغ الكلام وأفصحه وأوجزه ولا يلتفت إلى ما قيل في الآية بعد ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾

٨- المقصود أن هذه الآيات تتضمن عدل الرب تعالى وتوحيده، والله يتصرف في خلقه بملكه وحمده وعدله وإحسانه، فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله وشرعه وقدره وثوابه وعقابه، يقول الحق ويفعل العدل: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ فهذا العدل والتوحيد الذين دل عليهما القرآن لا يتناقضان. (شفاء العليل ١، ٢، ٨٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩﴾ فَمَأْرَاهُ آيْدِيَهُمْ لَا تُصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْفَ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠ وَأَمْرُهُمْ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝٧١ قَالَتْ يَتُولى عَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢﴾

قَالَ يَقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتَقِينِ رَبِّهِ وَأَتَقِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّهُ مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُنِي غَيْرَ تَخَوُّبٍ ۝ وَيَقُولُ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمُ آيَةٌ فَذُرُّوْهَا أَكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَتَّبِعُوا سَبِيلَ الْفَاسِقِينَ ۝ عَذَابٌ قَرِيبٌ ۝ فَتَقَرُّوْهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ فَلَمَّا أَتَاهُ الرَّجُلُ وَاللَّهُ وَعْدُ الْغَوْرَةِ دُوبٍ ۝ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بِجَنَّتِنَا أَصْلَحُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا أَمَعُوا بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَبِغَيْرِ خَوْفٍ يَوْمَئِذٍ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝ وَالْعَذَابُ لَئِنْ ظَلَمُوا لَشَدِيدٌ ۝ فَاصْبِرْ خَوْفٌ وَبِرْهَمٍ جَنِينٍ ۝ كَانَ لَمْ يَتَوَلَّوْا إِلَّا أَنْ تَمُوتُوا كَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ۝ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝ فَلَمَّا آتَا بِدَيْتِهِمْ لَا تُصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْفَ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ۝ وَأَمْرُهُمْ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝

٩- ما السر في نصب السلام في تسليم الملائكة ورفعته في تسليم إبراهيم؟

[فالجواب:] أنك قد عرفت قول النحاة فيه أن سلام الملائكة تضمن جملة فعلية؛ لأن نصب السلام يدل على سلمنا عليك سلاما. وسلام إبراهيم تضمن جملة اسمية؛ لأن رفعه يدل على أن المعنى سلام

عليكم، والجملة الاسمية تدل على الثبوت والتقرر، والفعلية تدل على الحدوث والتجدد، فكان سلامه عليهم أكمل من سلامهم عليه، وكان له من مقامات الرد ما يليق بمنصبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مقام الفضل، إذ حياهم بأحسن من تحيتهم هذا تقرير ما قالوه.

١٠- وعندي فيه جواب أحسن من هذا: وهو أنه لم يقصد حكاية سلام الملائكة، فنصب قوله ﴿سَلَامًا﴾ مفعول القول المفرد، كأنه قيل: قالوا قولاً سلاماً، وقالوا سداداً وصواباً، ونحو ذلك، فإن القول إنما تحكى به الجمل، وأما المفرد فلا يكون محكياً به بل منصوب به انتصاب المفعول به، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ليس المراد أنهم قالوا هذا اللفظ المفرد المنصوب، وإنما معناه: قالوا قولاً سلاماً، مثل سداداً وصواباً، وسمي القول سلاماً لأنه يؤدي معنى السلام ويتضمنه من

رفع الوحشة وحصول الاستئناس. وحكى عن إبراهيم لفظ سلامه فأتى به على لفظه مرفوعا بالابتداء محكيا بالقول، ولولا قصد الحكاية لقال سلاما بالنصب؛ لأن ما بعد القول إذا كان مرفوعا فعلى الحكاية ليس إلا، فحصل من الفرق بين الكلامين في حكاية سلام إبراهيم ورفع ونصب ذلك إشارة إلى معنى لطيف جدا، وهو أن قوله سلام عليكم من دين الإسلام المتلقى عن إمام الحنفاء وأبي الأنبياء وأنه من ملة إبراهيم التي أمر الله بها واتباعها، فحكى لنا قوله ليحصل الاقتداء به والاتباع له، ولم يحك قول أضيفه، وإنما أخبر به على الجملة دون التفصيل والله أعلم. فزن هذا الجواب والذي قبله بميزان غير جائر، يظهر لك أقواهما، وبالله التوفيق. (بدائع الفوائد ٢/ ١٥٧-١٥٨).

١١- فتأمل سياق هذه البشارة وتلك، تجدهما بشارتين متفاوتتين، مخرج إحداهما غير مخرج الأخرى.

والبشارة الأولى كانت له، والثانية كانت لها.

والبشارة الأولى هي التي أمر بذبح من بشره فيها، دون الثانية. (إغائة للهفان ٢/ ٣٥٦).

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَقُومُوا هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مُسْوَمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٣).

١٢ - قد قرب الله سبحانه مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين إخوانهم في العمل، فقال مخوفا لهم أن يقع الوعيد: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [سورة هود: ٨٣].

فَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرٌ كَاجَعًا عَلَيْهِ مَا سَاطَعَهَا وَأَمَطَهَا عَلَيْهِ مَا
جَازَاهُ قَوْمٌ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ
وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ هُوَ الَّذِي مَلَأَ مَقَادِرَ الْأَحَادِثِ
شُمُوعًا قَالَ يَقُومُوا هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ
فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ وَلَا تَنْفُضُوا إِلَيْكَ الْوَيْدَانَ إِلَى أَنْزَلَكُمْ بِغَيْرِ
وَلَا تَخَافُ عَلَى كُفْرٍ عَذَابٌ يَوْمٌ مُجِيبٌ وَتَقُومُوا
أَوْفُوا إِلَيْكَ الْوَيْدَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَتَّبِعُوا الْفِتْنَةَ
الَّتِي بَيْنَهُمْ وَلَا تَقْتُلُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بِقِيَّتِكَ
اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا آتَاكَ عَلَى كُفْرٍ
بِحَيْثُ قَالَ أَلَيْسَ لَكُمْ أُسْرَةٌ مِمَّنْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ أَنْ تَقُولُوا
مَا نَحْنُ بِأَسْرَةٍ أَنْ تَقُولُوا مَا نَقُولُ إِنْ تَأْتِ
لَأَنْتَ الْخَلِيلُ الرَّشِيدُ قَالَ يَقُومُوا هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ
لَأَنَّا لَكُم مَّا آتَيْنَاكَ مِنْ قَبْلُ مِنْ دُونِ الْإِسْلَامِ
مَا اسْتَطَعْتَ وَمَا تَفَرَّقَ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْ وَإِلَيْهِ الْيُسْرَى

١٣ - وإنما قلنا إنه أولى لأن المعنى عليه فإن الله تعالى أمره أن يسري بأهله إلا امرأته ولو كان الاستثناء من الالتفات لكان قد نهى المسري بهم عن الالتفات وأذن فيه لامرأته وهذا ممتنع لوجهين:

أحدهما: أنه لم يأمره أن يسري بامرأته ولا دخلت في أهله الذين وعد بنجاتهم.

والثاني: أنه لم يكلفهم بعدم الالتفات ويأذن فيه للمرأة. (بدائع الفوائد ٣/ ٦٥-٦٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

١٤ - إن الغرباء في العالم هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية، وهم الذين أشار إليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس». (مدارج السالكين ٣/ ١٩٤).

سورة يوسف

﴿قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾
إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعْتَنِي﴾

وَرَوَيْتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقْتُ الْأَوَّلَ
وَقَالَ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ
إِنَّهُ لَا يَفْعِلُ الْفُلُحُومَ ﴿وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾
أَوَّلًا أَنْ رَأَى الْبُرْهَانَ رَبِّيهِ كَذَلِكَ لِيُصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ
وَالْفَخْشَةَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَخْلَاصِ ﴿وَأَسْتَجِبَا﴾
الْبَابِ وَقَدْتَ قِيصَهُ مِنْ دُبُرِ الْأَقْبَابِ هَذَا الْبَابُ
قَالَ تَابِعُ بْنُ جَبْرِ أَنَّ هَذِهِ سُوْرَةُ الْيُوسُفَ وَأَعْلَى
الْيَمِّ ﴿قَالَ جَبْرِ رَوَيْتُ عَنْ نَفْسِي وَتَقَرَّرْتُ بِشَاهِدَيْنِ
أَمْلَاهَا إِنْ كَانَ قِيصُهُ قَدْ دُنِيَ قَبْلِي فَصَدَّقْتُ وَمَعُونِ
الْكُذِبَيْنِ ﴿وَأَنْ كَانَ قِيصُهُ قَدْ دُنِيَ فَرَكِبْتُ وَهُوَ
مِنْ الْقَدِيرَيْنِ ﴿فَلَمَّا رَأَى قِيصَهُ قَدْ دُنِيَ قَالَ إِنَّهُ
مِنْ كَيْدِ كُنَّ إِنَّ كَيْدَهُنَّ عَظِيمٌ﴾ يُوْسُفُ أَفْرَظُ عَنْ
هَذَا وَأَسْتَفْهِرُ لِيْلَيْكَ كُنَّ مِنْ الْخَاطِئِينَ
﴿وَقَالَ يَتَرُوفُ فِي الْمَدِينَةِ أَمْزَأُ التَّيْرِ تَرُوفُ فَتَمَهَا
عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

١- تأمل ما أعجب أمر هذه المرأة: أقرت بالحق، واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته، وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو عرضة للشكر. فوازن بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلام يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لفظاً ومعنى، وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت، ولا يستبعد أن تقول المرأة هذا وهي على دين الشرك؛ فإن القوم كانوا يقولون بالرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَبِحَقِّهِ وَإِنْ أَشْرَكُوا

معه غيره، ولا تنس قول سيدها لها في أول الحال ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنِّكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾. (روضة المحبين ٢٩٧-٣٠١).

٢- مع أن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله، فإن واقعة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي ها هنا في غاية القوة، وذلك من وجوه: أحدها: ما ركبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة، كما يميل العطشان إلى الماء، والجائع إلى الطعام، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء، وهذا لا يذم إذا صادف حلالاً.

الثاني: أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان شاباً، وشهوة الشباب وحدثه أقوى.

الثالث: أنه كان عزبا، ليس له زوجة ولا سرية تكسر شدة الشهوة.

الرابع: أنه كان في بلاد غربة، يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه وبين أهله ومعارفه.

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى موافقتها.

السادس: أنها غير ممتنعة ولا آبية، فإن كثيرا من الناس يزيل رغبته في المرأة إباؤها وامتناعها، لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع إرادة وحباً، كما قال الشاعر:

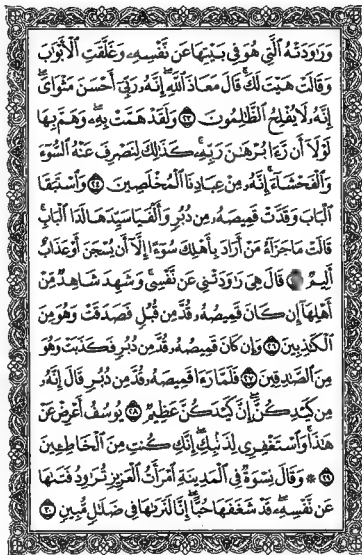
وزادني كَلَفًا في الحُبِّ أن مُنِعْتُ أَحَبُّ شَيْءٍ إلى الإنسانِ ما مُنِعَا

فطباع الناس مختلفة، فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها، ويضمحل عند إباؤها وامتناعها، وأخبرني بعض القضاة أن إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع امرأته أو سريته وإباؤها، بحيث لا يعاودها، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع

فيشتد شوقه كلما منع، ويحصل له من اللذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره، واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها، وشدة الحرص على إدراكها.

السابع: أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد، فكفته مؤونة الطلب وذو الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

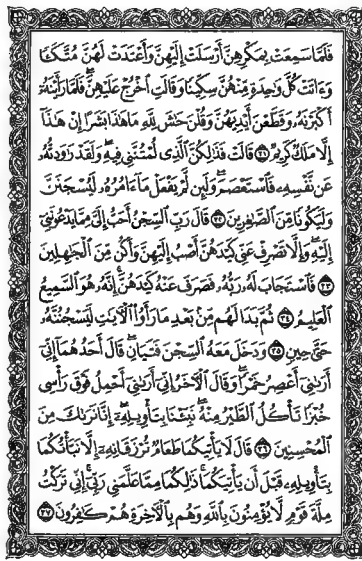
الثامن: أنه في دارها، وتحت سلطانها وقهرها، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له، فاجتمع



داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنه لا يخشى أن تنم عليه هي ولا أحد من جهتها، فإنها هي الطالبة الراغبة، وقد غلقت الأبواب وغيت الرقباء.

العاشر: أنه كان في الظاهر مملوكا لها في الدار، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه، وكان الأنس سابقا على الطلب وهو من أقوى الدواعي، كما قيل لامرأة شريفة من أشرف العرب: ما حملك على الزنى؟ قالت: قرب الوساد، وطول السواد. تعني قرب وساد الرجل من وسادتي، وطول السواد بيننا.



الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال، فأرته إياهن، وشكت حالها إليهن؛ لتستعين بهن عليه، واستعان هو بالله عليهن، فقال: ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٢٣].

الثاني عشر: أنها توعدته بالسجن والصغار، وهذا نوع إكراه، إذ هو تهديد من يغلب على الظن وقوع ما هدد به، فيجتمع داعي الشهوة، وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار.

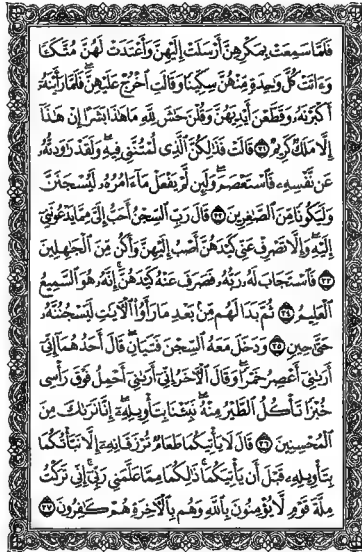
٣- الثالث عشر: أن الزوج لم يظهر منه الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما، ويبعد كلا منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾، وللمرأة: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع، وهنا لم يظهر منه غيرة.

ومع هذه الدواعي كلها فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن؛ صبا إليهن بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه.

وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على الألف فائدة، لعلنا إن وفق الله أن نفردها في مصنف مستقل. (الجواب الكافي ٣١٣-٣١٦).

٤- فدل على أن الإخلاص سبب لدفع العشق وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثمرته ونتيجته، فصرف المسبب صرف لسببه. (زاد المعاد ٣/٣١٩).



٥- وقد حكي الله سبحانه في كتابه عن الشاهد

الذي شهد من أهل امرأة العزيز، وحكم بالقرائن الظاهرة على براءة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكذب المرأة بقوله: ﴿إِنْ كَانَتْ فَمِصُّهُ، قَدْ مِنْ قُبْلِ فَصَدَقْتُ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ (٦٦) وَإِنْ كَانَتْ فَمِصُّهُ، قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتُ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى فَمِصُّهُ، قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) [يوسف: ٢٦ - ٢٨].

وسمى الله سبحانه ذلك آية، وهي أبلغ من البينة، فقال: ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْأَيَّاتِ لِيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٣٥) [يوسف: ٣٥].

وحكى سبحانه ذلك مقررًا له غير منكر، وذلك يدل على رضاه به. (إغاثة اللهفان ٢/٦٦). وقد جمع الله سبحانه وتعالى ليوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه بين الأمرين،

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَاءَ امْرُؤِهِ لِيَسْجَنَ وَلِيَكُونَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ (٣٣) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِئًا
وَهُنَّ كُلٌّ عَلَى صَرْحٍ فَنُكِحَ كُلُّ امْرَأَةٍ مَوْلَاهَا فَغَلَبَهُنَّ فَقَالَتْ أَقْنِي
أَكْرَمَهُمْ وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَأَخْرَجَهُنَّ وَأَخْرَجَهُنَّ وَأَخْرَجَهُنَّ
إِلَّا الْمَالَ كَرِيمًا ۖ فَكَانَ ذَلِكَ لَدَى اللَّهِ لَئِيمًا ۚ وَلَقَدْ رَفَعَدَّ
عَرْشُ رَبِّهِ فَاغْبَسَ لَهُمُ الْبُيُوتَ وَجَعَلَ لَكُمُ الْمَنَازِلَ ۖ وَلَقَدْ رَفَعَدَّ
وَلَيْسَ كُنْهَ الْفِتْنَةِ ۚ وَقَالَ رَبُّ السَّبْحِ لَأَخْلِيَنَّ لَكَ وَمَا يُنَافِيهِ
وَالْيَوْمَ لَا أَصْرَفُ عَنْكَ فَيَكْفُرْ أَتُؤْمِنُ لَهُ الْيَوْمَ فَكَانَ لَكُمُ الْيَوْمَ
٥٥ ۖ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِلُّ عَنْ مَا صَدَقْتُمُ
الْعَالِيَةِ ۚ ثُمَّ مَدَّ لَهُمُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمُ الْيَوْمَ الْفَيْصِلَ
فَتَنَزَّلُ مِنْهُ الْأَنْجِلُ ۚ فَبَدَّلَ اللَّهُ الْقُلُوبَ ۚ فَكَانَ لَكُمُ الْيَوْمَ
أَرْبَعُونَ نَجْمًا ۚ فَكَانَ لَكُمُ الْيَوْمَ الْفَيْصِلُ ۚ فَكَانَ لَكُمُ الْيَوْمَ
خُزْنًا ۚ فَكَانَ لَكُمُ الْفَيْصِلُ ۚ فَكَانَ لَكُمُ الْفَيْصِلُ ۚ فَكَانَ لَكُمُ
الْمُحْصِينَ ۚ فَكَانَ لَكُمُ الْفَيْصِلُ ۚ فَكَانَ لَكُمُ الْفَيْصِلُ ۚ فَكَانَ لَكُمُ
بِتَابِلِهِمْ ۚ فَكَانَ لَكُمُ الْفَيْصِلُ ۚ فَكَانَ لَكُمُ الْفَيْصِلُ ۚ فَكَانَ لَكُمُ
مِلَّةً قَوِيمًا ۚ فَكَانَ لَكُمُ الْفَيْصِلُ ۚ فَكَانَ لَكُمُ الْفَيْصِلُ ۚ فَكَانَ لَكُمُ

٧- قالت امرأة العزيز للنسوة لما أرتهن إياه
ليعذرنها في محبته ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾

قوله تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ .

٨- إنما عبدوا المسميات ولكن من أجل أنهم نحلوها أسماء باطلة كاللات والعزى وهي مجرد أسماء كاذبة باطلة لا مسمى لها في الحقيقة فإنهم سموها آلهة وعبدوها لاعتقادهم حقيقة الإلهية لها وليس لها من الإلهوية إلا مجرد الأسماء لا

حقيقة المسمى فما عبدوا إلا أسماء لا حقائق لمسمياتها وهذا كمن سمى قشور البصل لحما وأكلها فيقال ما أكلت من اللحم إلا اسمه لا مسماه وكمن سمى التراب خبزا وأكله يقال: ما أكلت إلا اسم الخبز. بل هذا النفي أبلغ في آلهتهم فإنه لا حقيقة لإلهيتها بوجه وما الحكمة، ثم إلا مجرد الاسم فتأمل هذه الفائدة الشريفة في كلامه تعالى. (بدائع الفوائد ١/ ١٩-٢٠).

قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُغْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿٧٦﴾

٩- تأمل حذف المفعول في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] ليصح

لَقَدْ جَاءَهُمْ بِجَهَنَّمَ حِمْلُ الْبَعِيرِ فِي رَحْلِ أَخِيهِ
ثُمَّ أَدْنَى مَوْزُونُ الْعِيرِ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا
وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ
وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ
لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُغْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾
﴿٧٤﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ
مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾
﴿٧٦﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ
وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ
وَنُفِقُ كَيْدَ الْعَالِمِينَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا سَارِقَ
لَقَدْ سَرَقْتَ الْكَرِيمَ قَبْلَ فَاسْتَرْسَفَ يَوْسُفَ فِي قَبْرِهِ
وَلَوْ يَدْرِي مَا لَمْ يَكُنْ سَرَقَ مَعَكَ تَاللَّهِ أَكْبَرُ مَا
يَصْنَعُونَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْمَرْيُومُ لَوْلَا ظَنُّكَ بِمَا
كُنَّا نَفْعِدُكَ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَمَكِينٌ ﴿٧٩﴾

أن يضمن سرقتهم ليوسف فيتم التعريض، ويكون الكلام صدقا، وذكر المفعول في قوله: ﴿نَفَقْدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٢]. وهو صادق في ذلك، فصدق في الجملتين معا تعريضا وتصريحا، وتأمل قول يوسف: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ﴾ [يوسف: ٧٩]. ولم يقل إلا من سرق، وهو أخصر لفظا، تحريا للصدق، فإن الأخ لم يكن سارقا بوجه، وكان المتاع عند حقا؛ فالكلام من أحسن المعاريض وأصدقها.

١٠- وقد احتج بعض الفقهاء بقصة يوسف على أنه جازر للإنسان التوصل إلى أخذ حقه من الغير بما يمكنه الوصول إليه بغير رضا من عليه الحق.

قال شيخنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذه الحجة ضعيفة؛ فإن يوسف لم يكن يملك حبس أخيه عنده بغير رضاه، ولم يكن هذا الأخ ممن ظلم يوسف حتى يقال إنه قد اقتص منه، وإنما سائر الإخوة هم الذين كانوا قد فعلوا ذلك، نعم تخلفه عنده كان يؤذيهم من أجل تأذي أبيهم والميثاق الذي أخذه عليهم، وقد استثنى

في الميثاق بقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]. وقد أحيط بهم، ولم يكن قصد يوسف باحتباس أخيه الانتقام من إخوته؛ فإنه كان أكرم من هذا، وكان في ذلك من الإيذاء لأبيه.

أعظم مما فيه من إيذاء إخوته، وإنما هو أمر أمره الله به ليلبغ الكتاب أجله ويتم البلاء الذي استحق به يعقوب ويوسف كمال الجزاء، وتبلغ حكمة الله التي قضاهما لهم نهايتها.

١١- وهذا معلوم من فقه القصة وسياقها ومن حال يوسف.

ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

فنسب الله تعالى هذا الكيد إلى نفسه كما نسبه إلى نفسه في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥) [الطارق: ١٥]. ﴿وَإِكِيدُكَدًا﴾ (١٦) [الطارق: ١٦]. وفي قوله: ﴿وَمَكْرُومًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠]. وفي قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

فَلَمَّا جَاءَهُ نَوْمٌ مَحْضًا زَهَرَ جَسَدُ الْيَقَاقِيَةِ فِي رَحْلِ أَبِيهِ
فَمَرَّ كَذَلِكَ مُؤَيَّنًا بِهَا الْوَيْرَانُ لَكُمْ تَسْدُوتُ ۝ قَالُوا
وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مَاذَا أَفْقَدُوا صُوبَ الْتَلَاكِ
وَلَمَّا جَاءَهُ بِهِ جَسَدُ يُونُسَ وَأَبُوهُ رَحِيمٌ ۝ قَالُوا تَاللَّهِ
لَقَدْ عَلِمْتُمْ فَاغْتَابُوا لِنَفْسِكُمْ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ
۝ قَالُوا أَفَمَا جَعَلْنَا إِبْرَاهِيمَ كَذِبًا ۝ قَالُوا أَجَعَلْتُمُ
مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ هَمْزًا وَهُوَ كَذِبٌ كَذَلِكَ تَجْرِي الْأَقْلَابُ
۝ قَالُوا يَا وَيْلَهُ قَبْلُ وَعَدَاهُ أَجِيدُ ثُمَّ أَسْرَعَتْ جَاهِلِينَ
وَعَدَاهُ أَجِيدُ كَذَلِكَ كَذَّبَ لِيُؤَسِّفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ
وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝ قَالُوا لَئِنْ سَرِقَ
فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَنَا مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَفْنَا يُونُسَ فِي قَبْرِهِ
وَلَمْ يَبْدُهَا لَهُمْ قَالُوا أَنُشْرِكُ بِمَعَالِكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ ۝ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُمَا شَيْخًا كَبِيرًا
فَعُذِّ لِحَدَاتِهِمَا مَكَّةَ وَإِنَّا نُرَاكُم مِّنَ الْمُنْشِينَ ۝

فَلَمَّا جَعَلَهُمْ يَجَاهِزُهُمْ جَعَلَ الْبَقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ
فَمَزَّادَهُمْ مَزَادًا لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ فَمَزَّادَهُمْ
وَأَتُوا عَلَيْهِمْ مَا أَتَوْا بِهِمْ قَالُوا أَتَقُولُونَ
وَلَمْ يَكُنْ يَدْرِي بِمَعْنَى قَوْلِهِمْ قَالُوا قَالَهُ
لَقَدْ عَلِمْتُمْ فَايْتُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سِرْقِينَ
قَالُوا فَمَا جَعَلْتُمْ كُنْزَكُمْ قَالُوا كُنْزُكُمْ
مِنْ رُحْدٍ فِي رَحْلِهِمْ فَهَوَّجْتُمُوهُمْ كَذَلِكَ يَجْرِي الظَّالِمِينَ
قَالَ بَارِئُ يَوْمَئِذٍ قَبْلَ عِلَاءِ أَخِيهِ قَالُوا أَتَقُولُونَ
وَعَلَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كَذَلِكَ يُؤْتِي مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِي بَيْتِ النَّسَاءِ إِلَّا أَنْ يُشَاقَّ اللَّهُ تَرَفُّعَ دَرَجَتٍ مِنْ شَأْنِهِ
رَفُوعَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ قَالُوا لَئِنْ تَسْرِفْ
فَقَدْ سَرَفْتَ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ تَسْرِفِهِمْ شَيْءٌ فِي تَقْيِيهِهِ
وَلَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ قَالُوا أَتَقُولُونَ قَالُوا قَالَهُ أَفَلَمْ يَمَسَّ
تَقْيِيهِمْ قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ
فَعَزَّزُوا مَكَانَهُ وَأَقَاتُوا لَكُمْ مِنَ الْمُسِيئَاتِ

وقد قيل: إن تسمية ذلك مكرًا وكيدًا واستهزاء
وخداعًا من باب الاستعارة ومجاز المقابلة نحو:
﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَ سَيِّئَةٍ مِثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠]. ونحو قوله:
﴿فَمَنْ أَعَدَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْدَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَدَى عَلَيْكُمْ﴾
[البقرة: ١٩٤]. وقيل وهو أصوب: بل تسميته بذلك حقيقة
على بابه؛ فإن المكر إيصال الشيء إلى الغير بطريق
خفي، وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنه نوعان: قبيح
وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه، وحسن وهو إيصاله
إلى مستحقه عقوبة له؛ فالأول مذموم والثاني ممدوح،

والرب تعالى إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلا منه وحكمة، وهو تعالى يأخذ الظالم
والفاجر من حيث لا يحتسب لا كما يفعل الظلمة بعباده.

وأما السيئة فهي فيعلة مما يسوء، ولا ريب أن العقوبة تسوء صاحبها؛ فهي سيئة
له حسنة من الحكم العدل.

١٢- وإذا عرفت ذلك فيوسف الصديق كان قد كيد غير مرة: أولها أن إخوته كادوا
به كيدا حيث احتالوا به في التفريق بينه وبين أبيه، ثم إن امرأة العزيز كادته بما أظهرت
أنه راودها عن نفسها، ثم أودع السجن، ثم إن النسوة كادوه حتى استعاذ بالله من
كيدهن فصرفه عنه، وقال له يعقوب: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾
[يوسف: ٥]. وقال الشاهد لامرأة العزيز: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]. وقال: ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾
[يوسف: ٥٠]. فكاد الله له أحسن كيد وأطفه وأعدله، بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه
من أيدي إخوته بغير اختيارهم كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره، وكاد له

لَقَدْ جَاءَهُمْ بِهَا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْيَقِينُ فِي رَجُلٍ أَخِيهِ
 ذُو الْأُنثَىٰ نَزَّاهُ الْأَوَّلُ لَمْ يَكُنْ لِيُسْرُوتِ ۖ قَالُوا
 وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَهُونَ ۖ قَالُوا تَقْذُفُونَ الصَّوَاعَ الْيَتِيمَ
 وَلَمْ يَجَأْ بِهِ جَدُّهُ يَتِيمًا وَأَبُوهُ رَجِيمٌ ۖ قَالُوا قَاتِلُوهُ
 لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُم بِهِ الْيَتِيمَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ
 ۖ قَالُوا أَفَأَجْرُؤُهُ وَإِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ۖ قَالُوا أَجْرُؤُهُ
 مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَرُؤُهُ ۖ كَذَلِكَ يَجْزِي الظَّالِمِينَ
 ۖ قَدْ أَبَىٰ نَجْمُهُ قَبْلَ وَعَاةٍ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَشْرَجَ هَالِكِينَ
 وَعَاةٍ أَخِيهِ كَذَلِكَ كَذَّبَ لِيُؤْسَفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
 فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن شَاءَ
 وَتُؤَفِّقُ كُلَّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ۖ قَالُوا إِنَّا نَسْتَفِيقُ
 قَدْ سَرَقَ آتَمُ لَدُنْ قَبْلِ فَاسْتَرْجَاهَا يُؤْسَفُ فِي تَقْدِيرِهِ
 وَلَمْ يَبْدِهَا لَهُمْ قَالُوا نَشْرُوكُكُمْ وَأَلَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
 تَصِفُونَ ۖ قَالُوا إِنَّا لَنَرِيكَ لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْكَ آيَاتُ الْخَمِيرِ
 نَحْنُ لَنُحَدِّثُكَ نَارًا مَكِينَةً ۖ قَالُوا تَزِيلُكَ مِنَ الْخَمِيرِ ۖ

عوض كيد المرأة بأن أخرجه من ضيق السجن إلى
 فضاء الملك، ومكنه في الأرض يتبوا منها حيث
 يشاء، وكاد له في تصديق النسوة اللاتي كذبنه وراودنه
 حتى شهدن ببراءته وعفته، وكاد له في تكذيب امرأة
 العزيز لنفسها واعترافها بأنها هي التي راودته وأنه من
 الصادقين؛ فهذه عاقبة من صبر على كيد الكائد له بغيا
 وعدوانا. (إعلام الموقعين ٣/ ٢٧٤-٢٨٢).

والمقصود: أن الله سبحانه كاد ليوسف عليه السلام،

بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير

اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره. وكاد له بأن أوقفهم بين يديه
 موقف الذليل الخاضع المستجدي، فقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ
 مُّزَجَّجَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨]. فهذا الذل
 والخضوع في مقابلة ذله وخضوعه لهم يوم إلقائه في الجب ويبيعه بيع العبيد. وكاد له بأن
 هيا له الأسباب التي سجدوا له هم وأبوه وخالته، في مقابلة كيدهم له، حذرا من وقوع
 ذلك، فإن الذي حملهم على إلقائه في الجب خشيتهم أن يرتفع عليهم حتى يسجدوا له
 كلهم، فكادوه خشية ذلك. فكاد الله تعالى له حتى وقع ذلك. كما رآه في منامه.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾

١٣- كيد الله تعالى لا يخرج عن نوعين: أحدهما وهو الأغلب: أن يفعل تعالى فعلا
 خارجا عن قدرة العبد الذي كاد له؛ فيكون الكيد قدرا [زائدا] محضا ليس هو من باب لا
 يسوغ، كما كاد أعداء الرسل بانتقامه منهم بأنواع العقوبات، وكذلك كانت قصة يوسف؛
 فإن أكثر ما أمكنه أن يفعل أن ألقى الصواع، في رحل أخيه، وأن أذن مؤذن بسرقتهم،

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِجَنَازِهِمْ جَعَلَ التَّعَابِقَةَ فِي رَحْلِ أَبِيهِ
ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَاهَا أَلْوَيْلٌ لَكُمْ سَرِفَتْ ۝ قَالُوا
وَأَيُّ لَوَاءٍ لَهُمْ شَاءَ تَقْفِدُونَ ۝ قَالُوا تَقْفِدُ مَوْلَى السَّيِّدِ
وَلَيْسَ جَنَازَتُهُ بِجَنَازَةِ أَبِيهِمْ وَأَنَا بِوَدِّهِمْ ۝ قَالُوا تَأَلَّفَهُ
لَقَدْ عَلِمْتُمْ فَاخُذُوا لِيُقْبَلَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ
۝ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ۝ قَالُوا جَزَاؤُهُ
مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ۝ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْلِسِينَ
۝ قَالُوا يَا أَرْثِيَهِمْ قَبْلَ وَصَاةِ أَخِيهِمْ كُنْتُمْ تُرْمَوْنَ
وَعَلَى أَخِيهِ كَذَلِكَ كَيْدًا لِيُؤْخَفَ مَا كَانَ لِأَخِيهِ أَنْ يَأْخُذَ
فِي دِينِ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن شَاءَ
وَقَوْكَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ۝ قَالُوا لَئِنْ سَرِقَ
فَقَدْ سَرَقَ أَحَدُكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَهُمْ يَوْسُفُ فِي تَقْسِيمِهِ
وَلَمْ يُبَيِّنْهَا لَهُمْ قَالُوا نَشْرُوهَا وَمَكَانًا وَاللَّهُ أَتَعْلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ ۝ قَالُوا إِنَّمَا أَتَاهَا الْعَبْدُ إِنَّ لَهُ وَأَبَاهُ شَيْءًا كَاثِرًا
فَخُذْ أَحَدًا مَكَّةَ وَاللَّهُ وَثَاقُكَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝

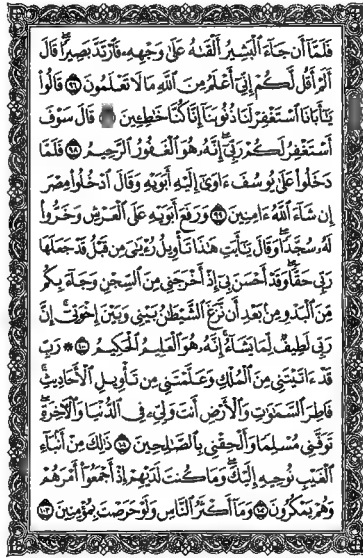
فلما أنكروا قال: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤]. أي جزاء السارق أو جزاء السرقة: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ [يوسف: ٧٥]. أي جزاءه نفس السارق، يستعبده المسروق منه إما مطلقاً وإما إلى مدة، وهذه كانت شريعة آل يعقوب.

وكان إلهام الله تعالى لإخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام قولهم: ﴿مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ [يوسف: ٧٥]؛ كيدا من الله تعالى ليوسف عَلَيْهِ السَّلَام، أجراه على ألسن إخوته، وذلك خارج عن قدرته. وكان يمكنهم أن يتخلصوا من ذلك، بأن يقولوا: لا جزاء عليه، حتى يثبت أنه هو الذي سرق، فإن مجرد وجوده في رحله لا يوجب أن يكون سارقاً.

وقد كان يوسف عَلَيْهِ السَّلَام عادلاً لا يأخذهم بغير حجة، وكان يمكنهم التخلص أيضاً بأن يقولوا: جزاؤه أن يفعل به ما تفعلونه بالسراق في دينكم، وقد كان من دين ملك مصر - فيما ذكر - أن السارق يضرب ويغرم قيمة المسروق مرتين، فلو قالوا له ذلك، لم يمكنه أن يلزمهم بما لا يلزم به غيرهم، فلذلك قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦] أي ما كان ليتمكنه أخذه في دين ملك مصر، لأنه لم يكن في دينه طريق إلى أخذه.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

١٤ - استثناء منقطع، أي لكن إن شاء الله أخذه بطريق آخر، ويجوز أن يكون متصلاً، والمعنى: إلا أن يهيئ الله سبباً آخر يؤخذ به في دين الملك غير السرقة.



النوع الثاني: أن يلهمه أمرا مباحا، أو مستحبا، أو واجبا، يوصله به إلى المقصود الحسن، فيكون على هذا إلهامه ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يفعل ما فعل هو من كيدته سبحانه أيضا، فيكون قد كاد له نوعي الكيد، ولهذا قال سبحانه: ﴿ نَرَفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ شَأْءٍ ﴾ [يوسف: ٧٦].

وفي ذلك تنبيه على أن العلم الدقيق بلطيف الحيل الموصلة إلى المقصود الشرعي الذي يحبه الله تعالى ورسوله، من نصر دينه وكسر أعدائه، ونصر المحق وقمع المبطل: صفة مدح يرفع الله تعالى بها درجة العبد. (إغاثة اللهفان ١٠٨/٢ - ١١٩).

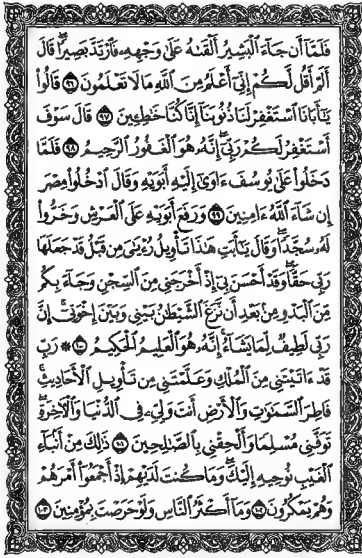
📖 قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾.

١٥ - لعله إنما قالها عند تلقيه لهم، ويكون دخولهم عليه في منزل اللقاء فقال لهم حينئذ ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ فهذا محتمل.

وإن كان إنما قال لهم ذلك بعد دخولهم عليه في دار مملكته، فالمعنى: ادخلوها دخول استيطان واستقرار آمينين إن شاء الله. (إعلام الموقعين ٩٣/٤).

📖 قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

١٦ - أخبر أنه يلطف لما يريد فيأتي به بطرق خفية لا يعلمها الناس واسمه اللطيف يتضمن علمه بالأشياء الدقيقة وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية ومنه التلطف كما قال أهل الكهف: ﴿ وَلَيْتَلَطَّفَ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ فكان ظاهر ما امتحن به يوسف من مفارقة أبيه وإلقائه في السجن وبيعه رقيقا، ثم مراودة التي هو في بيتها عن نفسه وكذبها



عليه وسجنه محنا ومصائب وباطنها نعمًا وفتحا جعلها الله سببا لسعادته في الدنيا والآخرة، ومن هذا الباب ما يبتلي به عباده من المصائب ويأمرهم به من المكاره وينهاهم عنه من الشهوات هي طرق يوصلهم بها إلى سعادتهم في العاجل والآجل وقد حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات. (شفاء العليل ٣٤).

📖 قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

١٧- جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب وإظهار الافتقار إليه والبراءة من موالاة غيره سبحانه وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء. (الفوائد ١٩٦).

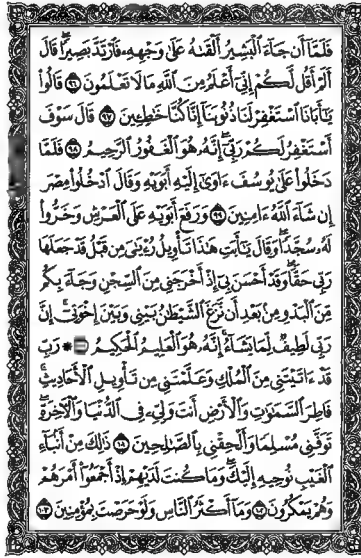
📖 قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.

١٨- قال الفراء وجماعة: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ معطوف على الضمير في ﴿أَدْعُوا﴾ يعني: ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو. وهذا قول الكلبي، قال: حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه ويذكر بالقرآن والموعظة.

١٩- ويقوى هذا القول من وجوه كثيرة.

قال ابن الأنباري: ويجوز أن يتم الكلام عند قوله ﴿إِلَى اللَّهِ﴾، ثم يبتدئ بقوله: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ فيكون الكلام على قوله جملتين أخبر في أولاهما أنه يدعو إلى الله، وفي الثانية بأنه من أتباعه على بصيرة. والقولان متلازمان، فلا يكون

الرجل من أتباعه حقا حتى يدعو إلى ما دعا إليه. وقول الفراء أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة، وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام والله يؤتي فضله من يشاء. (مفتاح دار السعادة ١٦٧-١٦٨).



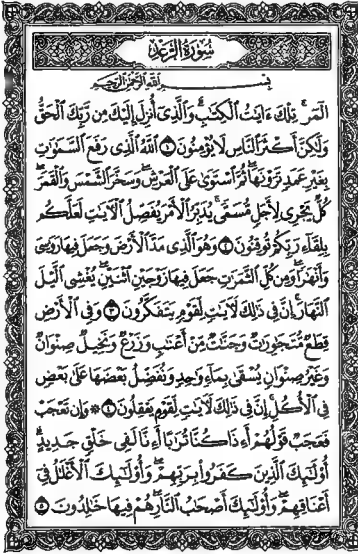
٢٠- وسواء كان المعنى: أنا ومن اتبعني على

بصيرة وأنا أدعو إلى الله، أو المعنى: أدعو إلى الله على بصيرة. والقولان متلازمان، فإنه لا يكون من أتباعه حقا إلا من دعا إلى الله على بصيرة كما كان متبوعه يفعل، فهؤلاء خلفاء الرسل حقا وورثتهم دون الناس وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علما وعملا وهداية وإرشادا وصبرا وجهادا، وهؤلاء هم الصديقون وهم أفضل أتباع الأنبياء، ورأسهم وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (مفتاح دار السعادة ٨٥).



سورة الرعد

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ يَأْتِ خَلْقَ جَدِيدٍ



أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٠﴾

١- في الآية قولان:

أحدهما: إن تعجب من قولهم: ﴿أءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ يَأْتِ خَلْقَ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]، فعجب قولهم! كيف ينكرون هذا، وقد خلقوا من تراب، ولم يكونوا شيئا؟! والثاني: إن تعجب من شركهم مع الله غيره،

وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له، فإنكارهم للبعث وقولهم ﴿أءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ يَأْتِ خَلْقَ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥] أعجب!

وعلى التقديرين: فإنكار المعاد عجب من الإنسان، وهو محض إنكار الرب والكفر به، والجدل لإلهيته وقدرته، وحكمته وعدله وسلطانه. (مدارج السالكين ١/١٢٦).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾.

٢- التحقيق في معنى الآية أنه يعلم مدة الحمل وما يعرض فيها من الزيادة والنقصان، فهو العالم بذلك دونكم كما هو العالم بما تحمل كل أنثى هل هو ذكر أو أنثى. وهذا أحد أنواع الغيب التي لا يعلمها إلا الله كما في الصحيح عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا الله، ولا يعلم

ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يجيء الغيث إلا الله،
ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا تدري نفس بأي
أرض تموت إلا الله».

فهو سبحانه المنفرد بعلم ما في الرحم، وعلم وقت إقامته فيه، وما يزيد من بدنه وما ينقص، وما عدا هذا القول فهو من توابعه ولوازمه كالسقط والتام ورؤية الدم وانقطاعه. (تحفة الودود ٢٢٩-٢٣٠).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ﴾^٤
 ﴿قُلْ أَفَأَتَّخِذُكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ فَعَمَّا

وَلَا ضَرَّأَ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ

٣- احتج على تفرده بالإلهية بتفرده بالخلق، وعلى بطلان إلهية ما سواه بعجزهم عن الخلق، وعلى أنه واحد بأنه قهار والقهر التام يستلزم الوحدة، فإن الشركة تنافي تمام القهر. (الصواعق المرسلة ٢/ ٤٦٥-٤٦٦).

قوله تعالى: ﴿۱۹﴾ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَنْدَرُؤُولُوا إِلَّا الْبَلَبِ

٤- هذه شهادة من الله على عمى هؤلاء وهي موافقة لشهادتهم على أنفسهم بالحيرة والشك وشهادة المؤمنين عليهم. (الصواعق المرسلة ٣/ ٨٥١).

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۖ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ۖ وَلَا يَفْقُضُونَ الْعَيْثَ ۖ ﴾ (١٩) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۖ ﴾ (٢٠) وَالَّذِينَ

* أَقْبَرُ دِمَارَهُ أَوَّلُ الْإِنْسَانِ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُ نَفْسٌ إِلَّا بِرَبِّكَ
 أَوَّلُ الْإِنْسَانِ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُ بِهِدُ اللَّهِ وَلَا يَخْشَوْنَ السَّيِّئَ
 ۝ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ أَنْ يُوْصَلَ وَخَشَوْنَ رُبَّمَا
 وَخَافُوا سَوَاءَ الْحِسَابِ ۝ وَالَّذِينَ سَبَّوْا الْبَيْتَ وَجَعَلُوهُ
 وَقَامُوا الْعَصَاةَ وَأَتَقُوا إِمَامًا فَخَفَعُوا سِكْرًا وَكَانُوا مِنْ
 بِالْحَسَنَةِ النَّبِيَّةِ أَوَّلُ ذَلِكَ لَمْ يَغْنَى الْبَارُ ۝ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
 وَمَنْ صَلَحَ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ وَأَلْفٌ مِنْهُمْ
 عَلَيْهِمْ فِي كُلِّ بَابٍ ۝ عَلَيْهِمْ فِي كُلِّ بَابٍ رُفُوعَةٌ غُنْفَى الْبَارُ ۝
 وَالَّذِينَ يَخْشَوْنَ عَذَابَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا يَقُولُ وَيَقْتَضُونَ
 مَا أَمَرَهُمْ بِهِ أَنْ يُوْصَلَ وَيُغْفِرُونَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلُ ذَلِكَ لَمْ
 الْفَتَى وَلَهُمْ سُرُورُ الْبَارُ ۝ اللَّهُ يَنْطَلِقُ الْأَرْضَ لَيْسَ يَشَاءُ
 وَتَقْدِرُ وَفَوْقَهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ الدُّنْيَا فِي الْأَرْضِ
 سَبْعَ ۝ وَقَوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوَّلُ عَلَيْهِ عَلَيْهِمْ مِنْ رُبَّمَا
 إِنَّ اللَّهَ يُخَلِّصُ مَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ أَيْمَنُ الْبَابِ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا
 وَتَقْلِبُوا فِيهِمْ ذِكْرَ اللَّهِ الْإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ۝

سورة إبراهيم



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِهِ﴾.

١- الصواب أن أيامه تعم النوعين، وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه، ونعمه التي ساقها إلى أوليائه، وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدث بها أياما لأنها ظرف لها، تقول العرب: فلان عالم بأيام العرب وأيام الناس، أي بالوقائع التي كانت في تلك الأيام، فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر،

وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظمته، قال الله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض، وهي متابعة الهوى والانقياد لداعي النفس الأمارة بالسوء، فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل، ويعمي بصيرة القلب، ويصد عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرة العبرة معه البتة، والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره، فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنى له الانتفاع بالتذكر أو بالتفكير أو بالعظة؟ (مدارج السالكين ١/ ٤٤٨ - ٤٤٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾.

٢- فعجبوا من تركهم التوكل على الله [وهو] هداهم، [وأقروا] أن ذلك لا

يكون أبداً. وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان، فصادف الحق - لعلمه بالحق [وليقينه] بأن الله ولي الحق وناصره - مضطر إلى توكله على الله لا يجد بداً من توكله. فإن التوكل يجمع أصليين: علم القلب، وعمله. أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك. وأما عمله: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه. فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جماعه، وإن كان التوكل دخل في عمل القلب من عمله، كما قال الإمام أحمد: «التوكل عمل القلب، ولكن لا بد فيه من العلم، وهو إما شرط فيه، وإما جزء من ماهيته». (الوابل الصيب ١٠٠).

📖 قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٨) ❦

٣- في تشبيهها بالرماد سر بديع، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم وبين الرماد

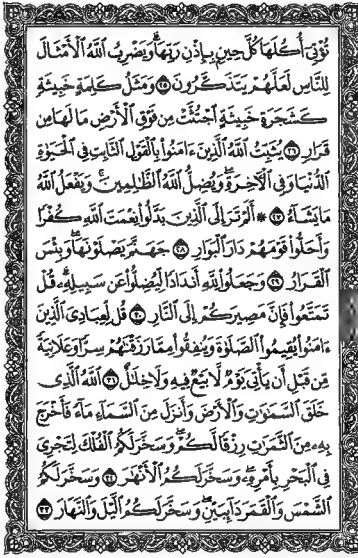


في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا، فكانت الأعمال التي لغير الله وعلى غير مراده طعمة للنار، وبها تسعر النار على أصحابها، وينشئ الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة نارا وعذابا، كما ينشئ لأهل الأعمال الموافقة لأمره ونهيه التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيما وروحا، فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رمادا، فهم وأعمالهم وما يعبدون من دون الله وقود النار. (إعلام الموقعين

فَوَقَّيْ أَكْثَرَهَا كُلِّ حِينٍ يَوْمَ ذُنُوبِهِمْ يَنْسِفُ اللَّهُ الْأَشْقَالَ
لِلْأَنفُسِ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِتْنَةٌ ۖ هُمْ ۖ وَكَتَلَتْكُمْ حَيْثُوهُ
كَتَلَتْكُمْ حَيْثُوهُ أَجْمَعَتْ يَوْمَ يَقُولُ الْأَرْضُ مَا لَهَا مِنْ
قُرْآنٍ ۖ يَنْفُذُ اللَّهُ إِلَيْهَا ۖ وَأَسْمَاءُ الْقَوْلِ الْقَائِلُ فِي الْمَكْرُوهِ
الَّذِينَ تَأْتِي فِي الْأَجْمَعِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الْقَائِلِينَ ۖ وَيَقُولُ اللَّهُ
مَا يَشَاءُ ۖ ﴿١٥﴾ أَوْ تَقُولُ إِلَى الَّذِينَ يَدْعُوهُمُ اللَّهُ كُنُوا
وَأَعْلَوْا قَوْمَهُمْ ذَاكَ الْيَوْمَ ۖ حَتَّى يَصْغُرَ لَهُمْ قَوْمُهُمْ
الْقُرْآنُ ۖ وَيَقُولُ لِقَوْمِهِ أَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ سِبْطَهُمْ فِي
تَسْمُوَاتٍ مَصْبُورَةٍ إِلَى الْآخِرِ ۖ فَلْيُصْبِحُوا مِنَ الَّذِينَ
يَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ وَيُفْعَلُوا أَمَّا زَكَرِيَّا فَكَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ
فَإِذَا يَأْتِي بَنُوهُ يُغَوِّدُ لِيَجْعَلَ فِيهِ رَحْمَةً مِنَّا ۖ اللَّهُ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَخَسِبَ
بِهِ مِنَ الْعَالَمِينَ رِزْقًا أَكْثَرَ وَسَخَّرْنَا لَكُمُ الْفَلَاحَ لَتَجْزِيَّ
فِي الْبَحْرِ وَأَمْرَهُ وَسَخَّرْنَا لَكُمُ الْاَنْهَارَ ۖ وَسَخَّرْنَا لَكُمُ
الْقَمَرَ وَالْقَمَرَ رَابِعِينَ وَسَخَّرْنَا لَكُمُ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ ۖ ﴿٢٠﴾

الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت؛ بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها، فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها واتصف قلبه بها وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها فعرف حقيقة الإلهية التي يشبها قلبه لله ويشهد بها لسانه وتصدقها جوارحه، ونفى تلك الحقيقة ولو أزمها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانتقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائفة سالكة سبل ربه ذللاً غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلاً كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلاً.

فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت؛ فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلما كثيرا طيبا يقارنه عمل صالح فيرفع العمل الصالح الكلم الطيب، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ



الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴿١٥١﴾ [فاطر: ١٠]. فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملاً صالحاً كل وقت.

٥- فمن ذلك أن الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر، كذلك شجرة الإيمان والإسلام؛ ليطابق المشبه المشبه به، فعروقه العلم والمعرفة واليقين، وساقها الإخلاص، وفروعها الأعمال، وثمرتها ما توجه به الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة والصفات الممدوحة والأخلاق

الزكية والسمت الصالح والهدي والدل المرضي، فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور، فإذا كان العلم صحيحاً مطابقاً لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به والاعتقاد مطابقاً لما أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله والإخلاص قائم في القلب والأعمال موافقة للأمر، والهدي والدل والسمت مشابه لهذه الأصول مناسب لها، علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

ومنها: أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميتها، فإذا قطع عنها السقي أوشك أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح والعود بالتذكر على التفكير والتفكير على التذكر، وإلا أوشك أن تيبس، وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْإِيمَانَ يَخْلُقُ فِي الْقَلْبِ كَمَا يَخْلُقُ الثَّوْبُ فَيَجْدُو إِيمَانُكُمْ» وبالجملة

فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك،
ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من
العبادات على تعاقب الأوقات وعظيم رحمته وتما
نعمته وإحسانه إلى عباده بأن وظفها عليها وجعلها
مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

ومنها: أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لا بد أن يخالطه دغل ونبت غريب ليس من جنسه، فإن تعاوده ربه ونقاؤه وقلعه كمل الغرس والزرع، واستوى، وتم نباته، وكان أوفر

لثمرته، وأطيب وأزكى، وإن تركه أوشك أن يغلب على الغرس والزرع، ويكون الحكم له، أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلته، ومن لم يكن له فقه نفس في هذا ومعرفة به فإنه يفوته ربح كبير وهو لا يشعر؛ فالمؤمن دائماً سعيه في شيئين: سقي هذه الشجرة، وتنقية ما حولها، فبسقيها تبقى وتدوم وتنقية ما حولها تكمل وتتم، والله المستعان وعليه التكلان.

فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم، ولعلها قطرة من بحر بحسب أذهاننا الواقفة، وقلوبنا المخطئة، وعلومنا القاصرة، وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار، وإلا فلو ظهرت منا القلوب، وصفت الأذهان وزكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت لهم للتلقي عن الله ورسوله؛ لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارف الخلق.

وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم، وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، والله أعلم حيث يجعل مواقع

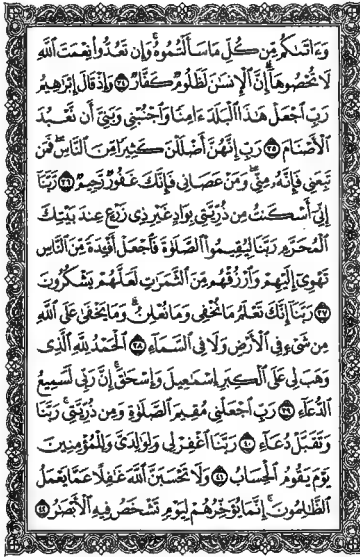
وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكتبهم وجده كذلك؛ فالخسران الوقوف معه والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه، [الذي هو كتاب الرب سبحانه].

فَوَقَّأْتُ لَكُمَهَا لَحْنًا مِنْ يَدَائِي وَيَهَا وَبُغْرِي إِنَّهُ أَكْثَمُ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٠﴾ وَقَتْلَ حَئِذِهِ خِيَدَهُ
كَتَبَتْ حَئِذَهُ أَجَنَّتْ مِنْ قَوْلِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ
قَرَارٍ ﴿١١﴾ نَبِذْتُ اللَّهُ الَّذِينَ مَاتُوا بِالْقَوْلِ الْفَلَسِ فِي لَحْنِهِ
الَّذِينَ تَأْوِي الْأَجْدَرُ وَبُغِيضَ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾ وَقَتْلَ اللَّهِ
مَا بَقِيَ ﴿١٣﴾ فَأَنْزَلْنِي إِلَى الْيَرِيدِ بِذَلِكَ أَهَمَّتْ اللَّهُ كَلِمًا
وَأَعْلَى أَقْوَمَهُمْ ذَكَرَ الْوَلَدِ ﴿١٤﴾ حَتَّى تَصْلُوهُمُ تَوَاضَعُ
الْقُرْآنِ ﴿١٥﴾ وَتَعْلُوهُمُ أَلَدًا لِيُصَلِّعَ لَعْنُ سَبِيلِهِ قُلْ
تَتَعْلَمُونَ إِنْ أَسْمِعْتُمْ كُفْرًا إِلَى النَّارِ ﴿١٦﴾ فَلَا يُبَادِي الَّذِينَ
مَاتُوا لِيُصَلِّعُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْمِرُوا أَمْرًا زَعَمْتُمْ مَرَدُّ عِلَالِيَةٍ
فِي جَبَلٍ إِنْ بَاتِي يَوْمَ لَا يَبْعَثُهُمْ وَلا حِجْلًا ﴿١٧﴾ اللَّهُ الَّذِي
خَلَقَ السَّمْعَانَ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَخَسَجَ
بِهِ مِنَ الشَّجَرِ رِزْقًا أَكْثَرًا وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَاحَ لَتَجْزِيَ
فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْاَكْثَرَ ﴿١٨﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْقِيلَ وَالنَّهَارَ ﴿١٩﴾

من حديث البجلي قال: «وهو يسألهم ويثبتهم» وقال تعالى لرسوله: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]. فالخلق كلهم قسمان: موفق بالثبیت، ومخذول بترك الثبیت، ومادة الثبیت أصله ومنشؤه من القول الثابت وفعل ما أمر به العبد، فبهما يثبت الله عبده، فكل من كان أثبت قولاً وأحسن فعلاً كان أعظم تثبيتاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]. فأثبت الناس قلباً أثبتهم قولاً، والقول الثابت هو القول الحق والصدق،

وهو ضد القول الباطل الكذب؛ فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له،

وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة؛ ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبا، والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلوثا وأقلهم ثباتا، وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الإخبار وشجاعته ومهابته، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك؛ ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة.



وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به،

فقال: والله ما فهمت منه شيئا، إلا أني رأيت لكلامه صولة ليست بصولة مبطل. فما منح العبد منحة أفضل من منحة القول الثابت، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم ويوم معادهم، كما في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب «عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ». (إعلام الموقعين ١/ ٢٣٠-٢٣١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْصُرُوا عَنْهُ بِالْعِلْمِ وَلَا تَحْضُوا عَنْهُ﴾.

٧- سبحانه من لم يجعل لحد معرفة نعمه إلا العلم بالتقصير عن معرفتها كما لم يجعل لحد إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدرك، فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكرا كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه، فجعله إيمانا علما منه أن العباد لا يتجاوزون ذلك. (عدة الصابرين ١٤٥).

وَتَاتَكَ مِنْ كُلِّ مَسَاسٍ وَأُشْرُوا بِأَنْ مَقَدًّا أَحْبَسَتْ اللَّهُ
لَا تُحْصِيهِمْ أَلَا الْإِنْسَانُ لَقَلُّوهُ كَفَرًا ۝ وَلَئِنْ قَالَ ابْنُهُ
رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَيْتَ آيَةً لِيَأْتِيَنِي وَتُحْيِيَ أَنْ تَعْبُدَ
الْأَصْنَامَ ۝ رَبِّ إِنَّهُمْ أَكْفَرُوا بِكَ فَمَنْ أَتَىٰ الْكَاثِبِينَ رَبَّنَا
تَنَجَّىٰ فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ مِّنْ عَصَايَ فَإِنَّكَ عَزِيزٌ مُّبِينٌ ۝ رَبَّنَا
إِنِّي اسْتَكْنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِي ذِي عِنْدٍ بَيْنَ يَدَيْكَ
الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَادَهُمْ مِنَ الْكَاثِبِينَ
تَنَجَّىٰ لِيُنْجِيَهُمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الْأَرْضِ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُمْ لَشَاكِرُونَ
۝ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۚ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ
مِنْ شَيْءٍ وَفِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۚ لِمُتَدَبِّرِهِ الْإِلَهِي
وَعَبَىٰ عَلَى السَّكَتَةِ اسْتَعِجِلْ وَاسْتَعِجِلْ رَبِّ اسْتَعِجِلْ
السَّكَّةَ ۝ رَبِّ اجْعَلْنِي مُخِيصَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا
وَتَقَرَّبْ دُعَاؤَ ۝ رَبَّنَا اغْنِنِيْ وَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْمُؤْمِنِينَ
يَوْمَ يُؤْمَرُ الْحَسَابُ ۝ وَلَا تُحْصِيَنَّ اللَّهُ عَمَلَهُ أَعْثَرَ أَقْمَلِ
الْقَالِبِينَ ۝ إِنَّمَا أَلْزَمُكَ لَهْمَ لَبْوَةٍ تَنْتَحِصُّ بِهِ الْأَجْمَلُ ۝

فسأل الخليل ربه أن ينجيه وبنيه عبادتها ليحصل منهم اجتنابها، فالاجتناب فعلهم، والتجنب فعله، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله. (شفاء العليل ٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُلُ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٤٦)

۹- سمي جزاء المكر مكرًا وجزاء الكيد كيدًا؛

تنبيهها على أن الجزاء من جنس العمل. (مفتاح دار السعادة ٥٧٩-٥٨٠).



قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُ شَيْءٌ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُ إِلَّا بِإِقْدَارٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٢١).

١- هذا النص متضمن لكثرة من الكنوز وهو أن يطلب كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه ومفاتيح تلك الخزائن بيديه وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه. وقوله ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنَىٰ﴾ متضمن لكثرة عظيم وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به وإلا فهو مضمحل منقطع، فإنه ليس إليه المنتهى وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتهدت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب، وكل محبوب

لا يحب لأجله فمحبتة عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه، فاجتمع ما يراد منه كله في قوله ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ واجتمع ما يراد له كله في قوله ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ﴿٤٢﴾ فليس وراءه سبحانه غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى.

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد: وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يحب ويراد فمراد لغيره، وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى، ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك وزال عنه وفارقه أحوج ما كان إليه، ومن كان انتهاء

محبتة ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعمه ولذته وبهجته وسعاده أبد الآباد.

(الفوائد ١٩٦-١٩٧).

﴿قوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ﴾﴾.

٢- قيل: في أداة (على) سر لطيف، وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى، وهو حق، كما قال في حق المؤمنين ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥٠]. وقال لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]. والله عزَّوَجَلَّ هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على صراطه فهو على الحق

والهدى، فكان في أداة (على) على هذا المعنى ما ليس في أداة إلى فتأمل، فإنه سر بديع.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر (على) في ذلك أيضا؟ وكيف يكون المؤمن مستعليا على الحق وعلى الهدى؟

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى، مع ثباته عليه، واستقامته إليه، فكان في الإتيان بأداة (على) ما يدل على علوه وثبوته واستقامته، وهذا بخلاف الضلال والريب، فإنه

يؤتى فيه بأداة (في) الدالة على انغماس صاحبه، وانقماعه وتدنسه فيه، كقوله تعالى:

﴿فَهُمْ فِي رِيبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُفُّوا فِي الْأُفْلَاقِ﴾ [الأنعام: ٣٩]. وقوله: ﴿فَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤].

وقوله: ﴿وَلِيَّائِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠].

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ الْأَعْيُنَ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ لَرَأْسُنِ
لَا تُجِدُ لِي شَرًّا لَّكَ مِنْ صَلَاحِي بَيْنَ حِمَايَا سُرُوبٍ ﴿٥٦﴾
قَالَ فَأَخْرَجَ مِنْهَا لِقَاءَ اللَّهِ رَجِيمٌ ﴿٥٧﴾ وَلَنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ
الَّذِينَ ﴿٥٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأُظْهِرْ لِي يَوْمَ يُعْمَرُونَ ﴿٥٩﴾ قَالَ إِنَّكَ
مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٦٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَفَى الْمَعْلُومِ ﴿٦١﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا
أَعْرَضْتُ عَنْكَ لَمْ يَكُنْ لِي فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي سَمَوَاتِهَا مَخْرُجٌ
﴿٦٢﴾ الْأَيْتَانِ ذَكَرَهُ الْمُخَلَّصِينَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى
مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيَقْتُلُونَكَ وَلَوْ أَنَّكَ عَلِمْتَ بِمَا لَمْ يَكُنْ لَكَ
أَنْبَاءُكَ مِنَ الْقَائِلِينَ ﴿٦٥﴾ وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُزَعًا مِنْهُ لَأَجْمِينَ ﴿٦٦﴾
لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ فُتُوحَةٌ فَخَرَجُوا مِنْهَا فَمَا يَلْمِزُوكَ
الْمُتَّقِينَ فِي شَيْءٍ وَخُيِّرُوا ﴿٦٧﴾ أَذْخَلُوا مَا يَلْمِزُوكَ لِيُؤْمِنُوا
وَزُفُّوا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٦٨﴾
لَا يَمَسُّهُ فِيهَا هَافٍ وَلَا يَلْمِزُهَا يَمُوجٌ ﴿٦٩﴾ وَأَنَّى عَذَابٍ
﴿٧٠﴾ نَبِيٍّ عِبَادِي إِلَى آتَا الْعَمَلُ الرَّجِيمُ ﴿٧١﴾ وَأَنَّى عَذَابٍ
هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٧٢﴾ وَنَبِيُّهُمْ عَنْ صَدِيقٍ إِبْرَاهِيمَ ﴿٧٣﴾

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْلِيَاكُمْ لَعَلَّٰ هُدًى
أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، فإن طريق الحق تأخذ
علوا صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق
الضلال تأخذ سفلا، هاوية بسالكها في أسفل سافلين.



قَالَ بَنِي إِسْرَءِيلَ مَا لَكَ الْآتُونَكَ مَعَ التَّجِدِينَ ۖ قَالَ لَوْ كُنْتُ
لَا تُسْجِدُ لِتَسْبِيحِكَ خَلَقْتُكُمْ مِنْ صَاحِبِ لَيْلٍ مِنْ جَعَلْتُمْ سُرُوبَ ۖ
قَالَ فَالْخُرُوجُ مِنْهَا فَإِنَّكَ تَرْجِعُهُمْ ۖ فَلَا عَيْتَ لَكَ الْفَتَنَةُ إِلَى يَوْمِ
الْبَيْتِ ۖ قَالَ رَبِّ فَأُظْهِرْهُ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۖ قَالَ فَإِنَّكَ
مِنَ الْمُنظَرِينَ ۖ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۖ قَالَ رَبِّ بِمَا
أَعْتَدْتَنِي لِأَكْرِهَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَأَكْفُؤْنَهُمْ أَجْمَعِينَ
ۖ الْأَعْيَادُ لَهُمْ وَالْمَخْلُوعِينَ ۖ قَالَ هَذَا جِيسْرٌ عَلَيَّ
مُسْتَوِيرٌ ۖ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ شَأْنٌ إِلَّا مِنَ
أَمْرِكَ مِنَ الْقَائِلِينَ ۖ وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُزِيدٌ هُمْ أَجْمَعُونَ ۖ
لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ وَفَتْحَةٌ رَجُوعٌ مَقْسُومٌ ۖ إِنَّ
الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ إِيَّاهِينَ ۖ
وَرَفَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ ظُلُمٍ إِلَى نُورٍ ۖ نَاعِلٌ سُرُورٍ مُتَقَبِّلِينَ
ۖ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ ۖ
* نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۖ وَأَنْتَ عَذَابِي
هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۖ وَتَذِيقُهُمْ عَنْ صَنِيفٍ إِنْزَاهِيَةٍ ۖ

سورة النحل

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

تُرْوَى الْوَيْسُ بْنُ خُزَيْمٍ وَيُقُولُ إِنَّ شُعْبَةَ الْوَيْسِ
كَتَبَتْ تُسْتَفْتَى فِيهِ قَالَ الْوَيْسُ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِلَى الْحِزْبِ
الَّذِينَ تَتَوَلَّوْنَهُ الْمَلَائِكَةُ
تَلَاوَنَ أَنْفُسَهُمْ قَالُوا تَتَوَلَّوْنَهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سُبْحَانَ
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ قَالُوا خَلَوْا أَنْزَلَ جَهَنَّمَ
حُلِيِّينَ فِيهَا لَيْسَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ وَقِيلَ
لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي
هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ
﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يُجْزَى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ
الَّذِينَ تَتَوَلَّوْنَهُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ
تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ مِنْ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الْبُيُوتُ
فِيهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ
فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَثَاقٌ بِهِمُ عَاكِفٌ أَلْوَيْنَ يَكْتُمُونَ

١- قد تكرر هذا المعنى في هذه السورة دون غيرها في أربعة مواضع لسر بديع، فإنها سورة النعم التي عدد الله سبحانه فيها أصول النعم وفروعها، فعرف عباده أن لهم عنده في الآخرة من النعم أضعاف هذه بما لا يدرك تفاوته، وأن هذه من بعض نعمه العاجلة عليهم، وأنهم إن أطاعوه زادهم إلى هذه النعم نعمًا أخرى، ثم في الآخرة يوفيهم أجور أعمالهم تمام التوفية. (إعلام الموقعين ٢/ ١٧٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٨) ﴿لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ (٣٩).

٢- ذكر تعالى حكمتين بالغتين في بعثة الأموات بعدما أماتهم:

إحداهما: أن يبين للناس الذي اختلفوا فيه، وهذا بيان عياني تشترك فيه الخلائق كلهم والذي حصل في الدنيا بيان إيماني اختص به بعضهم.

الحكمة الثانية: علم المبطل بأنه كان كاذبا وإن كان على باطل وأن نسبة أهل الحق إلى الباطل من افتراءه وكذبه وبهتانه فيخزيه ذلك أعظم خزي. (بدائع الفوائد ٤/ ١٦١).

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا
فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَتَوَرَّعْتَ فِي
كُلِّ أَمْرٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ
شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ
شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ اللَّهَ
بِأَمْرِهِ بِالْعَمَلِ وَالْإِحْسَانِ فَلَمَّا تَابَى ذِي الْقُرْبَى وَنَبِيَّ عَنْ
الْعَهْدَةِ وَالْمَكْرِ وَالْبَغْيِ بَطَلَ كُنْ تَذَكَّرْتَ
﴿٩٠﴾ وَلَوْ أَنَّ يَتَذَكَّرَ اللَّهُ إِنْ عَاهَدْتُمْ وَلَا تَقْسُرُوا الْأَيْمَانَ
بَعْدَ تَوْعِيدِهِمْ وَتَذَكَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ كُنْ كَوَيْلًا
لَهُ يَكُونُ مَا تَقْدِرُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَقَصَّ
عَنْ لَاحِقِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ نَبَاؤُهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا
يَكُونُونَ كَذِبًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ كُنْ
بِهِمْ وَلَا يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْيَمِينِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ مُقْتُلُونَ
﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَبْصُرُ
بِكُنْ وَتَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْلُكُنَّ عَنَّا كُنْ تَقُولُونَ ﴿٩٣﴾

📖 قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ ﴿٨٨﴾.

٣- فأحد العذابين بكفرهم، والعذاب الآخر بصددهم عن سبيل الله. وقد استقرت حكمة الله وعدله أن يجعل على الداعي إلى الضلال مثل آثام من اتبعه واستجاب له، ولا ريب أن عذاب هذا يتضاعف ويتزايد بحسب من اتبعه وضل به.

وهذا النوع في الأشقياء مقابل دعاة الهدى في

السعداء، فأولئك يتضاعف ثوابهم وتعلو درجاتهم بحسب من اتبعهم واهتدى بهم، وهؤلاء عكسهم. (طريق الهجرتين ٣٨٠).

📖 قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٧﴾.

٤- قد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحاً أن يحييه حياة طيبة، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هما واحداً في مرضاة الله؟ ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله، واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت متقسمة بكل واد منها شعبة على الله، فصار ذكره بمحبوبه الأعلى وحبه والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه هو المستولي عليه، وعليه تدور همومه وإرادته وقصوده بكل خطرات قلبه، فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع، وإن أبصر فبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي، وبه يسكن، وبه يحيا، وبه يموت، وبه يبعث. (الجواب الكافي ٢٧٧-٢٧٨).

طبيب. (مفتاح دار السعادة ٣٨).

[illegible]

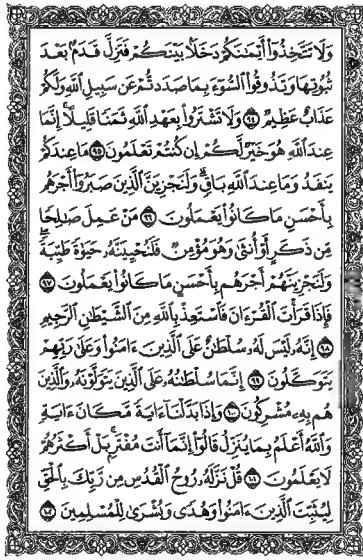
٦- أمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند

قراءة القرآن. وفي ذلك وجوه:

منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور يذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوسوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أَمَرَهُ فيها الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء ويخلي منه القلب ليصادف الدواء محلاً خالياً، فيتمكن منه، ويؤثر فيه، كما قيل:

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى قلب قد خلا من مزاحم ومضاد له فينجع فيه.



ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً، فكلمة أحسن نبات الخير في القلب سعى في إفساده وإحراقه، فأمر أن يستعيد بالله عَزَّوَجَلَّ منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله: أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها.

ومنها: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن وتستمع

لقراءته. كما في حديث أسيد ابن حُصَير لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها مثل المصابيح، فقال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ».

والشيطان ضد الملك وعدوه. فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباحدة عدوه عنه حتى يحضره خاصته وملائكته، فهذه وليمة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

ومنها: أن الشيطان يجلب على القارئ بخيله ورجله، حتى يشغله عن المقصود

بالقرآن، وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهد على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن، فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمر عند الشروع أن يستعيد بالله عَزَّوَجَلَّ منه.

ومنها: أن القارئ مُناجٍ لله تعالى كلامه، والله تعالى أشد أذناً للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته. والشیطان إنما قراءته الشعر والغناء، فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاته تعالى واستماع الرب قراءته.

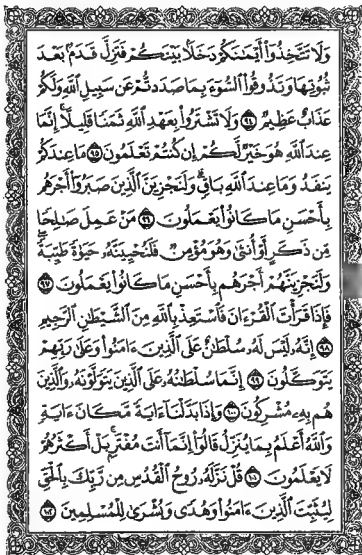
ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته. كما قال الشاعر في عثمان:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَآخِرُهُ لَأَقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ

فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم الصلاة والسلام فكيف بغيرهم؟ ولهذا يغلط القارئ تارة ويخلط عليه القراءة، ويشوشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يشوش عليه

ذهنه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا أو هذا، وربما جمعهما له، فكان من أهم الأمور: الاستعاذة بالله تعالى منه عند القراءة.

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير، أو يدخل فيه فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه، وفي الصحيح عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ شَيْطَانًا تَفَلَّتَ عَلَى الْبَارِحَةِ، فَأَرَادَ أَنْ يَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي» الحديث.



وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله

تعالى، كان اعتراض الشيطان له أكثر.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث سبرة بن أبي

الفاكه أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ الشَّيْطَانَ

قَعَدَ لَابْنُ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ:

أَتُسَلِّمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَأَبَاءِ آبَائِكَ؟ فَعَصَاهُ

فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهَجْرَةِ، فَقَالَ: أَتَهَاجِرُ وَتَذُرُ

أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟ وَإِنَّمَا مِثْلُ الْمُهَاجِرِ كَالْفَرَسِ فِي

الطول فَعَصَاهُ وَهَاجِرٌ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، وَهُوَ

جَهَادُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَقَالَ: تَقَاتِلْ، فَيُقْتَلْ، فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُؤْتَى

فالشیطان بالرصد للإنسان على طريق كل خير.

ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأني به بعدها القرآن، ولهذا

لم تشرع الاستعانة بين يدي كلام غيره، بل الاستعانة مقدمة وتنبية للسامع أن الذي يأتي

بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله تعالى، ثم شرع

ذلك للقارئ، وإن كان وحده، لما ذكرنا من الحكم وغيرها. (إغاثة اللهفان ١/ ٩١-٩٥).

٧- قال في سورة الحجر: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ

أَجْمَعْنَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ

عِبَادِي لَسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴿الحجر: ٣٩-٤٢﴾، وقال في

سورة النحا: ﴿إِنَّهُ لَنُرِيَّكَ لَهُ سُلْطٰنًا عَلٰی الَّذِيْنَ ءٰمَنُوْا وَعَلٰی رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ ۝۱۹﴾ إِنَّمَا

سُلْطَانُهُ عَلَى الدِّينِ تَوَكَّلْنَاهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠]، فتضمن:

ذلك أمرين:

أحدهما: نفى سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص.

والثاني إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه. (إغاثة اللهفان ١/ ٩٨).

٨- فإن قيل: فقد أثبت له على أوليائه ها هنا سلطاناً بقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]، فكيف نفاه بقوله تعالى حاكياً عنه مقررًا له: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

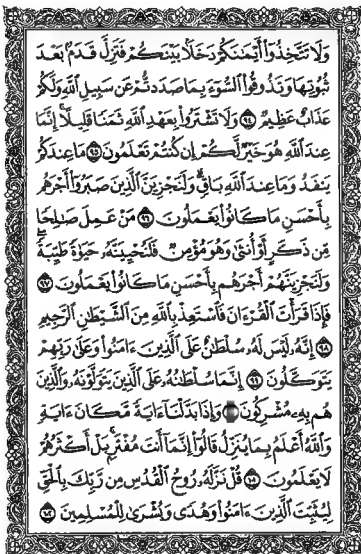
وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبا: ٢٠-٢١].

قيل: السلطان الذي أثبت له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم وسوقه إليهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

الثاني: أن الله لم يجعل له عليهم سلطانا ابتداء البتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلطن عليهم بقوته، فإن كيدَه ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم. (عدة الصابرين ٢٦).

ولما علم عدو الله أن الله تعالى لا يسلمه على



أهل التوحيد والإخلاص قال: ﴿ قَالَ فِعْرَنُكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿ (ص: ٨٢-٨٣)، فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله عزَّجَلَّ وأخلص له وتوكل عليه، لا يقدر على إغوائه وإضلاله، وإنما يكون له السلطان على من تولاها وأشرك مع الله، فهو لاء رعيته وهو وليهم وسلطانهم ومتبوعهم. (إغاثة اللهفان ١/ ٩٩).

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتِرٍ ﴾.

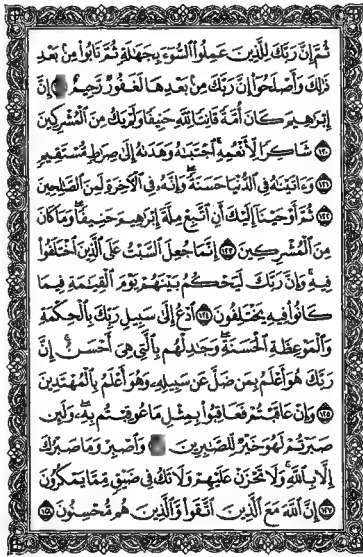
٩- فتأمل حسن الاعتراض وجزالته في قول الرب تعالى ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتِرٍ ﴾. فقوله: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ ﴾ اعتراض بين الشرط وجوابه أفاد أموراً: منها الجواب عن سؤال سائل ما حكمة هذا التبديل وما فائدته، ومنها أن الذي يدل وأتى بغيره منزل محكم نزوله قبل الإخبار بقولهم، ومنها أن مصدر الأمرين عن علمه تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأن كلا منهما منزل فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني. (التيان في أقسام القرآن ٢٢٤).

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجَبْتَهُ وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ (١٢١) وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٢٢).

١٠- فهذه أربع أنواع من الشناء افتتحها بأنه أمة، والأمة هو القدوة الذي يؤتم به، قال ابن مسعود: والأمة المعلم للخير، وهي فعلة من الائتمام كقدوة،

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّعْرَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَلُّوْا رَجِيْمٌ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢١﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجَبْتَهُ وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٢﴾ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٣﴾ ثُمَّ أَوَّحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ خَبْرَهُمَا وَنَاكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٤﴾ إِنَّمَا جَعَلْنَا الْقُبُورَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَيْدُورًا ﴿١٢٥﴾ لِيَخْشَوْا رَبَّهُمْ وَيَنفَعَهُمْ فِي سَبِيلِ رَبِّكَ وَالْحِكْمَةُ وَالْعُزَّةُ لِلْحَسَنَةِ وَجَدَلَهُمْ وَأَتَىٰ مِنْ خَشَرٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿١٢٦﴾ وَأَنْذَرْنَا إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْعُزَّةِ وَالْحَسَنَةِ وَجَدَلَهُمْ وَأَتَىٰ مِنْ خَشَرٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿١٢٧﴾ وَأَنْذَرْنَا إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْعُزَّةِ وَالْحَسَنَةِ وَجَدَلَهُمْ وَأَتَىٰ مِنْ خَشَرٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿١٢٨﴾ وَأَنْذَرْنَا إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْعُزَّةِ وَالْحَسَنَةِ وَجَدَلَهُمْ وَأَتَىٰ مِنْ خَشَرٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿١٢٩﴾

وهو الذي يقتدي به، والفرق بين الأمة والإمام من وجهين: أحدهما أن الإمام كل ما يؤتم به، سواء كان بقصده وشعوره أو لا، ومنه سمي الطريق إمامًا، كقوله تعالى:



﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَبُ الْأَيْكَةِ ظَالِمِينَ ۖ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ أي بطريق واضح لا يخفى على السالك ولا يسمى الطريق أمة. الثاني أن الأمة فيه زيادة معنى، وهو الذي جمع صفات الكمال من العلم والعمل، بحيث بقي فيها فردا وحده فهو الجامع لخصال تفرقت في غيره، فكانه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدمها في غيره ولفظ الأمة يشعر بهذا المعنى لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها، وكذلك ضم أوله

فإن الضمة من الواو ومخرجها ينضم عند النطق بها، وأتى بالتاء الدالة على الوحدة كالغرفة واللقمة، ومنه الحديث: «إن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده»، فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة، ومنه سميت الأمة التي هي آحاد الأمم؛ لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو في عصر واحد.

الثاني: قوله: ﴿فَأَنبَأَ اللَّهُ﴾ قال ابن مسعود: القانت المطيع. والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة.

الثالث: قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ والحنيف: المقبل على الله، ويلزم هذا المعنى ميله عما سواه، فالميل لازم معنى الحنيف لأنه موضوعه لغة.

الرابع: قوله: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ﴾ والشكر للنعم مبني على ثلاثة أركان: الإقرار بالنعمة وإضافتها إلى المنعم بها وصرفها في مرضاته والعمل فيها بما يجب، فلا يكون

قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

١١- جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق: فالمتسجيب القابل للذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرغبة، والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن. (مفتاح دار السعادة ١٦٧).

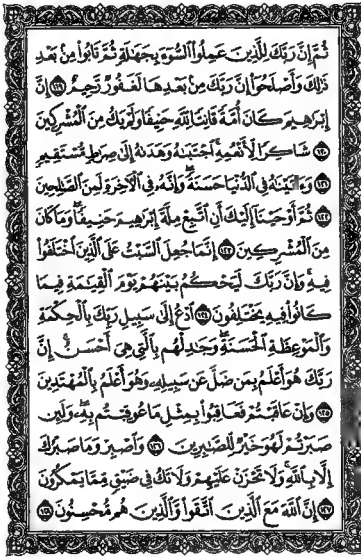
١٢- أطلق الحكمة ولم يقيدها بوصف الحسنة،

١٣- وأما الموعظة فقيدها بوصف الإحسان، إذ ليس كل موعظة حسنة.

ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به من الحجج والبراهين، والكلمات التي هي أحسن شيء وأبينه، وأدله على المقصود، وأوصله إلى المطلوب.

والتحقيق: أن الآية تتناول النوعين. (مدارج السالكين ١/ ٤٤٥).

١٥ - فمراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو، فإنه إما أن يكون



طالباً للحق راغباً فيه محباً له مؤثراً له على غيره إذا عرفه، فهذا يدعى بالحكمة ولا يحتاج إلى موعظة ولا جدال، وإما أن يكون معرضاً مشتغلاً بضد الحق ولكن لو عرفه عرفه وآثره واتبعه، فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب، وإما أن يكون معانداً معارضاً، فهذا يجادل بالتي هي أحسن، فإن رجع إلى الحق وإلا انتقل معه من الجدال إلى الجلال إن أمكن، فلمناظرة المبطل فائدتان:

أحدهما: أن يرد عن باطله ويرجع إلى الحق.

الثانية: أن ينكشف شره وعداوته ويتبين للناس أن الذي معه باطل، وهذه الوجوه كلها لا يمكن أن تنال بأحسن من حجج القرآن. (الصواعق المرسلة ٤/ ١٢٧٦ - ١٢٧٧).

﴿قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾﴾

١٦ - وليس المراد بهذه الباء الاستعانة، فإن هذا أمر مشترك بين المطيع والعاصي، فإن ما لا يكون بالله لا يكون، بل هي باء المصاحبة والمعية التي صرح بمضمونها في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وهي المعية الحاصلة لعبده الذي تقرب إليه بالنوافل حتى صار محبوباً له، فبه يسمع وبه يبصر وكذلك به يصبر، فلا يتحرك ولا يسكن ولا يدرك إلا والله معه، ومن كان كذلك أمكنه الصبر له وتحمل الأثقال لأجله كما في الأثر الإلهي يعني «وما يتحمل المتحملون من أجلي» فدل قوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ على أنه من لم يكن الله معه، لم يمكنه الصبر، وكيف يصبر على الحكم الأمري امتثالاً وتنفيذاً

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّرُوءَ بِحِطَّةٍ ثُمَّ قَالُوا مَا مَنَّ اللَّهُ
 عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَلَئِنْ كُنْتُمْ إِلاَّ
 تَعْلَمُونَ كَذِبٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي
 فِيهِمْ يُسْأَلُونَ ﴿١٢﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ
 يُصْعَقُونَ فِيهِمْ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْهُ لَئِنْ هَدَيْنَاهُمُ لَإِنَّ
 لَهُمْ فِيهِ سُبُلًا مَّا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ لَّهِ سُبُلًا
 مَّا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٤﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ لَّهِ سُبُلًا مَّا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٥﴾
 أَلَمْ يَجْعَلْ لَّهِ سُبُلًا مَّا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٦﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ لَّهِ سُبُلًا
 مَّا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ لَّهِ سُبُلًا مَّا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٨﴾
 أَلَمْ يَجْعَلْ لَّهِ سُبُلًا مَّا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ لَّهِ سُبُلًا
 مَّا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾

سورة الإسراء

📖 قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾.



١- ذكره بالعبودية في مقام الإسراء. دون بعث

بعده، وأرسل به، ما يفيد مصاحبته له في مسراه، فإن الباء هنا للمصاحبة، كالهاء في قوله: هاجر بأهله، وسافر بغلامه. وليست للتعدية، فإن «أسرى» يتعدى بنفسه، يقال: سرى به وأسراه، وهذا لأن ذلك السرى كان أعظم أسفاره، والسفر يعتمد الصاحب، ولهذا كان المسافر يقول: «اللهم أنت الصاحب في السفر».

(مدارج السالكين ١/ ١٠٣).

📖 قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا

يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝١٣﴾.

٢- قال ابن جرير: «فإن قال قائل: فكيف قال ألزمناه طائرته في عنقه إن كان الأمر

على ما وصفت، ولم يقل في يديه أو رجليه أو غير ذلك من أعضاء الجسد؟ قيل: إن العنق هي موضع السمات وموضع القلائد والأطوق وغير ذلك مما يزين أو يشين» فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة سائر الأبدان إلى الأعناق، كما أضافوا جنائيات أعضاء الأبدان إلى اليد فقالوا: ذلك بما كسبت يده. وإن كان الذي جره عليه لسانه أو فرجه، فكذلك قوله: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾.

📖 قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝٢٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَةَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿٣٢﴾.

٤- علل النهي في الموضوعين بكون المنهي عنه فاحشة، ولو كان جهة كونه فاحشة هو النهي لكان تعليلا للشيء بنفسه، ولكان بمنزلة أن يقال: لا تقربوا الزنا. فإنه يقول لكم لا تقربوه، أو فإنه منهي عنه، وهذا محال من وجهين: أحدهما أنه يتضمن إخلاء الكلام من الفائدة، والثاني أنه تعليل للنهي بالنهي. (مفتاح دار السعادة ٣٣٣-٣٣٤).

كثير من الحيوان، كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: «رأيت في الجاهلية قردًا زنى بقردة، فاجتمع القروء عليهما فرجموهما حتى ماتا».

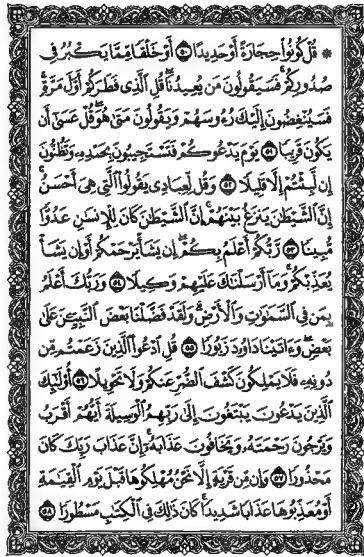
ثم أخبر عن غايته بأنه ﴿وَسَاءَ سَيِّلًا﴾ فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا، وعذاب وخزي ونكال في الآخرة. (الجواب الكافي ٢٢٧).

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٣٨).

٦- فتأمل قوله: ﴿سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أي أنه سيئ في نفس الأمر عند الله

٧- فتأمل ما أجيئوا به عن كل سؤال على التفصيل، فإنهم قالوا أولا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ فقل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب فهلا كنتم خلقا جديدا لا يفنيه الموت: كالحجارة، والحديد، أو ما هو أكبر في صدوركم من ذلك، فإن قلتم: لنا رب خالق خلقنا على هذه الصفة وأنشأنا

هذه النشأة التي لا تقبل البقاء ولم يجعلنا حجارة ولا حديدًا؛ فقد قامت عليكم الحجة بإقراركم، فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقًا جديدًا. وللحجة تقرير آخر: وهو أنكم لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما، لكان قادرا على أن يفتنكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال.



ومن قدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة ونقلها من حال إلى حال، فما يعجزه عن التصرف فيما هو دونها بإفنائها وإحالتها ونقله من حال إلى حال.

فأخبر سبحانه أنهم يسألون سؤالاً آخر بقولهم: ﴿مَنْ يُعِيدُنَا﴾ إذا استحالت أجسامنا وفنيت؛ فأجابهم بقوله: ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١]. وهذا الجواب نظير جواب قول السائل ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، فلما أخذتهم

الحجة ولزمهم حكمها ولم يجدوا عنها معدلاً، انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به كما يتعلل المقطوع بالحجاج بمثل ذلك، وهو قولهم: ﴿مَتَى هُوَ﴾ فأجيبوا بقوله: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۚ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِن لَّبِثْتُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [٥٢].

[الإسراء: ٥١-٥٢]. (الصواعق المرسلة ٣/ ٤٧٥-٤٨٠).

٨- فليتأمل اللبيب لطف موقع هذا الدليل، واستلزامه لمدلوله استلزاما لا محيد عنه، وما تضمنه من السؤالات والجواب عنها أبلغ جواب وأصح وأوضحه، فله ما يفوت المعرضين عن تدبر القرآن المتعوضين عنه بزبالة الأذهان ونخالة الأفكار.

﴿قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾﴾

٩- فالشيطان ينزع بينهم إذا كلم بعضهم بعضا بغير التي هي أحسن، فرب حرب وقودها جثث وهام، أهاجها القبيح من الكلام.

وفي الصحيحين من حديث سهل بن حنيف، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يقولن أحدكم: خبث نفسي، ولكن ليقُل: لقست نفسي» وخبثت ولقست وغثت متقاربة المعنى. فكره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفظ الخبث؛ لبشاعته، وأرشدهم إلى العدول إلى لفظ هو أحسن منه، وإن كان بمعناه تعليما للأدب في المنطق، وإرشادا إلى استعمال الحسن، وهجر القبيح من الأقوال، كما أرشدهم إلى ذلك في الأخلاق والأفعال. (الطرق الحكيمة ٤٩).

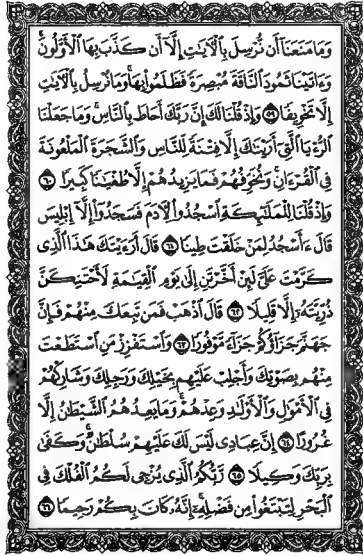
﴿قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾﴾ ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾

١٠- الخوف أحد أركان الإيمان والإحسان

الثلاثة التي عليها مدار مقامات السالكين جميعها وهي: الخوف، والرجاء، والمحبة. وقد ذكره سبحانه في قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٦ - ٥٧]، فجمع بين المقامات الثلاثة، فإن ابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبه وفعل ما يحبه، ثم يقول: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾، فذكر

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾

الحب والخوف والرجاء، والمعنى أن الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقربون إلى ربهم ويخافونه ويرجونه، فهم عبيده كما أنكم عبيده، فلماذا تعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيد له؟ (طريق الهجرتين ٢٦٢-٢٦٣).



قوله تعالى: ﴿ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ فَأَتَى جَهَنَّمَ جَزَاءً مَوْفُورًا ۖ ﴾

١١- أعاد الضمير بلفظ الخطاب وإن كان من تبعك يقتضي الغيبة؛ لأنه اجتمع مخاطب وغائب، فغلب المخاطب وجعل الغائب تبعاً له كما كان تبعاً له في المعصية والعقوبة، فحسن أن يجعل تبعاً له في اللفظ، وهذا من حسن ارتباط اللفظ بالمعنى واتصاله به. (بدائع الفوائد ٤/ ١٨٥-١٨٦).

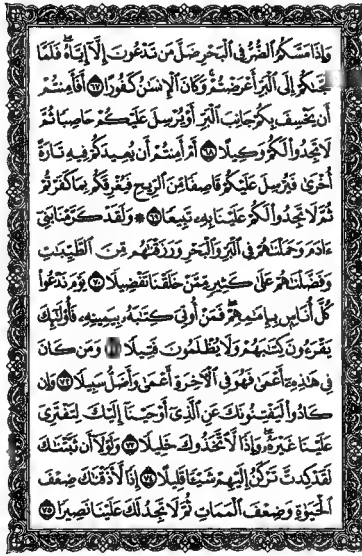
قوله تعالى: ﴿ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۖ ﴾

١٢- وهذا الصوت هو أحد الأسباب الخمسة التي أقسم الشيطان أن يحتنك بها ذرية آدم ويستأصلهم إلا قليلاً: وهي استفزازهم بصوته، والإجلاب عليهم بخيله ورجله، ومشاركتهم في أموالهم وأولادهم. فكل راكب في معصية الله فهو خيالة الشيطان، وكل ماشٍ في معصية الله فمن رجالاته، وكل مالٍ أخذ من غير حله وأُخرج في غير حقه فهو شريك صاحبه فيه، وكل ولدٍ من نطفة زنا فهو شريك أبيه فيه. (الكلام على مسألة السماع ١٧٩-٣٨١).

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ۖ ﴾

١٣- فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها من العقل، والعلم، والبيان، والنطق، والشكل، والصورة الحسنة، والهيئة الشريفة، والقد المعتدل، واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر، واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد.

(مفتاح دار السعادة ١/ ٢٦٣).



📖 قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْنَتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٦).

١٤- فالتبنيث فعله، والثبات فعل رسوله، فهو سبحانه المثبت، وعنده الثابت. (شفاء العليل ٥٩).

أي: لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركن إليهم بعض الشيء، ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، أي ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة. (مدارج السالكين ١/ ٣٣٣).

فضرورته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به، وحسب قربه منه ومنزلته عنده. (طريق الهجرتين ١٠).

📖 قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (٨٠).

١٥- أمر الله تعالى رسوله أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق، وأخبر عن خليله إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين. فقال: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٤) [الشعراء: ٨٤]. وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق، ومقعد صدق. فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾

[يونس: ٢]. وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥].

فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء هو الحق الثابت المتصل بالله، الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله من الأقوال والأعمال، وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة. (مدارج السالكين

٢ / ٢٧٠ - ٢٧٢).

وَأَنَّكَ لَا تَكْفُرُونَ إِلَهُكَ إِلَّا أَقْلِيلًا ﴿٥٤﴾ سُبْحَانَ مَنْ قَدْ أَرْسَلَنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلَاتٍ وَلَا تَجِدُ لِكُلِّ شَيْءٍ ظَاهِرًا ﴿٥٥﴾ أَفَمِمَّنْ أَسْأَلُكَ لِلدِّينِ الْخَبِيرِ إِلَى عَشِيٍّ أَتَيْلٍ وَظَنُّوا أَنَّهُ الْقَبْرِ إِلَى قُبُورِ الْقَبْرِ كَانَتْ مَشْهُورًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَيْلٍ فَتَهْجَةً يَوْمَ نَافِلَةٍ لَكَ عَشِيٍّ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَشْهُورًا ﴿٥٧﴾ وَكُلَّ رَيْبٍ أَدْعِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَتَجْعَلِي لِي مِنْ ذَلِكَ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾ وَقُلْ جَاءَ الْخَوْرُ فَقَرَّبَ إِلَيْكُمُ اللَّيْلُ إِنَّ اللَّيْلَ كَانَ ذُوقًا ﴿٥٩﴾ وَتَنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مَوْسُومًا ﴿٦٠﴾ وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦١﴾ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٦٢﴾ وَإِذَا أَعْمَسْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا وَإِذَا مَسَّهُ الْفَقْرُ كَانَ يَتُوسَّسُ ﴿٦٣﴾ قُلْ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَ سَاطِعِ يَدَيْهِ ﴿٦٤﴾ وَهُوَ يَسْمَعُ الْوَيْلَ مِنَ الرُّوحِ مَنْ أَمَرَ رَبِّي وَمِمَّا يُرِيدُ مِنَ الْعَالَمِ إِلَّا أَقْلِيلًا ﴿٦٥﴾ وَلَيْسَ بَيْنَهُمَا تَنْجُوتٌ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ شَيْئًا لَأُنْجِدَنَّكَ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ عَلَى مَا تَوْحَّيْنَا

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٦ - «من» هنا لبيان الجنس لا للتبويض، فإن القرآن كله شفاء، كما قال في الآية المتقدمة، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أشجع في إزالة الداء من القرآن. (الجواب الكافي: ٤).

قوله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾.

١٧ - الروح في القرآن على عدة أوجه:

أحدها: الوحي كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ وقوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وسمى الوحي روحا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح.

الثاني: القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين كما قال:

﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.

وَأَنَّ كِتَابَ الْإِسْمَاءِ تَزَكَّى وَمِنْ أَخْرِجُ لَهُ مِنْهَا
وَأَنَّ لَا يُخْفَىٰ عَلَيْكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١١٣﴾ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا
فِيكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تُجِدُ لِرُسُلِنَا حُجُوبًا ﴿١١٤﴾ أَفَمَن
أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي أَنُفِخَ سَافِرًا إِلَىٰ عَشِيِّ الْيَوْمِ وَأَنُفِخَ
إِلَىٰ قُرُونٍ أَلْفَيْتٍ فَكَانَتْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِّنَ الْيَوْمِ النَّارِ
يَوْمَهُ نَقُوفُهُمْ عَلَيْهِ إِنَّ رَبَّهُ لَبَصِيرٌ ﴿١١٥﴾ وَمَن أَتَىٰ
بِذُنُوبٍ كَثِيرَةٍ مِّنْ قَبْلِ الْيَوْمِ النَّارِ فَأَقْبَلَ الْيَوْمِ
النَّارِ فَسَافِرًا إِلَىٰ عَشِيِّ الْيَوْمِ وَأَنُفِخَ سَافِرًا
إِلَىٰ قُرُونٍ أَلْفَيْتٍ فَكَانَتْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِّنَ الْيَوْمِ
النَّارِ يَوْمَهُ نَقُوفُهُمْ عَلَيْهِ إِنَّ رَبَّهُ لَبَصِيرٌ ﴿١١٦﴾
وَأَنُفِخَ سَافِرًا إِلَىٰ عَشِيِّ الْيَوْمِ وَأَنُفِخَ سَافِرًا
إِلَىٰ قُرُونٍ أَلْفَيْتٍ فَكَانَتْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِّنَ الْيَوْمِ
النَّارِ يَوْمَهُ نَقُوفُهُمْ عَلَيْهِ إِنَّ رَبَّهُ لَبَصِيرٌ ﴿١١٧﴾
وَأَنُفِخَ سَافِرًا إِلَىٰ عَشِيِّ الْيَوْمِ وَأَنُفِخَ سَافِرًا
إِلَىٰ قُرُونٍ أَلْفَيْتٍ فَكَانَتْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِّنَ الْيَوْمِ
النَّارِ يَوْمَهُ نَقُوفُهُمْ عَلَيْهِ إِنَّ رَبَّهُ لَبَصِيرٌ ﴿١١٨﴾
وَأَنُفِخَ سَافِرًا إِلَىٰ عَشِيِّ الْيَوْمِ وَأَنُفِخَ سَافِرًا
إِلَىٰ قُرُونٍ أَلْفَيْتٍ فَكَانَتْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِّنَ الْيَوْمِ
النَّارِ يَوْمَهُ نَقُوفُهُمْ عَلَيْهِ إِنَّ رَبَّهُ لَبَصِيرٌ ﴿١١٩﴾
وَأَنُفِخَ سَافِرًا إِلَىٰ عَشِيِّ الْيَوْمِ وَأَنُفِخَ سَافِرًا
إِلَىٰ قُرُونٍ أَلْفَيْتٍ فَكَانَتْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِّنَ الْيَوْمِ
النَّارِ يَوْمَهُ نَقُوفُهُمْ عَلَيْهِ إِنَّ رَبَّهُ لَبَصِيرٌ ﴿١٢٠﴾

الثالث: جبريل كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ

الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ

عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وهو روح القدس

قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾.

الرابع: الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنها

من أمر الله، وقد قيل: إنها الروح المذكورة في قوله

تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾

وإنها الروح المذكور في قوله: ﴿نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ

فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.

الخامس: المسيح ابن مريم قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ

وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ وأما أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها في القرآن

إلا بالنفس قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿١٧﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ

الَّتَوَامَّةِ ﴿٢﴾﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَخْرِجُوا

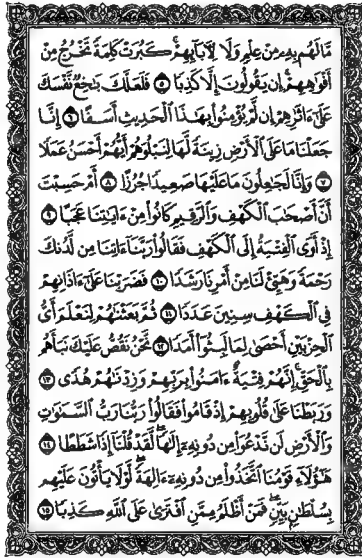
أَنفُسَكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾،

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح،

والمقصود أن كونها من أمر الله لا يدل على قدمها وأنها غير مخلوقة. (الروح ١٥٠-١٥٤).



سورة الكهف



قوله تعالى: ﴿وَرَبِّطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾.

١- فإن هؤلاء كانوا بين قومهم الكفار في خدمة ملكهم الكافر، فما هو إلا أن وجدوا حقيقة الإيمان والتوفيق، وذاقوا حلاوته، وباشرو قلوبهم، فقاموا من بين قومهم، وقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

[الكهف: ١٤]. الآية. (مدارج السالكين ٣/ ٦٧ - ٦٨).

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

٢- استنبط السهيلي في الروض: «أن عدة أصحاب الكهف سبعة، قال: لأن الله تعالى عطف عليهم الكلب بحرف الواو» فقال: ﴿وَأَثَامُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ولم يذكر الواو فيما قبل ذلك من كلامهم، والواو تقتضي تقرير الجملة الأولى، وما استنبطه حسن غير أنه إنما يفيد إذا كان المعطوف بالواو ليس داخلا في جملة قولهم، بل يكون قد حكي سبحانه أنهم قالوا سبعة، ثم أخبر تعالى أن ثامنهم الكلب، فحيثئذ يكون ذلك تقريراً لما قالوه وإخباراً بكون الكلب ثامناً، وأما إذا كان الإخبار عن الكلب من جملة قولهم وأنهم قالوا هذا، وهذا لم يظهر ما قاله ولا تقتضي الواو في ذلك تقريراً ولا تصديقاً فتأمله. (بدائع الفوائد ٢/ ١٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمَنَ أَعْفَلُنَا قَلْبُهُ، عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾.

٣- فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فليُنظر: هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟

فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة، كان أمره فرطًا.

ومعنى الفرط قد فسر بالتضييع، أي: أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به، وبه رشده وفلاحه ضائع قد فرط فيه، وفسر بالإسراف، أي قد أفرط، وفسر بالإهلاك، وفسر بالخلاف للحق. وكلها أقوال متقاربة.

٤- والمقصود أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَهَى عن طاعة من جمع هذه الصفات، فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه، فإن وجده كذلك فليبعد منه. وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى عَزَّجَلَّ واتباع السنة وأمره غير مفروط عليه، بل هو حازم في أمره فليستمسك بغرضه، ولا فرق بين الحي والميت إلا بالذكر، فمثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت. (٦٠-٦١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

٥- نبه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠]. كما نبه على قبحها بقوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]. فبين أن عداوته لربه



٦- ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب، وهو أني عادت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعادة أن عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة. (الداء والدواء ١١٨-١١٩).

٧- فتأمل ما تحت هذه المعاتبة وما في طي هذا الخطاب من سوء هذا العبد وما تعرض له من المقت

والخزي والهوان ومن استعطف ربه واستعتابه ودعائه إياه إلى العود إلى وليه ومولاه الحق الذي هو أولى به، فإذا عاد إليه وتاب إليه، فهو بمثابة من أسر له العدو محبوباً له، واستولوا عليه وحالوا بينه وبينه، فهرب منهم ذلك المحبوب وجاء إلى محبه اختياراً وطوعاً حتى توسد عتبة بابه، فخرج المحب من بيته فوجد محبوبه متوسداً عتبة بابه واضعاً خده وذقنه عليها، فكيف يكون فرحه به؟ والله المثل الأعلى. (طريق الهجرتين ٢٢٤-٢٢٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا غَدَاءُ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾.

٨- لما سافر موسى إلى الخضر وجد في طريقة مس الجوع والنصب، فقال لفتاه: ﴿إِنَّا غَدَاءٌ نَأْكُلُ لَقِيْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾، فإنه سفر إلى مخلوق. ولما واعده ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر فلم يأكل فيها، لم يجد مس الجوع ولا النصب، فإنه سفر إلى ربه تعالى.

وهكذا سفر القلب وسيره إلى ربه، لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في

سفره إلى بعض المخلوقين. (بدائع الفوائد ٣/ ٢٠٣).

قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا

يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (١٠١).

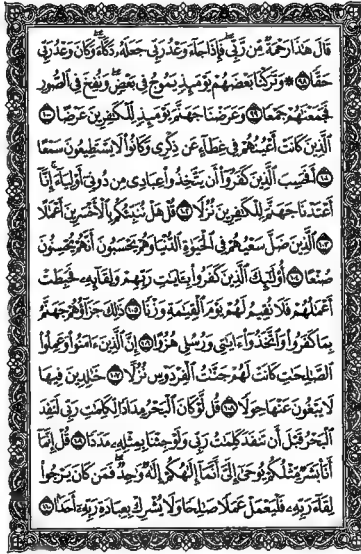
٩- وهذا يتضمن معنيين: أحدهما أن أعينهم

في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله وأدلة توحيده

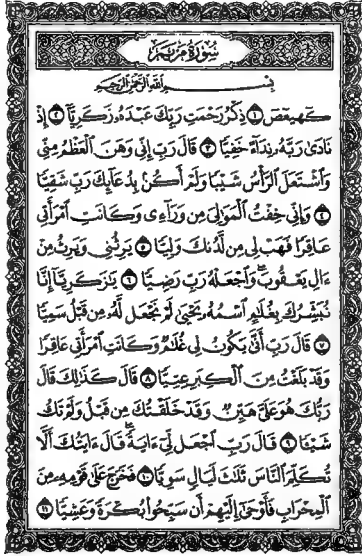
وعجائب قدرته، والثاني أن أعين قلوبهم في غطاء عن

فهم القرآن وتدبره والاهتداء به، وهذا الغطاء للقلب

أولا، ثم يسري منه إلى العين.



سورة مريم



قوله تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

١- إنه من قول زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد قيل: إنه دعاء المسألة. والمعنى: إنك عودتني أجابتك وإسعافك ولم تشقني بالرد والحرمان. فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه، كما حكي أن رجلاً سأل رجلاً وقال: أنا الذي أحسنت إليّ وقت كذا وكذا. فقال: مرحباً بمن توسل إلينا بنا، وقضي حاجته. وهذا ظاهرها هنا، ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد وجعله وسيلة إلى ربه، فطلب منه أن

يجاريه على عادته التي عودته من قضاء حوائجه إلى ما سأله. (بدائع الفوائد ٣/ ٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

٢- قيل: ما الحكمة في تقييد السلام في قصتي يحيى والمسيح صلوات الله عليهما بهذه الأوقات الثلاثة؟

فسره -والله أعلم- أن طلب السلامة يتأكد في المواضع التي هي مظان العطب ومواطن الوحشة، وكلما كان الموضوع مظنة ذلك، تأكد طلب السلامة وتعلقت بها الهمة، فذكرت هذه المواطن الثلاثة؛ لأن السلامة فيها أكد وطلبها أهم، والنفس عليها أحرص؛ لأن العبد فيها قد انتقل من دار كان مستقراً فيها موطن النفس على صحبتها

وسكنها إلى دار هو فيها معرض للآفات والمحن والبلاء، فإن الجنين من حين خرج إلى هذه الدار انتصب لبلائها وشدائدها ولأوائها ومحنها وأفكارها.

الموطن الثاني: خروجه من هذه الدار إلى دار البرزخ عند الموت، ونسبة الدنيا إلى تلك الدار كنسبة داره في بطن أمه إلى الدنيا تقريبا وتمثيلا، وإلا فالأمر أعظم من ذلك وأكبر، وطلب السلامة أيضا عند انتقاله إلى تلك الدار من أهم الأمور.

الموطن الثالث: موطن يوم القيامة يوم يبعث الله تعالى الأحياء ولا نسبة لما قبله

من الدور إليه وطلب السلامة فيه أكد من جميع ما قبله، فإن عطبه لا يستدرك وعثرته لا تقال وسقمه لا يداوى وفقره لا يسد.

٣- فتأمل كيف خص هذه المواطن بالسلام لشدة الحاجة إلى السلامة فيها، واعرف قدر القرآن وما تضمنه من الأسرار وكنوز العلم والمعارف التي عجزت عقول الخلائق عن إحصاء عشر معشارها، وتأمل ما في السلام مع الزيادة على السلامة من الأنس وذهاب الوحشة، ثم نزل ذلك على الوحشة الحاصلة

فَكُلٌّ رَأْسِي وَفَرْجِي عَيْنَا فَمَا نَحْنُ مِنَ النَّشْرِ أَحَدًا أَقْبَلُ
إِلَى نَذْرَتِ الرَّحْمَنِ صَوْنًا قُلْنَا كَيْفَ الْيَوْمَ لِلنَّبِيِّ قَالَتْ
بِهِ وَمَهْمَا تَقُولُ قَالُوا لَيْسَ بِكَ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا قَرِيبًا
بِتَأْتِيَتْ هَؤُلَاءِ مَآكِنَ الْأَنْبِيَاءِ سَبْعًا وَتَأْتِيَتْ
أُنْثَى بَيْتًا قَالَتْ لَئِنْ إِلَهُكَ إِلَّا اللَّهُ لَفَتَنِي كَيْفَ كَانَ فِي
الْمَهْدِ صَبِيحًا قَالَتْ إِنْ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَكُنْتُ وَتَكُنْتُ
بَيْتًا وَتَكُنْتُ مَبَارَكًا إِنَّ مَآكِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَوَدِّعِينَ
وَالْمَكْرُوفَ مَا دُمْتُ حَيًّا وَتَكُنْتُ بَيْتًا وَتَكُنْتُ بَيْتًا
جَبَّارًا صَبِيحًا وَتَكُنْتُ عَلَى رُؤُوسِ الْأُمَمِ وَتَكُنْتُ
وَتَكُنْتُ بَيْتًا ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ
الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لَوَلَاءُ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَ
إِلَهِكُمْ أَفَمَنْ يَمُنُّ أَفَمَنْ يَمُنُّ أَفَمَنْ يَمُنُّ أَفَمَنْ يَمُنُّ
فَأَعْلَوْهُ هَذَا بَرَكًا مُسْتَوْتِيرًا فَاسْتَخْلَفَ الْأَخْرَابَ مِنْ
بَنِي إِسْرَءِيلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مُشْهَدِيهِ عَظِيمًا أَسْمِعْهُمْ
وَأَسْمِعْهُمْ بِأَوْتَانٍ لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

للعبد في هذه المواطن الثلاثة عند خروجه إلى عالم الابتلاء وعند معاينته هول المطلع إذا قدم على الله وحيدا مجردا عن كل مؤنس إلا ما قدمه من صالح عمل وعند موافاته القيامة مع الجمع الأعظم ليصير إلى إحدى الدارين التي خلق لها واستعمل بعمل أهلها، فأَي موطن أحق بطلب السلامة من هذه المواطن، فنسأل الله السلامة فيها بمنه وكرمه ولطفه وجوده وإحسانه. (بدائع الفوائد ٢/ ١٦٨-١٦٩).

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ۖ﴾.

٤- قال سفيان بن عيينة: جعلني مباركا أينما كنت، قال: معلما للخير. وهذا يدل على أن تعليم الرجل الخير هو البركة التي جعلها الله فيه، فإن البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه، وهذا في الحقيقة ليس إلا في العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمه، ولهذا سمي سبحانه كتابه مباركا كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ ۖ﴾، وقال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ۖ﴾، ووصف رسوله

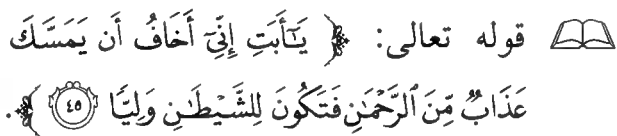
بأنه مبارك كما في قول المسيح ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ۖ﴾ فبركة كتابه ورسوله هي سبب ما يحصل بهما من العلم والهدى والدعوة إلى الله. (مفتاح دار السعادة ١٩٠).

قوله تعالى: ﴿يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۚ﴾ ﴿٤٢﴾ يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۖ﴾ ﴿٤٣﴾.

٥- ابتداء خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره ولم يسمه باسمه، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال فقال: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۖ﴾ ولم يقل: لا تعبد.

٦- ثم قال: ﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ۖ﴾ فلم يقل له: جاهل لا علم عندك، بل عدل عن هذه العبارة إلى ألطف عبارة تدل على هذا المعنى فقال: ﴿جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ۖ﴾، ثم قال: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۖ﴾ وهذا مثل قول موسى لفرعون: ﴿وَأَهْدِكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ﴾.

كُلُّ رَأْسِي وَفَرْجِي عَيْنًا فَإِنَّا نَمُوتُ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا أَفَلَا تُدْرِكُ الْبَشَرُ صَوْمًا فَلَنْ أَكْتُمَ إِلَيْكَ شَيْئًا ۖ فَأَنْتَ بِوَهْمِهَا تَحْمِلُهَا فَأَلَا تَسْمَعُ لَقَدْ جِئْتُكَ شَيْئًا أَقْرَبًا ۖ تَبَاخَتْ خُرُونُ مَا كَانَ أَوْلَىٰ أَمْرًا سَمِعُوا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ نَبِيًّا ۖ فَأَنْتَ رَأَيْتَ إِلَيْكَ قَالَ أَكْتُمُ لِي كَيْفَ تَكُونُ مِنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۖ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْحَقِّ وَالْإِسْكَرَةِ مَا ذَمُّتُ حَيًّا ۖ وَمَنْ بَرَّ إِلَيْنِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي حَبْرًا شَقِيًّا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ هَلَكْتُ وَكَوْنِي أَمْرًا وَيَوْمَ أُعْذِبُ حَيًّا ۖ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۖ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ شَيْئًا إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّا نُنْزِلُ الْهَرُونَ فَيَكُونُ ۖ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ فَتَعَالَىٰ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۖ فَاتَّبَعْنَا الْأَبْرَارَ مِنْ بَنِيهِمْ قَوْلَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِمْ عَظِيمٌ ۖ أَسْمِعْ يَوْمَ رَبِّهِمْ يَوْمَ يَقُولُ لَكَ الْغَالِبُونَ أَيُّومَ فِي صَلَاتِي لِيُبَيِّنَ ۖ



﴿يَقَوْمِ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا

وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٢﴾ وَنُظِيرُ ذَلِكَ قَوْلَ نُوحٍ لِقَوْمِهِ:

﴿يَقَوْمِ إِنِّي كُنْتُ مِنْكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۖ يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ

إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿١٠﴾

٨- وكذلك سائر خطاب الأنبياء لأمتهم في القرآن إذا تأملته وجدته ألين خطاب

وَأَلْفَمَهُ، بل خطاب الله لعباده وألطف خطاب وألينه كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا

رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴿١٠﴾ الْآيَاتِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَذَكَّرُهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَلَا تَسْمِعُوا

إِنَّ اللَّهَ^ع الَّذِيكَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقَ ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ^ط ﴿١٠﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ مِنْ

وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تُغْنِيكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْنِيْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾

﴿ وَتَأْمَلْ مَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ

الْحِينَ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَنَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ

بَدَلًا ﴿٥٠﴾ من اللطف الذي سلب العقول، وقوله تعالى: ﴿أَفَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ

صَفَحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ على أحد التأويلين، أي: ترككم فلا ننصحكم

ولا ندعوكم ونعرض عنكم إذا عرضتم أنتم وأسرفتم. (بدائع الفوائد ٣/ ١٣٣-١٣٤).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًا﴾ ﴿٦٩﴾.

٩ - والشيعه القوم الذين شايعوا، أي: تبع بعضهم بعضا وغالب ما يستعمل في الدم ولعله لم يرد في القرآن إلا كذلك كهذه الآية وكقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾ وقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾ وذلك والله أعلم لما في لفظ الشيعة من الشيع والإشاعة التي هي ضد الائتلاف والاجتماع؛ ولهذا لا يطلق لفظ الشيع إلا على فرق الضلال لتفرقهم واختلافهم. (بدائع الفوائد

١/ ١٥٥).

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُنَّ مَا فَاعِلُهُ وَأَعْلَىٰ عِلْمِهِ لَعَلَّكَ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۖ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَكَا مَلِكُ لَسَوْفَ أَخْرُجُ حَيًّا ۖ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۖ فَوَرَّكَ لَتَخْسَرَ عُثْمُ وَاللَّسِيخُ لَمْ لَتَخْضِرْ لَمْ تَحْمِلْ حِمْلًا شَرِيحًا ۖ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًا ۖ فَهُمْ أُولَىٰ بِمَا صَبَّحُوا ۖ وَلَنْ يَذْكُرُوا إِلاَّ وَارِدًا هَاكَانَ عَلَىٰ رَيْكُ حَتْمًا قَاضِيًا ۖ ثُمَّ نُنْفِخُ الْبُزْجَ أَتَقْوُوا وَتَذْكُرُ الْغُلَامِينَ فِيهَا حَيًّا ۖ فَإِذَا نَسِيتُمْ عَلِيمَهُ تَوَلَّيْنَا يَسْتَنَ قَالَ الَّذِينَ كَذَّبُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى الْقَرِيبِينَ خَوْفَقًا مَّا رَأَوْا كَذِبًا ۖ وَكَوَلَعَلَّخْنَا أَهْلَهُم مِّن قَبْلُ هُمْ أَعْيُنٌ مُّقْتَدِرَةٌ ۖ قُلْ مَن كَانَ فِي الْعَمَلِ فَلْيَعْمَلْهُ لَهُ الرَّحْمَنُ مِمَّا خَرَجَ إِذْ أَرْسَلْنَا مَائِدَةً إِلَىٰ آلِ الْكَافِرِينَ ۖ إِنَّا الْعَذَابَ قَائِمًا أَتَيْنَهُم مِّن قَبْلِهِ ۖ فَكَانُوا رَأْفَةً جُنْدًا ۖ وَفِي يَدَيْهِ أَلْفُ دُفُونٍ ۖ لَعَنَهُمْ أَهْلُ الْدِينِ ۖ وَالْبُيُوتُ الْفَاطِمِيَّةُ حَبِيرٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَأَوَّلُهَا وَخَيْرُهَا ۖ



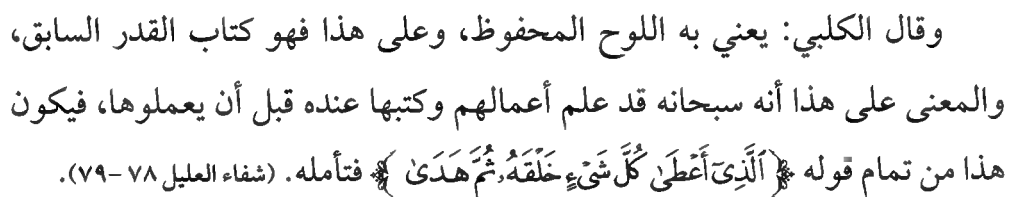
ففيه استدعاء لفرعون وترغيب له بما جبلت النفوس على حبه وإيثاره من السلامة، وأنه إن اتبع الهدى الذي جاءه به، فهو من أهل السلام، والله تعالى أعلم.

رسول مولاك إليك وأستاذك، وإن كان أستاذهما معا، ولكن ينبهه بإضافته إليه على السمع والطاعة له، ثم إنهما طلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل ويخلي بينهم وبينهما ولا يعذبهم. ومن طلب من غيره ترك العدوان والظلم وتعذيب من لا يستحق العذاب، فلم يطلب منه شططا ولم يرهقه من أمره عسرا، بل طلب منه غاية النصف.

أحدها قوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾

وترهيب. (بدائع الفوائد ٢/ ١٦٩ - ١٧٠).





﴿ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (٧٢) ﴾ .

٦- لما تمكن الإيمان من قلوبهم، علموا أن عقوبة الدنيا أسهل من عقوبة الآخرة وأقل بقاء، وأن ما يحصل لهم في الآخرة من ثواب الإيمان أعظم وأنفع وأكثر بقاء. (الصواعق المرسله ٤/ ١٣٨٩).

﴿ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَكَالَ فَاذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ .

٧- ومن عجيب أمرهم: أنهم لم يكتفوا بكونه إلههم، حتى جعلوه إله موسى، فنسبوا

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعَبِيدِي فَاصْرِبْ لَهُمْ عَلَى قَائِدٍ فِي الْبَحْرِ سَبْعًا لَخَفَ دُرُكًا وَلَا تَقْنَطْ ﴿ فَاثْبَتْ لَهُمْ رُحُوتَ يَحْيَى وَفَضِيحَةَ مَرْيَمَ الْبَيْتِ مَا عَشِيَتْ لَهَا ﴿ وَأَسْأَلُ عَنْ قَوْمِهِمْ وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿ وَتَلَا عَلَيْهِمْ كُرْسِيَّ عَدُوٍّ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَرَضْنَا عَلَيْهِ كُتُبَنَا وَالسَّابِقِ ﴿ كَلَامًا مِنْ عَيْنِ بَابٍ مَا زِلْنَا فَتَكُونُ وَلَا تَقْطَعُ أَيْدِيهِ وَيَجْعَلُ عَلَيْكَ مِنْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْمِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوِيَ ﴿ وَلَقَدْ لَعْنَّا لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أُنْهِيَ عَنْهُ ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْ مُوسَى ﴿ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجَلَكَ إِلَهُكَ رَبِّي لِأَرْضِي ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ قُدْرِكَ وَأَسْأَلُكَ الْإِسْمَاعِيلَ ﴿ فَصَبَّحَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقْتَرِبُ الَّذِينَ كَذَّبُوا وَغَدَلْنَا أَطْفَالَ عَلَيْهِ كُتُبًا لَقَدْ أَهْرَأْتُهُمْ أَنْ يَحِيلَ عَلَيْهِمْ غَضَبِي مِنْ دُونِكَ وَأَعْلَفْتُهُمْ قَوْمِي ﴿ قَالُوا مَا آخَلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِكَ وَالْكِتَابِ لِحُجَّتِنَا أُولَئِكَ مِنْ رِيتِ الْقَوْمِ فَقَدْ فَتَنَّا فَكَتَبْنَا لَكَ الْإِسْمَاعِيلَ ﴿

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الشرك وعبادة غير الله تعالى، بل عبادة أبلد الحيوانات، وأقلها دفعا عن نفسه، بحيث يضرب به المثل في البلادة والذل. فجعلوه إله كليم الرحمن.

ثم لم يكتفوا بذلك حتى جعلوا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ضالاً مخطئاً، فقالوا ﴿ فَتَسَى ﴾ [طه: ٨٨].

٨- فانظر إلى هؤلاء، كيف اتخذوا إلهاً مصنوعاً من جوهر أرضي، إنما يكون تحت التراب، محتاجاً إلى سبك بالنار، وتصفية وتخليص لخبثه منه، مدقوقاً

بمطارق الحديد، مقلبا في النار مرة بعد مرة، قد نحت بالمبارد، وأحدث الصانع صورته وشكله على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذل والضيم. وجعلوه إله موسى، ونسبوه إلى الضلال، حيث ذهب يطلب إليها غيره.

٩- فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم وعدم ملك الضر والنفع دليلاً على عدم الإلهية، وهذا دليل عقلي سمعي على أن الإله لا بد أن يكلم ويتكلم ويملك لعباده الضر والنفع وإلا لم يكن إلهاً. (الصواعق المرسله ٣/ ٩١٥).

📖 قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْماً ۝١١٥﴾.

١٠- تأمل أول نقص دخل على أبي البشر وسرى إلى أولاده كيف كان من عدم العلم والعزم. فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ﴾ الآية، والنسيان سواء كان عدم العلم أو عدم الصبر كما فسر بهما هاهنا، فهو أمر عديمي. (طريق الهجرتين ١٠٠).

📖 قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۝١١٦﴾.

١١- كيف شرك بينهما في الخروج وخص الذكر بالشقاء لاشتغاله بالكسب

والمعاش والمرأة في خدرها. (بدائع الفوائد ٣/ ٢٢٩).

📖 قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝١١٧﴾.

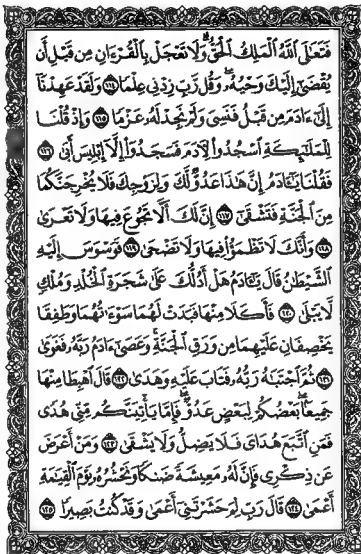
﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ۝١١٨﴾.

١٢- قابل بين الجوع والعري دون الجوع

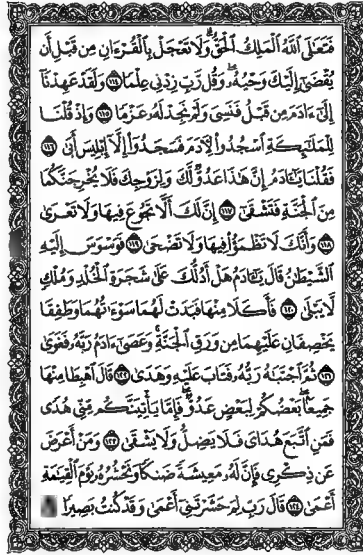
والظمأ وبين الظمأ والضحى دون الظمأ والجوع، فإن الجوع عري الباطن وذله، والعري جوع الظاهر وذله، فقابل بين نفي ذل باطنه وظاهره وجوع باطنه وظاهره، والظمأ حر الباطن والضحى حر الظاهر،

فقابل بينهما. (روضة المحبين ٢٢٦).

والواقف مع القالب ربما يخيّل إليه أن الجوع يقابل بالظمأ والعري بالضحى، والداخل إلى بلد المعنى يرى هذا الكلام في أعلى الفصاحة والجلالة؛ لأن الجوع ألم



الباطن والعري ألم الظاهر فهما متناسبان في المعنى، وكذلك الظمأ مع الضحى؛ لأن الظمأ موجب لحرارة الباطن، والضحى موجب لحرارة الظاهر، فاقتضت الآية نفي جميع الآفات ظاهرا وباطنا. (بدائع الفوائد ٣/ ٢٤٠).



📖 قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَصِلْ وَلَا يَشْقَى﴾

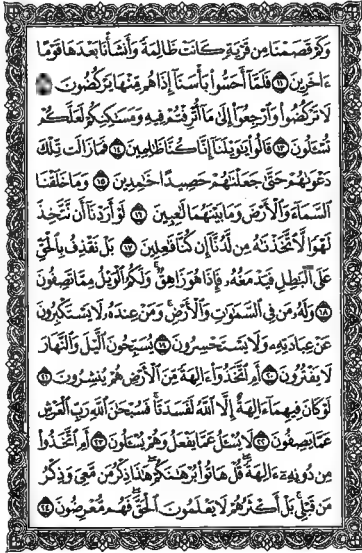
١٣- نفى عنه الضلال الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضا، فهو منعم القلب والبدن بالهدى والفلاح. (إغاثة اللفهان ٥٨).

١٤- فهذا هو الإعراض عن ذكره، فإذا كان هذا

حال المعرض عنه، فكيف حال المعارض له بعقله أو عقل من قلده وأحسن الظن به، فكما أنه لا يكون مؤمنا إلا من قبله وانقاد له، فمن أعرض عنه وعارضه من أبعد الناس عن الإيمان به. (الصواعق المرسلة ٣/ ٨٤٥-٨٤٦).



سورة الأنبياء



قوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۖ فَسُبِّحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يَسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾

١- كيف ساق الآية في الإنكار على من اتخذ من دونه آلهة لا تساويه، فسواها به مع أعظم الفرق، فقوله: ﴿لَا يَسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ إثبات لحقيقة الإلهية وإفراده له بالربوبية والإلهية، وقوله: ﴿وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ في صلاح تلك الآلهة المتخذة للإلهية

فإنها مسئولة مربوبة مدبرة، فكيف يسوى بينها وبينه مع أعظم الفرقان؟ فهذا الذي سيق له الكلام، فجعلها الجبرية ملجأ ومعتلا في إنكار حكمته وتعليل أفعاله بغاياتها المحمودة وعواقبها السيئة، والله الموفق للصواب. (مفتاح دار السعادة ٢٩٥).

٢- قال أبو الفرج بن الجوزي: «والدليل على أن الخضر ليس بباقي في الدنيا أربعة أشياء: القرآن، والسنة، وإجماع المحققين من العلماء، والمعقول.

أما القرآن فقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّ مِن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ ﴿١﴾ فلو دام الخضر كان خالداً. (المنار المنيف ٦٨).

قوله تعالى: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾

٣- والتماثيل جمع تماثل وهو الصور الممثلة، فتعلق القلب بغير الله واشتغاله

وَيَنْتَظِرُونَ مِنَ الْغَيْبِ مَنْ يَنْصُرُهُمْ أَوْ يَكْفُرُهُمْ غُلَامٌ مِمَّنْ زَكَرْنَا فِي الْقُرْآنِ الْمَدِينِ
 ذَاكَ وَكُنَّا لَهُمْ خَافِضِينَ ﴿٥٥﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٥٦﴾
 فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُ مِمَّا كَفَّرْنَا وَرَاضٍ بِمَا كُنَّا إِتَّخِذْنَا الْهَدَىٰ لَهْدًى ﴿٥٧﴾
 فَاسْتَجِبْ لَهُمْ يَرْحَمْنَا وَأَعْلِنِ لَهُمْ سُورَتُنَا إِنَّهُمْ صَادِقِينَ ﴿٥٨﴾
 وَذَا الْكُوفِ إِذْ هَبَّ مَخِفَتًا أَنْ نَفِثَ رَعْدًا وَأَنَّىٰ لَكَ الْغُلَامُ وَلَئِنْ لَمْ يَنْتَظِرْ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٥٩﴾
 فَتَنَّا فِي الْقُلُوبِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَسُجِنُوا فِي سُنُورٍ ﴿٦٠﴾
 كُنْتُ مِنَ الْظَالِمِينَ ﴿٦١﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ مُبْتَلًى ﴿٦٢﴾
 مِنْ الْقَوْمِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٣﴾ وَكَذَلِكَ
 إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٦٤﴾
 فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَعَدْنَا لَهُ لَهْجُوتَ وَأَضَلَّ سَبِيلَهُ
 اللَّهُ فَزَجَلْنَاهُ أَيْمَنَ كَعْبٍ مُسْرِعٍ وَنُفِثَ فِي السَّحَابِ ﴿٦٥﴾
 وَنُفِثْنَا رَعِيًا وَوَعَدْنَا آلَ إِسْرَافٍ ﴿٦٦﴾

به والركون إليه عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام، ولهذا كان شرك عباد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهمهم وإرادتهم على تماثيلهم، فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبده، بحيث يكون عاكفا عليها، فهو نظير عكوف الأصنام عليها، ولهذا سماه النبي عبدا لها ودعا عليه بالتعس والنكس فقال: «تَعَسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعَسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ». (الفوائد ١٩٠).

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿٥٦﴾.

٤- جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه ووجود طعم المحبة في المتملق له، والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين والتوسل إليه بصفاته سبحانه وشدة حاجته وهو فقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشف عنه بلواه، وقد جرب أنه من قالها سبع مرات ولا سيما مع هذه المعرفة، كشف الله ضره. (الفوائد ١٩٥).

فإن فيها من كمال التوحيد والتنزيه للرب تعالى، واعتراف العبد بظلمه وذنبه، ما هو من أبلغ أدوية الكرب، والهم، والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله سبحانه في قضاء الحوائج، فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله، وسلب كل نقص وعيب وتمثيل عنه، والاعتراف بالظلم يتضمن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويوجب انكساره ورجوعه إلى الله واستقالته عثرته، والاعتراف بعبوديته، وافتقاره إلى ربه، فهذا أربعة أمور قد وقع التوسل بها: التوحيد، والتنزيه، والعبودية، والاعتراف. (زاد المعاد ٤/٢٠٨).

٥- وهذا الإيراد الذي أورده ابن الزبيري لا يرد على الآية، فإنه سبحانه قال:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ولم يقل: ومن تعبدون. و(ما) لما لا يعقل، فلا يدخل فيها الملائكة والمسيح وعزير، وإنما ذلك للأحجار ونحوها. (شفاء العليل ٢٦-٢٨).

📖 قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٠) **إِنَّ فِي هَذَا الْبَلَاغِ الْقَوْمَ عِبْدِي** (١١) 📖.

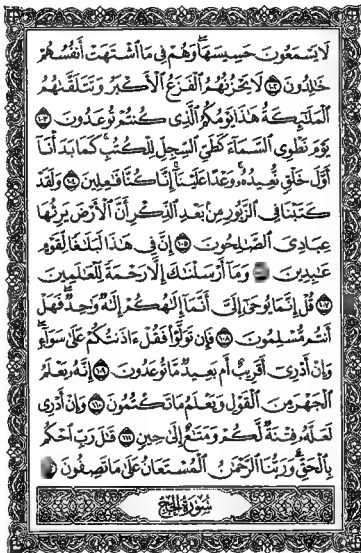
٦- وهي علم من أعلام نبوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه أخبر بذلك بمكة وأهل الأرض كلهم كفار أعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم وشتتوهم في أطراف الأرض، فأخبرهم ربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنه كتب في الذكر الأول أنهم يرثون الأرض من الكفار، ثم كتب ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله. (شفاء العليل ٣٩).

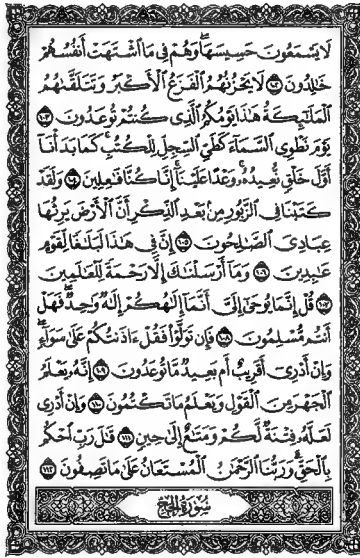
📖 قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٧) 📖.

٧- وأصح القولين في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٧) [الأنبياء

١٠٧] أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه فنالوا به كرامة الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه فالمحاربون له عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر. وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده





وذمته وهم أقل شرا بذلك العهد من المحاربين له. وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيره، وأما الأمم النائية عنه، فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

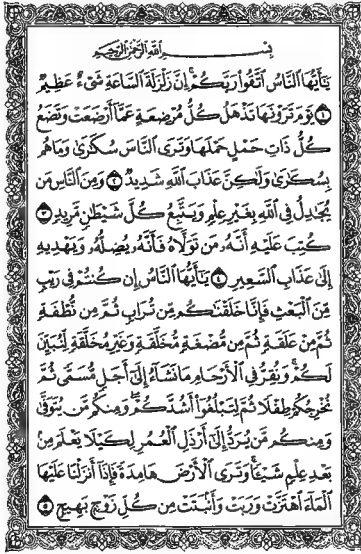
الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم،

لكن لم يقبلوها، كما يقال هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله المريض لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض. (جلاء الإفهام) (١١٥-١١٦) الطبعة المنيرية).



سورة الحج

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرْوُنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ ۝﴾



١- والمرضعة من ألقت الثدي للرضيع، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْوُنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ۝﴾ أبلغ من (مرضع) في هذا المقام، فإن المرأة قد تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشر للرضاعة، فإذا التقم الثدي واشتغلت برضاعه لم تذهل عنه إلا لأمر أعظم عندها من اشتغالها بالرضاع.

٢- وتأمل - رحمك الله تعالى - السر البديع في

عدوله سبحانه عن كل حامل إلى قوله: ﴿ذَاتِ حَمْلٍ ۝﴾، فإن الحامل قد تطلق على المهيأة للحمل وعلى من هي في أول حملها ومبادئه، فإذا قيل: ﴿ذَاتِ حَمْلٍ ۝﴾ لم يكن إلا لمن ظهر حملها وصلاح للوضع كاملاً أو سقطاً، كما يقال: ذات ولد، فأتى في المرضعة بالتاء التي تحقق فعل الرضاعة دون التهيؤ لها، وأتى في الحامل بالسبب الذي يحقق وجود الحمل وقبوله للوضع، والله تعالى أعلم. (بدائع الفوائد ٤/ ٢١-٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ ۝ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ ۝﴾ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَخْشَوْا رَبَّهُمْ وَنَذَّيِرُوا لِلْعَالَمِينَ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ۝

٣- جعل الله سبحانه إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودل بالنظير على نظيره، وجعل ذلك آية ودليلا على خمسة مطالب:

أحدها: وجود الصانع، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله، وقدرته، وإرادته، وحياته، وعلمه، وحكمته، ورحمته، وأفعاله.

الثاني: أنه يحيي الموتى.

الثالث: عموم قدرته على كل شيء.

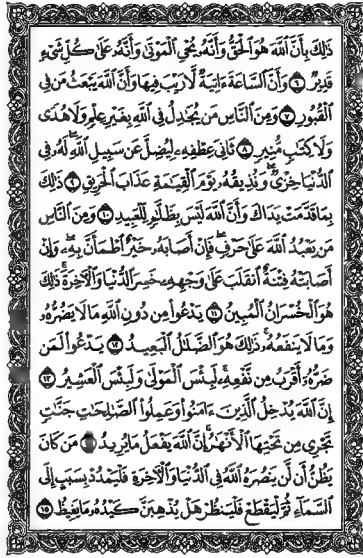
الرابع: إتيان الساعة وأنها لا ريب فيها.

الخامس: أنه يخرج الموتى من القبور كما أخرج

النبات من الأرض. (إعلام الموقعين ١/ ١٩٣).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۝ ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۝﴾

٤- ورتب سبحانه هذه الأمور الثلاثة أحسن ترتيب: فبدأ بالأعم وهو العلم، وأخبر أنه لا علم عند المعارض لآياته بعقله، ثم انتقل منه إلى ما هو أخص وهو الهدى، ثم انتقل إلى ما هو أخص وهو الكتاب المبين، فإن العلم أعم مما يدرك بالعقل والسمع والفطرة، وأخص منه الهدى الذي لا يدرك إلا من جهة الرسل، وأخص منه الكتاب الذي أنزله الله على رسوله، فإن الهدى قد يكون كتابا وقد يكون سنة، وهذه الثلاثة منتفية عن هؤلاء قطاعا، أما الكتاب والهدى المأخوذ عن الرسل فقد قالوا إنه لا يفيد علما ولا يقينا، والمعقول يعارضه، فقد أقروا أنهم ليس معهم كتاب ولا سنة وبقي العلم، فهم يدعونه والله تعالى قد نفاه عنهم.



منكم وربما توهموا أنه غير نافع لهم، فبدأ به جبرا لهم ورحمة. (بدائع الفوائد ١/ ٦٩).

📖 قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (٣٠) حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾

وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ جَاءَ بِهِ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ دُعَاءَهُمْ هُتُوفٌ وَهُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ دُعَاءَهُمْ هُتُوفٌ وَهُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٣٤﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ دُعَاءَهُمْ هُتُوفٌ وَهُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ دُعَاءَهُمْ هُتُوفٌ وَهُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ دُعَاءَهُمْ هُتُوفٌ وَهُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ دُعَاءَهُمْ هُتُوفٌ وَهُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ دُعَاءَهُمْ هُتُوفٌ وَهُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ دُعَاءَهُمْ هُتُوفٌ وَهُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾

٨- فتأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله وتعلق بغيره، ويجوز لك في هذا التشبيه أمران: أحدهما: أن تجعله تشبيها مركبا، ويكون قد شبه من أشرك بالله وعبد معه غيره برجل قد تسبب إلى هلاك نفسه هلاكا لا يرجى معه نجاة، فصور بصورة حال من خر من السماء فاخطفته الطير في الهوي فتمزق مزقا في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة، وعلى هذا لا تنظر إلى كل فرد من أفراد المشبه ومقابلة من المشبه به.

والثاني: أن يكون من التشبيه المفرق، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به، وعلى هذا فيكون قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطة، فمنها هبط إلى الأرض، وإليها يصعد منها، وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضييق الشديد والآلام المتركمة والطير الذي تخطف أعضائه وتمزقه كل ممزق بالشياطين التي يرسلها الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عليه وتؤزه أزا، وتزعجه وتقلقه إلى مظان هلاكه؛ فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه، كما أن لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه، والريح التي تهوي به في مكان سحيق هو هواه الذي حمله على إلقاء نفسه في أسفل مكان وأبعده من السماء. (إعلام الموقعين ١/ ٢٣٤-٢٣٥).



قوله تعالى: ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ۚ

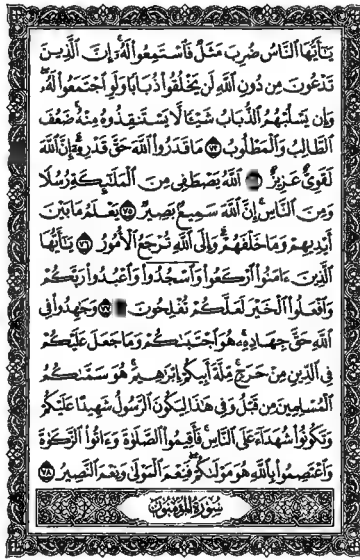
٩- أخبر أنه إنما سخرها لمن يذكر اسمه عليها، وأنه إنما يناله التقوى - وهو التقرب إليه بها وذكر اسمه عليها - فإذا لم يذكر اسمه عليها كان ممنوعا

من أكلها، وكانت مكروهة لله، فأكسبتها كراهيته لها - حيث لم يذكر عليها اسمه أو ذكر عليها اسم غيره - وصف الخبث فكانت بمنزلة الميتة.

١٠- وإذا كان هذا في متروك التسمية وما ذكر عليه اسم غير الله، فما ذبحه عدوه المشرك به الذي هو من أخبث البرية أولى بالتحريم، فإن فعل الذابح وقصده وخبثه لا ينكر أن يؤثر في المذبوح، كما أن خبث الناحك ووصفه وقصده يؤثر في المرأة المنكوحة.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۚ﴾

١١- ذكر للمخبتين أربع علامات: وجل قلوبهم عند ذكره، والوجل خوف مقرون بهيبة ومحبة، وصبرهم على أقداره، وإتيانهم بالصلاة قائمة الأركان ظاهرا وباطنا، وإحسانهم إلى عبادته بالإنفاق مما آتاهم، وهذا إنما يتأتى للقلب المخبت.

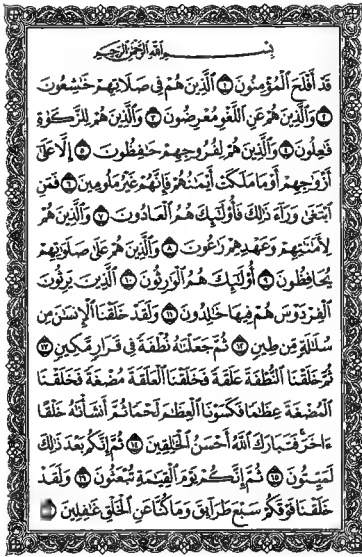


١٢- فإن قيل: كان معناه التواضع والخشوع، فكيف عدي بـ(إلي) في قوله: ﴿وَأَجْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؟ قيل: ضمن معنى أنابوا واطمأنوا وتابوا، وهذه عبارات السلف في هذا الموضع، والمقصود أن القلب المخبت ضد القاسي والمريض، وهو سبحانه الذي جعل بعض القلوب مخبتا إليه، وبعضها قاسيا، وجعل للقسوة آثارا. (شفاء العليل ١٩٢).

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ ۚ فَاٰسْتَجِٰٓءُوْا لَہٗٓ اِنْ اِلَیْکَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰہِ لَنْ یَّخْلُقُوْا ذُبَابًا وَّلَوْ اٰجْتَمَعُوْا لَہٗٓ وَاِنْ یَسْلُبْہُمُ الذُّبَابُ شَیْئًا لَا یَسْتَنْقِذُوْہُ مِنْہُ ضَعْفَ الطَّلَآبِ وَاَلْمَطْلُوْبِ ۗ مَا قَدَرُوْا اللّٰہَ حَقَّ قَدْرِہٖۤ اِنَّ اللّٰہَ لَقَوِیُّ عَزِیْزٌ ۝۶۱﴾

١٣- حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده وإعدام ما يضره، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقته، فكيف ما هو أكبر منه؟ ولا يقدر على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئا مما عليهم من طيب ونحوه فيستنقذوه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات، ولا على الانتصار منه واسترجاع ما سلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة، ولا أضعف منها، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله؟! (إعلام الموقعين ١/ ٢٣٥-٢٣٧).

سورة المؤمنون



قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ٧﴾

١ - علق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه

منه، فلا سبيل إلى الفلاح بدونه.

وهذا يتضمن ثلاثة أمور: أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفليحين، وأنه من الملوّمين، ومن العادين، ففاته الفلاح، واستحق اسم العدوان، ووقع في اللوم، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك. (الجواب الكافي ٢٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ١٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ١١﴾

٢ - الله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

من تأمل أحوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جميعاً بين التقصير، بل التفريط والأمن. (الصواعق المرسلة ٢/ ٤٦٩-٤٧٠).

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ (١٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ

يَحْضُرُونِ ﴿١٨﴾

بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٩﴾ مَا تَلَاقَتْ أَلْسِنُهُمْ مِنْ
وَلَوْ وَصَّاهُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ آلٍ بِمَا خَلَقَ
وَلَمْ يَلْزَمُهُمْ عَلَى بَعْضِ سُجُنِ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٠﴾
عَلَى الْقَيْبِ وَالْغَيْبَةِ فَعَمَلُوا عَمَّا يُفْرِكُونَ ﴿٢١﴾ قُلْ رَبِّ
إِنِّي مُؤْتَوِّفٍ مَبْرُودُونَ ﴿٢٢﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
﴿٢٣﴾ وَأَنَا أَنْ أُنْشِئَكَ مَا قَدْ كُنْتَ أَقْدَرُ مِنْ أَنْ تَذْهَبَ بَالِي
مِنْ أَحْسَنِ السَّيِّئَةِ عَنِّي أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٢٤﴾ وَقُلْ رَبِّ
أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٢٥﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ
يَحْضُرُونِ ﴿٢٦﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ
أَرْجِعْهُنَّ ﴿٢٧﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا
﴿٢٨﴾ فَادْفِنِي فِي الصُّبْرِ فَلَا أَسْأَلُ بِبَيْعَتِي وَمِثْلِي وَلَا بَيْعَتِهِ لَوْنٌ
﴿٢٩﴾ فَمَنْ تَقَالَتْ مَوَازِينُهُ قَالَ رَبِّ لَكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٠﴾ وَبَيْنَ
حَقَّتْ مَوَازِينُهُ قَالَ رَبِّ لَكَ الْبَرُّ خَيْرٌ وَأَشَدُّ فِي حَسَنَةٍ
خَلِّدُونِ ﴿٣١﴾ فَلَقِيَ رُوحَهُمْ أَلَّا تَزُولُ فِيهَا كَلِمَةٌ

٣- تضمنت الاستعاذة أن لا يمسوه ولا يقربوه،
وذكر ذلك سبحانه عقيب قوله: ﴿أَدْفَعْ بِآلِي هِيَ أَحْسَنُ
السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (١٨) [المؤمنون: ٩٦].

فأمره أن يحترز من شر شياطين الإنس بدفع
إساءتهم إليه بالتي هي أحسن، وأن يدفع شر شياطين
الجن بالاستعاذة منهم. (إغاثة اللهفان ١/ ٩٥-٩٦).

قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ

رَبِّ أَرْجِعْهُنَّ ﴿١١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾

٤- تأمل قوله أولا ﴿رَبِّ﴾ استغاث بربه، ثم التفت إلى الملائكة الذين أمروا
بإحضاره بين يدي ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فقال: أَرْجِعُونِي. ثم ذكر سبب سؤال الرجعة، وهو أن
يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه، فيقال
له: كلا لا سبيل لك إلى الرجعى وقد عمرت ما يتذكر فيه من تذكر.

ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استغاث، وأن يفسح له في المهلة
ليتذكر ما فاتته، أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة
تحتها، وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحا لو أجيب، وإنما ذلك شيء يقوله
بلسانه، وأنه لو رد لعاد لما نهى عنه وأنه من الكاذبين، فحكمه أحكم الحاكمين، وعزته
وعلمه وحمده يأبى إجابته إلى ما سأل، فإنه لا فائدة في ذلك، ولو رد لكانت حالته
الثانية مثل حالته الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا

سورة النور

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ (١٣).

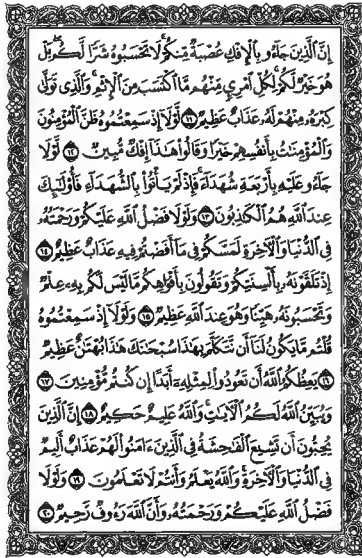
١- حكم الله في مثل هذا أن يعاقب عقوبة المفترى الكاذب، وإن كان خبره مطابقا، وعلى هذا فلا تتحقق توبته حتى يعترف بأنه كاذب عند الله، كما أخبر الله تعالى به عنه، فإذا لم يعترف بأنه كاذب وجعله الله كاذبا، فأى توبة له؟ وهل هذا إلا محض الإصرار والمجاهرة بمخالفة حكم الله الذي حكم به عليه؟ (مدارج السالكين ١/ ٣٦٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

٢- ذكر ذلك سبحانه عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية، فدل على أن التزكي هو باجتناب ذلك. (إغاثة اللهفان ١/ ٤٩).

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠).

٣- فلما كان غض البصر أصلا لحفظ الفرج بدأ بذكره، ولما كان تحريمه تحريم الوسائل فيباح للمصلحة الراجحة ويحرم إذا خيف منه الفساد ولم يعارضه مصلحة أرجح من تلك المفسدة، لم يأمر سبحانه بغضه مطلقا، بل أمر بالغض منه، وأما حفظ



الفرج فواجب بكل حال لا يباح إلا بحقه، فلذلك عم الأمر بحفظه.



وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب، فإذا غص العبد بصره غص القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته. فجعل الزكاة بعد غص البصر وحفظ الفرج.

ولهذا كان غص البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد عظيمة الخطر، جليلة القدر:

٤- إحداها: حلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله تعالى، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله عز وجل خيراً منه،

والنفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة، والعين رائد القلب. فبيعت رائده لنظر ما هناك، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله، تحرك اشتياقاً إليه، وكثيراً ما يتعب ويتعب رسوله ورائده.

الفائدة الثانية في غص البصر: نور القلب وصحة الفراسة.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصْرِيحُ بِأَرْجُلَيْهِ لِيَعْلَمَ مَا يَحْفَظُونَ مِنْ زِينَتِهِمْ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

٥- منعهم من الضرب بالأرجل وإن كان جائزاً في نفسه؛ لئلا يكون سبباً إلى سمع الرجال صوت الخلخال فيشير ذلك دواعي الشهوة منهم إليهم. (إعلام الموقعين ٣/ ١٨١).

٦- وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا



إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة لعل المشعرة بالترجي، إيذاناً بأنكم إذا تبتم كتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون، جعلنا الله منهم. (مدارج السالكين ١/١٧٨).

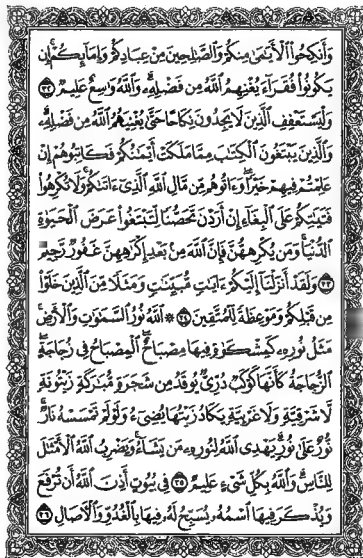
فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحاً إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. (مدارج السالكين ٣٠٥-٣٠٦).

﴿قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورٍ كَمِشْكَوْفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾﴾

٧- وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان:

إحداهما: طريقة التشبيه المركب وهي أقرب مأخذاً وأسلم من التكلف، وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه ومقابلته بجزء من المشبه به، وعلى هذا عامة أمثال القرآن الكريم.

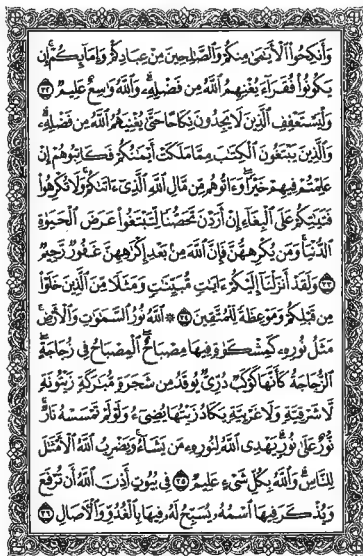
فتأمل صفة مشكاة، وهي كوة لا تنفذ لتكون أجمع للضوء قد وضع فيها مصباح وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها، ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقوداً من زيت شجرة في وسط القراح، لا شرقية ولا غربية، بحيث تصيبها الشمس في أحد طرفي النهار، بل هي



في وسط القراح محمية بأطرافه، تصيها الشمس أعدل إصابة والآفات إلى الأطراف دونها، فمن شدة إضاءة زيتها وصفائه وحسنه يكاد يضيء من غير أن تمسه نار، فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالى الذي وضعه في قلب عبده المؤمن وخصه به. والطريقة الثانية: طريقة التشبيه المفصل، فقيل: المشكاة صدر المؤمن والزجاجة قلبه، وشبه قلبه بالزجاجة لرققتها وصفائها وصلابتها، وكذلك قلب المؤمن، فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة، فهو يرحم ويحسن ويتحنن ويشفق على الخلق برقته.

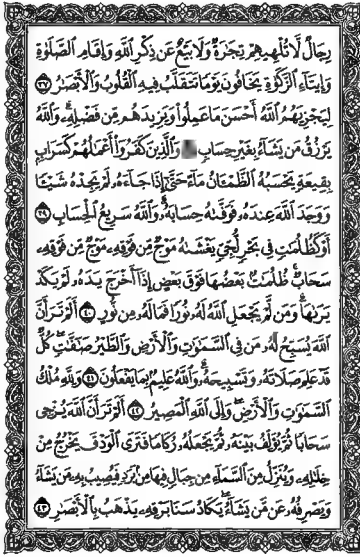
وبصفائه تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء، وبصلابته يشتد في أمر الله تعالى، ويتصلب في ذات الله تعالى ويغلظ على أعداء الله تعالى ويقوم بالحق لله تعالى، وقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية، كما قال بعض السلف: القلوب آنية الله في أرضه وأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفها.

والمصباح هو نور الإيمان في قلبه والشجرة المباركة هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى، ودين الحق وهي مادة المصباح التي يتقد منها، والنور على النور: نور الفطرة الصحيحة والإدراك الصحيح، ونور الوحي والكتاب، فينضاف أحد النورين إلى الآخر، فيزداد العبد نورا على نور، ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه بالأثر، ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحي، فيريه عقله وفطرته وذوقه أن الذي جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الحق لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة، بل يتصادقان ويتوافقان، فهذا علامة النور على النور.



يَحَالُ أَتْلَاهُ بِرِجْلَيْهِ وَلَا يَمُرُّ بِذِكْرِ اللَّهِ وَفَالَهُ السُّلْوةُ
وَأَمَّا الزُّكُوةُ يَحَالُونَ قَوْلًا مُتَقَابِلًا بِهِ **الْأَصْبَحُ** ٥
لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَزَيِّدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ
يُؤْتِي مَنْ يَشَاءُ بِقَدَرٍ حِسَابٍ ٥ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَفْعَالَهُمْ كَسْرٍ
وَقَبِيحٌ يُحْسِبُهُ الظُّلُمَاتُ مَا تَعْمَلُونَ إِنْ جَاءَهُمْ نَوْعٌ مِمَّا
وَسَّيَدَ اللَّهُ عَذْرًا ذُوْهُ فَسَأَلُوهُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ **الْحِسَابُ** ٥
أَوَكُلِّبُوا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَحْيَىٰ يُنْفِثُهُ مِنْ نُحْ مِمْ مَوْجٍ مِمَّنْ فَوَجَّهْ
سَمَاتٍ طَلَمَتْ بَعْضَهَا فَوْقَ تَحْتِهَا إِنْ أَرَادَ الْخَرَجَ يَذَرُكَ
يَرْجِعُ وَمَنْ أَرَادَ الْيَحْيَىٰ اللَّهُ فَوَارِقَ الْهَادِي ٥ أَوَلَمْ يَرَوْا
اللَّهُ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْكِبَرُ يَعْتَدُ كُلُّ
قَدْحٍ وَجَلَدَهُ وَتَضَعُ حُمْلَهُ عَلَىٰ نَحْوِهَا يَكُونُونَ ٥ وَتَوَكَّلْ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى اللَّهِ الْصُّورِ ٥ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَخْصِي
سَمَاءًا مَوْجِدَةً يَخْصِيهَا فَوْقَ حَقِيقَةٍ وَكَأَنَّ مَاءَ الْوَيْفِ يَخْرُجُ مِنْ
جِلْدِهِ ٥ وَتَرَىٰ مَنْ فِي السَّمَاءِ مَنْ يَحَالُوهَا لَمْ يَرْفَعُوا بَعْضُهُمْ فَوْقَ
بَعْضِهِمْ عَنْ قَوْلِ شَيْءٍ وَكَانَ سِتَابُهُمْ يَذْهَبُ بِالْأَصْبَحِ ٥

٩- وقوله تعالى: ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ [النور: ٤٠].
تصوير لحال هذا المعرض عن وحيه فشبه تلاطم أمواج الشبه، والباطل في صدره بتلاطم أمواج ذلك البحر، وأنها أمواج بعضها فوق بعض.



١٠ - فشيبه سبحانه أعمالهم أولاً في فوات نفعها وحصول ضررها عليهم بسراب خداع يخدع رائيه من بعيد، فإذا جاءه وجد عنده عكس ما أمله ورجاه، وشبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة خالية عن نور الإيمان بظلمات متراكمة في لجج البحر المتلاطم الأمواج الذي قد غشيه السحاب من فوقه، فإله تشبيها ما أبدعه وأشدّه مطابقة بحال أهل البدع والضلال وحال من عبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى خِلاف ما بعث به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنزل به كتابه.

وهذا التشبيه هو تشبيه لأعمالهم الباطلة بالمطابقة والتصريح ولعلومهم وعقائدهم الفاسدة بالزور.

وكل واحد من السراب والظلمات مثل لمجموع علومهم وأعمالهم، فهي سراب لا حاصل لها وظلمات لا نور فيها.

وهذا عكس مثل أعمال المؤمن وعلومه التي تلقاها من مشكاة النبوة، فإنها مثل الغيث الذي به حياة البلاد والعباد، ومثل النور الذي به انتفاع أهل الدنيا والآخرة. ولهذا يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذين المثلين في القرآن في غير موضع لأوليائه وأعدائه.

(اجتماع الجيوش الإسلامية ١٢٦).

١١ - فتضمنت الآيات أوصاف الفرق الثلاثة: المنعم عليهم وهم أهل النور، والضالين وهم أصحاب السراب، والمغضوب عليهم وهم أهل الظلمات المتراكمة، والله أعلم.

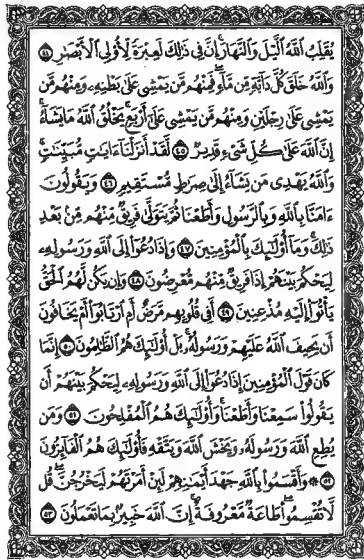
فالمثل الأول من المثليين لأصحاب العمل الباطل الذي لا ينفع، والمثل الثاني لأصحاب العلم الذي لا ينفع والاعتقادات الباطلة، وكلاهما مضاد للهدى ودين الحق، ولهذا مثل حال الفريق الثاني في تلاطم أمواج الشكوك والشبهات والعلوم الفاسدة في قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه، وأنها أمواج متراكمة من فوقها سحب مظلم، وهكذا أمواج الشكوك والشبه في قلوبهم المظلمة التي قد تراكمت عليها سحب الغي والهوى والباطل، فليتدبر اللبيب أحوال الفريقين، وليطابق بينهما وبين المثليين، يعرف عظمة القرآن وجلالته، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

وأخبر سبحانه أن الموجب لذلك أنه لم يجعل لهم نورا، بل تركهم على الظلمة التي خلقوا فيها فلم يخرجهم منها إلى النور؛ فإنه سبحانه ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور. (إعلام الموقعين ١/ ٢٠٥-٢٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٤٥﴾

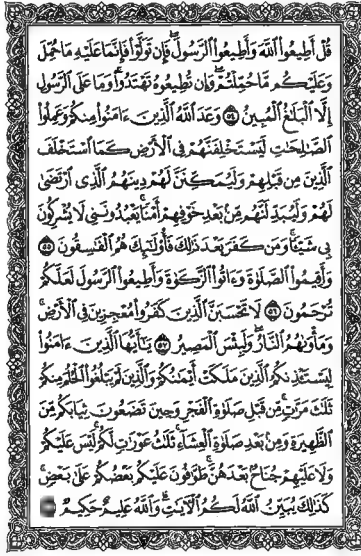
١٢- تأمل كيف نبه سبحانه باختلاف الحيوانات

في المشي مع اشتراكها في المادة على الاختلاف فيما وراء ذلك من أعضائها وأشكالها وقواها وأفعالها وأغذيتها ومساكنها، فنبه على الاشتراك والاختلاف فيشير إلى يسير منه، فالطير كلها تشترك في الريش والجناح وتفاوت فيما وراء ذلك أعظم تفاوت، واشتراك ذوات الحوافر في الحافر كالفرس والحمار والبغل، وتفاوتها في ما وراء ذلك، واشتراك ذوات الأظلاف في الظلف وتفاوتها في غير ذلك، واشتراك



ذوات القرون فيها وتفاوتها في الخلق والمنافع والأشكال، واشتراك حيوانات الماء في كونها سباحة تأوي فيها وتتكون فيها وتفاوتها أعظم تفاوت عجز البشر إلى الآن

عن حصره، واشتراك الوحوش في البعد عن الناس والتفاوت عنهم وعن مساكنهم وتفاوتها في صفاتها وأشكالها وطبائعها وأفعالها أعظم تفاوت يعجز البشر عن حصره، واشتراك الماشي منها على بطنه في ذلك وتفاوت نوعه، واشتراك الماشي على رجلين في ذلك وتفاوت نوعه أعظم تفاوت، وكل من هذه الأنواع له علم وإدراك وتحليل على جلب مصالحه ودفع مضاره يعجز كثير منها نوع الإنسان، فمن أعظم الحكم الدلالة الظاهرة على معرفة الخالق الواحد المستولي بقوته وقدرته وحكمته على ذلك كله، بحيث جاءت



كلها مطيعة منقادة منساقة إلى ما خلقها له على وفق مشيئته وحكمته، وذلك أدل شيء على قوته القاهرة وحكمته البالغة وعلمه الشامل. (شفاء العليل ٢٣١-٢٣٢).

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذَّكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ﴾

١٣- لم يأمرهم بالاستئذان في غيرها وإن أمكن في تركه هذه المفسدة لدورها وقلة الإفضاء إليها فجعلت كالمقدمة. (إعلام الموقعين ١٨١-١٨١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ﴾

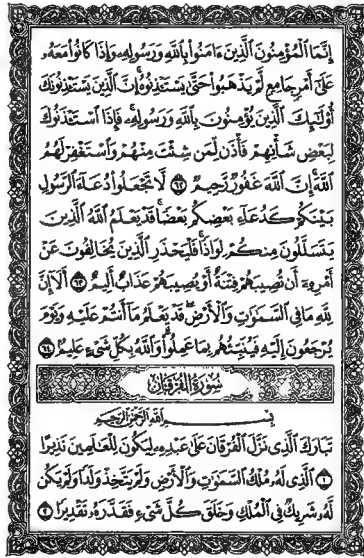
١٤ - فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه،

فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه، وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه أذن فيه. (إعلام الموقعين ١/ ٨٧).

قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾

١٥ - على كل تقدير فكما أمر الله سبحانه بأن يميز

عن غيره في خطابه ودعائه إياهم قياماً للأمة بما يجب عليهم من تعظيمه وإجلاله، فتميزه بالصلاة عليه عند ذكر اسمه من تمام هذا المقصود. (جلاء الأفهام ٢٣٥).



سورة الفرقان

📖 قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾.

وفيها قراءتان:

أشهرهما: (نتخذ) بفتح النون وكسر الخاء على البناء للفاعل وهي قراءة السبعة.

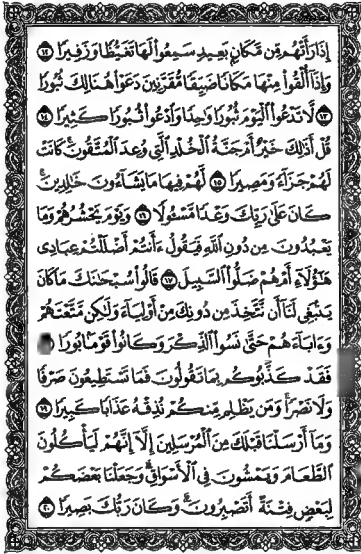
والثانية: (نتخذ) بضم النون وفتح الخاء، على البناء للمفعول، وهي قراءة الحسن ويزيد بن القعقاع.
١ - فإن قيل: فقد صحت القراءتان لفظاً ومعنى، فأيهما أحسن؟

قلت: قراءة الجمهور أحسن وأبلغ في المعنى المقصود والبراءة مما لا يليق بهم، فإنهم على قراءة

الضم: يكونون قد نفوا حسن اتخاذ المشركين لهم أولياء، وعلى قراءة الجمهور: يكونون قد أخبروا أنهم لا يليق بهم، ولا يحسن منهم أن يتخذوا ولياً من دونه، بل أنت وحدك ولينا ومعبودنا، فإذا لم يحسن بنا أن نشرك بك شيئاً، فكيف يليق بنا أن ندعو عبادك إلى أن يعبدونا من دونك؟ وهذا المعنى أجل من الأول وأكبر، فتأمل.

📖 قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا.

٢ - قلت: قرن الله سبحانه الفتنة بالصبر هاهنا، وفي قوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّا رَحْمَتًا﴾ لَلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنَّا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا [النحل: ١١٠].



فليس لمن قد فتن بفتنة دواء مثل الصبر، فإن صبر كانت الفتنة ممحصّة له، ومخلصة من الذنوب، كما يخلص الكير خبث الذهب والفضة.

فالفتنة كير القلوب، ومحك الإيمان، وبها يتبين الصادق من الكاذب: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (٣) ﴿[العنكبوت: ٣].﴾
فالفتنة قسمت الناس إلى صادق وكاذب، ومؤمن ومنافق، وطيب وخبيث. فمن صبر عليها كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها. (إغاثة اللهفان ٢/ ١٦٠-١٦٢).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٢٧) ﴿يَوْمَئِذٍ لَيْتَنِي لَمْ أَخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ (٢٨) ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ (٢٩) ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ (٣٠).

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أُولَئِكَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْعَاقِبَةِ ﴿٢٧﴾ وَأُولَئِكَ رَجَبًا لَقَدْ أَتَيْنَهُمْ فِي أَفْسَحِهِمْ وَعَتَوْهُمْ عِثْرًا كَثِيرًا ﴿٢٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَيْتَنِي لَمْ أَخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٩﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴿٣٠﴾ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٣١﴾

٣- فكل من اتخذ غير الرسول، يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه قائل هذه المقالة لا محالة. ولهذا هذا الخليل كنى عنه باسم فلان إذ لكل متبع أولياء من دون الله فلان وفلان. فهذا حال الخليطين المتخالفين على خلاف طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومآل تلك الخلّة إلى العداوة واللعنة كما قال الله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٣٧) ﴿[الرسالة التبوكية ٥٥].﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (٣٣).

٤- لا تجد كلاماً أحسن تفسيراً ولا أتم بياناً من كلام الله سبحانه، ولهذا سماه

الله بيانا، وأخبر أنه يسره للذكر ويسر ألفاظه للحفظ ومعانيه للفهم، وأوامره ونواهيه للامتثال، ومعلوم أنه لو كان بالألفاظ لا يفهمها المخاطب لم يكن ميسرا له، بل كان معسرا عليه، وإذا أريد من المخاطب أن يفهم من ألفاظه ما لا يدل عليه من المعاني، أو يدل على خلافه فهذا من أشد التعسير، فإنه لا شيء أعسر على الأمة من أن يراد منهم أن يفهموا كونه سبحانه لا داخلا في العالم ولا خارجه، ولا متصلا به، ولا منفصلا عنه، ولا مباينا له، ولا محايثا له، ولا يرى بالأبصار عيانا، ولا له يد ولا وجه من قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]. (الصواعق المرسلة ١ / ٣٣٠-٣٣٢).

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ مِنْكَ نَذِيرٌ فَإِنْ أَوْتِرْنَا إِلَيْكَ نَذِيرٌ ﴿٢﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٥﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٨﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٩﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١٠﴾

٥- شبه أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له، وجعل الأكثرين أضل سبيلا من الأنعام؛ لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي وتتبع الطريق، فلا تحيد عنها يمينا ولا شمالا، والأكثرين يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل فلا يستجيبون ولا يهتدون ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم، والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه وما

ينفعها فتؤثره، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبا تعقل بها، ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء، ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار، فهم أضل من البهائم، فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل إليه أضل وأسوأ حالا ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه. (إعلام الموقعين ١ / ٢١٠).

📖 قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۚ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾ .

٦- هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه وأن المؤمنين دائما مع الله على نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه، فهو مع الله على عدوه الداخل فيه والخارج عنه يحاربهم ويعاديهم ويغضبهم له سبحانه كما يكون خواص الملك معه على حرب أعدائه والبعيدون منه فارغون من ذلك غير مهتمين به والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه وعبارات السلف على هذه تدور. (الفوائد ٧٩-٨٠).

📖 قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝٦٣﴾ .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ يَتَخَدَّ إِلَيْنَا رِيسًا سَيِّدًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَتَسْبِّحُ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَانَ يَوْمَ يَدْعُوهُ يَسْبُوحًا ۝ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ فَأَسْرَبَ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَلَا تَقُولُ لَهُمْ أَسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَّهُ سَجِدًا إِلَّا نُكْرَاهُ لَهُمْ فَعَلُوا ۚ إِنَّ سَبَّأَهُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ۝ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ مُتَلَافِيَيْنَ لَوْلَا أَن يَنْصَرِفَ لُورَأَدُ الْمُشْكُورِ ۚ وَبِمَا تَشْكُرُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝ وَالَّذِينَ يَبِغُوتْ لِزَهْرِهِمْ تُبْهَاتًا وَيَكْسِبُونَ ۚ وَالَّذِينَ يُقُولُونَ رُبَّنَا أَنْصِرْ لَنَا بِجَهَنَّمَ إِنْ عَذَابُكَ كَانَ عَذَابًا ۝ إِنَّمَا سَاءَتْ لِمُسْتَقَرٍّ وَمُقَرَّبَةٍ ۚ وَالَّذِينَ إِذَا أَفْعَوْا لِرِيسٍ رَأَوْا إِلَهُ يَغْتَرَبُونَ ۚ وَكَانَ يَوْمَ تَكَلَّمَ قَوْمًا

٧- تأمل جمعت الآية وصفهم في حركتي الأرجل والألسن بأحسنها وألطفها وأحكمها وأوقرها، فقال ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: بسكينة ووقار.

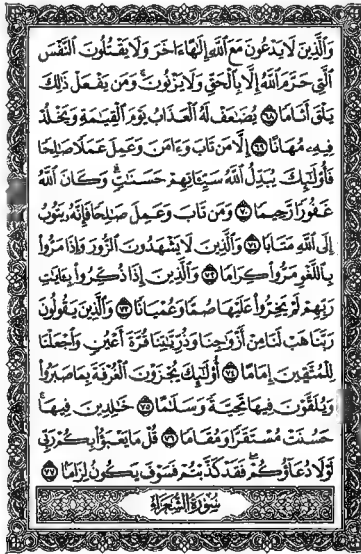
والهَوْن (بفتح الهاء) من الشيء الهين، فوصف مشيهم بأنه مشي حلم ووقار لا مشي جهل وعنف وتبختر ووصف نطقهم بأنه سلام، فهو نطق حلم وسكينة ووقار لا نطق جهل وفحش وخناء وغلظة، فلهذا جمع بين المشي والنطق في الآية فلا يليق بها

المعنى الشريف العظيم الخطير أن يكون المراد منه سلام عليكم، فتأمل. (بدائع الفوائد

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾



٨- دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وخير الناس النمط الأوسط، الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين، ولم يلحقوا بغلو المعتدين، وقد جعل الله سبحانه هذه الأمة وسطاً، وهي الخيار العدل، لتوسطها بين الطرفين المذمومين، والعدل هو الوسط بين طرفي الجور والتفريط. والآفات إنما ينتظرون إلى الأطراف، والأوساط محمية بأطرافها، فخير الأمور أوسطها. (إغاثة اللهفان ١/ ١٨٢).



قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ

عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ

حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾

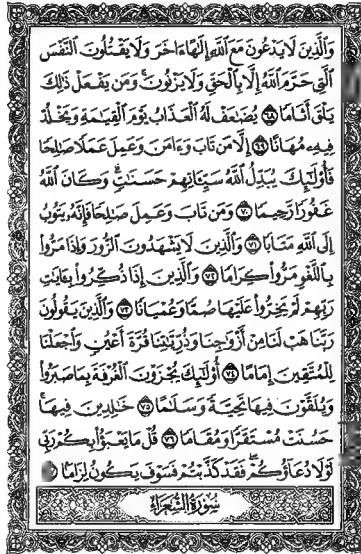
٩- هذا من أعظم البشائر للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح، وهو حقيقة التوبة، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما رأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت، وفرحه بنزول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١-٢].

١٠- وتأمل قوله: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]. ولم يقل مكان كل واحدة واحدة فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۚ﴾ ﴿٧٢﴾ .

١١- تأمل كيف قال سبحانه: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢].

ولم يقل: بالزور؛ لأن يشهدون بمعنى: يحضرون. فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور، فكيف بالتكلم به وفعله؟ والغناء من أعظم الزور.



والزور يقال على الكلام الباطل، وعلى العمل الباطل، وعلى العين نفسها كما في حديث معاوية لما أخذ قصة من شعر يوصل به، فقال: «هذا الزور» فالزور: القول، والفعل، والمحل.

وأصل اللفظة من الميل، ومنه الزور بالفتح، ومنه: زرت فلانا، إذا ملت إليه، وعدلت إليه، فالزور: ميل عن الحق الثابت إلى الباطل الذي لا حقيقة له قولاً وفِعْلاً. (إغاثة اللهنان ١/ ٢٤١-٢٤٢).



سورة الشعراء

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

١- لا تصح الموالاة إلا بالمعاداة، فلم يصح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة، فإنه لا ولاية إلا بالبراءة من كل معبود سواه. (الجواب الكافي ٢٦٤).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٩﴾ وَأَجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَ ذَٰلِكَ جَنَّةً ﴿٩٠﴾ وَالْجَنَّةُ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا الَّذِينَ كَانُوا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٩١﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْفَخُونَ ﴿٩٢﴾ وَيَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٩٣﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٩٤﴾ وَأَلْقِ الْكَلِمَ الْفُتَيَّةَ ﴿٩٥﴾ وَتَرَى الْجَاهِلِيَّةَ الْقَائِلِينَ ﴿٩٦﴾ وَقِيلَ لَهُمْ لَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٧﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَمْزُجُونَكُمُ الْوَيْسُورُونَ ﴿٩٨﴾ فَكَيْفَ يُفَعِّلُهُمْ وَالْقَارُونَ ﴿٩٩﴾ وَتَجِدُوا لِيْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ قَالُوا دَعُوهُمْ فَيَفْتَحْهُمْ شَيْئُونَ ﴿١٠١﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَنَلِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٠٢﴾ إِذْ نُسَوِّجُكُمْ بِهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا أَصْحَابُكَ إِلَّا الْمُنَجَّرُونَ ﴿١٠٤﴾ فَمَا تَأْمَنُ شُعْبُونِ ﴿١٠٥﴾ وَلَا صِدْقِي جَحِيمٍ ﴿١٠٦﴾ أَلَا كَذَّبْتُمْ فَتَقُولُونَ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ مِنَ الْغَايَةِ ﴿١٠٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٠٨﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا لَنُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَنُنَزِّلَنَّ مِنَ السَّمَاءِ نَارًا فَتُؤْخَذُ السُّيُوفُ مِنَ الْأَرْضِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالُوا لَهْمُ الْخُوفُورُخُ الْآسَافُونَ ﴿١١٠﴾ إِلَى لُكُورٍ رَسُولٍ لَمِيزٍ ﴿١١١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْطَّيْعِينَ ﴿١١٢﴾ وَمَا أَصْحَابُكُمْ إِلَّا عَدُوٌّ مِنَ الْغِيَاثِ ﴿١١٣﴾ لَأَعْلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالطَّيْعِينَ ﴿١١٥﴾ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ لَكَ وَالِدًا وَنَحْنُ الْوَالِدُونَ ﴿١١٦﴾

٢- لا تتم له سلامته مطلقا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص.

وهذه الخمسة حجب عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة، تتضمن أفرادا لا تنحصر. (الجواب الكافي ١٧٩).

قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَنَلِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّجُكُمْ بِهِمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

٣- قال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعهم الجحيم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَنَلِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّجُكُمْ بِهِمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧ - ٩٨]. ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه في الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، والملك، والقدرة، وإنما سووهم به في الحب، والتأله، والخضوع لهم والتذلل، وهذا غاية الجهل والظلم، فكيف يسوى

التراب برب الأرباب. (الجواب الكافي ١٩٧).

٤- وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات، بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله سبحانه في أفعاله وصفاته، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية [فقط]. مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها، فتصحيح هذه [المسألة]. هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله، فحقيق لمن نصح نفسه وأحب سعادتها ونجاتها أن يتيقظ لهذه المسألة علما وعملا وحالا وتكون أهم الأشياء عنده، وأجل علومه وأعماله،

فإن الشأن كله فيها والمدار عليها والسؤال يوم القيامة عنها، قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ

لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]. (طريق الهجرتين ٣٨٣).



وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً
الْآخِرِينَ ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً
يَبْعَثُونَ ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً
سَلَامٍ ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً
﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً
أَوْ يَصْطَرِّفُونَ ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً
أَجْمَعُونَ ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً
مَسْكَاةً لِلَّذِينَ ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً
الْمُتَرَمِّمُونَ ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً
أَنْ لَنَا كَرَمٌ فَكَوْنُ مِنْ الْمُتَرَمِّمِينَ ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً
أَسْأَلُكُمْ مُتَرَمِّمِينَ ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً
فَوَرَبُّكَ الْغَنِيُّ الرَّحِيمُ ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً
إِنِّي لَكَرِيمٌ ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً
عَلَيْهِمْ أَجْرَانِ أَجْرَى الْأَعْلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً
وَالْطَّيِّبُونَ ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ رِزْقِي وَسَعَةً

سورة النمل



قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾.

١- فهو ميراث العلم والنبوة لا غير، وهذا باتفاق أهل العلم من المفسرين وغيرهم، وهذا لأن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ كان له أولاد كثيرة سوى سليمان، فلو كان الموروث هو المال لم يكن سليمان مختصا به، وأيضا فإن كلام الله يسان عن الإخبار بمثل هذا، فإنه بمنزلة أن يقال مات فلان وورثه ابنه، ومن المعلوم أن كل أحد يرثه ابنه، وليس في الإخبار بمثل هذا فائدة.

وأیضا فإن ما قبل الآية وما بعدها يبين أن المراد بهذه الورثة وراثته العلم والنبوة لا وراثته المال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْחَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥) ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ وإنما سيق هذا لبيان فضل سليمان وما خصه الله به من كرامته وميراثه ما كان لأبيه من أعلى المواهب وهو العلم والنبوة أن هذا لهو الفضل المبين، وكذلك قول زكريا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِنْ وَرَآئِي وَكَانَتْ أَمْرًا نِّي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ (٥) ﴿يَرْثُنِي وَيَرِثُ مِنِّي عَالٍ يَعْصِي عَمْرًا وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (٦).

فهذا ميراث العلم والنبوة والدعوة إلى الله، وإلا فلا يظن بنبي كريم أنه يخاف عصبته أن يرثوا ماله؛ فيسأل الله العظيم ولدا يمنعهم ميراثه ويكون أحق به منهم، وقد نزه الله أنبياءه ورسله عن هذا وأمثاله، فبعداً لمن حرّف كتاب الله وردّ على رسوله كلامه ونسب الأنبياء إلى ما هم برآء منه، والحمد لله على توفيقه وهدايته. (مفتاح دار السعادة ٧٣).

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ١٨ ﴿﴾

وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٨﴾ وَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلِمًا
وَقَالَ لِمَنْ دَاوُدُ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كِبْرِيَاءَ رَبِّكَ قَالَ يَبُودَ الْهَوَاسِ
الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿١٩﴾ وَكَانَ دَاوُدَ وَآلَهُ قَانِطِرِينَ
الطَّيْرِ وَأَوْفَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿٢٠﴾
وَحُشِرَ لِمُسْلِمَيْنِ مِنْ جُنُودِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ
يُوزَعُونَ ﴿٢١﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادٍ خُفِّلَ عَنْهُمْ فَاذًا تَنْتَابُهَا
النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٢﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ ارْزُقْنِي
أَنْ أَشْكُرَ بِضَعْفِهِ أَلَمْ أَفْعَسْ عَلَىٰ وَعَلَىٰ وَلَدَيْ وَأَنْ أَغْسَلَ
صَلِيحًا وَرَحْمَةً وَأَدْخِلْنِي رَحْمَتَكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٣﴾
وَقَدْ فَتَنَّا الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَيْهَذَا أَمْ كُنَّا
مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٤﴾ لَا تُخِشِرْكُم عَنْ آيَاتِنَا وَلَئِنْ أُولَٰئِكَ لَنَجْعِلَنَّ
أُولَٰئِكَ فِي سُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٥﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ
رَبِّ ارْزُقْنِي بِمَا تُرِخُّ بِهِنَّ وَجُتُّنَّكَ مِنْ سُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٦﴾

٢- استفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته، ثم أتت بالاسم المبهم، ثم أتبعته بما يشبه من اسم الجنس إرادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول وهو خشية أن يصيبهم معركة الجيش فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك، وهذا من أعجب الهداية! وتأمل كيف عظم الله سبحانه شأن

النمل بقوله: ﴿وَحُشِرَ لِمُسْلِمَيْنِ مِنْ جُنُودِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ٢١ ﴿﴾

٣- ثم قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادٍ خُفِّلَ عَنْهُمْ﴾ فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي. ودل على أن ذلك الوادي معروف بالنمل كوادي السباع ونحوه، ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها، حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكنًا لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ﴾ فجمعت بين اسمه وعينه وعرفته بهما وعرفت جنوده وقائدها، ثم قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم؛ ولذلك تبسم نبي الله ضاحكا من قولها، وإنه لموضع تعجب وتبسم.

٤- ومن عجيب هدايتها أنها تعرف رها بأنه فوق سماواته على عرشه كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه قال: «خرج نبي من الأنبياء

بالناس يستسقون، فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعو مستلقية على ظهرها، فقال: ارجعوا فقد كفيتم، أو سقيتم بغيركم» ولهذا الأثر عدة طرق ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره. (شفاء العليل ٦٩-٧٠).

📖 قوله تعالى: ﴿وَتَقَعَّدَ الظَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (٥٠) ﴿لَأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ﴾ (٥١) ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ يَقِينٍ﴾ (٥٢) ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (٥٣) ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٥٤).

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٥٤﴾ الْأَنْبِيَاءُ هُمُ الَّذِينَ يُخْرِجُ الْقَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٥٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّبُّ الْعَظِيمُ ﴿٥٦﴾ قَالَ سَتُنَجِّى عَبْدًا أُفٍّ لَكَ مِنَ الْمَكِيدِينَ ﴿٥٧﴾ أَذْهَبَ بِكَ هَذَا قَالَتْ بَلَى وَأَنذَرْتُكَ مَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٥٨﴾ قَالَتْ إِنَّهُمَا عَلَى مَا نَزَّلُوا كَفُورٌ ﴿٥٩﴾ إِنَّهُمْ مِنْ سَائِقِينَ وَاللَّهُ يَسْمَعُ أَلْوَنَ السَّمْعِ ﴿٦٠﴾ الْأَعْلَاءُ أَعْلَى وَأَنْفَى مُسْلِمِينَ ﴿٦١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ الْأَعْيُنِ يَا أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٦٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلَى أَمْرًا وَأَنْفَى شِدِيدًا وَالْأَمْرُ إِلَيْنَا فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٦٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَعَاكُمْ فَرَدْتُمْ أَلْسِنَتَكُمْ وَيَعْمَلُونَ الْإِثْمَ بِهَدْيَةٍ مَقَاطِرَ يَوْمَ تَرْجَعُ الرُّسُلُونَ ﴿٦٤﴾

٥- لما جاءه بدره بالعدر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطاباً هيج به على الإصغاء إليه والقبول منه، فقال: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ وفي ضمن هذا أني أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة، بحيث أحطت به وهو خبر عظيم له شأن؛ فلذلك قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ يَقِينٍ﴾ والنبأ هو الخبر الذي له شأن والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه نبأ يقين لا شك فيه ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدي

إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفرغت قلب المخبر لتلقي الخبر، وأوجبت له التشوف التام إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهيج.

٦- ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك

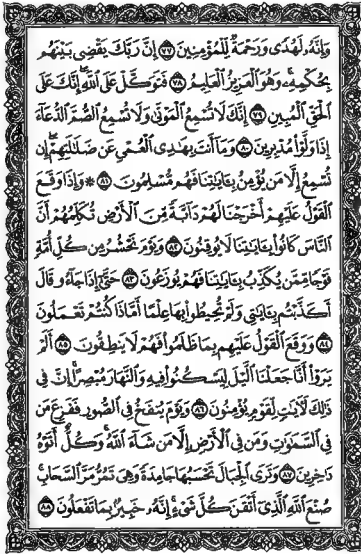
إِلَى رَبِّهِمْ أَتَمَرَّةً فَجَنَّاهُمْ وَأَرْسَلَتْ مِنْ حَقْلٍ مُجْتَمِعٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٥﴾ وَجَدْنَاهُمْ أَقْوَمًا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَقَدْ كُنَّا أَنْزَلْنَاهُمْ فِصْلًا مِمَّا يُذَكِّرُ السَّبِيلَ
فَقَدْ لَا يَحْقِرُونَ ﴿٦﴾ الْأَسْجُدَ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ يُخْرِجُ الْخَلْقَ فِي
السَّكِينِ وَالْأَرْضِ وَيُدْخِلُهُمْ فِيهَا مَوْتًا وَأَمَّا الْإِنْسَانُ فَإِنَّهُ
لَكَ الْكَافِرُ ﴿٧﴾ الْأَقْوَرُ لِلْعَرَبِ الْعَظِيمِ ﴿٨﴾ قَالَ سَتَقْلُبُ
أَمْرَهُمْ أَفَرَأَيْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٩﴾ أَذْهَبَ بِكَ نَبِيٌّ مِثْلًا
قَالَهُ الْيَهُودُ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ فَظَلُّوا فَمَا أَظْهَرُوا ﴿١٠﴾ فَكَانَ بَيْنَهُمَا
الْفِتْنَةُ إِلَى الْيَوْمِ ﴿١١﴾ كَذَبَتْ كُذَيْبٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ مِنْ مُلْكِنَ وَنَالَهُ
يَسُودُ أَهْلًا تَزَكَّرَ ﴿١٣﴾ الْأَعْدَاءُ عَوَّاهُ وَأُولُو مَسِيلِينَ ﴿١٤﴾
كَانَ بَيْنَهُمَا الْفِتْنَةُ الْكُبْرَى فِي أَمْرِ يَاسِينَ مَا كُنَّ قَاعِلَةً أَمْرًا حَقًّا
تَقْتَدِرُونَ ﴿١٥﴾ فَالْحَقُّ لِرَأْسِ الْأَوْتَمَرِ وَأُولُو رَأْسٍ مُسْتَدِيرُونَ ﴿١٦﴾
إِنِّي بِظُلْمِكُمْ خَافِيٌّ وَمَا أَكْفَرُنَّ ﴿١٧﴾ فَكَانَ فِي الْقُلُوبِ الْإِنْفَادُ عَوَّاهُ قَوْمَةٌ
أَنفَرُوا وَجَعَلُوا الْعَرَّةَ أَذْلَهُمَا أُولَئِكَ وَكَذَلِكَ يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾
وَالَى مَرَّةً إِلَيْهِمْ يَهْدِيهِمْ قَاطِرَةٌ جَمْعٌ تَرْجِعُ الْكُرْسِيُّونَ ﴿١٩﴾

٩- فأمر سبحانه بالتوكل عليه، وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل مصحح له مستدع لثبوته وتحققه، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾، فإن كون العبد

على الحق يقتضى تحقيق مقام التوكل على الله، والاكتفاء به، والإيواء إلى ركنه الشديد، فإن الله هو الحق، وهو ولي الحق وناصره ومؤيده، وكافي من قام به. فما لصاحب الحق أن لا يتوكل عليه؟ وكيف يخاف وهو على الحق؟ (طريق الهجرتين ٢٣٩).

📖 قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَ﴾ .

١٠- وصف الكافر بأنه ميت وأنه بمنزلة أصحاب القبور، وذلك أن القلب الحي هو الذي يعرف الحق ويقبله ويحبه ويؤثره على غيره، فإذا مات القلب لم يبق فيه إحساس ولا تمييز بين الحق والباطل ولا إرادة للحق وكراهة للباطل بمنزلة الجسد الميت الذي لا يحس بلذة الطعام والشراب وألم فقدهما. (شفاء العليل ١٠٤).



سورة القصص

﴿قوله تعالى: ﴿فَالنَّكَطَةُ إِلَى آلِ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.﴾

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَبْرٌ فِزِعَوْتَ وَكُنْ وَتَجِدُ هُنَا مِنْهُمْ مَأْكَلًا يَحْذَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَأَرْحَمَنَا إِلَهُ الْوُحُوشِ أَنْ أَضْعِفَهُ فَإِنَّا خَفِضْنَا عَلَيْهِ قَالِيبُ فِي السِّمِّ وَلَا تَخْفَى وَلَا تَحْزَنُ إِلَّا رَأَوْهُ الْيَابِ وَتَجَلَّوْهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤١﴾ فَالْنَّكَطَةُ إِلَى آلِ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَفُتُوهُ وَجُنُودَهُمْ مَأْكَلًا يَحْذَرُونَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَقْرِي وَإِنَّكَ لَا تَقْضِيهِمْ عَسَى أَنْ يَتَذَكَّرَ أَوْ تَنْجِدَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ أَوْهَنَ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٣﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمُومُسَ قَرِيبًا إِنَّ كَادَتْ لَتَكْتُمِي بِهٖ وَلَا أَنْ تَكْتُمَا عَلَى قَالِبِهَا إِلَهَ كُفْرٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَأَنَّ لَاحْتِزَامَهُ فُتُوهُ فُضِرَتْ بِهٖ عَنْ حُبِّ وَهْنٍ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ وَتَرْتَمَتْ عَلَى الْمُرَارِصِ مِنْ قَبْلِ قَالِكَ هَلْ أَدْلَكَ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَكَ لَعْنَةً وَهَمَّ لَهُ رَقِصُ حُوتٍ ﴿٤٦﴾ وَكَوَدَتْهُ إِلَى أَوْدَةٍ تَقْرَعُ عَيْنَاهَا وَلَا تَحْزَنُ وَلِتَقْلَعَنَّ أَنْ رَغَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَيْسَ أَنْ تَرْتَمِ لَا يَكْتُمُونَ ﴿٤٧﴾

١- هو تعليل لقضاء الله سبحانه بالتقاطه وتقديره له، فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره، فهو سبحانه قدر ذلك وقضى به ليكون لهم عدوا وحزنا، وذكر فعلهم دون قضائه لأنه أبلغ في كونه حزنا لهم وحسرة عليهم، فإن من اختار أخذ ما يكون هلاكه على يديه إذا أصيب به كان أعظم لحزنه وغمه وحسرتة من أن لا يكون فيه صنع ولا اختيار، فإنه سبحانه أراد أن يظهر لفرعون وقومه ولغيرهم من خلقه كمال قدرته وعلمه وحكمته الباهرة، وأن هذا الذي يذبح فرعون

الأبناء في طلبه هو الذي يتولى تربيته في حجره وبيته باختياره وإرادته ويكون في قبضته وتحت تصرفه فذكر فعلهم به في هذا أبلغ وأعجب من أن يذكر القضاء والقدر. (شفاء العليل ١٩١).

﴿قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.﴾

٢- دلت الآية على بطلان قول الطائفتين جميعا الذين يقولون إن أعمالهم قبل البعثة ليست قبيحة لذاتها، بل إنما قبحت بالنهي فقط، والذين يقولون إنها قبيحة ويستحقون عليها العقوبة عقلا بدون البعثة، فنظمت الآية بطلان قول الطائفتين ودلت على القول الوسط الذي اخترناه ونصرناه أنها قبيحة في نفسها ولا يستحقون العقاب

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيِرَ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾.

٣- قسم الناس إلى مستجيبين للرسول، ومتبع هواه، فمن ترك استجابته إذا ظهرت له سنة وعدل عنها إلى خلافها، فقد اتبع هواه، وهذا أكثر من أن يذكر.

٤- والمقصود أن الواجب على الخلق بعد وفاته هو الواجب عليهم في حياته سواء، ففرض من سمع كلامه أن يأخذ به ومن خفي عليه قوله سأل من يعرفه، فإذا سمعه ففرض عليه أن يأخذ به، فإن خفي عليه فغاية قول غيره أن يسوغ له الأخذ به فيكون

سائغ الاتباع بعد خفاء السنة لا واجب الاتباع ولا سيما مع ظهور السنة، وبالله التوفيق.

٥- فقسم الأمر إلى أمرين لا ثالث لهما: إما الاستجابة لله والرسول وما جاء به، وإما اتباع الهوى، فكل ما لم يأت به الرسول فهو من الهوى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَهْلِينَ﴾ ﴿٥٥﴾.

وكان رفع السلام متعينا لأنه حكاية ما قد وقع ونصب السلام في آية الفرقان متعينا؛

لأنه تعليم وإرشاد لما هو الأكمل والأولى للمؤمن أن يعتمد عليه إذا خاطبه الجاهل، فتأمل هذه الأسرار التي أدناها يساوي رحلة والله تعالى المحمود وحده على ما من به وأنعم.

(بدائع الفوائد ٢/ ١٥٩ ١٦٠).

📖 قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الِئْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢).

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الِئْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٤﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٠﴾

٦- خص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله وفيه سلطان البصر وتصرفه، وخص الليل بذكر السمع؛ لأن سلطان السمع يكون بالليل وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع في النهار؛ لأنه وقت هدوء الأصوات وخمود الحركات وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر، والنهار بالعكس: فيه قوة سلطان البصر، وضعف سلطان السمع، فقوله: أَفَلَا تَسْمَعُونَ راجع إلى قوله:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الِئْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ﴾

وقوله: ﴿وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ راجع إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ﴾. (مفتاح دار السعادة ٢٢٦).

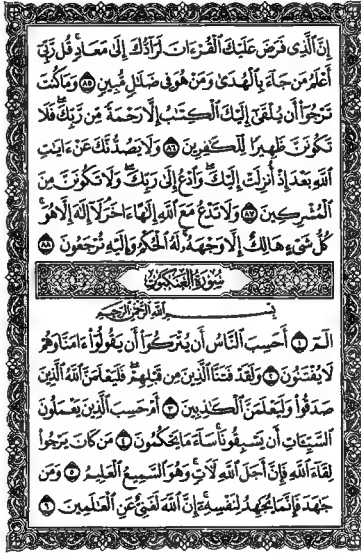
ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾.

٧- فلو كان إعطاء المال والقوة والجاه يدل على رضا الله سبحانه عمن آتاه ذلك

وشرف قدره وعلو منزلته عنده، لما أهلك من آتاه من ذلك أكثر مما آتى قارون، فلما أهلكهم مع سعة هذا العطاء وبسطته علم أن عطاءه إنما كان ابتلاء وفتنة لا محبة ورضا واصطفاء لهم على غيرهم. (شفاء العليل ٣٧).

قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

٨- فإن احتج مبتدع أو زنديق بقول الله عز وجل ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، وينحو هذا من متشابه القرآن، قيل له: كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقنا للبقاء لا للفناء ولا للهلاك، وهما من الآخرة لا من الدنيا، والهور العين لا يمتن عند قيام الساعة، ولا عند النفخة ولا أبدا؛ لأن الله عز وجل خلقهن للبقاء لا للفناء ولم يكتب

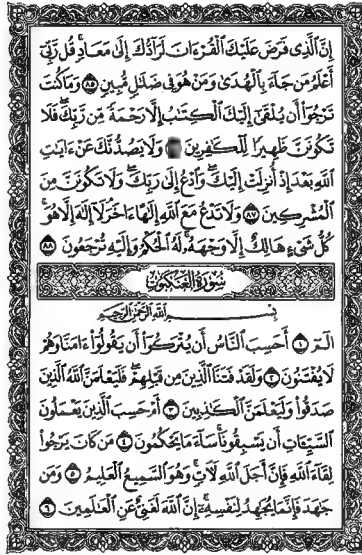


عليهن الموت، فمن قال خلاف هذا، فهو مبتدع وقد ضل عن سواء السبيل. (حادي الأرواح ٤٩-٥١).



سورة العنكبوت

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾



١- لما كان زمن التألم والعذاب فصره طويل فأنفاسه ساعات وساعاته أيام وأيامه شهور وأعوام، بلا سبحانه الممتحنين فيه بأن ذلك الابتلاء آجلا ثم ينقطع، وضرب لأهله آجلا للقائه يسليهم به ويشكر نفوسهم ويهون عليهم أثقاله، فقال: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٥).

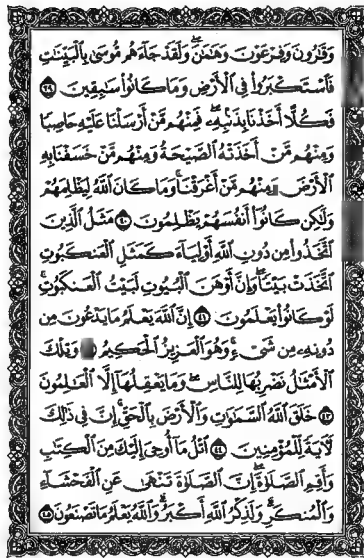
فإذا تصور العبد أجل ذلك البلاء وانقطاعه، وأجل لقاء المبتلى سبحانه وإثباته، هان عليه ما هو فيه وخف عليه حمله.

٢- ثم لما كان ذلك لا يحصل إلا بمجاهدة للنفس وللشيطان ولبني جنسه، وكان العامل إذا علم أن ثمرة علمه وتعبه يعود عليه وحده لا يشركه فيه غيره، كان أتم اجتهدا وأوفر سعيا، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٦).

٣- وأيضا فلا يتوهم متوهم أن منفعة هذه المجاهدة والصبر والاحتمال يعود على الله سبحانه، فإنه غني عن العالمين لم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم،

واحد لم ترسخ قدمه في الإيمان وعبادة الله، فهو من المفتونين المعذيين وإن فر من عذاب الناس له على الإيمان، ثم ذكر حال هذا عند نصرة المؤمنين وأنهم إذا نصرُوا الجأ إليهم وقال كنت معكم، والله سبحانه يعلم من قلبه خلاف قوله. (شفاء العليل ٢٤٥-٢٤٧).

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١).



٧- هذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه وحصوله على ضد مقصوده.

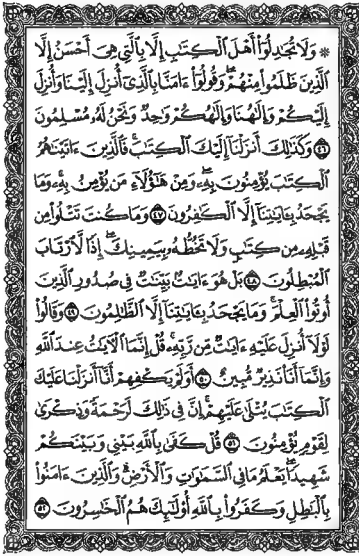
فإن قيل: فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت، فكيف نفى عنهم علم ذلك بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

فالجواب أنه سبحانه لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت، وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتا، فلو علموا ذلك لما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من

دونه يفيدهم عزا وقدرة، فكان الأمر بخلاف ما ظنوه. (إعلام الموقعين ١/ ٢٠٤-٢٠٥).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٤٣).

٨- ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس.



وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر. (بدائع الفوائد ٩/٤).

٩- وقد أخبر سبحانه عن أمثاله التي يضر بها لعباده يدلهم على صحة ما أخبر به أن أهل العلم هم المنتفعون بها المختصون بعلمها.

وفي القرآن بضعة وأربعون مثلاً، وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه يبكي ويقول: لست من العالمين. (مفتاح دار السعادة ٥١/١).

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ فِي صُورِ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (١٩).

١٠- إنه سبحانه مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم، وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم.

وسواء كان المعنى أن القرآن مستقر في صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها محفوظ وهو في نفسه آيات بينات، فيكون أخبر عنه بخبرين: أحدهما أنه آيات بينات، الثاني أنه محفوظ مستقر ثابت في صدور الذين أوتوا العلم، أو كان المعنى أنه آيات بينات في صدورهم، أي كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت في صدورهم. والقولان متلازمان ليسا بمختلفين، وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم في ضمنه الاستشهاد بهم، فتأمل. (مفتاح دار السعادة ٥٤).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّا فِي ذَلِكَ لَرَحِيمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥١).

١١ - ذكر هذا جواباً لطلبهم آية تدل على صدقه، فأخبر أنه يكفيهم من كل آية، فلو كان ما تضمنه من الإخبار عنه وعن صفاته وأفعاله واليوم الآخر يناقض العقل، لم يكن دليلاً على صدقه فضلاً عن أن يكون كافياً، وسيأتي في الوجه الذي بعد هذا بيان أن تقديم العقل على النقل يبطل كون القرآن آية وبرهاناً على صحة النبوة، والمقصود أن الله سبحانه تمم الدين وأكمله بنبيه وما بعثه به، فلم يحوج أمته إلى سواه، فلو عارضه العقل وكان أولى بالتقديم منه، لم يكن كافياً للأمة، ولا كان تاماً في نفسه.

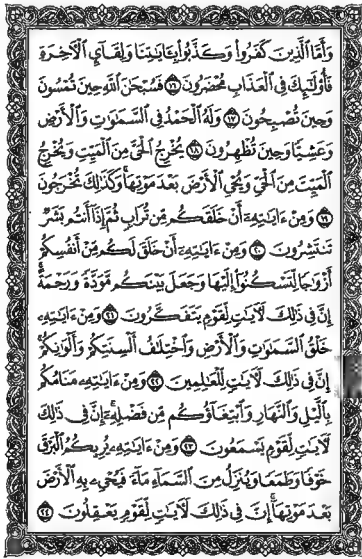


قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

١٢ - علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبيل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد، فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد. (الفوائد ٥٨).



[illegible]



٤- وجعل المنام بالليل والنهار للتصرف في المعاش وابتغاء فضله آيات لقوم يسمعون وهو سمع الفهم.

٥- وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له مما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم وقيامهم من قبورهم كما أحياهم سبحانه بعد موتهم وأقامهم للتصرف في معاشهم، فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل وأصغى إليه واستدل بهذه الآية عليه.

٦- وجعل إراءتهم البرق وأنزل الماء من السماء وإحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون، فإن هذه أمور مرتبة بالإبصار مشاهدة بالحس، فإذا نظر فيها يبصر قلبه وهو عقله، استدلل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته إمكان ما أخبر به من حياة الخلائق بعد موتهم كما أحيأ هذه الأرض بعد موتها، وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب وهو العقل، فإن الحس دل على الآية، والعقل دل على ما جعلت له آية، فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل فقال:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٤) فتبارك الذي جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما في الصدور. (مفتاح دار السعادة ٢٠٣- ٢٠٤).

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

٧- وهذا يعم جميع الناس، فعلم أن الله سبحانه فطر الناس كلهم على فطرته المذكورة، وأيضا فإنه أضاف الفطرة إليه إضافة مدح لا إضافة ذم، فعلم أنها فطرة

وَلَا مَسَّ النَّاسَ مِنْ عَوَارِفِهِمْ شَيْئًا وَلَهُمْ آيَاتُهَا فَهُمْ
يَنْتَبِهُونَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ يُكْفَرُوا بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَوْرَثَهُمُ الْبَنَاتِ وَأَصْلَحَ
شُلُوكَهُمْ فَجَلَائِلُهَا كَالَّذِي أُورَثُوا ﴿١١﴾ وَإِذَا قِيلَ
لِلنَّاسِ خُذُوا زِينَتَكُمْ لَأُفَصِّلَ الْآيَاتِ لَكُمْ
وَلَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَخَسَّعُوا فِي الْمَسَاجِدِ
فَتَخَسَّعُوا فَإِنْ كُنْتُمْ بَنِينَ أَوْ نِسَاءً أَوْ
كُنْتُمْ مُرِيدِينَ ﴿١٣﴾ فَخُذُوا زِينَتَكُمْ
فِي الْمَسَاجِدِ وَفِي الْغُلُوقِ وَأَقَامِ الصَّلَاةَ
وَآكُلُوا وَشَرِبُوا لَا تُفْسِدُوا آيَاتِ اللَّهِ
فَإِنَّهُ يَفْضَحُ السَّيْرَ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾
وَلَمَّا سَأَلْنَا الَّذِينَ أُورَثُوا قُلُوبَهُمْ
قَالُوا نَحْنُ مُرِيدُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ لَا تُفْسِدُوا
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا كُنْتُمْ تَفْسِدُونَ ﴿١٦﴾

٨- ونَزَلَ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أحوال العالم وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أخرى متلازمة، بعضها آخذ برقاب بعض، وكلما أحدث الناس ظلما وفجورا، أحدث

٩- والظاهر - والله أعلم - أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيَذِقَهِمْ بَعْضُ الَّذِي عَمِلُوا﴾ فهذا حالنا، وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا، ولو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة. (الجواب الكافي ٨٩ - ٩٠).

١٠- فهذا حق أحقه على نفسه، فهو طلب وإيجاب على نفسه بلفظ «الحق»،

ولفظ «على». (بدائع الفوائد ٢/ ١٦٢).



سورة لقمان

قوله تعالى: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ .

١- فله ما أحلى هذا اللفظ وأوجزه وأدله على بطلان الشرك، فإنهم إن زعموا أن آلهتهم خلقت شيئا مع الله، طولبوا بأن يروه إياه، وإن اعترفوا بأنها أعجز وأضعف وأقل من ذلك كانت ألوهيتها باطلا ومحالا. (الصواعق المرسلة ٢/ ٤٦٥).

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾.

٢- كل من الصحابة منيب إلى الله فيجب اتباع سبيله، وأقواله واعتقاداته من أكبر سبيله، والدليل على أنهم منيبون إلى الله تعالى أن الله تعالى قد هداهم وقد قال: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].
(إعلام الموقعين ٤/ ١٦٣).

قوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ أَقِيمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾.

٣- أمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه وأمر غيره به، وكذلك نهيه عن المنكر، أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه فيه وغيره، وأما من حيث اللزوم الشرعي، فإن الأمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهى. (عدة الصابرين ٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٧).

المنيف ٣٧ ٣٨).

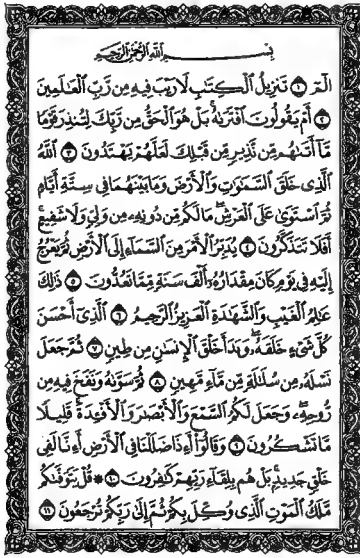
سورة السجدة

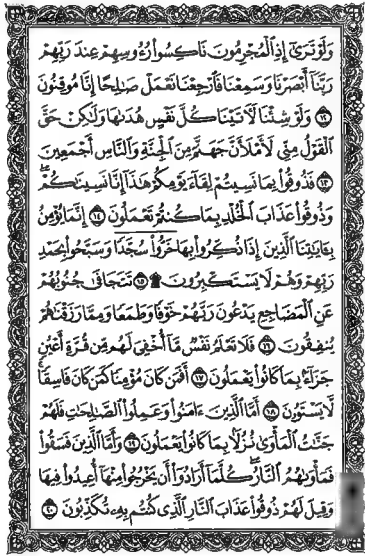
قوله تعالى: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾

١- جعل سبحانه من أعظم أدلة صدقه نفي الريب عنه في مثل هذه المطالب التي هي أصل مطالب بني آدم وأجل معارفهم وعلومهم على الإطلاق، فلو كان فيه ما يخالف صريح العقل لكان فيه أعظم الريب، ولما اطمأنت به القلوب ولا ثلجت به الصدور. (الصواعق المرسله ١١٧).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾

٢- تأمل ما في هذه الآيات من الرد على طوائف المعطلين والمشركين فقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الفرقان: ٥٩] يتضمن إبطال قول الملاحدة القائلين بقدم العالم، وأنه لم يزل، وأن الله سبحانه لم يخلقه بقدرته ومشيتته، ومن أثبت منهم وجود الرب جعله لازماً لذاته أولاً وأبداً غير مخلوق، كما هو قول ابن سينا والنصير الطوسي وأتباعهما من الملاحدة الجاحدين لما اتفقت عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام والكتب وشهدت به العقول والفطر.





٣- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾

[الأعراف: ٥٤]. يتضمن إبطال قول المعطلة والجهمية الذين يقولون ليس على العرش شيء سوى العدم، وأن الله ليس مستويا على عرشه، ولا ترفع إليه الأيدي، ولا يصعد إليه الكلم الطيب، ولا رفع المسيح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إليه، ولا عرج برسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا ينزل من عنده جبريل وغيرهم من فوقهم، ولا يراه المؤمنون في الدار الآخرة عيانا بأبصارهم من

فوقهم، ولا تجوز الإشارة إليه بالأصابع إلى فوق كما أشار إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أعظم مجامعه في حجة الوداع وجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكبها إلى الناس ويقول: اللهم أشهد. (اجتماع الجيوش الإسلامية ٢٨).

وقوله تعالى: ﴿تَجَافَىٰ جُتُوهُمْ عَنْ الْمَصَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦) ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧).

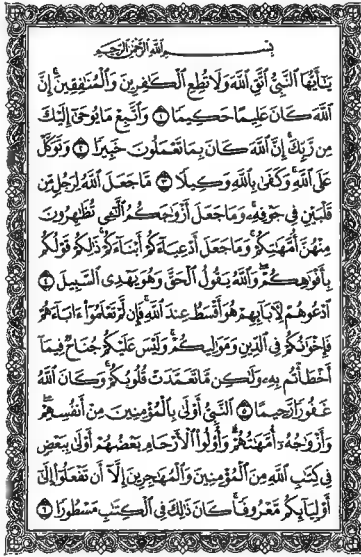
٤- تأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم حين يقوموا إلى صلاة الليل بقرة الأعين في الجنة. (حادي الأرواح ٢٢٣).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِآمِرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (١١).

٥- أخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات. (زاد المعاد ١٠/٣).

سورة الأحزاب

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ (١) وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ (٣)﴾



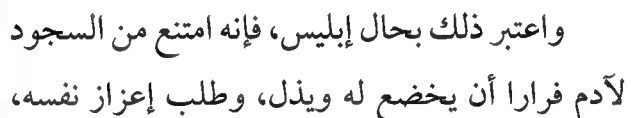
١- تجد تحت هذا اللفظ أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة، إذا مال بها إلى جهة لم يمل إلى غيرها، وليس للعبد قلبان يطيع الله ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما والآخر لغيره، بل ليس إلا قلب واحد، فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى ربه، وإلا انصرف ذلك إلى غيره، ثم استطرد من ذلك إلى أنه سبحانه لم يجعل زوجة الرجل أمه واستطرد منه إلى أنه لم يجعل دعيه ابنه، فانظر ما أحسن هذا التأصيل وهذا

الاستطراد الذي تسجد له العقول والألباب. (روضة المحبين ٢٧٢ - ٢٧٥).

قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۝ (٢٤)﴾

٢- هو دليل على أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين، وهذه الأولوية تتضمن أموراً:

منها: أن يكون أحب إلى العبد من نفسه، لأن الأولوية أصلها الحب، ونفس العبد أحب له من غيره، ومع هذا يجب أن يكون الرسول أولى به منها وأحب إليه منها، فبذلك يحصل له اسم الإيمان. ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة من الرضا بحكمه والتسليم لأمره وإيثاره على ما سواه.



[illegible]

٨- نهاهن عن الخضوع بالقول، فربما ذهب الوهم إلى الإذن في الإغلاظ في القول والتجاوز، فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]. (إعلام الموقعين ٤/ ٢٠٤).

أمرهن أن لا يلن في كلامهن، كما تلين المرأة المعطية الليان في منطقها، فيطمع الذي في قلبه مرض الشهوة، ومع ذلك فلا يخشن في القول، بحيث يلتحق بالفحش، بل يقلن قولاً معروفاً. (إغاثة اللهفان ١- ١٤).



قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

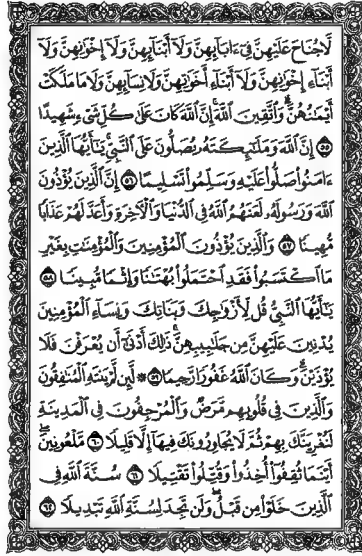
٩- دل هذا على أنه إذا ثبت لله ورسوله في كل مسألة من المسائل حكم طلبي أو خبري، فإنه ليس لأحد أن يتخير لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب إليه، وأن ذلك ليس لمؤمن ولا مؤمنة أصلاً، فدل على أن ذلك مناف للإيمان.

١٠- فإن الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع، فضلاً عن أن يعارض بها النصوص وتقدم عليها، عياذاً بالله من الخذلان. (الرسالة التبوكية ٤٤- ٤٥).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢).

١١- هذه الصلاة منه تَبَارَكَ وَتَعَالَى ومن ملائكته إنما هي سبب الإخراج لهم من الظلمات إلى النور. فأَي خير لم يحصل لهم، وأي شر لم يندفع عنهم؟ فيا حسرة

الغافلين عن ربهم ماذا حرموا من خيره وفضله! وبالله التوفيق. (الوابل الصيب ١٠٠).

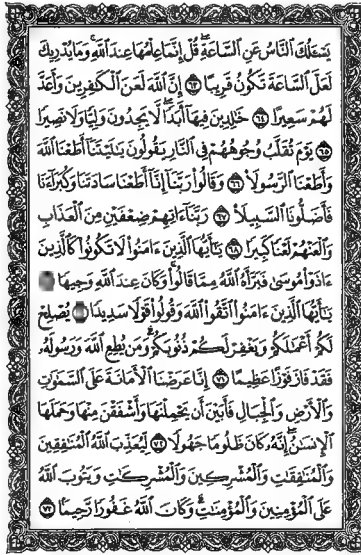


قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿٨٦﴾.

١٢- إن الله سبحانه أمر بالصلاة عليه عقب إخباره بأنه وملائكته يصلون عليه، والمعنى أنه إذا كان الله وملائكته يصلون على رسوله، فصلوا أنتم عليه فأنتم أحق بأن تصلوا عليه وتسلموا تسليماً؛ لما نالكم ببركة رسالته ويمن سفارته من شرف الدنيا والآخرة. (جلاء الأفهام ١٢٥-١٢٦).

في الفوائد والثمرات الحاصلة بالصلاة عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

- * منها: امتثال أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
- * ومنها: موافقته سبحانه في الصلاة عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن اختلفت الصلاتان فصلاتنا عليه دعاء وسؤال وصلاة الله تعالى عليه ثناء وتشريف كما تقدم.
- * ومنها: موافقة ملائكته فيها.
- * ومنها: حصول عشر صلوات من الله على المصلي مرة.
- * ومنها: أنه يرفع عشر درجات.
- * ومنها: أنه يكتب له عشر حسنات.
- * ومنها: أنه يمحي عنه عشر سيئات.
- * ومنها: أنه يرجى إجابة دعائه إذا قدمها أمامه، فهي تصاعد الدعاء إلى عند رب العالمين.



* ومنها: أنها سبب لشفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قرنها بسؤال الوسيلة له أو أفردها كما تقدم حديث رويغ بذلك.

* ومنها: أنها سبب لغفران الذنوب كما تقدم.

* ومنها: أنها سبب لكفاية الله العبد ما أهمه.

* ومنها: أنها سبب لقرب العبد منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة.

* ومنها: أنها سبب لرد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلاة والسلام على المصلي والمسلم عليه.

* ومنها: أنها سبب ل دوام محبته للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتم إلا به؛ لأن العبد كلما أكثر من ذكر المحبوب واستحضاره في قلبه واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه، تضاعف حبه وتزايد شوقه إليه واستولى على جميع قلبه.

* ومنها: أنها متضمنة لذكر الله تعالى وشكره ومعرفة إنعامه على عبده بإرساله، فالمصلي عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تضمنت صلاته على ذكر الله وذكر رسوله وسؤاله أن يجزيه بصلاته عليه ما هو أهله. (جلاء الأفهام ٣٣٥-٣٤٣ باختصار).

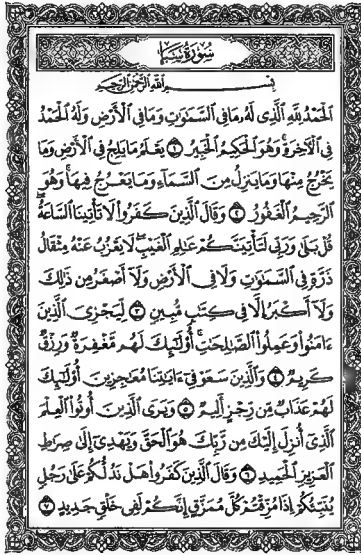
قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ (١٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ (١٧) رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضَعُفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَافَةِ لَعَنَّا كَبِيرًا (١٨).

١٣- تمنى القوم طاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم ذلك واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء

[illegible]

سورة سبأ

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝٢﴾.



١ - أما تقديم (الرحيم) على (الغفور) في موضع واحد وهو أول سبأ، ففيه معنى غير ما ذكره يظهر لمن تأمل سياق أوصافه العلى وأسمائه الحسنى في أول السورة إلى قوله: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾.

وقدم (الرحيم) في هذا الموضع لتقدم صف، فحسن ذكر الرحيم بعده ليقترن به فيطابق قوله ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة لتضمنها دفع الشر وتضمن

ما قبلها جلب الخير، ولما كان دفع الشر مقدما على جلب الخير، قدم اسم (الغفور) على (الرحيم) حيث وقع ولما كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه (الرحيم) لأجل ما قبله قدم على (الغفور). (بدائع الفوائد ١/ ٧٩).

قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٦﴾.

٢ - هذا دليل ظاهر أن الذي نراه معارضا للنقل ويقدم العقل عليه ليس من الذين أوتوا العلم في قبيل ولا دبير ولا قليل ولا كثير. (الصواعق المرسله ٣/ ٨٥٠).

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أُوذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ قُلْ مَنْ يَرْفَعُ عَنِّي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَيُحْيِي اللَّهَ قُلْ أَتُفَكِّرُونَ عَنْ أَجْرِهِمْ أَوْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَنُذِيرٍ لِّلنَّاسِ بَيِّنَاتٍ لِّمَن يَخَافُ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَنُذِيرٍ لِّلنَّاسِ بَيِّنَاتٍ لِّمَن يَخَافُ ﴿٢٥﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْتَهِزْ بِمَنَازِلِهِمْ وَيُنْزِلْ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٢٦﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٢٧﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٢٨﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٢٩﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٣١﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٣٢﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٣٣﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٣٤﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٣٥﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٣٦﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٣٨﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٣٩﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٤٠﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٤١﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٤٢﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٤٤﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٤٥﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٤٦﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٤٧﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٤٨﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٤٩﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٥٠﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٥١﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٥٢﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٥٣﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٥٤﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٥٥﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٥٦﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٥٧﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٥٨﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٥٩﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٦٠﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٦١﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٦٢﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٦٣﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٦٤﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٦٥﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٦٧﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٦٨﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٦٩﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٧٠﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٧١﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٧٢﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٧٣﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٧٤﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٧٥﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٧٦﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٧٧﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٧٨﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٧٩﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٨٠﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٨١﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٨٢﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٨٣﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٨٤﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٨٥﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٨٦﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٨٧﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٨٨﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٨٩﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٩٠﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٩١﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٩٢﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٩٣﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٩٤﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٩٥﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٩٦﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٩٧﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٩٨﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿٩٩﴾ قُلْ لِّمَن يَشَاءُ يَنْزِلُ فِيهَا مِمَّا يَخْتَارُ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أُوذِنَ لَهُ، حَقٌّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣).

٣- المشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عباده منه،

فإن لم يكن مالكا كان شريكا للمالك، فإن لم يكن شريكا له كان معينا له وظهيرا، فإن لم يكن معينا ولا ظهيرا كان شفيعا عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيا مترتبا، منتقلا من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة، التي يظنها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نورا وبرهانا ونجاة، وتجريدا للتوحيد، وقطعا لأصول الشرك وموداه لمن عقلها، والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن. (مدارج السالكين ١/ ٣٤٣).

فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين بمجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك وسدتها عليهم أحكم سد وأبلغه، وأخبر أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فهو الذي يأذن للشافع، فإن لم يأذن له لم يتقدم بالشفاعة بين يديه كما يكون في حق

المخلوقين، فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها.

وأما من كل ما سواه فقير إليه بذاته وهو الغني بذاته عن كل ما سواه فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه. (الصواعق المرسلة ٢/ ٤٦١).

قَالَ الْبَرُّ اسْتَغْفِرُكَ يَا رَبِّ اسْتَغْفِرُكَ اسْتَغْفِرُكَ اسْتَغْفِرُكَ اسْتَغْفِرُكَ اسْتَغْفِرُكَ
عَنِ الْمُنَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكَ بِكَ كَلِمَةُ مُخْبِرِينَ ۖ وَقَالَ الْبَرُّ
اسْتَغْفِرُكَ يَا رَبِّ اسْتَغْفِرُكَ اسْتَغْفِرُكَ اسْتَغْفِرُكَ اسْتَغْفِرُكَ اسْتَغْفِرُكَ
تَأْمُرُونَنِي أَنْ أَكْفُرَ بِاللهِ وَبِخَلْقِهِ وَأَنْدَادَهُ وَأَنْسُرَ الْقَدَمَةَ
لَكَ وَأَنَا الْعَذَابُ وَجَسَدُكَ الْأَعْلَى فِي أَهْلِ الْبَرِّ كَثُرُوا
هَلْ يُجِزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ وَمَا أُرْسِلْتُ فِي قَوْمٍ
وَمِنْ تَوْبَةٍ لَا قَالَ مُتَوَكِّفًا إِنْ بَدَأَ أَنْ يَنْصَحَ بِهِ كَثُرُوا ۖ
وَقَالُوا نَحْنُ أَكْبَرُ مِنْكُمْ لَا تَأْمُرُنَا وَلَا تَنْصَحُ بِمَعْدُونٍ ۖ
قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنْ أَنتُمْ
أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۖ وَمَا أَمْرُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَأْتِي مُتَوَكِّفًا
عِنْدَنَا لِنَقُولَ لَا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا قَالُوا لَيْكَ الْهَمُّ وَالْغَمُّ
الضَّعِيفُ يَسْتَغْفِرُكَ وَيُغْفِرُكَ الْغُفْرَانُ وَالْغُفْرَانُ ۖ وَالْبَرُّ
يَسْتَعِينُ فِي الْبَرِّ مَكْرُومِينَ أَوْلَيْكَ فِي الْعَذَابِ مُخْبِرُونَ ۖ
قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ
وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۖ

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ۖ﴾.

٤- أي: لا قريب عنده إلا من آمن وعمل صالحا، سواء كان له مال وولد أو لم يكن له، والانقطاع فيه أظهر، فإنه تعالى نفى قرب الناس إليه بأموالهم وأولادهم، وأثبت قربهم عنده بإيمانهم وعملهم الصالح، فتقدير (لكن) ها هنا أظهر من تقدير الاتصال في هذا الاستثناء.

وإذا تأملت الكلام العربي رأيت كثيرا منه واردا على المعنى لوضوحه، فلو ورد على قياس اللفظ مع وضوح المعنى، لكان عيا، وبهذه القاعدة تزول عنك إشكالات كثيرة ولا تحتاج إلى تكلف التقديرات التي إنما عدل عنها المتكلم لما في ذكرها من التكلف، فقدرك المتكلفون لنطقه ما فر منه، وألزموه بما رغب عنه، وهذا كثير في تقديرات النحاة التي لا تخطر ببال المتكلم أصلا ولا تقع في تراكيب الفصحاء، ولو سمعوها لاستهجنوها. (بدائع الفوائد ٣/ ٧١-٧٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۖ﴾.

[illegible]

سورة فاطر

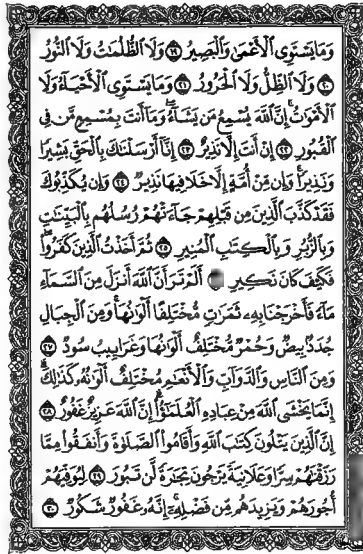
﴿قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾﴾

١- الأمر باتخاذة عدوا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته، ومجاهدته، كأنه عدو لا يفتر ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس. (زاد المعاد ٦/٣).

﴿قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾﴾

٢- هذا الخطاب بالفقر إليه للأرواح والأبدان ليس هو للأبدان فقط، وهذا الغنى التام لله وحده لا يشركه فيه أحد. (الروح ١).

﴿قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾﴾ وَلَا الظُّلُمْتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُمُ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿٢٢﴾

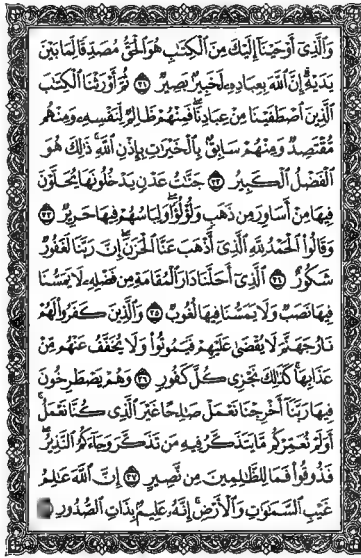


٣- جعل من اهتدى بهداه واستنار بنوره بصيرا حيا في ظل يقيه من حر الشبهات والضلال والبدع والشرك مستنيرا بنوره والآخر أعمى ميتا في حر الكفر والشرك والضلال منغمسا في الظلمات. (اجتماع الجيوش الإسلامية ٢٤).

﴿قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾﴾

٤- يقتضي الحصر من الطرفين أن لا يخشاه إلا العلماء ولا يكون عالما إلا من يخشاه، فلا يخشاه إلا

عالم، وما من عالم إلا وهو يخشاه، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية دلت على انتفاء العلم.



٥- ومقام الخشية جامع لمقام المعرفة بالله، والمعرفة بحق عبوديته، فمتى عرف الله وعرف حقه اشتدت خشيته له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته، قال النبي صلى الله عليه وسلم «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية». (مدارج السالكين ١/ ١٣٦-١٣٧).

📖 قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ نَعْمَ رُكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ﴾.

٦- من لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه وتدارك فارطه واغتنام بقية أنفاسه، فيعمل على حياة قلبه وحصول النعيم المقيم، وإلا فلا خير له في حياته، فإن العبد على جناح سفر: إما إلى الجنة، وإما إلى النار، فإذا طال عمره وحسن عمله كان طول سفره زيادة له في حصول النعيم واللذة، فإنه كلما طال السفر أيها كانت الصبابة أجل وأفضل، وإذا طال عمره وساء عمله كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه ونزولا له إلى أسفل فالمسافر إما صاعد وإما نازل وفي الحديث المرفوع: خيركم من طال عمره وحسن عمله، وشركم من طال عمره وقبح عمله. (الفوائد ١٨٩).

📖 قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤١).

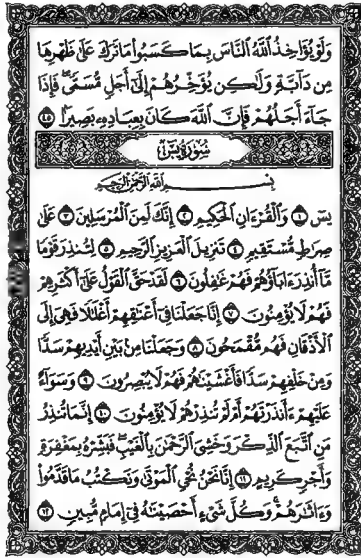
٧- في الآية إشعار بأن السماوات والأرض تهم وتستأذن بالزوال لعظم ما يأتي به العباد، فيمسكها بحلمه ومغفرته، وذلك حبس عقوبته عنهم وهو حقيقة صبره تعالى،

فالذي عنه الإمساك هو صفة الحلم، والإمساك هو الصبر وهو حبس العقوبة، ففرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها، فتأمله. (عدة الصابرين ٢٧٧-٢٧٨).



هُوَ الَّذِي جَعَلَ كَعَلْفٍ فِي الْأَرْضِ مَنْ كَرِهَ قَتْلَهُ كَثُرَ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿١٧٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ الْكُفْرِ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرَأَيْتُمْ مَا كَلَفُوا مِنْ الْأَرْضِ أَنْ تَهْتَرِكُوا فِي السُّكُونِ أَنْ يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْكُمْ فَتَرْكَبُوا عَلَيْهِمْ وَمَنْ يَتَّبِعْ أَهْلَ الْقُلُوبِ فَتَأْتِهِمْ بِغَضَبٍ مِنْ الْأَرْضِ وَمِنْ رَبِّهَا ﴿١٧٨﴾ إِنَّ اللَّهَ يُنْفِثُ السُّكُونِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَ وَلَئِنْ رَأَيْتَ أَنَّ أَسْكَكًا مِنْ أَحْوَرٍ مَعْدِيهِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا غَفُورًا ﴿١٧٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ نَافِلَةً تَزِيدُكُمْ أَمْثَلًا مِنْ إِيذَى الْأَمْرِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ تَزِيدُ مَا زَادَهُمْ إِلَّا تَغُورًا ﴿١٨٠﴾ أَسْجَدُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرًا السَّيِّئِ وَلَا يَجْعَلِ اللَّهُ لِلشَّيْءِ إِلَّا أَهْلًا يَهْدِيهِمْ لِيُظْهَرُوا لَأَسْمَاءَ الْأَكْلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسَانَ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسَانَ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿١٨١﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَسَدًا مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿١٨٢﴾

سورة يس



قوله تعالى: ﴿يَس ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝﴾.

١- الصحيح أن ﴿يَس﴾ بمنزلة ﴿حَم﴾ و﴿وَالْقُرْآنِ﴾ ليست أسماء من أسماء النبي، وأقسم سبحانه بكتابه على صدق رسوله وصحة نبوته ورسالته، فتأمل قدر المقسم به والمقسم عليه.

٢- فأخبر سبحانه عن الموانع التي منعهم بها من الإيمان عقوبة لهم ومثلها بأحسن تمثيل وأبلغه

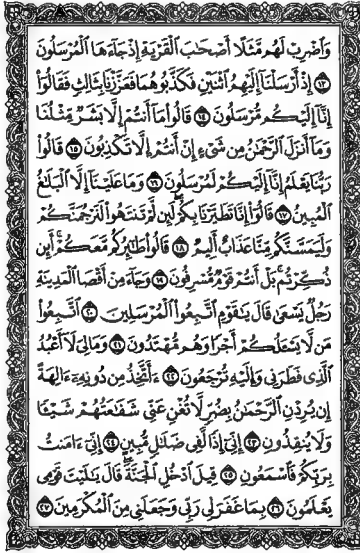
وذلك حال قوم قد وضعت الأغلال العريضة الواصلة إلى الأذقان في أعناقهم وضمت أيديهم إليها وجعلوا بين السدين لا يستطيعون النفوذ من بينهما وأغشيت أبصارهم فهم لا يرون شيئاً.

وإذا تأملت حال الكافر الذي عرف الحق وتبين له، ثم جحدته وكفر به وعاداه أعظم معاداة وجدت هذا المثل مطابقاً له أتم مطابقة، وأنه قد حيل بينه وبين الإيمان كما حيل بين هذا وبين التصرف، والله المستعان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝﴾.

٣- فإن قلت: قد استفيد هذا من قوله ﴿قَدَّمُوا﴾ فما أفاد قوله: ﴿وَأَثَرَهُمْ﴾ على قوله؟ قلت: أفاد فائدة جلييلة، وهو أنه سبحانه يكتب ما عملوه وما تولد من

أعمالهم، فيكون المتولد عنها كأنهم عملوه في الخير والشر وهو أثر أعمالهم، فآثارهم هي آثار أعمالهم المتولدة عنها، وهذا القول أعم من قول مقاتل، وكأن مقاتلا أراد التمثيل والبيان على عادة السلف في تفسير اللفظة العامة بنوع، أو فرد من أفراد مدلولها تقريبا وتمثيلا لا حصرا وإحاطة.



قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ

﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ

﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يَرِدْني الرَّحْمَنُ

بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ

﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

٤- نبه على موجب الاتباع وهو كون المتبوع

رسولا لمن لا ينبغي أن يخالف ولا يعصى، وأنه على

هداية ونبه على انتفاء المانع وهو عدم سؤال الأجر، فلا يريد منكم دنيا ولا رئاسة،

فموجب الاتباع كونه مهتديا، والمانع منه منتف، وهو طلب العلو في الأرض والفساد

وطلب الأجر.

ثم قال: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾

أخرج الحجة عليهم في معرض المخاطبة لنفسه تأليفا لهم، ونبه على أن عبادة

العبد لمن فطره أمر واجب في العقول مستهجن تركها قبيح الإخلال بها، فإن خلقه لعبده

أصل إنعامه عليه ونعمة كلها بعد تابعة لإيجاده وخلقها وقد جبل الله العقول والفطر

على شكر المنعم ومحبة المحسن ولا يلتفت إلى ما يقوله نفاة التحسين والتقبيح في

ذلك، فإنه من أفسد الأقوال وأبطلها في العقول والفطر والشرائع. (الصواعق المرسلة ٢/ ٤٩٤-٤٩٧).



قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ ٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ ٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ۝ ٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ

أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝ ٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ ٨٢﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ ٨٣﴾

تضمنت هذه الآيات عشرة أدلة

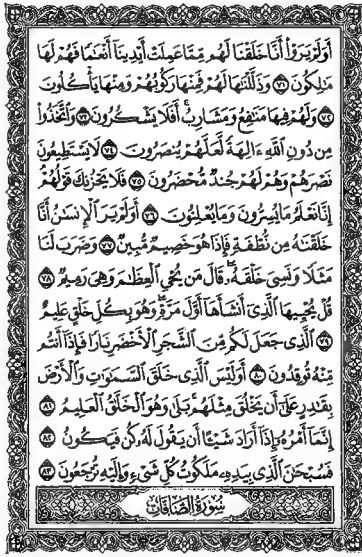
٥ - أحدها قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [يس: ٧٧]. فذكره مبدأ خلقه ليدله به على النشأة الثانية.

٦ - ثم أخبر أن هذا الجاحد لو ذكر خلقه لما ضرب المثل، بل لما نسي خلقه ضرب المثل؛ فتحت قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ [يس: ٧٨] ألطف جواب وأبين دليل، وهذا كما تقول لمن جحدك أن تكون قد أعطيته شيئاً: فلان جحدني بالإحسان إليه، ونسي الثياب التي عليه، والمال الذي معه، والدار التي هو فيها. حيث لا يمكنه جحد أن يكون ذلك منك.

٧ - ثم أجيب عن سؤاله بما يتضمن أبلغ الدليل على ثبوت ما جحده فقال:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، فهذا جواب واستدلال قاطع.

٨- ثم أكد هذا المعنى بالإخبار بعموم علمه لجميع الخلق، فإن تعذر الإعادة عليه إنما يكون لقصور علمه أو قصور في قدرته، ولا قصور في علم من هو بكل خلق عليم، ولا قدرة فوق قدرة من خلق السماوات والأرض، وإذا أراد شيئاً قال له كن فيكون وييده ملكوت كل شيء، فكيف تعجز قدرته وعلمه عن إحيائكم بعد مماتكم ولم نعجز عن النشأة الأولى ولا عن خلق السماوات والأرض؟



٩- ثم أرشد عباده إلى دليل واضح جلي متضمن للجواب عن شبه المنكرين بالطف الوجوه وأبينها وأقربها إلى العقل، فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُؤْفَقُونَ﴾ [يس: ٨٠]، فإذا علمنا أن الله تعالى خلق الإنسان من طين من نطفة فإذا هو خصيم مبين، وصبرنا لنا مثلاً وليس خلقه، قال من يحيى المظلمة وهو ربه، ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم تؤفكون]، أولئك الذين خلق السموات والأرض وقد ركب على خلقها من قبل وهو الخالق السليم، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [فَيَكُونُ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُجْمَعُونَ]، ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ أَسْفَاطٍ﴾ [يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ أَسْفَاطٍ]

يمكن أن تحل فيه الحياة بعد ذلك لتضاد ما بينهما. وهذه شبهة تليق بعقول المكذبين الذين لا سمع لهم ولا عقل؛ فإن الحياة لا تجامع الموت في المحل الواحد ليلزم ما قالوا، بل إذا أوجد الله فيه الحياة وطبعها، ارتفع الموت وطبعه، وهذا الشجر الأخضر طبعه الرطوبة والبرودة تخرج منه النار الحارة اليابسة.

١٠- ثم ذكر ما هو أوضح للعقول من كل دليل، وهو خلق السماوات والأرض مع عظمها وسمعتها، وأنه لا نسبة للخلق الضعيف إليهما، ومن لم تعجز قدرته وعلمه عن

هذا الخلق العظيم الذي هو أكبر من خلق الناس كيف تعجز عن إحيائهم بعد موتهم؟

١١- ثم قرر هذا المعنى بذكر وصفين من أوصافه مستلزمين لما أخبر به، فقال:

﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، فكونه خلاقا عليمًا يقتضي أن يخلق ما يشاء، ولا يعجزه ما أَرَادَهُ من الخلق.



١٢- ثم قرر هذا المعنى بأن عموم إرادته وكمالها

لا يقصر عنه ولا عن شيء أبداً، فقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. فلا يمكنه الاستعصاء عليه، ولا يتعذر عليه، بل يأتي طائعا منقادا لمشيئته وإرادته.

١٣- ثم زاده تأكيدا وإيضاحا بقوله: ﴿فَسُبْحَانَ

الَّذِي يَدْرِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣]. فتنزه نفسه عما نطق به أعداؤه المنكرون للمعاد معظما لها بأن ملك

كل شيء بيده يتصرف فيه تصرف المالك الحق في مملوكه الذي لا يمكنه الامتناع عن أي تصرف شاء فيه.

١٤- ثم ختم السورة بقوله: ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣]. كما أنهم ابتداءً منه هو

فكذلك مرجعهم إليه، فمنه المبدأ وإليه المعاد، وهو الأول والآخر؟ وأن إلى ربك المنتهى. (إعلام الموقعين ١/ ١٨٩-١٩١).

فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة أو بمثلها في ألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز والاختصار ووضوح الدلالة وصحة البرهان، لألفى نفسه ظاهر العجز منقطع الطمع يستحي الناس من ذلك، فإنه سبحانه

افتتح هذه الحجة بسؤال أورده الملحد اقتضى جوابا، فكان في قوله سبحانه: ﴿وَنَسِيَ



خَلَقَهُ، ﴿ما وفَّى بالجواب وأقام الحجة وأزال الشبهة، لولا ما أراد سبحانه من تأكيد حجته وزيادة تقريرها، وذلك أنه سبحانه أخبر أن هذا الملحد السائل عن هذه المسألة لو لم ينس خلق نفسه وبدأ كونه وذكر خلقه، لكانت فكرته فيه كافية في جوابه مسكته له عن هذا السؤال، ثم أوضح سبحانه ما تضمنه قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلَقَهُ﴾ وصرح به جوابا له عن مسألته فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩].

فاحتج بالإبداء على الإعادة وبالنشأة الأولى

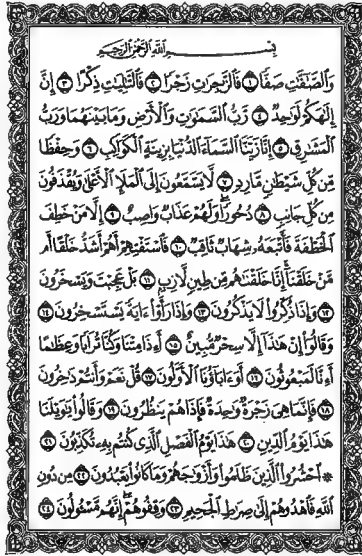
على النشأة الأخرى إذ كل عاقل يعلم علما ضروريا أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز.

ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر الأصغر، وأن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل، فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر.

فمن قدر على حمل قنطار، فهو على حمل أوقية أشد اقتدارا، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١].



سورة الصافات



قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ١﴾ فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا ٢ ﴿فَالَّتِيلَاتِ ذِكْرًا ٣﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ٤ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ٥﴾.

١- خص المشارق ها هنا بالذكر إما لدالتها على المغارب إذ الأمر أن المتضايقان كل منهما يستلزم الآخر، وإما لكون المشارق مطلع الكواكب ومظاهر الأنوار، وإما توطئة لما ذكر بعدها من تزيين السماء بزينة الكواكب وجعلها حفظاً من كل شيطان،

فذكر المشارق أنسب بهذا المعنى واليق، والله تعالى أعلم. (التبيان في أقسام القرآن ٤٢٧ - ٤٢٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ٦﴾ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ٧﴾.

٢- جعل المصابيح زينة لظواهرها ولباطنها بالحراسة من الشياطين، فهي زينة الظاهر والباطن. (الصواعق المرسله ٤ / ١٣٧٧).

قوله تعالى: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ٦٤﴾.

٣- إنما دلنا الله تعالى على الغائب عنده بالحاضر عندنا، فالأسماء متفقة الدلالة، والمعاني مختلفة، وما في الجنة من ثمرها وفرشها وشجرها وجميع آلاتها على مثل ذلك. والمقصود: أن هذه الشجرة فتنة لهم في الدنيا، بتكذيبهم بها، وفتنة لهم في الآخرة بأكلهم منها. (إغاثة اللهنان ٢ / ١٦٣).



قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٦).

٤- إذا تقرر هذا فالله سبحانه أنكر عليهم عبادتهم الأصنام وبين أنها لا تستحق العبادة، ولم يكن سياق الكلام في معرض الإنكار عليهم ترك عبادته، وأن ما هو في معرض الإنكار عبادة من لا يستحق العبادة، فلو أنه قال: (لا تعبدون الله وقد خلقكم وما تعملون)، لتعينت المصدرية قطعاً، ولم يحسن أن يكون بمعنى (الذي)، إذ يكون المعنى: كيف لا تعبدونه وهو الذي أوجدكم وأوجد أعمالكم؟ فهو المنعم عليكم بنوعي

الإيجاد والخلق، فهذا وزان ما قرروه من كونها مصدرية، فأما سياق الآية فإنه في معرض إنكاره عليهم عبادة من لا يستحق العبادة، فلا بد أن يبين فيه معنى ينافي كونه معبوداً، فبين هذا المعنى بكونه مخلوقاً له، ومن كان مخلوقاً من بعض مخلوقاته، فإنه لا ينبغي أن يعبد، ولا تليق به العبادة، وتأمل مطابقة هذا المعنى لقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٢٠). كيف أنكر عليهم عبادة آلهة مخلوقة له سبحانه وهي غير خالقة؟

فهذا يبين المراد من قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٦) ونظيره قوله في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ نَدَعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ﴾، أي: هم عباد مخلوقون كما أنتم كذلك فكيف تعبدون المخلوق؟! (بدائع الفوائد ١/ ١٤٦-١٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣١) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠).

٥- فقارع فكان من المغلولين. فهذان نبيان كريمان استعملتا القرعة، وقد احتج

الأئمة الأربعة بشرع من قبلنا إن صح ذلك عنهم. (الطرق

الحكمية ٢٩٤).

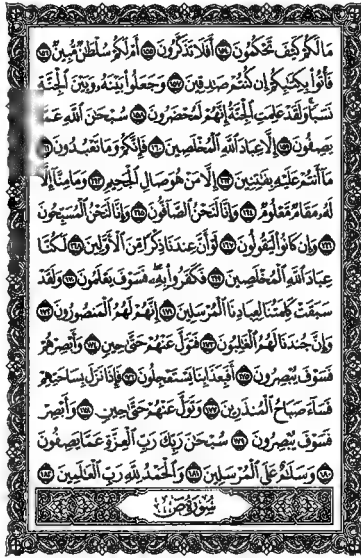
قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٥٩) إِلَّا

عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾.

٦- فتره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عما يصفه به كل أحد إلا

المخلصين من عباده وهم الرسل ومن أتبعهم. (جلاء

الأنفهام ٩١).



سورة ص

قوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ١.

١- إن في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذي الذكر المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه، وللشرف والقدر ما يدل على المقسم عليه وكونه حقاً من عند الله غير مفترى كما يقوله الكافرون، وهذا معنى قول كثير من المفسرين متقدميهم ومتأخريهم إن الجواب محذوف تقديره: (إن القرآن لحق)، وهذا مطرد في كل ما شأنه ذلك. (التبيان في أقسام القرآن ١٠/١٣).

قوله تعالى: ﴿أَجْعَلِ لِلَّهِ إِلَهًا وَاحِدًا﴾.

٢- تأمل ما اشتملت عليه سورة (ص) من الخصومات المتعددة:

* فأولها: خصومة الكفار مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿أَجْعَلِ لِلَّهِ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ إلى آخر كلامهم.

* ثم اختصام الخصمين عند داود.

* ثم تخاصم أهل النار.

* ثم اختصم الملائة الأعلى في العلم وهو الدرجات والكفارات.

* ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم.

* ثم خصامه ثانياً في شأن بنيه حلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم.

فليتأمل اللبيب الفطن: هل يليق بهذه السورة غير (ص) وبسورة (ق) غير حرفها؟



وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذه الحروف، والله أعلم. (بدائع الفوائد ٣/ ١٧٤).

قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنُ مَعَابٍ﴾ (٣٥).

٣- زاده على المغفرة أمرين: الزلفى وهي درجة القرب منه، وقد قال فيها سلف الأمة وأئمتها ما لا تحتمله عقول الجهمية وفراخهم، ومن أراد معرفتها فعليه بتفاسير السلف. والثاني: حسن المآب وهو حسن المنقلب وطيب المأوى عند الله. قالوا: ومن تأمل زيادة القرب التي أعطاها داود بعد المغفرة، علم صحة ما قلنا، وأن العبد بعد التوبة يعود خيرا مما كان. (طريق الهجرتين ٢١٧).



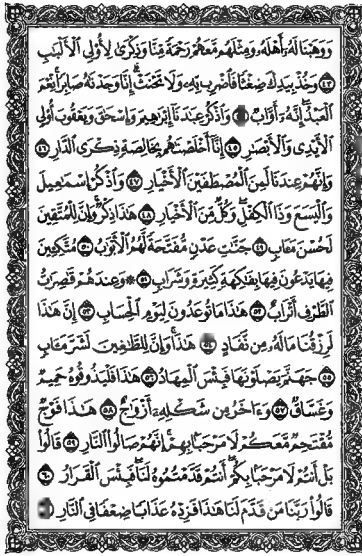
قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي

الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (٣٦).

٤- قسم سبحانه طريق الحكم بين الناس إلى الحق، وهو الوحي الذي أنزله الله على رسوله، وإلى الهوى وهو ما خالفه. (إعلام الموقعين ١/ ٨١).

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (٣٨).

٥- دل على أن هذا حكم سيئ قبيح ينزه الله عنه، ولم ينكره سبحانه من جهة أنه أخبر بأنه لا يكون وإنما أنكره من جهة قبحه في نفسه، وإنه حكم سيئ يتعالى ويتنزه عنه لمنافاته لحكمته وغناه وكماله ووقوع أفعاله كلها على السداد والصواب والحكمة،



فلا يليق به أن يجعل البر كالفاجر، ولا المحسن كالمسيء، ولا المؤمن كالمفسد في الأرض، فدل على أن هذا قبيح في نفسه، تعالى الله عن فعله. (مفتاح دار السعادة ٣٣٨-٣٣٩).

وهذا استفهام إنكار، فدل على أن هذا قبيح في نفسه، منكر تنكره العقول والفطر. (مدارج السالكين ٢٣٨/١).

قوله تعالى: ﴿وَحُذِرَتْ يَدَاكَ ضِعْفًا فَأَصْرَبَ بِهِ وَلَا تَحْنَتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾.

٦- هذه الجملة خرجت مخرج التعليل كما في نظائرها، فعلم أن الله سبحانه وتعالى إنما افتاه بهذا جزاء له على صبره، وتخفيفا عن امرأته، ورحمة بها. (إعلام الموقعين ٣/ ٢٧٠-٢٧١).

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْنَعَةٍ لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ۝٥٠ مُمْكِكِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفِكَهَةٍ ۝٥١ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝٥٢﴾.

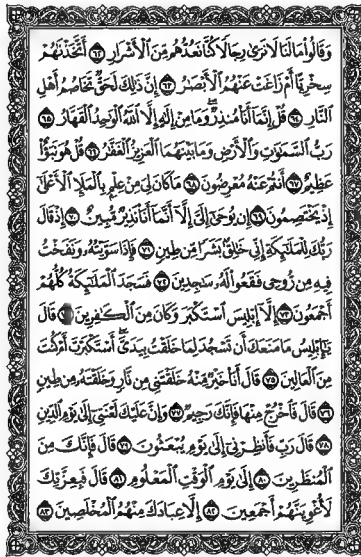
٧- كيف تجد تحته معنى بديعا: وهو أنهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها عليهم، بل تبقى مفتحة كما هي. وأما النار فإذا دخلها أهلها أغلقت عليهم أبوابها كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ۝٨﴾، أي: مطبقة. ومنه سمي الباب وصيدا، وهي مؤصدة في عمد ممددة، قد جعلت العمدة ممسكة للأبواب من خلفها كالحجر العظيم الذي يجعل خلف الباب.

٨- وأيضا فإن في تفتيح الأبواب لهم إشارة إلى تصرفهم وذهابهم وإياهم وتبوتهم في الجنة حيث شاءوا ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطف من ربهم.

ودخول ما يسرهم عليهم كل وقت.

٩- وأيضا إشارة إلى أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب كما كانوا يحتجون إلى ذلك في الدنيا. (حادي الأرواح ٥٤).

﴿قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيدَيَّ﴾﴾



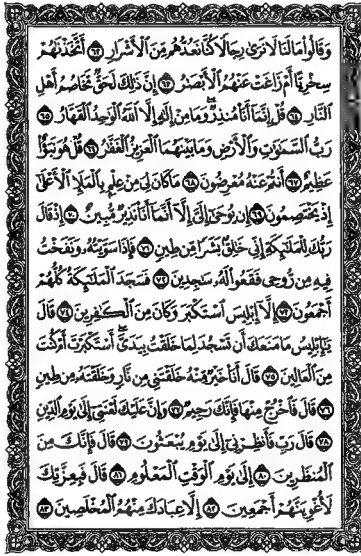
١٠- هذا كلام ورد في معرض التوبيخ والتبكيك للعين على امتناعه من السجود ولم يستحق هذا التبكيك والتوبيخ حيث كان السجود لمن يعقل، ولكن للمعصية والتكبر على ما لم يخلقه إذ لا ينبغي التكبر لمخلوق على مثله إنما التكبر للخالق وحده، فكأنه يقول سبحانه: لِمَ عصيتني وتكبرت على ما لم تخلقه وخلقته أنا وشرفته وأمرتك بالسجود له؟

١١- فهذا موضع (ما)؛ لأن معناها أبلغ ولفظها أعم وهو في الحجة أوقع وللعذر والشبهة أقطع فلو

قال: ما منعك أن تسجد لمن خلقت؟ لكان استفهاما مجردا من توبيخ وتبكيك، ولتوهم أنه وجب السجود له من حيث كان يعقل، ولعله موجود في ذاته وعينه وليس المراد كذلك، وإنما المراد توبيخه وتبكيته على ترك سجوده لما خلق الله وأمره بالسجود له.

ولهذا عدل عن اسم آدم العلم مع كونه أخص وأتى بالاسم الموصول الدال على جهة التشريف المقتضية لسجوده له كونه خلقه بيديه وأنت لو وضعت مكان (ما) لفظة (من) لما رأيت هذا المعنى المذكور في الصلاة، وأن ما جيء بها وصلة إلى ذكر الصلاة، فتأمل ذلك، فلا معنى إذا للتعيين بالذكر، إذ لو أريد التعيين لكان بالاسم العلم أولى وأحرى. (بدائع الفوائد ١/١٣٢).

١٢- وهذا من أقبح الغلط والتلبس، كتأويل اليمين بالنعمة، ولا ريب أن العرب تقول: لفلان عندي يد. وقال عروة بن مسعود للصديق: لولا يد لك عندي لم أجرك بها، لأجبتك. ولكن وقوع اليد في هذا التركيب الذي أضاف سبحانه فيه الفعل إلى نفسه، ثم تعدى الفعل إلى اليد بالباء التي هي نظير كتبت بالقلم وهي اليد، وجعل ذلك خاصة خص بها صفيه آدم دون البشر كما خص المسيح بأنه نفخ فيه من روحه، وخص موسى بأنه كلمه بلا واسطة، فهذا مما يحيل تأويل اليد في النص بالنعمة وإن كانت في تركيب آخر تصلح لذلك، فلا يلزم من صلاحية اللفظ لمعنى ما في تركيب صلاحيته له في كل تركيب. (الصواعق المرسلة ١/ ١٩٢-١٩٣).



قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

٧٩

١٣- هذا اعتراف منه بالبعث وقرار به، وقد علم قسم ربه ليملا أن جهنم منه ومن اتباعه، فكان كفره كفر عناد محض، لا كفر جهل. (مفتاح دار السعادة ٩٨).

قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ٨٣

١٤- لا يفهم منها إلا أن المخلصين لا يتمكن من إغوائهم. (بدائع الفوائد ٣/ ٥٩).



سورة الزمر

قوله تعالى: ﴿مَاعَبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾.

١- فهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره، فلم ينتف عنهم الفعل لوقوعه منهم ونفي الوصف؛ لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتاً على عبادة الله موصوفاً بها، فتأمل هذه النكتة البديعة كيف تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابد الله وعبد المستقيم على عبادته إلا من انقطع إليه بكلية وتبتل إليه تبتلاً لم يلتفت إلى غيره لم يشرك به أحداً في عبادته، وأنه وإن عبده وأشرك به غيره فليس عابداً لله ولا عبداً له، وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة التي هي إحدى سورتي الإخلاص التي تعدل ربع القرآن كما جاء في بعض السنن، وهذا لا يفهمه كل أحد ولا يدركه إلا من منحه الله فهماً من عنده، فله الحمد والمنة. (بدائع الفوائد ١/ ١٣٧).



قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ ۝١٧ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۝١٧﴾.

٢- مدحهم باستماع القول واتباع أحسنه، ومن المعلوم أن كثيراً من القول، بل أكثره ليس فيه حُسْنٌ، فضلاً عن أن يكون أحسن، بل غالب القول يَكْبُ قائله في النار على مَنْخَرِهِ.

٣- إنه سبحانه علّق الهداية على اتباع أحسن هذا القول، فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ ۝١٧ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۝١٧ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۝١٨﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨]. ومن المعلوم بالاضطرار أن الهداية إنما حصلت لمن اتبع

القرآن، فهو الذي هداه الله، فأين الهدى في أقوال المغنين والمغنيات؟

﴿قوله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾﴾.

وَبَايَعُوا سَيِّئَاتِكُمْ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿لَمَّا مَسَّ الْإِنْسَانُ مُرُوعَاتَهُ إِذَا حَوَاتِهِ
بُخْمَةٌ وَمَا قَالَ إِلَّا أَلَيْسَ لِي بِبُخْمَةٍ عَلَيَّ بَلْ هِيَ بَقِيَّةُ مَا كَسَبْتُ
أَسْأَلُكُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَدْ
أَخْلَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ
مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيَّيْبُهُمْ سَيِّئَاتُ
مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿أَوَلَمْ يَتْلَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ
الْكَرْخَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
﴿فَلْيَسْأَلُوا الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا
مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ
الْقَدُورُ الرَّحِيمُ ﴿وَأُذِيبُوا إِلَى رَبِّكَ وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ
قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿وَأَلْبِسُوا الْحَسَنَ
مَا أَنْزَلَ الْكُفْرَ مِنْ رَبِّكُمْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ
بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي
عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿

٤- هي في حق التائب، لأنه أطلق وعمم، فلم يخصصها بأحد، ولم يقيدھا بذنب، ومن المعلوم بالضرورة أن الكفر لا يغفره، وكثير من الذنوب لا يغفرها، فعلم أن هذا الإطلاق والتعميم في حق التائب، فكل من تاب من، أي: ذنب كان غفر له. (مدارج السالكين ١/٣٢٦).

فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد، ولكن هذا في حق التائبين خاصة. (الجواب الكافي ٢٥٠).

﴿قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾﴾.

٥- هذا الذي وصف به نفسه ها هنا يتضمن من اقتداره على تغيير العالم وتبديله ما يبطل قول أعدائه الملاحدة المكذبين بالمبدأ والمعاد أئمة هؤلاء المعارضين للوحي بالعقل والرأي. (الصواعق المرسلة ٤/١٣٦٣).

﴿قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾﴾.

٦- سر حذف الواو في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ ففاجأهم وبغتهم عذابها وما أعد الله تعالى فيها فهم بمنزلة من وقف على باب لا يدري بما يفتح له من أنواع الشر إلا أنه متوقع منه شرا عظيما

ففتح في وجهه وفاجأه ما كان يتوقعه.

وهذا كما تجد في الدنيا من يساق إلى السجن، فإنه يساق إليه وبابه مغلق حتى إذا جاءه فتح الباب في وجهه ففاجأته روعته وألمه بخلاف ما لو فتح له قبل مجيئه.

وهذا بخلاف أهل الجنة فإنهم لما كانوا مساقين إلى دار الكرامة، وكان من تمام إكرام المدعو الزائر أن يفتح له باب الدار فيجيء فيلقاه مفتوحا، فلا يلحقه ألم الانتظار، فقال في أهل الجنة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا

جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وحذف الجواب تفخيما لأمره وتعظيما لشأنه على عاداتهم في حذف الجوابات لهذا المقصد وهذه الطريقة تريحك من دعوى زيادة الواو، ومن دعوى كونها واو الثمانية؛ لأن أبواب الجنة ثمانية، فإن هذا لو صح فإنما يكون إذا كانت الثمانية منسوقة في اللفظ واحدا بعد واحد فيتتهون إلى السبعة، ثم يستأنفون العدد من الثمانية بالواو، وهنا لا ذكر للفظ الثمانية في الآية ولا عدها، فتأمل.

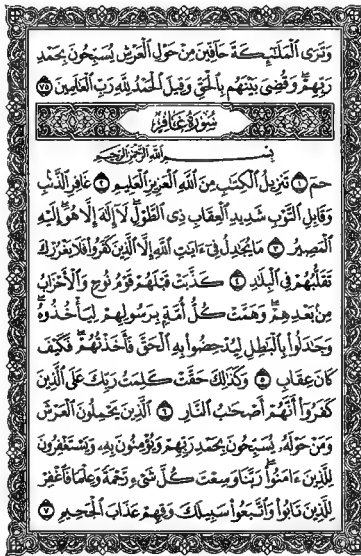
قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (٧٣).

٧- قال خزنة أهل الجنة لأهلها: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ فبدءوهم بالسلام المتضمن للسلامة من كل شر ومكره، أي: سلمتم فلا يلحقكم بعد اليوم ما تكرهون، ثم قال لهم: ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾، أي: سلامتكم ودخلوها بطيبكم، فإن الله حرمها إلا على الطيبين، فبشروهم بالسلامة والطيب والدخول والخلود.

وَيُفْعَلُ فِي الصُّورِ قَسِيصٌ مِّنَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ
إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ فُتِّحَ فِيهِ أُخْرَىٰ ۚ فَإِذَا هُمْ كَاظِمُونَ
وَأُتْرُقِي الْأَرْضُ بِنُورٍ ذَهَبٍ وَأَوْضَعَ الْمُحْسِنُ وَجَاهَهُ
بِالْيَمِينِ وَالشُّهُدَاءُ وَفِيهِ يَنْتَعِمُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يَبْطَلُونَ
وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ بِمَا قَامُوا
وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۚ إِذَا جَاءُوهَا
فُتِّحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَكُنْ لَّكُمْ رَسُولٌ
يَّنْذَرُكُمْ عَلَيْكُمْ ءَايَاتٍ ذِكْرًا وَيُنْذِرُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ
هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ
وَيَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى
الْمُتَكَبِّرِينَ ۚ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ
زُمَرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا
سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ۚ وَقَالُوا
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَّقَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ
نَتَّبِعُوا أَمْرَ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ نُنْشَأَ فِتْنَةً أَخْرَ الْأَعْمِلِينَ ۚ

٨- وتأمل قول خزنة الجنة لأهلها: ﴿فَادْخُلُوهَا﴾ وقول خزنة النار لأهلها: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ تجد تحته سرا لطيفا ومعنى بديعا لا يخفى على المتأمل: وهو أنها لما كانت دار العقوبة وأبوابها أفتع شيء وأشد حرا وأعظمه عما يستقبل فيها الداخل من العذاب ما هو أشد منها ويدنوا من الغم والحزن والكرب بدخول الأبواب، ف قيل: ادخلوا أبوابها؛ صغارا لهم وإذلالا وخزيا، ثم قيل لهم لا يقتصر بكم على مجرد دخول الأبواب الفظيعة، ولكن وراءها الخلود في النار. وأما الجنة فهي دار الكرامة والمنزل الذي أعده الله لأوليائه، فبشروا من أول وهلة بالدخول إلى المقاعد والمنازل والخلود فيها. (حادي الأرواح ٥١-٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَرَى الْمَلَائِكَةُ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

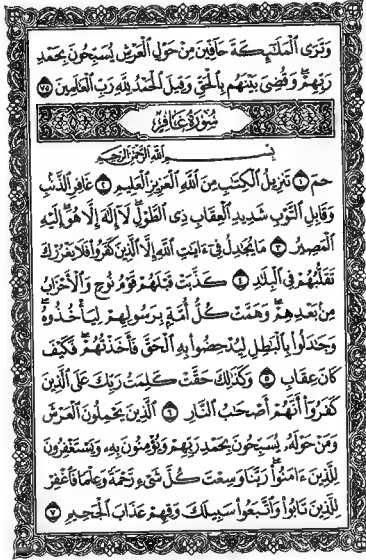


٩- حذف فاعل القول لأنه غير معين، بل كل أحد يحمده على ذلك الحكم الذي حكم فيه فيحمده أهل السماوات وأهل الأرض والأبرار والفجار والإنس والجن حتى أهل النار. قال الحسن أو غيره: لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلا. وهذا أعلم هو السر الذي حذف لأجله الفاعل في قوله: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وقوله: ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾

كأن الكون كله نطق بذلك وقاله لهم، والله تعالى أعلم بالصواب. (روضة المحبين ٧٤-٧٥).

سورة غافر

قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ۝﴾.



١- أتى بالواو في الوصفين الأولين وحذفها في الوصفين الآخرين؛ لأن غفران الذنب وقبول التوب قد يظن أنهما يجريان مجرى الوصف الواحد لتلازمهما، فمن غفر الذنب قبل التوب، فكان في عطف أحدهما على الآخر ما يدل على أنهما صفتان وفعالان متغايران ومفهومان مختلفان لكل منهما حكمه: أحدهما: يتعلق بالإساءة والإعراض وهو المغفرة. والثاني: يتعلق بالإحسان والإقبال على الله

تعالى والرجوع إليه وهو التوبة، فتقبل هذه الحسنة وتغفر تلك السيئة.

وحسن العطف ها هنا هذا التغاير الظاهر، وكلما كان التغاير أبين كان العطف أحسن، ولهذا جاء العطف في قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۝ وَتَرَكْ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ ۝ وَقَوْلِهِ: ﴿الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۝﴾.

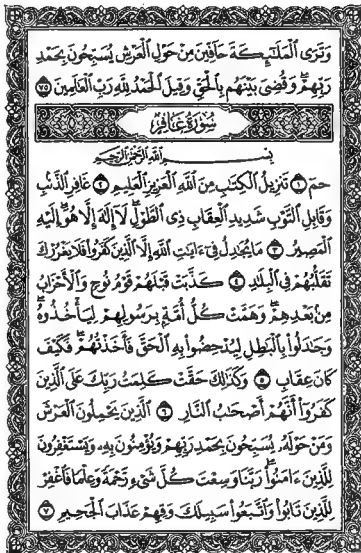
٢- وأما: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ۝﴾ فترك العطف بينهما لنكتة بديعة: وهي الدلالة على اجتماع هذين الأمرين في ذاته سبحانه، وأنه حال كونه شديد العقاب، فهو ذو الطول وطوله لا ينافي شدة عقابه، بل هما مجتمعان له بخلاف الأول والآخر، فإن الأولية لا تجامع الآخيرية، ولهذا فسرهما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»، فأوليته أزليته وآخريته أبديته. (بدائع الفوائد ٣/ ٥٢-٥٣).

٣- تأمل كيف وقع الوصف بشديد العقاب بين صفة رحمة قبله وصفة رحمة بعده، فقبله ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾، وبعده ﴿ذِي الطَّلَوِ﴾ ففي هذا تصديق الحديث الصحيح وشاهد له وهو قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا، فَهُوَ موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي» (رواه البخاري ومسلم)، وفي لفظ: «سبقت غضبي». وقد سبقت صفة الرحمة هنا وغلبت، وتأمل كيف افتتح الآية بقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ والتنزيل يستلزم علو المنزل من عنده لا تعقل العرب من لغتها، بل ولا غيرها من الأمم السليمة الفطرة إلا ذلك، وقد أخبر أن تنزيل الكتاب منه، فهذا يدل على شيئين: أحدهما علوه تعالى على خلقه، والثاني أنه هو المتكلم بالكتاب المنزل من عنده لا غيره. فإنه أخبر أنه منه وهذا يقتضي أن يكون منه قولاً كما أنه منه تنزيلاً، فإن غيره لو كان هو المتكلم به لكان الكتاب من ذلك الغير، فإن الكلام فإنما يضاف إلى المتكلم به ومثل هذا ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ ومثله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ ومثله: ﴿تَنْزِيلُ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فاستمسك بحرف (من) في هذه المواضع، فإنه يقطع حجج شعب المعتزلة والجهمية.

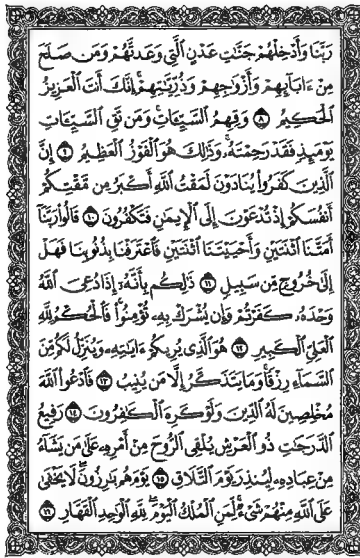
٤- وتأمل كيف قال: ﴿تَنْزِيلُ مِّنْ﴾ ولم يقل: (تنزيله). فتضمنت الآية إثبات علوه ومكانه وثبوت الرسالة.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

٥- هو سبحانه يقرن بين سعة العلم والرحمة كما يقرن بين العلم والحلم.



فاقتران العفو بالقدرة كاقتران الحلم والرحمة بالعلم؛ لأن العفو إنما يحسن عند القدرة، وكذلك الحلم والرحمة إنما يحسنان مع العلم وقدم الرحيم في هذا الموضع لتقدم صف، ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة لتضمنها دفع الشر وتضمن ما قبلها جلب الخير، ولما كان دفع الشر مقدما على جلب الخير قدم اسم الغفور على الرحيم حيث وقع، ولما كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه الرحيم لأجل ما قبله قدم على الغفور. (بدائع الفوائد ٨٠ / ١).



قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

٦- قيل: وقاية السيئات نوعان:

أحدهما: وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه.

والثاني: وقاية جزائها بالمغفرة، فلا يعاقب عليها.

فتضمنت الآية سؤال الأمرين، والظرف تقييد

للجملة الشرطية لا للجملة الطلبية.

٧- وتأمل ما تضمنته هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان والعمل الصالح

والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم، وقدموا بين يدي استغفارهم توسلهم إلى الله تعالى بسعة علمه وسعة رحمته، فسعة علمه يتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة، واستيلاء عدوهم وأنفسهم وهواهم وطباعهم وما زين لهم من الدنيا وزينتها، وعلمه بهم إذ أنشأهم من الأرض، وإذ هم أجنة في بطون أمهاتهم، وعلمه السابق بأنهم لا بد أن يعصوه، وأنه يحب العفو والمغفرة، وغير ذلك من سعة علمه الذي لا يحيط به أحد سواه.

وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به أهل توحيده ومحبته، فإنه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء. (الجواب الكافي ١٦٩-١٧١).

قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (٤٦).

• وَتَقُومُ مَالِي أَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ
 ١- تَدْعُونِي لِأَعْتَرَاكَ بِاللَّهِ وَأَشْرَكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ
 عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْقُدْرَةِ لَا جَرَمَ لَنَا
 تَدْعُونِي إِلَى التَّوْبَةِ لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ
 وَإِنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ
 ٢- فَتَسْأَلُهُمْ مَا أَكَلُوا لَكُنْهُمْ وَأَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ
 إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْإِيسَاءِ ٣- وَقَدْ أَدْعُوهُمْ سَبْعِينَ مِائَةً
 وَتَقَالِ فِرْعَوْنَ سَوَاءً الْعَذَابِ ٤- النَّارُ يُعْرَضُونَ
 عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ
 فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ٥- فَلَا يَتَحَابَّرُونَ فِي النَّارِ
 فِي قَوْلِ الطُّغْيَانِ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّ كَيْدَ لَكُمْ
 يَبْعَثُ فِيهِمْ أَنْفُسُهُمْ فَفُتِنُوا عَنْهَا حَسْبِيَ النَّارُ ٦- قَالَ
 الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّ كَيْدَ لَكُمْ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ
 بَيْنَ الْيَسَادِ ٧- وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لَخَرَجَتْ مِنْهُمْ
 أَدْعُوهُمْ يَكْفُرُ بِحَقِّ عَنَّا وَإِنَّمَا نَسْتَعِزُّ بِاللَّهِ

٨- هذا تنبيه على أن فرعون نفسه في الأشد من ذلك، لأنهم إنما دخلوا أشد العذاب تبعاً له، فإنه هو الذي استخفهم فأطاعوه، وغرهم فاتبعوه. ولهذا يكون يوم القيامة إمامهم وفرطهم في هذا الورد، قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨].

والمقصود: أنهم استحقوا أشد العذاب لغلظ كفرهم، وصددهم عن سبيل الله وعقوبتهم من آمن بالله، فليس عذاب الرؤساء في النار كعذاب أتباعهم،

ولهذا كان في كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهرقل: «فإن توليت، فإن عليك إثم الأريسيين».

(طريق الهجرتين ٣٨٠-٣٨١).



سورة فصلات

﴿ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَارْزُقْنَاهُمْ رِيحًا صَرَّصًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ ﴾.﴾



١- كان اليوم نحسا عليهم لإرسال العذاب عليهم.

فسعود الأيام ونحوسها إنما هو بسعود الأعمال وموافقتها لمرضاة الرب، ونحوس الأعمال مخالفتها لما جاءت به الرسل واليوم الواحد يكون يوم سعد لطائفة ونحس لطائفة، كما كان يوم بدر يوم سعد للمؤمنين ويوم نحس على الكافرين، فما للكوكب والطالع والقرانات وهذا السعد والنحس، وكيف يستنبط علم أحكام النجوم من ذلك ولو كان المؤثر في هذا النحس هو نفس الكوكب والطالع، لكان

نحسا على العالم، فأما أن يقتضي الكوكب كونه نحسا لطائفة سعدا لطائفة، فهذا هو المحال. (مفتاح دار السعادة ٥٣٧).

﴿ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.﴾

٢- من تأمل هذا الموضع حق التأمل، علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل ظنه بربه أن يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه، فالذي حمّله على العمل حسن الظن، فكلما حسن ظنه حسن عمله، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز، كما في حديث الترمذي والمسند من حديث شداد بن أوس عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ».

وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة. (الجواب الكافي ٢٧).

📖 قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا شِئْتُمْ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ تَزُلْزِلَنَ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا شِئْتُمْ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ تَزُلْزِلَنَ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾

قَوْلَا مَن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُرِّيٌّ عَظِيمٌ ﴿٣٥﴾ فَإِذَا تَوَفَّيْتُمْ قَالَ لِلشَّيْطَانِ بُعْ فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَنَادَىٰ تَحْتَهُ الْبَنُوتُ وَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّيْطَانِ وَلَا لِلَّذِينَ هُمْ أَكْبَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلَّذِي خَلَقَهُمْ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾

٣- فالملك يتولى من يناسبه بالنصح له والإرشاد والتثبيت والتعليم وإلقاء الصواب على لسانه ودفع عدوه عنه والاستغفار له إذا زل وتذكيره إذا نسي وتسليته إذا حزن وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف وإيقاظه للصلاة إذا نام عنها وإيعاد صاحبه بالخير وحضه على التصديق بالوعد وتحذيره من الركون إلى الدنيا وتقصير أمله وترغيبه فيما عند الله، فهو أنيسه في الوحدة ووليه ومعلمه ومثبته ومسكن

جأشه ومرغبه في الخير ومحذره من الشر يستغفر له إن أساء ويدعو له بالثبات إن أحسن وإن بات طاهرا يذكر الله بات معه في شعاره، فإن قصده عدو له بسوء وهو نائم دفعه عنه. (روضة المحبين ٢٤٦).

📖 قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

٤- تبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو؛ لأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه.

فمتى يدرك العامل هذا الفضل العظيم والحظ الجسيم بشيء من عمله؟ وإنما ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، فحقيق بالمبلغ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي أقامه الله سبحانه في هذا المقام أن يفتح كلامه بحمد الله تعالى والثناء عليه وتمجيده والاعتراف له بالوحدانية وتعريف حقوقه على العباد، ثم بالصلاة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتمجيده والثناء عليه أن يختمه أيضا بالصلاة عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسليما. (جلاء الأنفهام ٢٤٩-٢٥٠).

📖 قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٦).

٥- قال: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٦) [فصلت: ٣٦]، وقال هاهنا: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، فأكد بأن وبضمير الفصل وأتى باللام في ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وامتاز المذكور في سورة فصلت بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص؛ لأن

بِالَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَكْفُرُوا وَلَا تُجْرِبُوا وَاللَّهُ رَايَ الْجَنَّةِ النَّارِ كُنْزٌ وَعُودُونَ ﴿٥﴾ ثُمَّ أَوَّلَ نَزْغٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكِنَّ فِيهَا مَا تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَأَمَّا مَنْ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَفَرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧﴾ قَوْلًا يَقُولُونَ دَعَا إِلَى الْكُفْرِ وَتَحْمِلُ صَليحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٨﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَفَاللَّهُ بِمَا يَفْعَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١﴾ وَبَيْنَ يَدَيْهِ أَلْبَاقُ وَالتَّهَارُ وَالشَّعْشَعُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٢﴾ إِنْ اسْتَعْصِمُوا فَالْأَمْرُ عِنْدَ رَبِّكَ يَسْبِغُونَ لَكَ بِالنَّارِ وَاللَّهُ رَايَ الْجَنَّةِ النَّارِ ﴿١٣﴾

سياق ذلك بعد إنكاره سبحانه على الذين شكوا في سمعه لقولهم وعلمهم به، كما جاء في الصحيحين من حديث ابن مسعود قال: "اجتمع عند البيت ثلاثة نفر: قرشيان، وثقفي، أو ثقفيان، وقرشي، كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فقالوا: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، فقال الآخر: إن سمع بعضه سمع كله، فأنزل الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا

تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ إلى قوله: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢ - ٢٣].

فجاء التوكيد في قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] في سياق هذا الإنكار، أي: هو وحده الذي له كمال قوة السمع وإحاطة العلم، لا كما يظن به أعداؤه الجاهلون: أنه لا يسمع إن أخفوا وأنه لا يعلم كثيرا مما يعملون، وحسن ذلك أيضا: أن المأمور به في سورة فصلت دفع إساءتهم إليه بإحسانه إليهم، وذلك أشق على النفوس من مجرد

الإعراض عنهم؛ ولهذا عقبه بقوله: ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا دُوْحَظٌ عَظِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٥].

فحسن التأكيد لحاجة المستعيز. (إغاثة اللهفان

٩٧/١ - ٩٦).

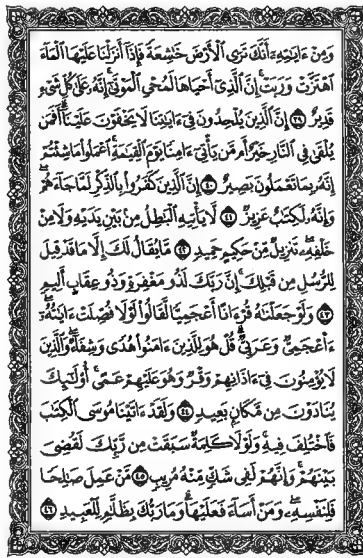
قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاسِيَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمَتِّ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٣٩﴾.

٦- دل سبحانه عباده بما أراهم من الإحياء

الذي تحققوه وشاهدوه على الإحياء الذي استبعدوه، وذلك قياس إحياء على إحياء، واعتبار الشيء بنظيره؛ والعلة الموجبة هي عموم قدرته سبحانه، وكمال حكمته؛ وإحياء الأرض دليل العلة. (إعلام الموقعين ١/١٨٦).

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَعْمِلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَنْوُسْ قَنُوطٌ﴾ ﴿٤١﴾ وَلَئِنْ أَدْقَنْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا إِلَى .

٧- إذا مسه الخير نسي أن الله هو المنعم عليه المفضل بما أعطاه فبطر، وظن أنه هو المستحق لذلك، ثم أضاف إلى ذلك تكذيبه بالبعث فقال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ



قَائِمَةً ﷺ، ثم أضاف إلى ذلك ظنه الكاذب أنه إن بعث كان له عند الله الحسنى، فلم يدع هذا للجهل والغرور موضعاً. (شفاء العليل ٣٨).

قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

٨- أي إن القرآن حق، فأخبر أنه لا بد من أن يريهم من آياته المشهودة ما يبين

* الْيَوْمَ نَرَى السَّاعَةَ تَتَنَقَّلُ مِنْ حَرِّ بْنِ الْكَاهِنِ
 وَتَتَحِيلُ مِنْ أَيْدِي الْأَوَّلِيَّةِ وَتَقَرُّ بِكَائِبَةِ الْفَتَى
 تُرَكِّي قَالُوا إِنَّ ذَلِكَ مَا بَيْنَنَا مِنْ شَهِيدٍ ⑤ وَصَلَّ عَلَيْهِ
 فَاسْعَاؤُهُ يَتَوَلَّى مِنْ قَبْلِ وَطْأِ مَا لَهُ مِنَ حَرِّ بْنِ
 لَا يَسْعَاؤُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعْوَةِ الْخَيْرِ وَإِنْ قَسَتْ الشَّرُّ فَيَقُوسُ
 فَيُؤْتِلُ ⑥ وَلَيْنَ أَذَقْنَا رَحْمَةً مِمَّا بَيْنَ يَدَيْهِمْ فَسَنَسْتَأْذِنُ
 لِيَعْلَمُوا هَذَا لِيَرَأَوْا أَطْرُقَ السَّاعَةَ فَتَحْمِلُهُ وَلَيْنَ نُجْعِلْ فِي
 رِقَابِهِ لِيَعْبُدَهُ الْخَشْيَ لِمَنْ يَلْتَمِسُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا
 وَلَيْنَ يَنْقُصَهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ⑦ وَلَوْ أَنَّ السَّاعَةَ عَلَ الْإِنْسَانِ
 أَغْرَضَ وَتَنَاقَضَ بِهِ وَلَوْ أَنَّ السَّاعَةَ عَلَ الْفَرْدِ وَدَعَا عَرِيضٍ
 ⑧ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ شَيْءٌ فَتَرَكَكُمْ بِهِ
 مِنْ أَسْفَلِ مِنْ حُفْرٍ شَقِيحٍ يُعِيدُ ⑨ سُبْحَانَ عِلْمِهِ إِنِّي
 فِي الْأَنْفَاقِ وَفِي الْغُصْبِ حَتَّى يَنْبَغِيَ لَهَذَا أَنَّهُ الْخَيْرُ
 أَوْ لَوْ تَكُونُ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑩ أَلَا أُنَبِّئُ
 فِي يَوْمِ تَوَلَّى قَدِ اسْتَدْرَأَ الْإِنَّمَا بِكُلِّ شَيْءٍ مُوجِعٍ ⑪

لهم أن آياته المتلوة حق، ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله، فأياته شاهدة بصدقه، وهو شاهد بصدق رسوله بآياته، وهو الشاهد والمشهود له، وهو الدليل والمدلول عليه، فهو الدليل بنفسه على نفسه كما قال بعض العارفين: كيف أطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟! فأني دليل طلبته عليه فوجده أظهر منه. ولهذا قال الرسل لقومهم: ﴿أَفِ اللَّهِ شَكٌّ﴾، فهو أعرف من كل معروف، وأبين من

كل دليل، فالأشياء عرفت به في الحقيقة وإن كان عرف بها في النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه. (الفوائد ٢٣).



سورة الشورى

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَخْلَقْنَاهُ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحَكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

١- وهذا نص صريح في أن حكم جميع ما تنازعنا فيه مردود إلى الله وحده وهو الحاكم فيه على لسان رسوله، فلو قدم حكم العقل على حكمه، لم يكن هو الحاكم بوحيه وكتابه. (الصواعق المرسلة ٣/ ٨٢٨).

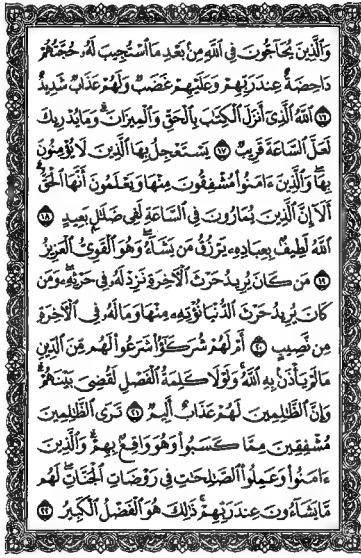
قوله تعالى: ﴿﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ بِمَا أُنْزِلَ إِلَهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾.

قَالُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَأَسْ كَثِيرًا مِمَّنْ يَقُولُ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْغَنِيِّ ۖ لَهُ مَقَالِدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۖ شَرَعَ
لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا
وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ
يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ۖ وَمَتَافَقُوا
إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ
مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا
الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ۖ فَلِذَلِكَ
فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ
بِمَا أُنْزِلَ إِلَهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ
اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ لَا حُجَّةَ
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ۚ اللَّهُ يَجْعَلُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ الْعَلِيمُ ۖ

٢- أخبر تعالى أنه شرع لنا دينه الذي وصى به نوحا والنبين من بعده وهو دين واحد، ونهانا عن التفريق فيه، ثم أخبرنا أنه ما تفرق من قبلنا في الدين إلا بعد العلم الموجب للإثبات وعدم التفرق، وأن الحامل على ذلك التفرق البغي من بعضهم على

بعض وإرادة كل طائفة أن يكون العلو والظهور لها ولقولها دون غيرها، وإذا تأملت تفرق أهل البدع والضلال رأيته صادرا عن هذا بعينه.

فهكذا وارثه ينتصب للعدل بين المقالات والآراء والمذاهب ونسبته منها إلى



القدر المشترك بينهما من الحق، فهو أولى به وبتقريره وبالحكم لمن خاصم به، ثم أمره أن يخبرهم بأن الرب المعبود واحد، فما الحامل للتفرق والاختلاف وهو ربنا وربكم والدين واحد ولكل عامل عمله لا يعدوه إلى غيره.

﴿قوله تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَقِعُ بِهِمْ﴾﴾

٣- هذا وصف لحالهم في الآخرة عند معاينة العذاب أو عند الموت.

فهذا إشفاق مقرون بالاستيحاش، لأنه قد علم أنه صائر إليه كمن قدم إلى العقوبة ورأى أسبابها، فهو مشفق منها إذا رآها لعلمه بأنه صائر إليها. (طريق الهجرتين ٢٦٥).

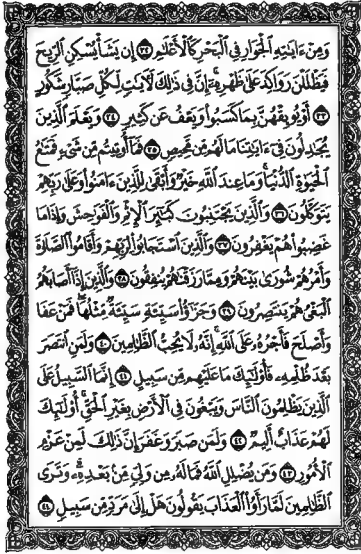
﴿قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾﴾

٤- استدل شيعي على الوصية لأهل البيت بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ فأجيب بأن قيل: هذه وصية بهم لا وصية إليهم، فهي حجة على خلاف قول الشيعة؛ لأن الأمر لو كان إليهم لأوصاهم ولم يوص بهم. (بدائع الفوائد ٣/ ١٢٩).

﴿قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمِنَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾﴾ (٣١) وَالَّذِينَ يَجْنَبُونَ كِبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾

٥- قال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (٣٧)

فهذا اجتناب داعي القوة الشهوانية، ثم قال: ﴿وَأِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾
فهذا مخالفة القوة الغضبية، فجمع بين التوحيد والعفة والعدل التي هي جماع الخير كله. (الفوائد ٨١).



قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَرُونَ﴾ (٣١).

٦- مدحهم بقوتهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيتهم منها ذلك حتى إذا قدروا على من بغى عليهم وتمكنوا من استيفاء مالهم عليه ندمهم إلى الخلق الشريف من العفو والصفح فقال: ﴿وَحَزَرُوا سَيِّئَةَ سَنَتِهِ مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠) فذكر المقامات الثلاثة: العدل وأباحه، والفضل وندب إليه، والظلم وحرمه.

٧- فإن قيل: فكيف مدحهم على الانتصار والعفو وهما متنافيان؟

قيل: لم يمدحهم على الاستيفاء والانتقام، وإنما مدحهم على الانتصار وهو القدرة والقوة على استيفاء حقهم، فلما قدروا ندمهم إلى العفو. قال بعض السلف في هذه الآية: كانوا يكرهون أن يستذلوا، فإذا قدروا عفوا، فمدحهم على عفو بعد قدرة لا على عفو ذل وعجز ومهانة، وهذا هو الكمال الذي مدح سبحانه به نفسه في قوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٨- وتأمل قوله سبحانه: ﴿هُمْ يَنْصَرُونَ﴾ كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم، لا أن غيرهم هو الذي ينصرهم، ولما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالبا، بل لا بد من المجاوزة شرع فيه

سبحانه المماثلة والمساواة وحرم الزيادة وندب إلى العفو. (الروح ٢٤٢).

قوله تعالى: ﴿وَلِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحِجَّ بِهَا وَلِنُنْصِبَهُمْ سَيِّئَهُ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾.

٩- كيف أتى في تعليق الرحمة المحققة إصابتها من الله تعالى بـ(إذا)، وأتى في

وَلِنُنْصِبَهُمْ سَيِّئَهُ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ
مِنْ عَذَابٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الْكَلْبُ مَا أَتَى إِلَى الْخَيْرِ مِنَ الْإِنْسَانِ
خَيْرًا وَأَلْفَسَهُمْ وَأَهْلَاهُمْ قَوْمَ الْقِيَمَةِ الْأَيُّ الْفَالِطِينَ
فِي عَذَابٍ مُّقْبِرٍ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أُولِيَّةٍ يُضَرُّوهُمْ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلٌ أَسْتَجِيبُوا
لِرُؤُوسِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ بُرُودُ الْمَرْءِ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ
مِنْ قَلْبِهِ يُؤْمِرُ وَمَا لَكُمْ مِنْ كَبِيرٍ قَاتِ أَعْرَضُوا
فَمَا أَرْسَلْنَا عَنْهُمْ خَافِضًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاءُ وَلِنَّا إِذَا
أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحِجَّ بِهَا وَلِنُنْصِبَهُمْ سَيِّئَهُ
يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ قَاتِ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ قَاتِ مَا لَكَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْ شَاءَ
وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الْآذُورُ أَوْ يُرْجِعُهُمْ دُكْنًا وَتُكْنًا
وَيُجْعَلُ مِنْ يَشَاءٍ عَفْصًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ وَمَا كَانَ
لِنُتْرِكَنَّ الْكَلِمَةَ لِلَّهِ الْآرِخَاءُ أَوْ يَنْجِبَ أَوْ يَرْبِ
وَسُورًا لِقَوْمٍ يَذَّهَبُ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

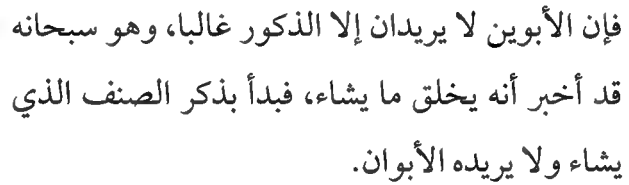
إصابة السيئة بـ(إن)؟ فإن ما يعفو الله تعالى عنه أكثر،
وأتى في الرحمة بالفعل الماضي الدال على تحقيق
الوقوع، وفي حصول السيئة بالمستقبل الدال على أنه
غير محقق ولا بد؟ وكيف أتى في وصول الرحمة بفعل
الإذاقة الدال على مباشرة الرحمة لهم، وأنها مذوقة
لهم، والذوق هو أخص أنواع الملازمة وأشدّها؟
وكيف أتى في الرحمة بحرف ابتداء الغاية مضافة إليه
فقال: ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾؟ وأتى في السيئة بباء السببية
مضافة إلى كسب أيديهم؟

وكيف أكد الجملة الأولى التي تضمنت إذاقة الرحمة بحرف إن دون الجملة الثانية؟

وأسرار القرآن الكريم أكثر وأعظم من أن يحيط بها عقول البشر. (بدائع الفوائد ١/ ٤٧ ٤٨).

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْ شَاءَ
وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الْآذُورَ ٤٩ أَوْ يُرْجِعُهُمْ دُكْرَانًا وَلِنُنْصِبَهُمْ سَيِّئَهُ يَمَّا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ٥٠﴾.

١٠- بدأ سبحانه بذكر الإناث، فقليل: جبرا لهن لأجل استئصال الوالدين لمكانهن،
وقيل وهو أحسن: إنما قدمهن؛ لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء لا ما يشاء الأبوان،



١١- وتأمل كيف نكّر سبحانه الإنث وعرف الذكور، فجبر نقص الأنوثة بالتقديم، وجبر نقص التأخير بالتعريف، فإن التعريف تنويه، كأنه قال:

ثم لما ذكر الصنفين معا، قدم الذكور إعطاء لكل من الجنسين حقه من التقديم والتأخير، والله أعلم بما أراد من ذلك. (تحفة الودود في أحكام المولود ٢٣-٢٤).

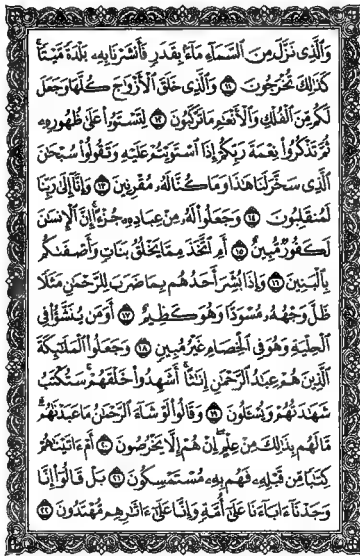
١٢- جمع بين الروح الذي يحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم متضمن للأمرين، فهو روح تحيا به القلوب، ونور تستضيء به. (إغاثة اللهفان ١/ ٢١).



سورة الزخرف

📖 قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧﴾ أَوْ مِنْ يُنَشِّئُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾.

١- قال تعالى: ﴿أَوْ مِنْ يُنَشِّئُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ ﴿١٨﴾ [الزخرف:



[١٨]. فأشار بنشأتهم في الحلية إلى أنهم ناقصات فيحتجن إلى حلية يكملن بها، وأنهن عبيات فلا يبين عن حجتهم وقت الخصومة.

مع أن في قوله: ﴿أَوْ مِنْ يُنَشِّئُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ تعريضا بما وضعت له الحلية من التزين لمن يفتري شهرن ويطأهن وتعريضا بأنهم لا ينشأن في الحرب والطعان والشجاعة فذكر الحلية التي هي علامة الضعف والعجز والوهن. (الصواعق المرسلة ٢/ ٤٨٣ - ٤٨٥).

📖 قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ رَبِّطْنَا لَهُمْ لَهُ قَرِينَ ٣١﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾.

٢- لما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبة، حصل له بالتأسي نوع تخفيف وتسلية، أخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل في حق المشتركين في العذاب، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه، وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت صارت مسلاة، كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

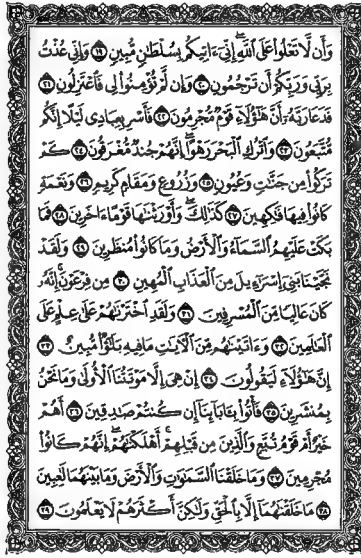
ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي، ولكن أعزي النفس عنه بالتأسي

فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ يَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٣٩]. (الجواب الكافي ١٣٦-١٣٧).



وَلَمْ يَنْفَعَهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي كَانُوا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ وَزُحُرُوا فَاذْلَقُوا
كُلَّ ذَلِكَ لَمَسْنَاهُ بِالسَّحَابِ وَأَلْقَيْنَا الْكُرْشُفَ عَيْنَكَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ وَمَنْ يَشَأْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيْضُ لَهُ مِنْهُ نَعْلًا
مُهْلَكًا ﴿٣﴾ قُلْ هُنَّ لَكُمْ رُسُلُكُمْ وَعَنْ السَّيْلِ وَيَسْئَلُونَ
أَنْتُمْ مُشْتَرِكُونَ ﴿٤﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَهُنَّ قَالَ يَبَتَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْقُصُ الْفَقِيرُ ﴿٥﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ آلِهَتُهُمْ
إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٦﴾ أَفَأَنْتُمْ تُسْمِعُونَ
الْأَشْمَةَ أَوْ تُفْقِدُونَ الْغَنَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧﴾ فَلَمَّا
تَذَكَّرْنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقَضُونَ ﴿٨﴾ أَوْ مُرْسَلَةٌ إِلَى
وَعْدَتِهِمْ فِي آثَانِهِمْ مُنْقَضُونَ ﴿٩﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ
إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠﴾ وَإِنَّهُ لَوَصَّىٰكَ وَلِيُّوكَ
وَسَوَّىٰ لَكَ لُغَةً ﴿١١﴾ وَنَقَلَ مِنَ الْأَرْسَلِينَ قَبْلَكَ مِنْ زُمَرٍ
أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا بِمُضْجِكُونَ ﴿١٤﴾

سورة الدخان



قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِيبِكَ﴾ (٣٨) ﴿أَمَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

١- الحق هو الحكم والغايات المحمودة التي لأجلها خلق ذلك كله، وهو أنواع كثيرة:

* منها: أن يعرف الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وآياته.

* ومنها: أن يحب ويعبد ويشكر ويذكر ويطاع.

* ومنها: أن يأمر وينهى ويشعر الشرائع.

* ومنها: أن يدبر الأمر ويبرم القضاء ويتصرف في المملكة بأنواع التصرفات.

* ومنها أن يثيب ويعاقب فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فيوجد أثر عدله وفضله موجودا مشهودا، فيحمد على ذلك ويشكر.

* ومنها: أن يعلم خلقه أنه لا إله غيره ولا رب سواه.

* ومنها: أن يصدق الصادق فيكرمه ويكذب الكاذب فيهيئه.

* ومنها ظهور آثار أسمائه وصفاته على تنوعها وكثرتها في الوجود الذهني والخارجي، فيعلم عباده ذلك علما مطابقا لما في الواقع.

* ومنها: شهادة مخلوقاته كلها بأنه وحده ربها وفاطرها ومليكيها وأنه وحده إلهها ومعبودها.

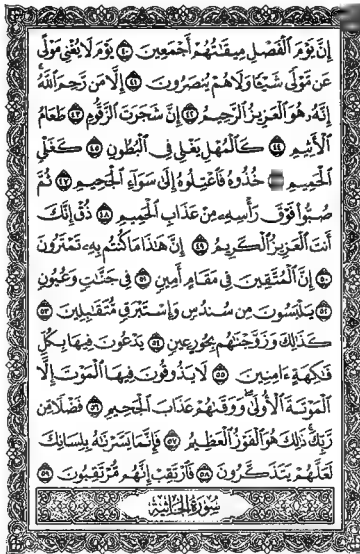
* ومنها: ظهور أثر كماله المقدس، فإن الخلق والصنع لازم كماله، فإنه حي قدير، ومن كان ذلك كذلك لم يكن إلا فاعلا مختارا.

- * ومنها: أن يظهر أثر حكمته في المخلوقات بوضع كل منها في موضعه الذي يليق به ومحبته على الوجه الذي تشهد العقول والفطر بحسنه، فتشهد حكمته الباهرة.
- * ومنها: أنه سبحانه يحب أن يجود وينعم ويعفو ويغفر ويسامح ولا بد من لوازم ذلك خلقا وشرعا.
- * ومنها: أنه يحب أن يشنى عليه ويمدح ويمجد ويسبح ويعظم.
- * ومنها كثرة شواهد ربوبيته ووجدانيته وإلهيته، إلى غير ذلك من الحكم التي تضمنها الخلق. (شفاء العليل ١٩٨-١٩٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعْنَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّا يَشَاءُونَ ﴿٥٦﴾﴾

٢- جمع لهم بين حسن المنزل وحصول الأمن فيه من كل مكروه واشتماله على

الثمار والأنهار وحسن اللباس وكمال العشرة لمقابلة بعضهم بعضا وتمام اللذة بالهور العين ودعائهم بجميع أنواع الفاكهة مع أمنهم من انقطاعها ومضررتها وغائلتها وختام ذلك أعلمهم بأنهم لا يذوقون فيها هناك موتا. (حادي الأرواح ١٧٨).



٣- وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله

تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾ وفي قوله

تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام، فلا يخافون

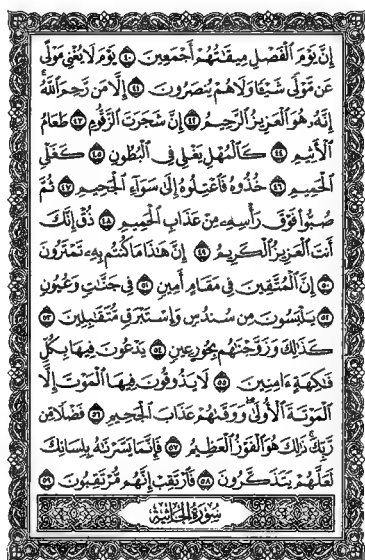
انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضررتها وأمن الخروج منها، فلا يخافون ذلك وأمن من

الموت فلا يخافون فيها موتاً. (حادي الأرواح ٨٩).

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

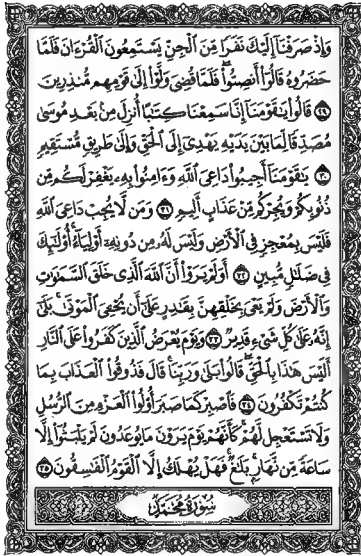
٤- فهذا الاستثناء هو لتحقيق دوام الحياة وعدم ذوق الموت، وهو يجعل النفي الأول العام بمنزلة النص الذي لا يتطرق إليه استثناء البتة، إذ لو تطرق إليه استثناء فرد من أفرادها، لكان أولى بذكره من العدول عنه إلى الاستثناء المنقطع، فجرى هذا الاستثناء مجرى التأكيد، والتنصيص على حفظ

العموم، وهذا جارٍ في كل منقطع، فتأمل، فإنه من أسرار العربية. (مدارج السالكين ١/ ٣١٩).



سورة الأحقاف

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.



١ - هذا يدل على تكليفهم من وجوه متعددة:

* أحدها: أن الله سُبحَانَهُ وتعالى صرفهم إلى رسوله يستمعون القرآن ليؤمنوا به ويأتمروا بأوامره وينتهوا عن نواهيه.

* الثاني: أنهم ولوا إلى قومهم مندرين، والإنذار هو الإعلام بالخوف بعد انعقاد أسبابه، فعلم أنهم منذرون لهم بالنار إن عصوا الرسول.

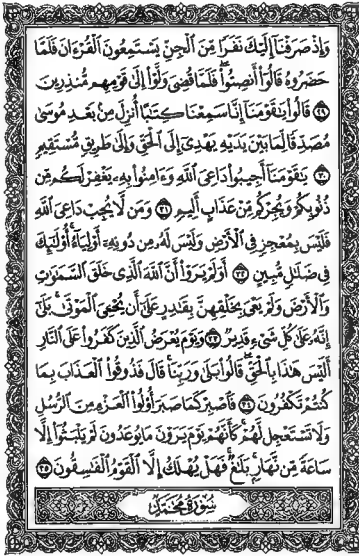
* الثالث: أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه وأنه يهدي إلى الحق، وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون بموسى

وبالكتاب المنزل عليه، وأن القرآن مصدق له، وأنه هادٍ إلى صراط مستقيم.

* وهذا يدل على تمكينهم من العلم الذي تقوم به الحجة، وهم قادرون على امتثال ما فيه والتكليف إنما يستلزم [العقل]، والقدرة.

* الرابع: أنهم قالوا لقومهم: ﴿يَقَوْمَنَا أَحْيُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ [الأحقاف: ٣١]. وهذا صريح في أنهم مكلفون بمأمورين بإجابة الرسول، وهي تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر.

* الخامس: أنهم قالوا: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ والمغفرة لا تكون إلا عن ذنب وهو مخالفة الأمر.



* السادس: أنهم قالوا: ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ والذنب مخالفة الأمر.

* من لم يستجب منهم لداعي الله، لم يعجره من العذاب الأليم. وهذا صريح في تعلق الشريعة الإسلامية بهم.

* السابع: أنهم قالوا: ﴿وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ [الأحقاف: ٣٢]. وهذا تهديد لمن تخلف عن إجابة داعي الله منهم. وقد استدل بها على أنهم كانوا متعبدين بشريعة موسى كما هم متعبدون

بشريعة محمد، وهذا ممكن والآية لا تستلزمه. (طريق الهجرتين ٣٩٠-٣٩١).

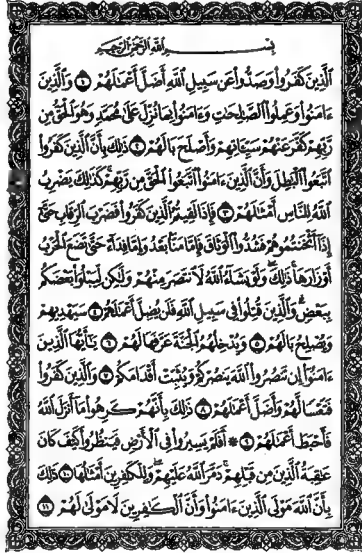
📖 قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

٢- وتعبيرهم عنه ها هنا بالطريق فيه نكتة بديعة، وهي أنهم قدموا قبله ذكر موسى وأن الكتاب الذي سمعوه مصداقاً لما بين يديه من كتاب موسى وغيره، فكان فيه كالنبا عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله لقومه: ﴿مَا كُنْتُ بِدَاعٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾، أي: لم أكن أول رسول بعث إلى أهل الأرض، بل قد تقدمت رسل من الله إلى الأمم، وإنما بعثت مصداقاً لهم بمثل ما بعثوا به من التوحيد والإيمان، فقال مؤمنو الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، أي: إلى سبيل مطروق قد مرت عليه الرسل قبله، وإنه ليس بدع كما قال في أول السورة نفسها، فاقضت البلاغة والإعجاز لفظ الطريق؛ لأنه فعيل بمعنى مفعول، أي: مطروق مشت عليه الرسل والأنبياء قبل، فحقيق على من صدق رسل الله وآمن بهم أن يؤمن به ويصدقهم، فذكر الطريق ها هنا إذاً أولى لأنه أدخل في باب الدعوة والتنبيه على تعين أتباعه، والله أعلم. (بدائع الفوائد ٢/ ١٦-١٧).

سورة محمد

قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرَا اللَّهُ

عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ۝ ١٠ ﴾



١- كل موضع أمر الله سبحانه فيه بالسير في الأرض، سواء كان السير الحسي على الأقدام والدواب، أو السير المعنوي بالتفكير والاعتبار، أو كان اللفظ يعمهما وهو الصواب، فإنه يدل على الاعتبار والحذر أن يحل بالمخاطبين ما حل بأولئك، ولهذا أمر سبحانه أولي الأبصار بالاعتبار بما حل بالمكذبين.

(إعلام الموقعين ١/ ١٣٢).

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَأَرْسَلْنَاكَهُمْ فَلَعرَفْنَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۝ ١١ ﴾

٢- وذلك في حق المنافقين.

فالأول: فراسة النظر والعين، والثاني: فراسة الأذن والسمع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: علق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة، ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم على شرط. بل أخبر به خبراً مؤكداً بالقسم، فقال: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۝ ١١ ﴾ وهو تعريض الخطاب، وفحوى الكلام ومغزاه.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم. فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه، فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية. والفراسة تتعلق بالنوعين:

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَنزَلْنَاكَ فَتَظُنُّهُمْ يُسْمِعُكَ وَلَقَدْ فَتَنَّا فِي
 لَحْنِ الْقُرْآنِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ﴿٧٥﴾ وَلَتَبْلُوُنَّ كُرْحًا وَنَسَاءً
 الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَيَتْلُوُنَّ الْحِكْمَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن قَبْدِ
 مَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ لَهُمْ آلَاءُ الْهَدْيِ لَنَبْلُوُنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ سَيَحِطُ أَعْمَلَكُمْ
 ﴿٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
 وَلَا تُبْغِلُوا أَعْمَلَكُمْ ﴿٧٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ
 اللَّهِ قَوْمًا هُمْ أَكْثَرُ أَلْفًا وَلَقَدْ تَوَفَّاكَ لَبُدُّوا فَكَفَرُوا
 وَتَوَفَّاكَ إِلَى النَّارِ وَآتَيْنَا الْأَكْفُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَزِيدَكُمْ
 أَعْمَلَكُمْ ﴿٧٩﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لُفْهٌ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَاقِبُهُمْ
 يُؤْكُلُونَ الْحَرَامَ وَلَا يَنْتَعِلُونَ أَثَرًا ﴿٨٠﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا
 فَيُحْفِكُمْ تَبَحَّلُوا وَلاَ يَخْفَى أَصْفَى تُحَنَّنَا ﴿٨١﴾ هَٰؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ
 نَدْعُونَ لِلْغَيْفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِمَّنْ قَدْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ
 فَإِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَفُورُ ﴿٨٢﴾ وَأَنَّهُمْ أَكْثَرُ
 قَوْمًا يَسْتَبْدِلُونَ قَوْمًا غَيْرَهُمْ فَمَا غَيْرُكُمْ لَا يَبْغِلُونَ أَعْمَلَكُمْ ﴿٨٣﴾

بالنظر، والسماع. وفي الترمذي من حديث أبي سعيد
 الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اتقوا
 فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله. ثم تلا قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ [الحجر: ٧٥].

(مدارج السالكين ٢/ ٤٨٣).

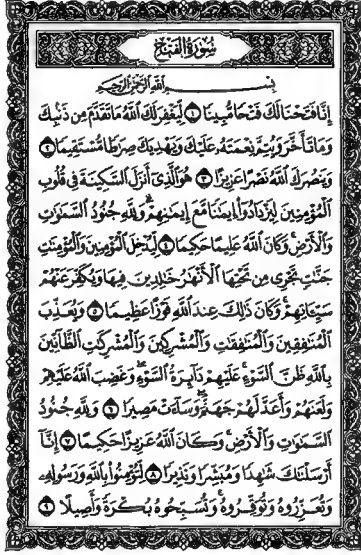
٣- ظهور ما في قلب الإنسان على لسانه أعظم
 من ظهوره على وجهه، لكنه يبدو في الوجه بُدْوًا خفيًا
 يراه الله، ثم يقوى حتى يصير صفةً في الوجه يراها
 أصحاب الفراسة، ثم يقوى حتى يظهر لجمهور

الناس، ثم يقوى حتى يُمَسِّخَ الوجه على طبيعة الحيوان الذي هو على خلقه من قردٍ أو
 خنزيرٍ، كما جرى على كثير من الأمم قبلنا، ويجري على بعض هذه الأمة، كما وعد به
 الصادق الذي لا ينطق عن الهوى. (الكلام على مسألة السماع ٣٧٢-٣٧٣).



سورة الفتح

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ۚ وَبِئْسَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢﴾



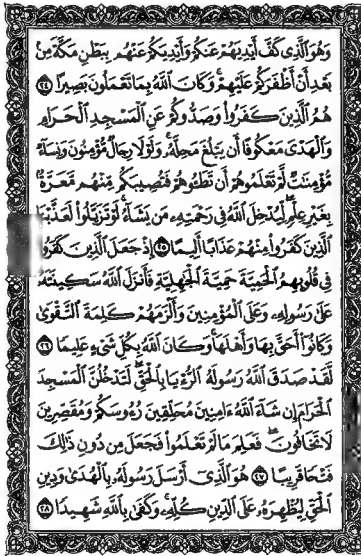
١- جمع الله سبحانه لرسوله في آية الفتح من أنواع العطايا وذلك خمسة أشياء:

- * أحدها: الفتح المبين.
- * والثاني: مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر.
- * والثالث: هدايته الصراط المستقيم.
- * والرابع: إتمام نعمته عليه.
- * والخامس: إعطاء النصر العزيز.

٢- وجمع سبحانه له بين الهدى والنصر؛ لأن

هذين الأصلين بهما كمال السعادة والفلاح، فإن الهدى هو العلم بالله تعالى ودينه والعمل بمرضاته وطاعته، فهو العلم النافع والعمل الصالح والنصر والقدرة التامة على تنفيذ دينه، فالحجة والبيان والسيف والسنان، فهو النصر بالحجة واليد، وقهر القلوب المخالفين له بالحجة، وقهر أبدانهم باليد، وهو سبحانه كثيرا ما يجمع بين هذين الأصلين؛ إذ بهما تمام الدعوة وظهور دينه على الدين كله كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾. (بدائع الفوائد ٢/ ١٤-١٥).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾



٣- علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْفَلَقِ والاضطراب لما منعهم كفار قريش من دخول بيت الله، وحبسوا الهدي عن محله، واشترطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة، فاضطربت قلوبهم، وقلقت ولم تطق الصبر، فعلم تعالى ما فيها، فثبتها بالسكينة رحمة منه ورأفة ولطفاء، وهو اللطيف الخبير، وتحتمل الآية وجهاً آخر، وهو أنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير ومحبه ومحبة رسوله فثبتها بالسكينة وقت قلقها واضطرابها، والظاهر أن الآية تعم الأمرين:

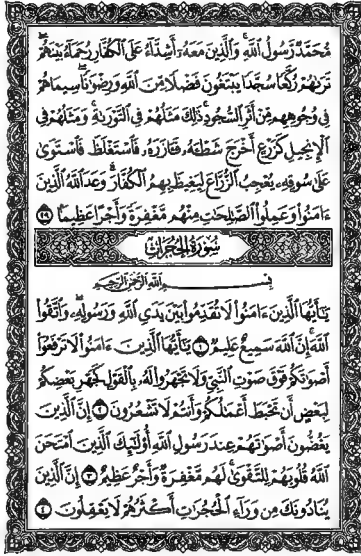
وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه إلى إنزال السكينة، وما في قلوبهم من الخير الذي هو سبب إنزالها.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ حِمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝﴾.

٤- ثمرة هذه السكينة الطمأنينة للخير تصديقا وإيقانا، وللأمر تسليما وإذعانا، فلا تدع شبهة تعارض الخير ولا إرادة تعارض الأمر، فلا تمر معارضات السوء بالقلب إلا وهي مجتازة من مرور الوسوس الشيطانية التي يبتلى بها العبد ليقوى إيمانه، ويعلو عند الله ميزانه بمدافعتها وردّها وعدم السكون إليها، فلا يظن المؤمن أنها لنقص درجته عند الله. (إعلام الموقعين ٤/ ٢٥٤-٢٥٥).

٥- فانظر قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ كيف جعل فعل الشرط ماضيا والجزاء مستقبلا؟ لأن القصد كان إلى دخولهم المسجد الحرام

وعنايتهم كلها مصروفة وهمهم معلقة به دون وقوع الأفعال بمشيئة الله تعالى،



فإنهم لم يكونوا يشكون في ذلك ولا يرتابون، وأكد هذا المعنى تقديم الجزاء على الشرط، وهو إما نفس الجزاء على أصح القولين دليلاً كما تقدم تقريره، وإما دال على الجزاء وهو محذوف مقدر تأخيرهِ وعلى القولين، فتقدم الجزاء أو تقديم ما يدل عليه اعتناء بأمره وتجريداً للقصد إليه، ويدل عليه أيضاً تأكيده باللام المؤذنة بالقسم المضمّر، كأنه قيل: والله لتدخلن المسجد الحرام. فهذا كله يدل على أنه هو المقصود المعنى به. (بدائع الفوائد ١/ ١٠٦-١٠٧).

📖 قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾.

٦- شهادة منه لرسوله، قد أظهرها وبينها، وبين صحتها غاية البيان، بحيث قطع العذر بينه وبين عبادته، وأقام الحجة عليهم، فكونه سبحانه شاهداً لرسوله: معلوم بسائر أنواع الأدلة: عقليها، ونقليها، وفطريها، وضروريها، ونظريها.

ومن نظر في ذلك وتأمله، علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة، وأعدلها وأظهرها، وصدقه بسائر أنواع التصديق: بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه، وبفعله وإقراره، وبما فطر عليه عبادته من الإقرار بكماله. (مدارج السالكين ٣/ ٤٧٠).



٣- أخبر سبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين: حبه، وحسنه الداعي إلى حبه، وألقى في قلوبهم كراهة ضده من الكفر والفسوق والعصيان، وإن ذلك محض فضله ومنتته عليهم، حيث لم يكلهم إلى أنفسهم، بل تولى هو سبحانه هذا التحبيب والتزيين وتكريه ضده فجاء عليهم به فضلا منه ونعمة، والله عليم بمواقع فضله، ومن يصلح له

ومن لا يصلح، حكيم بجعله في مواضعه. (شفاء العليل ٥٧).

﴿قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتَّبِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾﴾.

٤- قَسَمَ العباد إلى تائب وظالم، وما ثمَّ قسم ثالث البتة، وأوقع اسم الظالم على من لم يتب، ولا أظلم منه؛ لجهله بربه وبحقه، وبعبث نفسه وآفات أعماله. (مدارج السالكين ١/ ١٧٨-١٧٩).

﴿قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَّمْ تُوْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾﴾.

بَيِّنَاتُ الدِّينِ ءَأَمَّا الْجَبِينُ أَسْعَدَ مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ
إِنْفَرٌ وَلَا تَحْسَبُوا وَلَا تَقْنَبُ تَعْمَلُكُمْ بَعْضُ الْحَيْثُ أَمَّا قُلْ
بِأَسْمَاءِ لَحْمٍ أَحْيَا وَمَيَّا فَاكْرَهْتُمْ وَأَلْفَا اللَّهُ إِيَّاهُ
وَأَبْ كَيْفَ ﴿بَيِّنَاتُ الدِّينِ النَّاسُ الرَّافِقُونَ ذَكَرُوا لِقَاءَ اللَّهِ فِي صِفَاتِهِ
شُعْرًا وَأَقْبَالَ لِقَاءِ رَبِّهِمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ أَفْكَرُ مِنْكُمْ
عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَّمْ تُوْمِنُوا وَلَكِنْ
قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ قَالُوا قُلْ قُلُوبُكُمْ قُلُوبُكُمْ
وَرَسُولُهُ لَا يَكْتُبُكُمْ أَفْعَالَكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَأَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُّؤْتُوا نَفْسَهُمْ
وَصَدَقُوا بِأَمْرِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ
السَّادِقُونَ ﴿قُلْ الْمُؤْمِنُونَ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿يَمْشُونَ
عَلَيْكَ أَنْ أَسْكَنُوا أَوْ لَا تَسْكَنُوا أَعْلَىٰ تَسْكُنُوا كَيْفَ يَسْكُنُ
عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا لَكُمْ الْإِيمَانُ إِنَّ كَثِيرَ صِدْقِكُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿

٥- قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَّمْ تُوْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ نفيا للإيمان المطلق لا لمطلق الإيمان، لوجوه:

* منها أنه أمرهم أو أذن لهم أن يقولوا أسلمنا، والمنافق لا يقال له ذلك.

* ومنها أنه قال: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ ولم يقل: قال المنافقون.

* ومنها أن هؤلاء الجفأة الذين نادوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وراء الحجرات ورفعوا أصواتهم فوق صوته غلظة منهم وجفاء لا نفاقا وكفرا.

* ومنها أنه قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ولم ينف دخول الإسلام في قلوبهم، ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام كما نفى الإيمان.

* ومنها أن الله تعالى قال: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾،

[illegible]

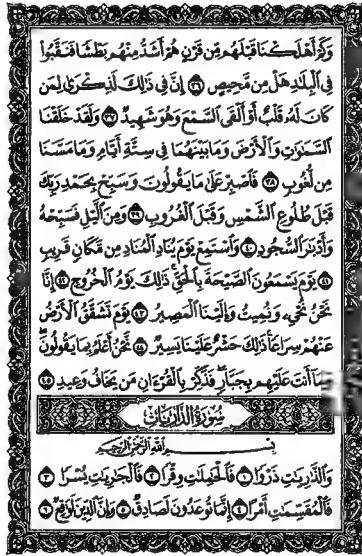
سورة ق

١- قوله تعالى: ﴿تَبَصَّرْهُ وَذَكَرْهُ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ ﴿٨﴾ .

فالناظر فيها يتبصر أولا، ثم يتذكر ثانيا، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ﴿٢٧﴾ .

١- تأمل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتح مراعاتها للبعد أبواب العلم والهدى، وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها، فإنه سبحانه أمر عباده أن يتدبروا آياته المتلوة المسموعة والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن



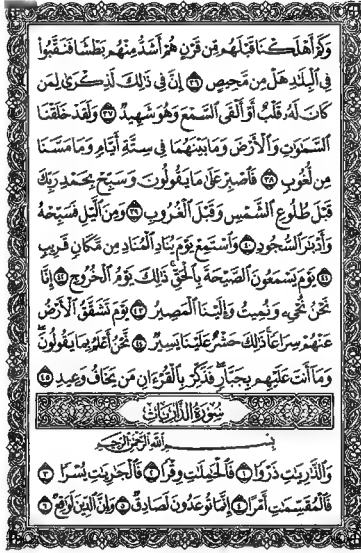
كان له قلب، فإن من عدم القلب الواعي عن الله، لم ينتفع بكل آية تمر عليه ولو مرت به كل آية، ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم، ومرورها على من لا بصر له، فإذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات، فإنه يراها، ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين: أحدهما أن يحضره ويشهده لما يلقي إليه، فإن كان غائبا عنه مسافرا في الأماني والشهوات والخيالات لا ينتفع به، فإذا أحضره أشهده لم ينتفع إلا بأن يلقي سمعه ويصغي بكليته إلى ما يوعظ به ويرشد إليه، وها هنا ثلاثة أمور: أحدها: سلامة القلب وصحته وقبوله.

الثاني: إحضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق.

الثالث: إلقاء السمع وإصغائه والإقبال على الذكر، فذكر الله تعالى الأمور الثلاثة

في هذه الآية.

٢- وأيضاً فإن الآية تضمنت تقسيماً وترديداً بين قسمين: أحدهما من كان له قلب، والثاني من ألقى السمع وحضر بقلبه ولم يرغب، فهو حاضر القلب شاهده لا غائبه، وهذا - والله أعلم - سر الإتيان به (أو) دون الواو؛ لأن المنتفع بالآيات من الناس نوعان:



أحدهما: ذو القلب الواعي الزكي الذي يكتفي بهدايته بأدنى تنبيه، ولا يحتاج إلى أن يستجلب قلبه ويحضره ويجمعه من مواضع شتاته، بل قلبه واع زكي قابل للهدى غير معرض عنه، فهذا لا يحتاج إلا إلى وصول الهدى إليه فقط؛ لكمال استعداده وصحة فطرته، فإذا جاءه الهدى سارع قلبه إلى قبوله كأنه كان مكتوباً فيه، فهو قد أدركه مجملاً، ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته مجملاً، وهذه حال أكمل

الخلق استجابة لدعوة الرسل كما هي حال الصديق الأكبر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والنوع الثاني: من ليس له هذا الاستعداد والقبول، فإذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه وأحضر قلبه وجمع فكرته عليه وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلاله، وهذه طريقة أكثر المستجيبين، ولهم نوع ضرب الأمثال وإقامة الحجج وذكر المعارضات والأجوبة عنها، والأولون هم الذين يدعون بالحكمة، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة، فهؤلاء نوعا المستجيبين.

٣- فالناس ثلاثة: رجل قلبه ميت، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه.

الثاني: رجل له قلب حي مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها



الله عن الآيات المشهودة، إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه، ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب، ليس حاضرا، فهذا أيضا لا تحصل له الذكرى مع استعداده ووجود قلبه.

الثالث: رجل حي القلب مستعد، تليت عليه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، ملق السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

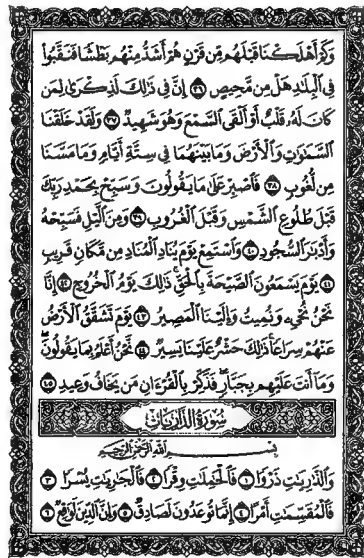
فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر.

والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه.

والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حذق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره، وقابله على توسط من البعد والقرب، فهذا هو الذي يراه.

فسبحان من جعل كلامه شفاء لما في الصدور.

(مدارج السالكين ٤٤٢-٤٤٣).



٤- قال: ﴿ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾ ولم يقل عنه كما قال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَبِيٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ ولم يقل: في شك فيه. وجاء هذا في المصدر وإن لم يجيء في الفعل، فلا يقال: غفلت منه، ولا شككت منه، كأن غفلته وشكه ابتداء منه، فهو مبدأ غفلته وشكه، وهذا أبلغ من أن يقال في غفلة عنه وشك فيه، فإنه جعل ما ينبغي أن يكون مبدأ التذكرة واليقين ومنشأهما مبدأ للغفلة والشك.

٥- ثم ذكر صفات هذا الملقى فذكر له ست صفات:

أحدها: أنه كَفَّار لنعم الله وحقوقه، كَفَّار بدينه وتوحيده وأسمائه وصفاته، كَفَّار برسله وملائكته، كَفَّار بكتبه ولقائه.

الثانية: أنه معاند للحق بدفعه جحدا وعنادا.

الثالثة: أنه مَنَّاع للخير، وهذا يعم منعه للخير الذي هو إحسان إلى نفسه من الطاعات والقرب إلى الله والخير الذي هو إحسان إلى الناس، فليس فيه خير لنفسه ولا لبني جنسه كما هو الحال أكثر الخلق.

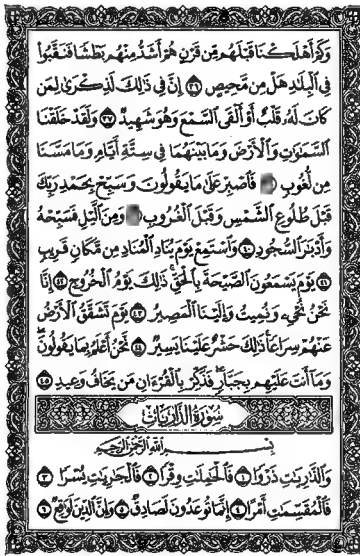
الرابعة: أنه مع منعه للخير معتد على الناس ظلوم غشوم، معتد عليهم بيده ولسانه.

الخامسة: أنه مريب، أي: صاحب ريب وشك، ومع هذا فهو آت لكل ريبة، يقال: فلان مريب، إذا كان صاحب ريبة.

السادسة: أنه مع ذلك مشرك بالله قد اتخذ مع الله إلها آخر يعبد به ويحبه ويغضب له ويرضى له ويحلف باسمه وينذر له ويوالي فيه ويعادي فيه.

٦- ثم أخبر عن تقريب الجنة من المتقين وأن أهلها هم الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع:

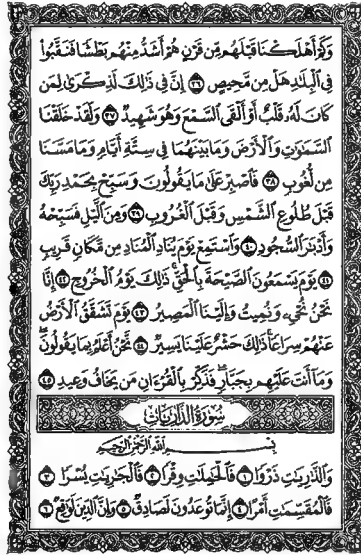
إحداها: أن يكون أَوَّاباً، أي رجَّاعاً إلى الله من معصيته إلى طاعته، ومن الغفلة عنه إلى ذكره. قال عبيد بن عمير: الأَوَّاب الذي يتذكر ذنوبه، ثم يستغفر منها. وقال مجاهد: هو الذي إذا ذكر ذنبه في الخلاء استغفر منه. وقال سعيد بن المسيب: هو الذي يذنب، ثم يتوب، ثم يذنب، ثم يتوب.



الثانية: أن يكون حفيظا. قال ابن عباس: لِمَا ائتمنه الله عليه وافترضه. وقال قتادة: حافظ لِمَا استودعه الله من حقه ونعمته. ولما كانت النفس لها رجوعه إلى الله قوتان قوة الطلب وقوة الإمساك، كان الأواب مستعملا لقوة الطلب في مرضاته وطاعته،

والحفيظ مستعملا لقوة الحفظ في الإمساك عن معاصيه ونواهيهِ، فالحفيظ: الممسك نفسه عما حرم عليه، والأواب: المقبل على الله بطاعته.

الثالثة: قوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ يتضمن الإقرار بوجوده وربوبيته وقدرته وعلمه وإطلاعه على تفاصيل أحوال العبد، ويتضمن الإقرار بكتبه ورسله وأمره ونهيهِ، ويتضمن الإقرار بوعدهِ ووعدهِ ولقائه، فلا تصح خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هذا كله.



الرابعة: قوله: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ قال ابن

عباس: راجع عن معاصي الله مقبل على طاعة الله. وحقيقة الإنابة عكوف القلب على طاعة الله ومحبة والإقبال عليه، ثم ذكر سبحانه جزاء من قامت به هذه الأوصاف بقوله: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ (٣٤) ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (٣٥).



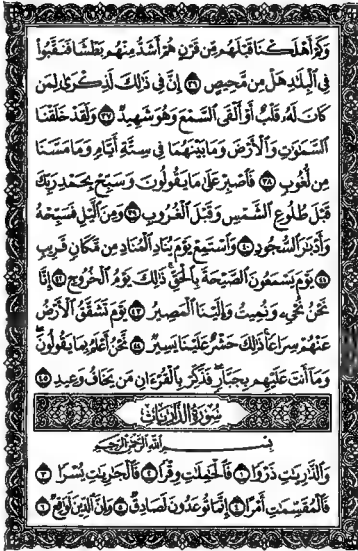
سورة الذاريات

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَفَّعُوا ۝٦ وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْجُبُكِ ۝٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي

قَوْلٍ مُّخْتَلَفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُلِ الْمُخَرَّصُونَ

الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرَةٍ سَاهُوتٌ ۝١١ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ

الَّذِينَ ۝١٢﴾



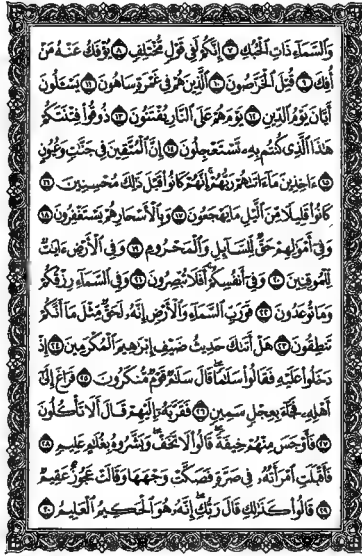
١- وصف الوعد بكونه صادقاً أبلغ من وصفه

بكونه صادقاً ولا حاجة إلى تكلف جعله بمعنى مصدوق فيه، بل هو صادق نفسه كما يوصف المتكلم بأنه صادق في كلامه فوصف كلامه بأنه صادق وهذا مثل قولهم سر كاتم وليل قاتم ونهار صائم وماء دافق، ومنه ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ وليس ذلك بمجاز ولا مخالف لمقتضى التركيب.

وإذا تأملت هذا التناسب والارتباط بين المقسم به والمقسم عليه وجدته دالاً عليه مرشداً إليه.

٢- فالقول المختلف أقوالهم في القرآن وفي النبي وهو خرص كله، فإنهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم وآراؤهم وطرائقهم وأقوالهم، فإن الحق شيء واحد وطريق مستقيم، فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ۝٥﴾ أي: مختلط ملتبس وفي ضمن هذا الجواب أنكم في أقوال باطلة متناقضة يكذب بعضها بعضاً، ثم أخبر سبحانه بسبب تكذيبهم بالحق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَانَتْهُمْ رِئْهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۖ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۖ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۖ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۖ ﴿١٩﴾﴾



٣- ذكر سبحانه جزاء من خُص من هذه الفتن بالتقوى وهو الجنات والعيون ﴿ءَاخِذِينَ مَا ءَانَتْهُمْ رِئْهُمْ﴾

من الخير والكرامة. وفي ذلك دليل على أمور:
منها: قبولهم له.

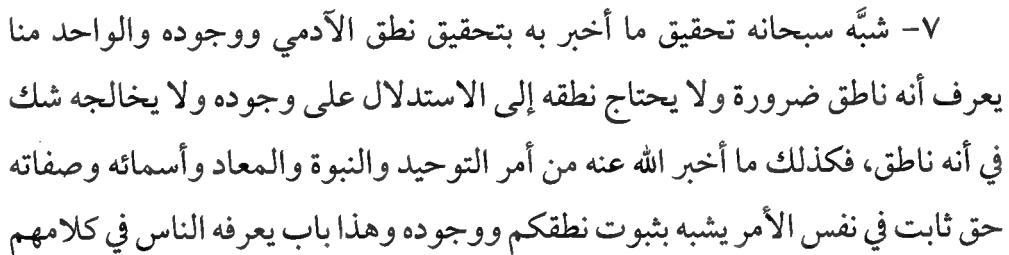
ومنها: رضاهم به.

ومنها: وصولهم إليه بلا مانع ولا عائق.

ومنها: أن جزاءهم من جنس أعمالهم، فكما أخذوا ما أمرهم به في الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم وانشرح الصدر أخذوا ما آتاهم من الجزاء كذلك.

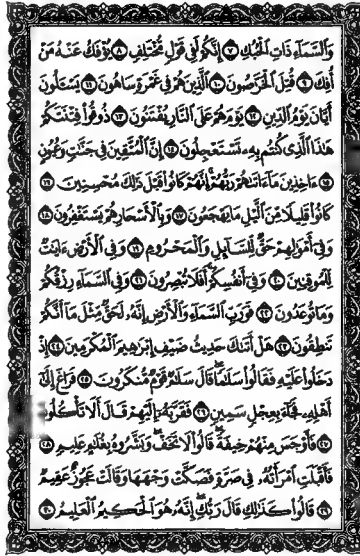
٤- ثم أخبر سبحانه عن إحسانهم إلى الخلق مع إخلاصهم لربهم فجمع لهم بين الإخلاص والإحسان ضد ﴿الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ﴾ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ وأكد إخلاصهم في هذا الإحسان بأن مصرفه للسائل والمحروم الذي لا يقصد بإعطائه الجزاء منه ولا الشكور والمحروم المتعفف الذي لا يسأل.

٥- وتأمل حكمة الرب تعالى في كونه حرمه بقضائه وشرع لأصحاب الجدة إعطاءه وهو أغنى الأغنياء وأجود الأجودين، فلم يجمع عليه بين الحرمان بالقدر وبالشرع شرع عطاءه بأمره وحرمه بقدره، فلم يجمع عليه حرمانين.



يقول أحدهم: هذا حق مثل الشمس، وأفصح الشاعر عن هذا بقوله:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل



قوله تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿ ٢٥ ﴾ فَرَاعَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿ ٢٦ ﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿ ٢٧ ﴾ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿ ٢٨ ﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿ ٢٩ ﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿ ٣٠ ﴾

٨- في هذا الثناء على إبراهيم من وجوه متعددة:

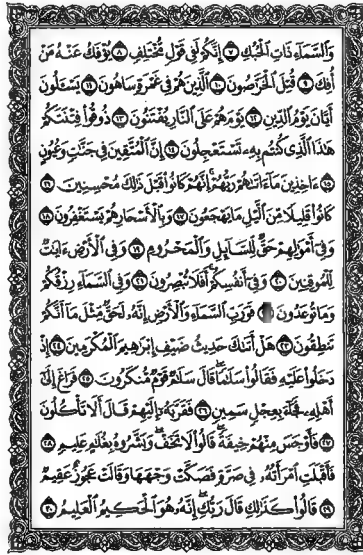
أحدها: أنه وصف ضيفه بأنهم مكرمون وهذا على أحد القولين أنه إكرام إبراهيم لهم أنهم المكرمون عند الله، ولا تنافي بين القولين، فالآية تدل على المعنيين.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ فلم يذكر استئذانهم، ففي هذا دليل على أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قد عرف بإكرام الضيفان واعتياد قراهم، فبقي منزله مضيضة مطروقا لمن ورده لا يحتاج إلى الاستئذان، بل استئذان الداخل دخوله وهذا غاية ما يكون من الكرم.

الثالث: قوله لهم: ﴿ سَلَّمَ ﴾ بالرفع، وهم سلموا عليه بالنصب، والسلام بالرفع أكمل، فإنه يدل على الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والتجدد، والمنصوب يدل على الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد، فإبراهيم حياهم أحسن من تحيتهم، فإن

قولهم سلاما، يدل على سلمنا سلاما، وقوله: سلام، أي سلام عليكم.

الرابع: أنه حذف من قوله: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾، فإنه لما أنكرهم ولم يعرفهم احتشم من مواجهتهم بلفظ ينفر الضيف لو قال: أنتم قوم منكرون. فحذف المبتدأ هنا من الطف الكلام.



الخامس: أنه بنى الفعل للمفعول وحذف فاعله فقال: ﴿مُنْكَرُونَ﴾ ولم يقل: إني أنكركم، وهو أحسن في هذا المقام وأبعد من التنفير والمواجهة بالخشونة.

السادس: أنه راغ إلى أهله ليجيئهم بنزلهم والروغان هو الذهاب في اختفاء، بحيث لا يكاد يشعر به الضيف وهذا من كرم رب المنزل المضيف أن يذهب في اختفاء، بحيث لا يشعر به الضيف فيشق عليه ويستحي فلا يشعر به إلا وقد جاءه بالطعام

بخلاف من يسمع ضيفه ويقول له أو لمن حضر مكانكم حتى آتيكم بالطعام ونحو ذلك مما يوجب حياء الضيف واحتشامه.

السابع: أنه ذهب إلى أهله فجاء بالضيافة، فدل على أن ذلك كان معدا عندهم مهيبا للضيفان ولم يحتج أن يذهب إلى غيرهم من جيرانه أو غيرهم فيشتريه أو يستقرضه.

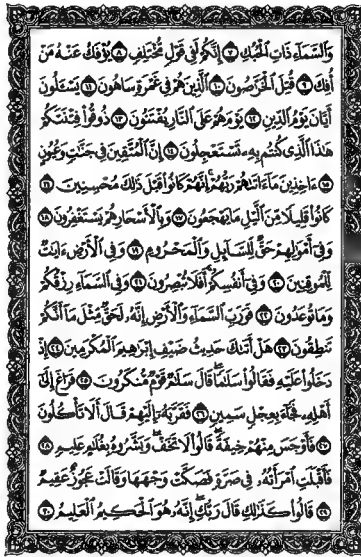
الثامن: قوله تعالى: ﴿فَجَاءَ بِعِجْلِ سَمِينٍ﴾ دل على خدمته للضيف بنفسه، ولم يقل فأمر لهم، بل هو الذي ذهب وجاء به بنفسه ولم يبعثه مع خادمه وهذا أبلغ في إكرام الضيف.

التاسع: أنه جاء بعجل كامل ولم يأت ببضعة منه وهذا من تمام كرمه صلى الله عليه وسلم.

العاشر: إنه سمين لا هزيل ومعلوم أن ذلك من أفخر أموالهم ومثله يتخذ للاقتناء والتربية فأثر به ضيفانه.

الحادي عشر: أنه قربه إليهم بنفسه ولم يأمر خادمه بذلك.

الثاني عشر: أنه قربه ولم يقر بهم إليه وهذا أبلغ في الكرامة أن يجلس الضيف، ثم يقرب الطعام إليه ويحمله إلى حضرته ولا يضع الطعام في ناحية، ثم يأمر الضيف بأن يتقرب إليه.



الثالث عشر: أنه قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وهذا عرض وتلطف في القول وهو أحسن من قوله كلوا أو مدوا أيديكم، وهذا مما يعلم الناس بعقولهم حسنه ولطفه، ولهذا يقولون باسم الله، أو ألا تتصدق، أو ألا تجبر، ونحو ذلك.

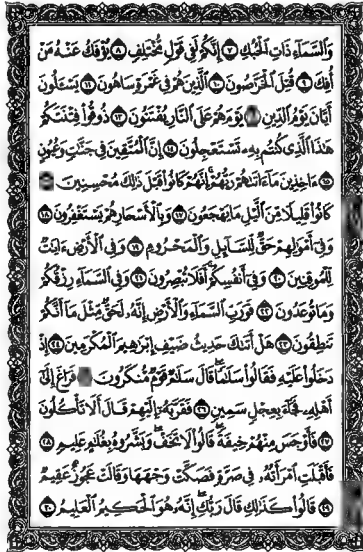
الرابع عشر: أنه إنما عرض عليهم الأكل لأنه رآهم لا يأكلون، ولم يكن ضيوفه يحتاجون معه إلى الإذن في الأكل، بل كان إذا قدم إليهم الطعام أكلوا،

وهؤلاء الضيوف لما امتنعوا من الأكل قال لهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ولهذا أوجس منهم خيفة، أي: أحسها وأضمرها في نفسه ولم يبدها لهم وهو الوجه.

الخامس عشر: فإنهم لما امتنعوا من أكل طعامه خاف منهم ولم يظهر لهم ذلك، فلما علمت الملائكة منه ذلك قالوا: ﴿لَا تَخَفْ﴾ وبشروه بالسلام.

فقد جمعت هذه الآية آداب الضيافة التي هي أشرف الآداب وما عداها من التكاليف التي هي تخلف وتكلف إنما هي من أوضاع الناس وعوائدهم، وكفى بهذه

الآداب شرفا وفخرا، فصلى الله على نبينا وعلى إبراهيم وعلى ألهما، وعلى سائر النبيين. (جلاء الأفهام ١٥٦-١٥٩).



فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية وتطلعت إلى معناها وتدبرتها، فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون وبشروه بغلام عليم، وإنما امرأته عجبت من ذلك فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك. ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك.

فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع

الأسرار:

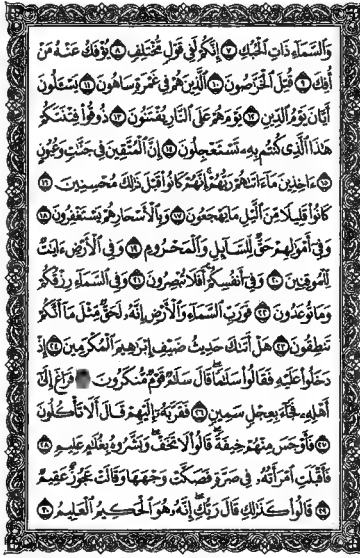
﴿قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢٤)﴾.

٩- افتتح سبحانه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام، وليس المراد بها حقيقة

الاستفهام، ولهذا قال بعض الناس: إن (هل) في مثل هذا الموضع بمعنى (قد) التي تقتضي التحقيق، ولكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سر لطيف، ومعنى بديع، فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به، وإحضار الذهن له صدر له الكلام بأداة الاستفهام لتنبه سمعه وذهنه للمخبر به، فتارة يصدره بالآ، وتارة يصدره بهل، فقول: هل علمت ما كان من كيت وكيت؟ إما مذكرا به، وإما واعظا له مخوفا، وإما منبها على عظمه ما يخبر به، وإما مقرر له.

فقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (١٥) و ﴿وَهَلْ أُنَبِّئُكَ نَبَأَ الْخَصَمِ﴾ و ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ الْعَشِيَةِ﴾ (١) و ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢٤) متضمن

لتعظيم هذه القصص والتنبيه على تدبرها ومعرفتها ما تضمنته.



١٠- ففيه أمر آخر: وهو التنبيه على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوة، فإنه من الغيب الذي لا تعمله أنت ولا قومك، فهل أتاك من غير أعلامنا وإرسالنا وتعريفنا؟ أم لم يأتك إلا من قبلنا؟

١١- فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام، وتأمل عظم موقعه من جميع موارد يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا.

وقوله: ﴿صَيَّفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرِمِينَ﴾ متضمن لثنائه على خليله إبراهيم.

١٢- وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ تَمَرَّتُهُ فِي صَرَقٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها، إذ بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار.

١٣- وقوله: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة، فإنها حذفت المبتدأ ولم تقل أنا عجوز عقيم، واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة لم تذكر غيره، وأما في سورة هود فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب.

١٤- وقوله تعالى: ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ متضمن لإثبات صفة القول له.

١٥- وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته،

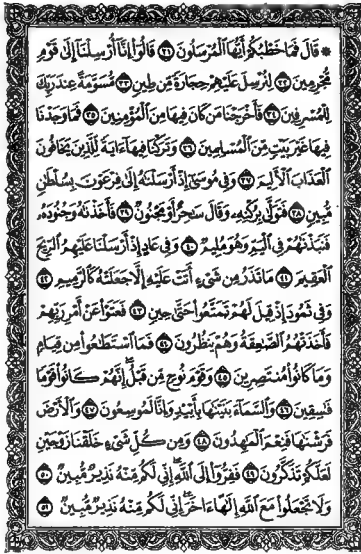
وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته.

والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال، فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام.

واختصت هذه القصة بذكر هذين الاسمين لاقتضائهما لتعجب النفوس من تولد

مولود بين أبوين لا يولد لمثلها عادة، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد، وكون الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة على غير العادة المعروفة، فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة.

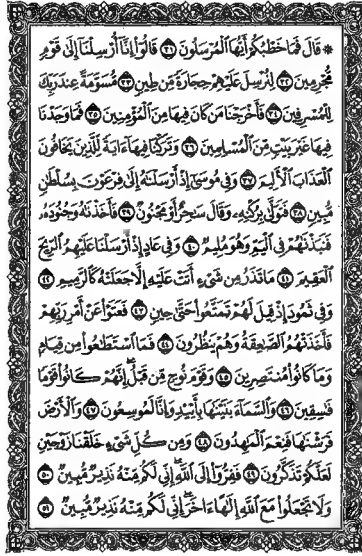
قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاخْطُبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣١) ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَجَرٍ مِّنْ قَبْلِهِ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ﴾ (٣٢).



١٦- ذكر سبحانه وتعالى قصة الملائكة في إرسالهم لهلاك قوم لوط، وإرسال الحجارة المسومة عليهم. وفي هذا ما يتضمن تصديق رسله وإهلاك المكذبين لهم والدلالة على المعاد والثواب والعقاب لوقوعه عيانا في هذا العالم، وهذا من أعظم الأدلة الدالة على صدق رسله لصحة ما أخبروا به عن ربهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٥) ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٦).

١٧- فرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاه الكلام، فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة فهو إخراج نجاة من العذاب، ولا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسول ظاهراً وباطناً.



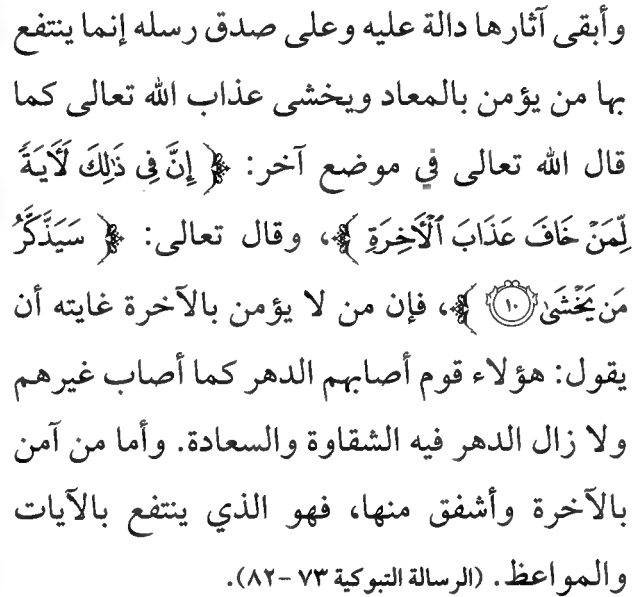
وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٦) لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم؛ لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت وهي مسلمة في الظاهر، فكانت في البيت الموجودين لا في القوم الناجين، وقد أخبر سبحانه عن خيانة امرأة لوط، وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم، وليست خيانة فاحشة، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهراً، وليست من المؤمنين الناجين.

ومن وضع دلالة القرآن وألفاظه مواضعها تبين له من أسرارهِ وحكمته ما يبهر العقول ويعلم أنه تنزيل من حكيم حميد.

وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو أن الإسلام أعم من الإيمان، فكيف استثناء الأعم من الأخص، وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود، والمؤمنين غير مستثنين منه، بل هم المخرجون الناجون.

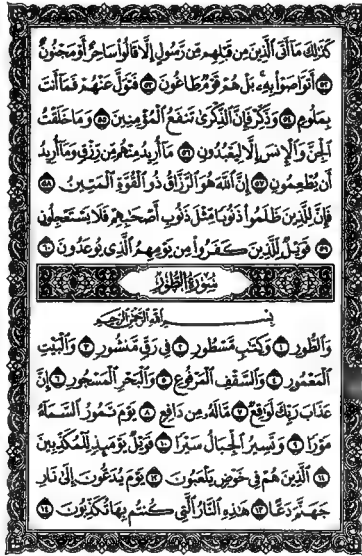
وقوله تعالى: ﴿وَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٣٧).

١٨- فيه دليل على أن آيات الله سبحانه وعجائبه التي فعلها في هذا العالم



سورة الطور

قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ٢ ﴿فِي رَقٍ مَّنشُورٍ ٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْفِعٌ ٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨ ﴿٨﴾



١- في وصفه الكتاب بأنه مسطور تحقيق لكونه مكتوبًا مفروغًا منه وفي وصفه بأنه منشور إيدان بالاعتناء به وأنه بأيدي الملائكة منشور غير مهجور.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْفِعٌ ٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨ ﴿٨﴾
٢- ولما كان الذي يقع قد يمكن دفعه أخبر سبحانه أنه لا دافع له وهذا يتناول أمرين: أحدهما أنه لا دافع لوقوعه، والثاني أنه لا دافع له إذا وقع، ثم ذكر سبحانه وقت وقوعه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ١٧﴾ فَتَكِينٍ بِمَا أَنَّهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقْنَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ١٨ كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٩ مُتَكِينِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ٢٠ ﴿٢٠﴾

٣- المقصود أنه سبحانه جمع لهم بين النعيمين: نعيم القلب بالتفكه، ونييم البدن بالأكل والشرب والنكاح، ووقاهم عذاب الجحيم، فوقاهم مما يكرهون وأعطاهم ما يحبون جزاءً وفاقاً؛ لأنهم تركوا ما يكره وأتوا بما يحب، فكان جزاؤهم مطابقاً لأعمالهم، ثم أخبر عن دوام ذلك لهم بما أفهمه قوله هنيئًا. فإنهم لو علموا

زواله وانقطاعه، لنغص عليهم ذلك نعيمهم ولم يكن هناء لهم، ثم ذكر مجالسهم وهيئاتهم فيها فقال: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾.

وفي ذكر اصطفاؤها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من بعض ومقابلة بعضهم بعضا كما قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ (١٦)، فإن من تمام اللذة والنعيم أن يكون مع الإنسان في بستانه ومنزله من يحب معاشرته ويؤثر قربته، ولا يكون بعيدا منه قد حيل بينه وبينه، بل سريره إلى جانب سرير من يحبه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (٢١) وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَنْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْسٍ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّعُورِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨).

أخبر سبحانه عن تكميل نعيمهم بالإحاطة بآثارهم وأسرارهم على كمال ما كسبوا من عملهم. ﴿فَكَرِهَ بِمَاءِ أَنْهَارٍ زُكَاةً﴾ (٢١) ﴿وَقَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٢٢) ﴿يَنْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْسٍ﴾ (٢٣) ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ﴾ (٢٤) ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٥) ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ (٢٦) ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّعُورِ﴾ (٢٧) ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (٢٨).

٤- أخبر سبحانه عن تكميل نعيمهم بالإحاطة بآثارهم وأسرارهم على كمال ما كسبوا من عملهم. ﴿فَكَرِهَ بِمَاءِ أَنْهَارٍ زُكَاةً﴾ (٢١) ﴿وَقَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٢٢) ﴿يَنْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْسٍ﴾ (٢٣) ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ﴾ (٢٤) ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٥) ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ (٢٦) ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّعُورِ﴾ (٢٧) ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (٢٨).

ثم أخبر سبحانه أن هذا إنما هو فعله في أهل الفضل وأما أهل العدل فلا يفعل بهم ذلك، بل ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ ففي هذا دفع لتوهم التسوية بين الفريقين بهذا

الإلحاق كما في قوله: ﴿وَمَا أَلْتَنَّهُمْ مِّنْ عَمَلٍ مِّنْ شَيْءٍ﴾ دفع لتوهم حط الآباء إلى درجة الأبناء وقسمة أجور الآباء بينهم وبين الأبناء فينقص أجر أعمالهم، فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿وَمَا أَلْتَنَّهُمْ مِّنْ عَمَلٍ مِّنْ شَيْءٍ﴾، أي: ما نقصناهم.

٥- قوله تعالى: ﴿لَا تَغُوثٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيُمْ﴾ فنفي باللغو السباب والتخاصم والهجر

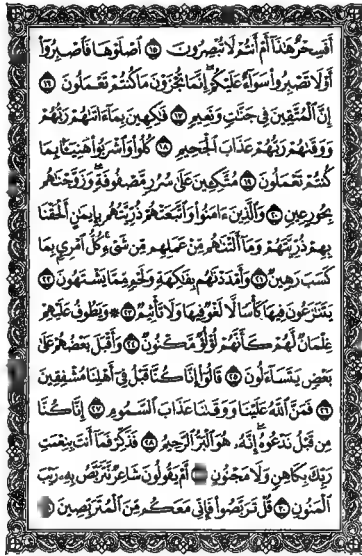
والفحش في المقال والعريضة، ونفي بالتأثيم جميع الصفات المذمومة التي أئمت شارب الخمر.

٦- وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْتِيُمْ﴾ ولم يقل ولا إثم، أي: ليس فيها ما يحملهم على الإثم ولا يؤثم بعضهم بعضًا بشربها ولا يؤثمهم الله بذلك ولا الملائكة فلا يلغون ولا يأتون، قال ابن قتيبة: لا يذهب بعقولهم فيلغوا ولم يقع منهم ما يؤثمهم.

٧- ثم وصف خدمهم الطائفين عليهم بأنهم كاللؤلؤ في بياضهم، والمكنون المصون الذي لا

تدنسه الأيدي، فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن وذلك اللون والصفاء والبهجة، بل مع انتصابهم لخدمتهم كأنهم لؤلؤ مكنون ووصفهم في موضع آخر ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلُؤًا مُّشْتَرَا﴾ ففي ذكره المشثور إشارة إلى تفرقهم في حوائج ساداتهم وخدمتهم وذهابهم ومجيئهم وسعة المكان، بحيث لا يحتاجون أن ينضم بعضهم إلى بعض فيه لضيقه.

٨- ثم ذكر سبحانه ما يتحدثون به هناك وأنهم يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾، أي: كنا خائفين في محل الأمن بين الأهل والأقارب والعشائر، فأوصلنا ذلك الخوف والإشفاق إلى أن من الله علينا فأمننا مما نخاف ﴿وَوَقْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾

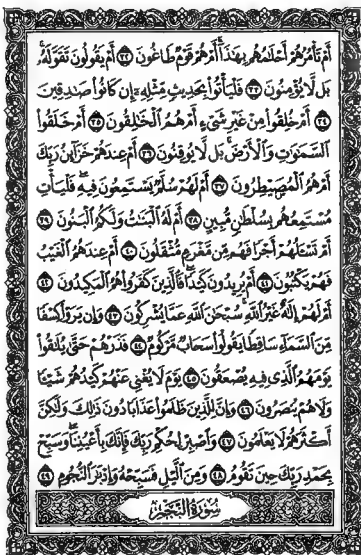


وهذا ضد حال الشقي الذي كان في أهله مسروراً، فهذا كان مسروراً مع إساءته وهؤلاء كانوا مشفقين مع إحسانهم، فبدل الله سبحانه إشفاقهم بأعظم الأمن، وبدل أمن أولئك بأعظم المخاوف، فبالله سبحانه المستعان. (التيان في أحكام القرآن ٢٦٤-٢٧٨).

٩- فهذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال لرغبة ورهبة، والمعنى: إنا كنا من قبل نخلص له العبادة وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره، فإن الله سبحانه يسأله من في السماوات ومن في الأرض والفوز والنجاة إنما هي بإخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب. (بدائع الفوائد ٣/ ٦٥).

📖 قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ﴾ (٣٦) 📖.

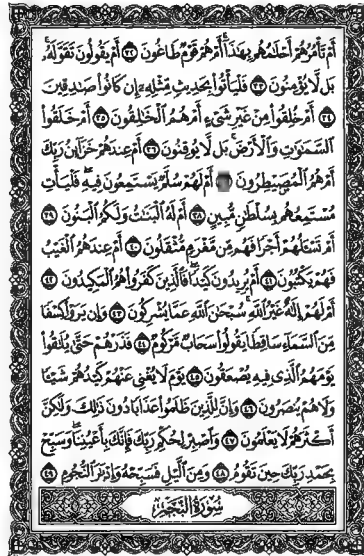
١٠- تأمل هذا التريديد والحصص المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق وأفصح عبارة يقول تعالى هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا فهل خلقوا من غير خالق خلقهم فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوع من غير صانع ومخلوق من غير خالق.



ولو مر رجل بأرض قفر لا بناء فيها، ثم مر بها فرأى فيها بنيانا وقصورا وعمارات محكمة لم يتخالجه شك ولا ريب أن صانعا صنعها وبانيا بناها. ثم قال ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ 📖 وهذا أيضا من المستحيل أن يكون العبد موجدا خالقا لنفسه، فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة ولا أصبعا ولا ظفرا ولا شعرة

كيف يكون خالقا لنفسه في حال عدمه.

وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقا خلقهم وفاطرا فطرهم، فهو الإله الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر فكيف يشركون به إلها غيره وهو وحده الخالق لهم. فإن قيل: فما موقع قوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الطور: ٣٦] من هذه الحجة؟ قيل: أحسن موقع، فإنه بين بالقسمين الأولين أن لهم خالقا وفاطرا، وأنهم مخلوقون، وبين بالقسم الثالث أنهم بعد أن وجدوا وخلقوا فهم



عاجزون غير خالقين فإنهم لم يخلقوا نفوسهم ولم يخلقوا السماوات والأرض وأن الواحد القهار الذي لا إله غيره ولا رب سواه هو الذي خلقهم وخلق السماوات والأرض، فهو المتفرد بخلق المسكن والساكن بخلق العالم العلوي والسفلي وما

فيه. (الصواعق المرسله ٢/ ٤٩٣-٤٩٤).



سورة النجم

قوله تعالى: ﴿إِذَا هَوَىٰ ۖ﴾ ﴿١﴾ مَاضِلٌ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ .

١- فالناس أربعة أقسام:

[الأول:] ضال في علمه غاو في قصده وعلمه وهؤلاء شرار الخلق وهم مخالفو الرسل.

الثاني: مهتد في علمه غاو في قصده وعمله، وهؤلاء هم الأمة الغضبية ومن تشبه بهم وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به.

الثالث: ضال في علمه، ولكن قصده الخير وهو

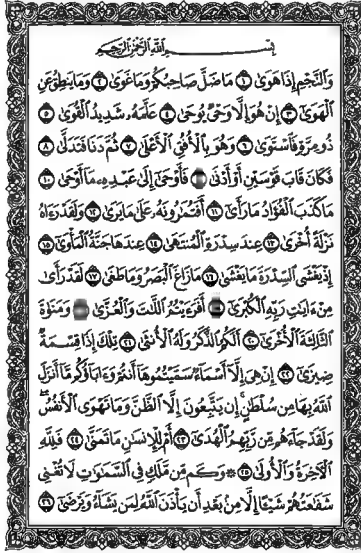
لا يشعر.

الرابع: مهتد في علمه راشد في قصده، وهؤلاء ورثة الأنبياء وهم وإن كانوا الأقلين عددًا فهم الأكثرون عند الله قدرًا وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه.

٢- وتأمل كيف قال سبحانه ﴿مَاضِلٌ صَاحِبُكُمْ﴾ ولم يقل: ما ضل محمد؛ تأكيداً لإقامة الحجة عليهم بأنه صاحبهم وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي ولا ضلال ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط وقد نبه على هذا المعنى بقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ وبقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ﴾ ﴿٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ .

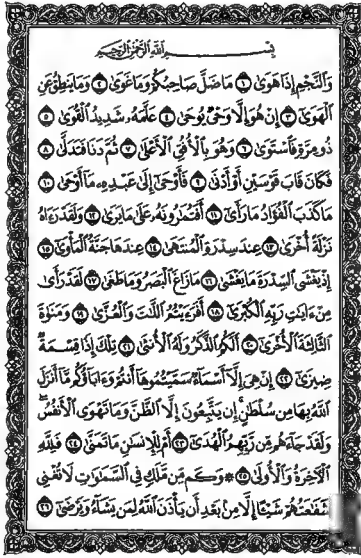
٣- قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ﴿٣﴾ ولم يقل: وما ينطق بالهوى؛ لأن نطقه عن الهوى أبلغ، فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف



ينطق به فتضمن نفي الأمرين نفي الهوى عن مصدر النطق ونفيه عن نفسه فنطقه بالحق ومصدره الهدى والرشاد لا الغي والضلال.

ثم قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيُ يُوحَىٰ﴾ ٤ فآعاد الضمير على المصدر المفهوم من

الفعل، أي: ما نطقه إلا وحي يوحى وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائداً إلى القرآن، فإنه يعم نطقه بالقرآن والسنة وإن كليهما وحي يوحى.



قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ٥ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ ٦ ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ ٧ ﴿ثُمَّ دَنَا فَدَدَلَىٰ﴾ ٨ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ ٩ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ١٠

٤- هذا تعديل لسند الوحي والنبوة وتركية

له كما تقدم نظيره في سورة التكويد فوصفه بالعلم

والقوة وجمال المنظر وجلالته، وهذه كانت أوصاف الرسول البشري والملكى، فكان رسول الله أشجع الناس وأعلمهم وأجملهم وأجلهم والشياطين وتلامذتهم بضد من ذلك فهم أقبح الخلق صورة ومعنى، وأجهل الخلق وأضعفهم همماً ونفوساً.

٥- قوله: ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ ١٠ أبهمه لعظمه، فإن الإبهام قد يقع للتعظيم، ونظيره قوله

تعالى: ﴿فَعَشِيَهُمْ مِّنْ آلِيمٍ مَا عَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]. أي: أمر عظيم فوق الصفة.

قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ ١٧

٦- قال ابن عباس: «ما زاغ البصر يميناً ولا شمالاً، ولا جاوز ما أمر به». وعلى هذا

المفسرون، فنفى عن نبيه ما يعرض للرأي الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء

من التفاته يميناً وشمالاً ومجاورة بصره لما بين يديه، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام وفي تلك الحضرة، إذ لم يلتفت جانباً، ولم يمد بصره إلى غير ما أرى من الآيات وما هناك من العجائب، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه وإطراقه وإقباله على ما أرى دون التفاته إلى غيره، ودون تطلعه إلى ما لم يره مع ما في ذلك من ثبات الجأش وسكون القلب وطمأنينته، وهذا غاية الكمال وزين البصر التفاته جانباً وطغيانه مده أمامه إلى حيث ينتهي، ففزه في هذه السورة علمه عن الضلال وقصده وعمله عن الغي ونطقه عن الهوى وفؤاده عن تكذيب بصره وبصره عن الزيغ والطغيان، وهكذا يكون المدح:

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانَ مِنْ لَبَنِ شَيْبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالَا

(التيبان في أقسام القرآن ٢٤٢-٢٦٤).

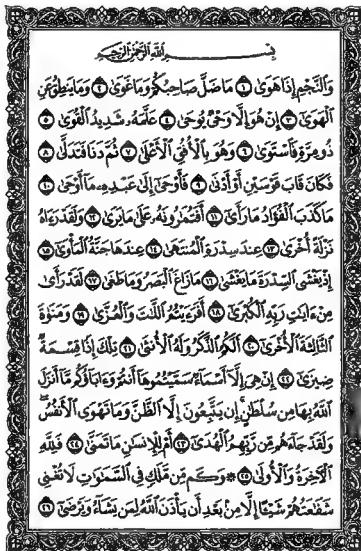
قوله تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾.

٧ - فالظن الشبهة، وما تهوى الأنفس الشهوة، والهدى الذي جاءنا من ربنا مخالف

لهذا وهذا. (الكلام على مسألة السماع ١٧٢).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبِتُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّهُمَّ﴾.

٨ - وهذه اللفظة فيها معنى المقاربة والإعتاب بالفعل حيناً بعد حين، فإنه يقال: ألم بكذا، إذا قاربه ولم يغشه، ومن هذا سميت القبلة والغمرة لمما، لأنها تلم بما بعدها، ويقال: فلان لا يزورنا إلا لماما، أي: حيناً بعد حين، فمعنى اللفظة ثابت في الوجهين اللذين



فسر الصحابة بهما الآية، وليس معنى الآية الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم فإنهم لا يجتنبونه، فإن هذا يكون ثناء عليهم بترك اجتناب اللمم، وهذا محال، وإنما هذا استثناء من مضمون الكلام ومعناه، فإن سياق الكلام في تقسيم الناس إلى محسن ومسيء، وأن الله يجزي هذا بإساءته وهذا بإحسانه، ثم ذكر المحسنين ووصفهم بأنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، ومضمون هذا أنه لا يكون محسناً مجزياً بإحسانه، ناجياً من عذاب الله، إلا من اجتنب كبائر الإثم والفواحش، فحسن حينئذ استثناء اللمم،

وإن لم يدخل في الكبائر، فإنه داخل في جنس الإثم والفواحش. (مدارج السالكين ١/ ٣١٥-٣١٩).

قوله تعالى: ﴿الْأَنْزِرُ وَالزَّارِعُ وَذَرَأُ أُخْرَىٰ﴾ (٣٨) وَأَنَّ

لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩).

٩- تأمل حسن اجتماع هاتين الآيتين.

ونظيره قوله تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِ

لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥) فحكم سبحانه

لأعدائه بأربعة أحكام هي غاية العدل والحكمة:

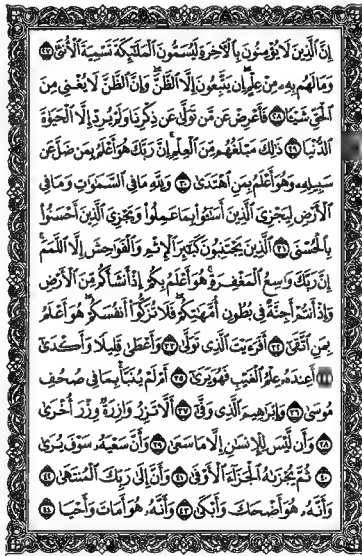
أحدها: أن هدى العباد بالإيمان والعمل الصالح لنفسه لا لغيره.

الثاني: أن ضلاله بفوات ذلك وتخلفه عنه على نفسه لا على غيره.

الثالث: أن أحدا لا يؤاخذ بجريرة غيره.

الرابع: أنه لا يعذب أحدا إلا بعد إقامة الحجة عليه برسله.

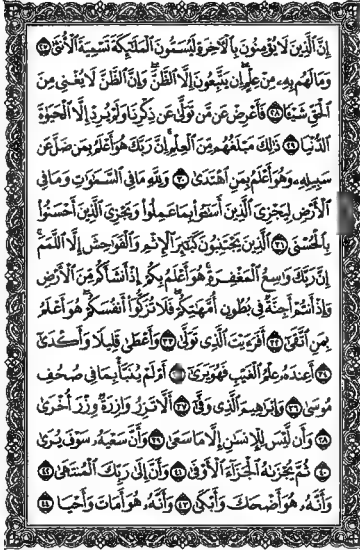
فتأمل ما في ضمن هذه الأحكام الأربعة من حكمته تعالى وعدله وفضله والرد



على أهل الغرور والأطماع الكاذبة وعلى أهل الجهل بالله وأسمائه وصفاته.

﴿قوله تعالى: ﴿وَأَن إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾﴾

١٠- متضمن لكثرة عظيم: وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به، وإلا



فهو مضمحل منقطع، فإنه ليس إليه المنتهى وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتَهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب، وكل محبوب لا يُحِبُّ لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله، فهو ضائع وباطل وكل قلب لا يصل إليه، فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه فاجتمع ما يراد منه كله في قوله:

﴿وَأَن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ واجتمع ما يراد

له كله في قوله: ﴿وَأَن إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ فليس وراءه سبحانه غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى.

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد: وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه وكل ما سواه مما يحب ويراد فمراد لغيره وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى، ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك وزال عنه وفارقه أحوج ما كان إليه، ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد. (الفوائد ١٩٦-١٩٧).



سورة القمر

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (١٧).

لَحْنًا أَسْرَعَ مِنْ الْكُفْرِ وَالْجَهْدِ أَيْ كَانَتْ جَزَاءً مُسْتَقِيرَةً
مُتَّعِينَ إِلَى الذِّكْرِ يَقُولُ الْكُفْرُ هَذَا يُؤْتِيهِمْ * كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * قَدَعَا
رَجُلٌ مِّنْ آلِهِ فَعَمَّيْنَا إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَنَظَّرَهُ خَلْقًا نَّجِيًّا * وَذَكَرْنَا
لَكَ الْقُرْآنَ عَلَى الْأَرْضِ خَلْقًا فَالْقَلْبُ الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ دُوِّرَ *
وَعَلَّمَهُ عَلَى قَالِ الرَّجُلِ وَذُكِّرَ * نَجِيًّا بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ
كُفْرًا * وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ فَهَلْ مِنْ مُّدَكِّرٍ * فَكَيْفَ كَانَ
عَدَاوِيَّ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّدَكِّرٍ *
كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَاوِيَّ * وَذُكِّرَ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فَرِيقًا
مِّنْ مَّرْكَبٍ عَلَى يَمِينٍ مُّشْتَبِهٍ * نَزَحْنَا السَّمَاءَ فَجَاءَنَا غُفْلًا
مُّتَعَمِّرِينَ * فَكَيْفَ كَانَ عَدَاوِيَّ * وَذُكِّرَ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّدَكِّرٍ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدَى * فَقَالُوا أَبَشَرًا
وَمَا كُنَّا لِنَكْفُرَهُ * إِنَّا إِذَا أَنزَلْنَا إِلَيْنَا الْكَلِمَةَ * فَالْقَلْبُ الْكَافِرُ عَلَيْهِ
مِنَ الْبَيْنَاتِ لَئِنْ لَمْ يَرْكَبْهُ * سَتَجِدُنَا غَدَاةً لِّكَافِرٍ *
* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ الْكَافِرُ وَفِيهِ الْكَلِمَةُ فَتَقْتُلُهُمْ وَنُحْلِقُهُمْ

١- أيسر شيء على النفوس تحصيله وحفظه وفهمه، فإنه كتاب الله الذي يسره للذكر كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧]. قال البخاري في صحيحه: قال مطر الوراق: هل من طالب علم فيعان عليه؟ ولم يقل: فتضيع عليه مصالحه وتتعطل معاشه عليه، وسنة رسوله وهي بحمد الله تعالى مضبوطة محفوظة، وأصول الأحكام التي تدور عليها نحو خمسمائة حديث، وفرشها وتفصيلها نحو أربعة آلاف حديث وإنما الذي هو في

غاية الصعوبة والمشقة مقدرات الأذهان وأغلوطات المسائل والفروع والأصول التي ما أنزل الله بها من سلطان. (إعلام الموقعين ٢/ ٢٣٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صَدَقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدَّرٍ (٥٥).

٢- فسمى الجنة مقعد صدق لحصول كل ما يراد من المقعد الحسن فيها كما يقال: مودة صادقة، إذا كانت ثابتة تامة وحلاوة صادقة وجملة صادقة، ومنه الكلام الصدق لحصول مقصوده منه وموضع هذه اللفظة في كلامهم الصحة والكمال، ومنه الصدق في الحديث والصدق في العمل. (حادي الأرواح ٨٩-٩٠).

سورة الرحمن

﴿قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١﴾ عِلْمَ الْقُرْآنِ ۝٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣﴾ عِلْمَهُ الْبَيَانِ ۝٤﴾.



١- دلت هذه الكلمات على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها.

فقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني، وخص الإنسان بالخلق؛ لأنه موضع العبرة.

وقوله: ﴿عِلْمَ الْقُرْآنِ﴾ إخبار عن إعطاء الوجود العلمي الذهني وإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه كما انه إنما صار إنسانا بخلقه، فهو الذي خلقه وعلمه.

ثم قال: ﴿عِلْمَهُ الْبَيَانِ﴾ والبيان يتناول مراتب ثلاثة كل منها يسمى بيانا:

أحدها: البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات.

الثاني: البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات.

الثالث: البيان الرسمي الخطي الذي يرسم به تلك الألفاظ فيبين الناظر معانيها

كما يتبين للسامع معاني الألفاظ (حادي الأرواح ٩١-٩٢).

فهذا بيان للعين، وذاك بيان للسمع، والأول بيان للقلب.

وكثيرا ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة كقوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ

عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ

وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعَدَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ويذم من عدم الانتفاع بها في اكتساب الهدى والعلم النافع كقوله: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى﴾ وقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غَشَاةٌ﴾.

﴿قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ﴾﴾ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٥﴾﴾.

٢- خاطب النوعين بالخطاب المتضمن لاستدعاء الإيمان منهم، وإنكار تكذيبهم بالآية، وترغيبهم في وعده، وتخويفهم من وعيده، وتهديدهم بقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ ﴿٣١﴾ [الرحمن: ٣١]. وتخويفهم من عواقب ذنوبهم، وأنه لعلمه بها لا يحتاج أن يسألهم عنها سؤال استعلام، بل يعرف المجرمون منهم بسيماهم فيؤخذ بنواصيهم والأقدام، ثم ذكر عقاب الصنفين وثوابهم.

وهذا كله تصريح في أنهم هم المكلفون المأمورون المنهون المثابون المعاقبون.

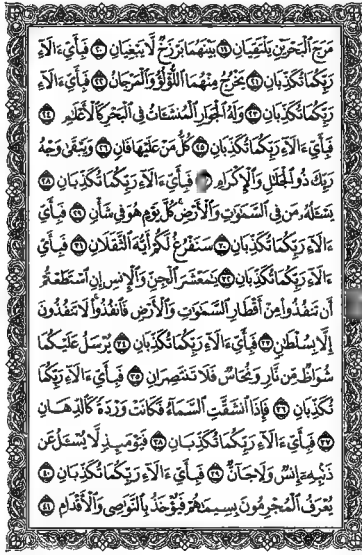
﴿قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾﴾ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿١٨﴾﴾.

٣- مجيء المشرق والمغرب في القرآن تارة مجموعين، وتارة مثنيين، وتارة مفردين، لاختصاص كل محل بما يقتضيه من ذلك.

فتأمل وروده مثنى في سورة الرحمن لما كان مساق السورة مساق المثنائي المزدوجات، فذكر أولاً نوعي الإيجاد وهما الخلق والتعظيم، ثم ذكر سراجي العالم ومظهري نوره وهما الشمس والقمر، ثم ذكر نوعي النبات ما قام منه على



ساق وما انبسط منه على وجه الأرض وهما النجم والشجر، ثم ذكر نوعي السماء المرفوعة والأرض الموضوعة وأخبر أنه رفع هذه ووضع هذه ووسط بينهما ذكر



الميزان، ثم ذكر العدل والظلم في الميزان فأمر بالعدل ونهى عن الظلم ذكر نوعي الخارج من الأرض وهما الحبوب والثمار، ثم ذكر خلق نوعي المكلفين وهما نوع الإنسان ونوع الجان، ثم ذكر نوعي المشرقين ونوعي المغربين، ثم ذكر بعد ذلك البحرين الملح والعذب، فتأمل حسن تثنية المشرق والمغرب في هذه السورة وجلالة ورودهما لذلك وقدر موضعهما. (بدائع الفوائد ١/ ١٢١).

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَإِنْ﴾

٤- لم يقل: (فيها)؛ لأن عند الفناء ليس الحال حال القرار والتمكين. (بدائع الفوائد

٤/ ٢١٠).

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾

٥- أضاف الذنوب إلى الثقلين، وهذا دليل على أنهما سويا في التكليف.

واختلف في هذا السؤال المنفي، فقيل: هو وقت البعث والمصير إلى الموقف لا يسألون حينئذ ويسألون بعد إطالة الوقوف واستشفاعهم إلى الله أن يحاسبهم ويريحهم من [مقابلهم] ذلك. وقيل: المنفي سؤال الاستعلام والاستخبار، لا سؤال المحاسبة والمجازاة، أي: قد علم الله ذنوبهم فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها، وإنما يحاسبهم عليها.

فَيَأْتِي ءَالَهُ زَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٦﴾ مَذْيَبُهُمَا جَهَنَّمُ أَلْفَيْ بَعْسُودٍ بَيْنَهُمَا
 الْمُعْرِضُونَ ﴿٤٧﴾ يَطْرُقُونَ بَيْنَهُمَا بَيْنَ وَبَيْنَ جَحِيمٍ ءَالِي ءَالَهُ
 زَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٨﴾ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٩﴾ فَيَأْتِي
 ءَالَهُ زَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥٠﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٥١﴾ فَيَأْتِي ءَالَهُ زَيْكُمَا
 تُكْذِبَانِ ﴿٥٢﴾ فِيهِمَا عِشْرَتَا جَنَّتَيْنِ ﴿٥٣﴾ فَيَأْتِي ءَالَهُ زَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥٤﴾
 فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فِرْعَوْنٍ وَرَجُلَانِ ﴿٥٥﴾ فَيَأْتِي ءَالَهُ زَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥٦﴾
 مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَّتَيْنِ لَمْ يُلَاحِظْ
 فِيهِمَا مِنْ ءَالِهِ زَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥٧﴾ فِيهِمَا قَصِيرٌ وَالظُّلُفُ
 تَرْتَضِيهِمَا إِنَّسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٥٨﴾ فَيَأْتِي ءَالَهُ زَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥٩﴾
 كَانَهُمَا أَيْلَافُوتٌ وَالسَّجَانُ ﴿٦٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَهُ زَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٦١﴾
 هَلْ حَرَّاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَهُ زَيْكُمَا
 تُكْذِبَانِ ﴿٦٣﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَهُ زَيْكُمَا
 تُكْذِبَانِ ﴿٦٥﴾ مَذَاهِمَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَهُ زَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٦٧﴾
 فِيهِمَا عِشْرَتَا مَقَاصِدَافٍ ﴿٦٨﴾ فَيَأْتِي ءَالَهُ زَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٦٩﴾
 فِيهِمَا أَفْكُهُ وَنُحْلٌ وَرَمَانٌ ﴿٧٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَهُ زَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٧١﴾

📖 قوله تعالى: ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ ﴿٤٦﴾

٦- هذا يدل على أن ثواب محسنهم الجنة من وجوه:

أحدها: أن «مَنْ» من صيغ العموم، فتناول كل خائف.

الثاني: أنه رتب الجزاء المذكور على خوف مقامه، فدل على استحقاقه به.

والمقصود أن قوله تعالى: ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾

جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ يتناول الصنفين من وجوه تقدم منها وجهان.

الثالث: قوله عقيب هذا الوعد: ﴿ فَيَأْتِي ءَالَهُ زَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴾.

الرابع: أنه ذكر في وصف نسائهم أنهم: ﴿ لَمْ يَطْمِثْنِ إِنَّسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴾ [الرحمن: ٥٦]، وهذا والله أعلم معناه أنه لم يطمث نساء الإنس إنس قبلهم، ولا نساء الجن جن قبلهم. (طريق الهجرتين ٣٩١-٣٩٦).

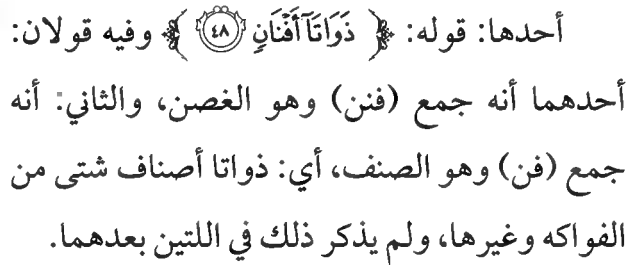
📖 قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾.

٧- وصف الفرش بكونها مبطنة بالإستبرق وهذا يدل على أمرين:

أحدهما: أن ظهائرها أعلى وأحسن من بطائنها؛ لأن بطائنها للأرض وظهائرها للجمال والزينة والمباشرة.

📖 قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ ﴿٦٢﴾

٨- السياق يدل على تفضيل الجنيتين الأوليين من عشرة أوجه:



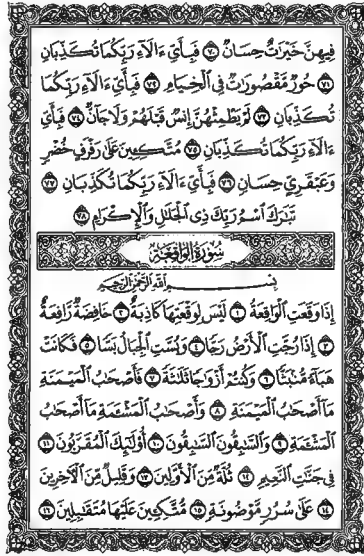
الثاني: قوله: ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ ﴿٥٠﴾ وفي الآخرين: ﴿فِيهَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ﴾ ﴿٦٦﴾ والنضاجة هي الفؤارة والجارية السارحة، وهي أحسن من الفؤارة فإنها تضمن الفوران والجريان.

وفي الآخرين: ﴿فِيهَا فَكْهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ ولا ريب أن وصف الأوليين أكمل. واختلف في هذين الزوجين بعد الاتفاق على أنهما صنفان: فقالت طائفة: الزوجان الرطب واليابس الذي لا يقصر في فضله وجودته عن الرطب وهو متمتع به كما متمتع باليابس وفيه نظر لا يخفى. وقالت طائفة: الزوجان صنف معروف وصنف من شكله غريب. وقالت طائفة: نوعان. ولم تزد، والظاهر والله أعلم أنه الحلو والحامض، والأبيض والأحمر، وذلك لأن اختلاف أصناف الفاكهة أعجب وأشهى، وألذ للعين والفم.

الرابع: أنه قال: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهذا تنبيه على فضل الظهائر وخطرها وفي الآخرين قال: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِي حَسَانٍ﴾ (٧٦)، وفسر الرفرف بالمحابس والبسط، وفسر بالفرش وفسر بالمحابس فوقها، وعلى كل قول فلم يصفه بما وصف به فرش الجنتين الأولين.

الخامس: أنه قال: ﴿وَحَيَّ الْجَنَّةِينَ دَانِ﴾، أي: قريب وسهل يتناولونه كيف شاءوا، ولم يذكر ذلك في الآخرين.

السادس: أنه قال: ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ﴾، أي: قد قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يرون غيرهم لرضاهن بهم ومحبتهم لهن، وذلك يتضمن قصرهن أطرافهن أزواجهن عليهن فلا يدعهن حسنهن أن ينظروا إلى غيرهن، وقال في الآخرين: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ٧٢﴾ ومن قصرت طرفها على زوجها باختيارها أكمل ممن قصرت بغيرها.



السابع: أنه وصفهن بشبه الياقوت والمرجان في صفاء اللون وإشراقه وحسنه ولم يذكر ذلك في التي بعدها.

الثامن: أنه قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْجَنَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ٦٠﴾ وهذا يقتضي أن أصحابهما من أهل الإحسان المطلق الكامل، فكان جزاؤهم بإحسان كامل.

التاسع: أنه بدأ بوصف الجنتين الأوليين وجعلهما جزءا لمن خاف مقامه، وهذا يدل على أنهما أعلى جزء الخائف لمقامه، فرتب الجزء المذكور على الخوف ترتيب المسبب على سببه، ولما كان الخائفون على نوعين مقربين وأصحاب يمين ذكر جنتي المقربين، ثم ذكر جنتي أصحاب اليمين.

العاشر: أنه قال: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ٦١﴾ والسياق يدل على أنه نقيض فوق كما قال الجوهري، فإن قيل: فكيف انقسمت هذه الجنان الأربع على من خاف مقام ربه؟ قيل: لما كان الخائفون نوعين كما ذكرنا، كان للمقربين منهم الجنتان العاليتان، ولأصحاب اليمين الجنتان اللتان دونهما. (حادي الأرواح ٩١-٩٢).

سورة الواقعة

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً﴾ (٢٥) ﴿فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾ (٢٦) ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ (٢٧) ﴿لِأَصْحَابِ

الْيَمِينِ﴾ (٢٨).

١- جمع سبحانه بين حسن صورتها وحسن عشرتها وهذا غاية ما يطلب من النساء وبه تكمل لذة الرجل بهن. (حادي الأرواح ١٨٣-١٨٥).

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾

(٧٢).

٢- خص المقوين بالذكر وإن كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين تنبيها لعباده- والله أعلم

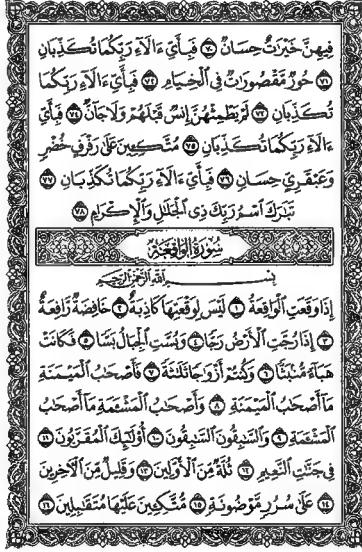
بمراده من كلامه- على أنهم كلهم مسافرون وأنهم في هذه الدار على جناح سفر ليسوا هم مقيمين ولا مستوطنين وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر. (طريق الهجرتين ١٣١-١٣٢).

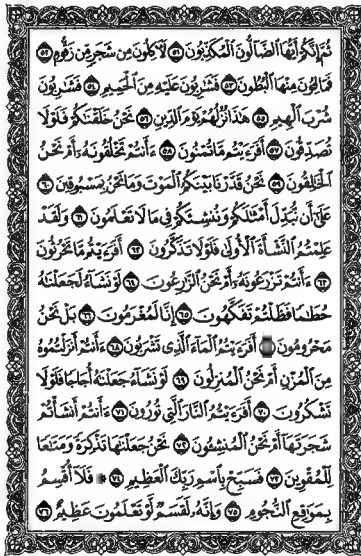
قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥) ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾

(٧٦) ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٧) ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ (٧٨) ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٩) ﴿تَنْزِيلٌ

مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠).

٣- المناسبة بين ذكر النجوم في القسم وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه: أحدها أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغي فتلك هداية في الظلمات الحسية وآيات القرآن في الظلمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين مع ما في النجوم من الرجوع للشياطين وفي آيات القرآن





من رجوم شياطين الإنس والجن والنجوم آياته المشهودة المعاينة والقرآن آياته المتلوة السمعية مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول.

٤- فوصفه بما يقتضي حسنه وكثرة خيره ومنافعه وجلالته، فإن الكريم هو البهي الكثير الخير العظيم النفع وهو من كل شيء أحسنه وأفضله والله سبحانه وصف نفسه بالكرم ووصف به كلامه ووصف به عرشه ووصف به ما كثر خيره وحسن

منظره من النبات وغيره ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن قال الكلبي إنه لقرآن كريم، أي: حسن كريم على الله وقال مقاتل كرمه الله وأعزه لأنه كلامه وقال الأزهري الكريم اسم جامع لما يحمد والله كريم جميل الفعال وإنه لقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة وبالجملة فالكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير بسهولة ويسر وضده اللئيم الذي لا يخرج خيره النزر إلا بعسر وصعوبة وكذلك الكريم في الناس واللئيم.

٥- ثم قال تعالى: ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ ﴾ ﴿ اختلف المفسرون في هذا فقيل: هو اللوح المحفوظ، والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة وهو المذكور في قوله: ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦ ﴾ ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ ﴾ فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه وهذا هو الصحيح في معنى الآية ومن المفسرين من قال: إن المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر.

والأول أرجح لوجه:

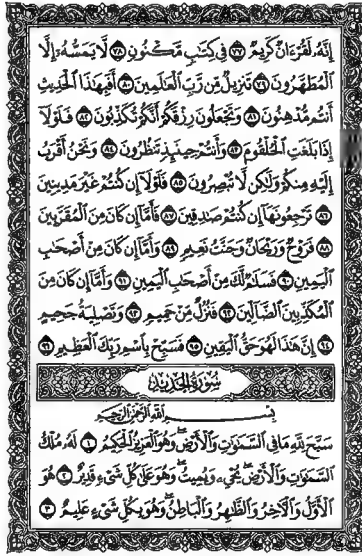
أحدها: أن الآية سقت تنزيها للقرآن أن تنزل به الشياطين وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون فيستحيل على أخابث خلق الله وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسوه كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (٣٠) ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٣١) فنفي الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه فما فعلوا ذلك ولا يليق بهم ولا يقدرون عليه، فإن الفعل قد ينتفي عنهم يحسن منه، وقد يليق بمن لا يقدر عليه، فنفي عنهم

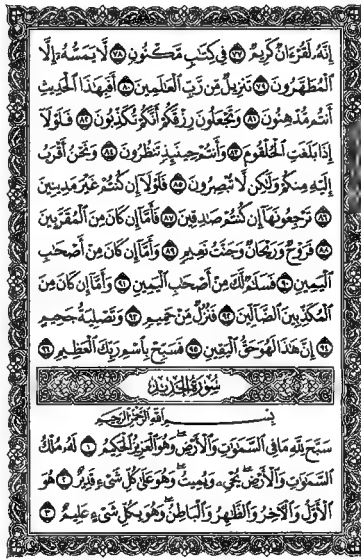
الأمر الثلاثة. وكذلك قوله في سورة عبس: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ (١٣) ﴿مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) فوصف محله بهذه الصفات بيانا أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به وتقرير هذا المعنى أهم وأجمل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر.

الوجه الثاني: أن السورة مكية والاعتناء في السور المكية إنما هو بأصول الدين من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنة السور المدنية.

الوجه الثالث: إن القرآن لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية ولا في حياة رسول الله، وإنما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر وهذا وإن جاز أن يكون اعتبار ما يأتي فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الأخبار يوضحه:

الوجه الرابع: وهو قوله في كتاب مكنون والمكنون المصون المستور عن الأعين الذي لا تناله أيدي البشر كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ (٤٩) وهكذا قال السلف قال الكلبي مكنون من الشياطين وقال مقاتل مستور وقال مجاهد لا يصيبه تراب ولا غبار وقال أبو إسحاق مصون في السماء يوضحه:





الوجه الخامس: أن وصفه بكونه مكنوناً نظير وصفه بكونه محفوظاً فقوله: ﴿إِنَّهُ لَفُرْقَانٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) كقوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ (٨١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٨٢) يوضحه:

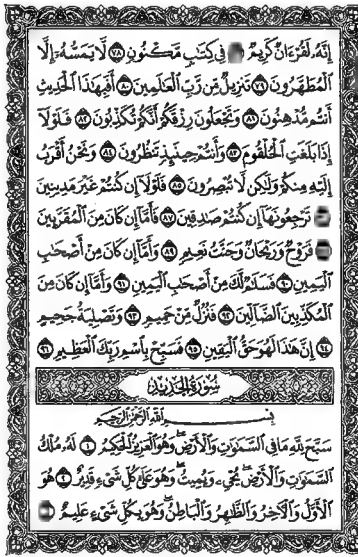
الوجه السادس: أن هذا أبلغ في الرد على المكذبين وأبلغ في تعظيم القرآن من كون المصحف لا يمسّه محدث.

الوجه السابع: قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٨) بالرفع فهذا خبر لفظاً ومعنى ولو كان نهياً

لكان مفتوحاً ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره إلى معنى النهي والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته وليس ها هنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي.

الوجه الثامن: أنه قال: ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ ولم يقل: إلا المتطهرون. ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال: إلا المتطهرون. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾. وفي الحديث: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين». فالمُطَهَّرُ فاعل التطهير، والمُطَهَّر الذي طهره غيره، فالمتوضئ مُتَطَهَّر، والملائكة مُطَهَّرُونَ.

الوجه التاسع: أنه لو أريد به المصحف الذي بأيدينا، لم يكن في الإخبار عن كونه مكنوناً كبير فائدة، إذ مجرد كون الكلام مكنوناً في كتاب لا يستلزم ثبوته، فكيف يمدح القرآن بكونه مكنوناً في كتاب وهذا أمر مشترك، والآية إنما سيقّت لبيان مدحه وتشريفه



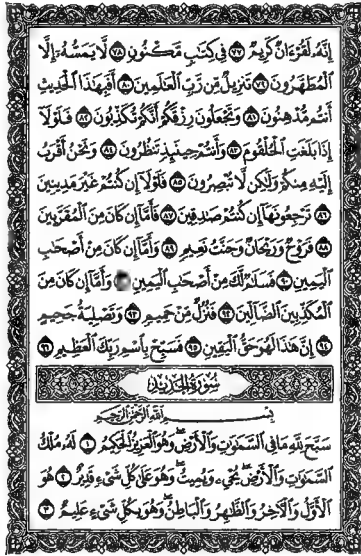
وما اختص به من الخصائص التي تدل على أنه منزل من عند الله وأنه محفوظ مضمون لا يصل إليه شيطان بوجه ما ولا يمس محله إلا المطهرون وهم السفرة الكرام البررة.

الوجه العاشر: ما رواه سعيد بن منصور في سننه حدثنا أبو الأحوص حدثنا عاصم الأحول عن أنس بن مالك في قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٩) قال: المطهرون الملائكة وهذا عند طائفة من أهل الحديث في الحكم المرفوع، وقال الحاكم: تفسير

الصحابة عندنا في حكم المرفوع، ومن لم يجعله مرفوعاً فلا ريب أنه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابة، والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن ويجب الرجوع إلى تفسيرهم وقال حرب في مسائله: سمعت إسحاق في قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٩) قال: النسخة التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون، قال: الملائكة.

٦- ودلت الآية بإشارتها وإيمانها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي. قال البخاري في صحيحه: في هذه الآية لا يجد طعمه إلا من آمن به، وهذا أيضاً من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذ به وبقرائه وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله تكلم بها حقاً وأنزله على رسوله وحياً ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه، فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففي قلبه منه حرج، ومن لم يؤمن بأن الله سبحانه تكلم به وحياً وليس مخلوقاً من جملة مخلوقاته، ففي قلبه منه حرج ومن قال: إن له باطنًا يخالف ظاهره وإن له تأويلًا يخالف ما يفهم

منه ففي قلبه منه حرج ومن قال إن له تأويلاً لا نفهمه ولا نعلمه وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه ففي قلبه منه حرج.



ومن سلط عليه آل الآرائين وهذيان المتكلمين وسفسطة المسفسطين وخيالات المتصوفين، ففي قلبه منه حرج ومن جعله تابعا لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه ينزله على أقواله ويتكلف حمله عليها ففي قلبه منه حرج، ومن لم يحكمه ظاهراً وباطناً في أصول الدين وفروعه ويسلم وينقاد لحكمه أين كان، ففي قلبه منه حرج، ومن لم ياتمر بأوامره وينزجر عن زواجره ويصدق جميع أخباره ويحكم أمره ونهيه

وخبره ويردله كل أمر ونهي وخبر خالفه ففي قلبه منه حرج، وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه ولا يفهمونه كما ينبغي أن يفهم ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم، وأنت إذا تأملت قوله: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمَطْهُرُونَ﴾ (٧٦) وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وإيمائه وإشارته وتنبيهه وقياس الشيء على نظيره واعتباره بمشاكله، وتأملت المشابهة التي عقدها الله سبحانه وربطها بين الظاهر والباطن، فهمت هذه المعاني كلها من الآية، وبالله التوفيق.

٧- وأفاد كونه تنزيلاً من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل مطالب الدين:

أحدهما: أنه المتكلم وأنه منه نزل ومنه بدأ وهو الذي تكلم به ومن هنا قال السلف منه بدأ ونظيره ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلِ مِنِّي﴾ وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾.

والثاني: علو الله سبحانه فوق خلقه، فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشيء من أعلا إلى أسفل والرب تعالى إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم وتشهد به عقولهم، وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة تملكه لهم وتصرفه فيهم وحكمه عليهم وإحسانه وإنعامه عليهم وأن من هذا شأنه مع



الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى ويدعهم هملاً ويخلقهم عبثاً لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم، فمن أقر بأنه رب العالمين، أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به، وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء.

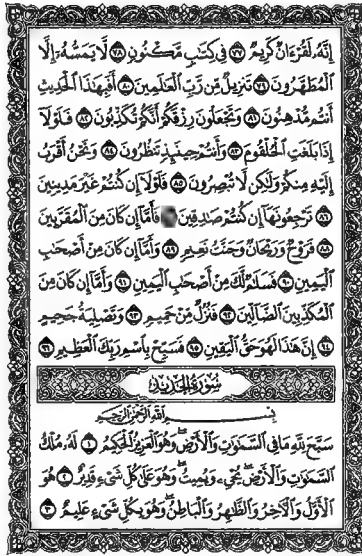
قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٢) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧)﴾

٨- إن قيل: أي ارتباط بين هذين الأمرين حتى يلزم بينهما؟

قيل: هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه، فإنهم إما أن يقرؤا بأنهم مربوبون مملوكون عبيد لمالك قادر متصرف فيهم قاهر آمر ناه، أو لا يقرؤن بذلك، فإن أقرؤا به لزمهم القيام بحقه عليهم وشكره وتعظيمه وإجلاله وأن لا يجعلوا له نداً ولا شريكاً وهذا هو الذي جاءهم به رسوله ونزل عليه به كتابه، وإن أنكروا ذلك وقالوا إنهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين ولا مربوبين وإن الأمر إليهم يردون الأرواح إلى مقارها إذا بلغت الحلقوم،

وأتى بهذا في صورة تحضيضين وتوبيخين
وتقريرين وجوابين وشرطين وجزاءين منتظمة
أحسن الانتظام ومتداخلة أحسن التداخل متعلقاً
بعضها ببعض، وهذا كلام لا يقدر البشر على مثل
نظمه ومعناه قال الفراء وأجيب ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ
الْحُلُقُومَ ﴾ (٨٣) ﴿ وَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ (٨٦) ﴿
بجواب واحد وهو ﴿ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٨٧)﴾.

(التبيان في أقسام القرآن ٢١٩-٢٤٢)





سورة الحديد

قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١١).

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدْخِلُ مَا يَشَاءُ فِي الْأَرْضِ وَيَخْرِجُ مِنْهَا وَمَا يَزِيدُ السَّمَاءَ بُرْجًا وَيَخْرِجُ مِنْهَا سحابًا مُبَارَكٌ فِي مَا كَسَرَتْ وَأَلْفَتْهُ بِمَا تَصِفُونَ
بَصِيرٌ ﴿١﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَالَى اللَّهُ تَرَى أَفَلَا تُبْصِرُ ﴿٢﴾ يُرِيعُ الْبَلَّ فِي النَّهَارِ وَيُخْرِجُ النَّهَارَ فِي الْبَلِّ وَتُوعِدُهُمْ بِذَاتِ الْفُؤَادِ ﴿٣﴾ هُوَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَأَنْقَضُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَلِّطِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَقْبَلُوا اللَّهَ تَعَالَى كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَمَا كُنْزُ الْكَافِرِينَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَنْفَكُونَ عَنْهُمْ وَكَرِهُوا أَنْ يُدْعَوْا لِلْحَاجَةِ الْمَرْغُوبَةِ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَنْ عِبْدِهِ
أَلَيْسَ بِبَصِيرَةٍ لِيَعْتَرِكُمْ إِنْ أَطَعْتُمْ بَعْثًا مِنَ النَّاسِ إِنْ كُنْتُمْ إِذْ يَمُرُّونَ بِهِمْ لَبِيسًا فَمِنْ تَحْتِهَا يُبْسِتُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْفُلُوكَ الَّتِي كَانَتْ تَكُونُ فِي الْأَرْضِ لَاسْتَوِيَ مِنْكُمْ فَمَنْ أَتَقْوَمُ قَبْلَ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أُولَئِكَ أَفْعَادُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَكُوا مِنْ بَعْدِ وَقْتِهَا وَكَذَلِكَ عَدَّةُ اللَّهِ لِّلنَّاسِ فِي الْآيَاتِ وَمَا تَعْلَمُونَ حَسْبُكُمْ ﴿٥﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿٦﴾

١ - صدر سبحانه الآية بالطف أنوع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر، والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن فيجازي عليه أضعافا مضاعفة؟ وسمى ذلك الإنفاق قرضا حسنا حثا للنفوس وبعثا لها على البذل؛ لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولا بد طوعت له نفسه بذله وسهل عليه إخراجه. فإن علم أن المستقرض ملي وفي محسن، كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه، فإن علم أن المستقرض

يتجر له بما اقترضه وينمي له ويثمره حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح، فإن علم أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجرا آخر من غير جنس القرض وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم، فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل والشح أو عدم الثقة بالضمان، وذلك من ضعف إيمانه، ولهذا كانت الصدقة برهاناً لصاحبها.

وهذه الأمور كلها تحت هذه الألفاظ التي تضمنتها الآية، فإنه سماه قرضا، وأخبر أنه هو المقرض لا قرض حاجة، ولكن قرض إحسان إلى المقرض واستدعاء لمعاملته، وليعرف مقدار الربح، فهو الذي أعطاه ماله واستدعى منه معاملته به، ثم أخبر [عمّا] يرجع إليه بالقرض وهو الأضعاف المضاعفة، ثم أخبر عما يعطيه فوق

ذلك من الزيادة وهو الأجر الكريم.

وحيث جاء هذا القرض في القرآن قيده بكونه حسنا، وذلك يجمع أموراً ثلاثة:

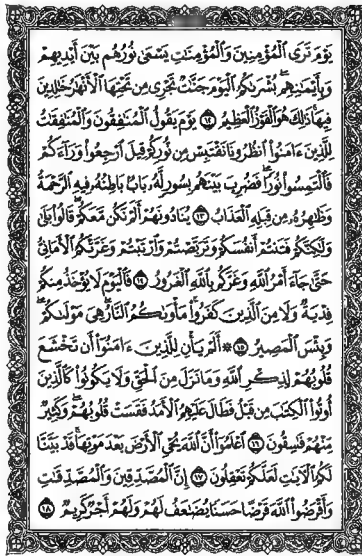
أحدها: أن يكون من طيب ماله لا من رديئه وخبيثه.

الثاني: أن يخرج طيبة به نفسه ثابتة عند بذله ابتغاء مرضاة الله.

الثالث: ألا يمن به ولا يؤذى.

فالأول يتعلق بالمال، والثاني يتعلق بالمنفق بينه وبين الله، والثالث بينه وبين

الآخذ. (طريق الهجرتين ٣٣٨ - ٣٣٩).



📖 قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾.

٢- لما كان الإيمان موجبا للخشوع، وداعيا إليه،

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]. دعاهم من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان. يعني: أما آن لهم أن يصلوا إلى الإحسان بالإيمان؟ وتحقيق ذلك بخشوعهم لذكره الذي أنزله إليهم؟ (مدارج السالكين ١/ ٥٢٠).

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع

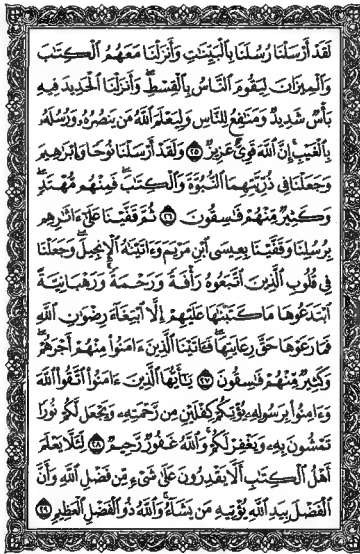
سنين. (مدارج السالكين ٢/ ٥٠٩).

📖 قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾.

٣- لما كانت المصيبة تتضمن فوات محبوب أو خوف فواته أو حصول مكروه أو

خوف حصوله نبه بالأسى على الفاتئ على مفارقة المحبوب بعد حصوله وعلى فوته حيث لم يحصل ونبه بعدم الفرح به إذا وجد على توطين النفس لمفارقته قبل وقوعها وعلى الصبر على مرارتها بعد الوقوع وهذه هي أنواع المصائب، فإذا تيقن العبد أنها مكتوبة مقدرة وأن ما أصابه منها لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه هانت عليه وخف حملها وأنزلها منزلة الحر والبرد. (شفاء العليل ١٩٤).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَارِعُوهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.



٤- الباعث على ابتداع هذه الرهبانية، وأنه هو طلب الرضوان. ثم ذمهم بترك رعايتها؛ إذ من التزم لله شيئاً لم يلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه. حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة حكمه بإتمامها، وجعلوا التزامها بالشروع كالالتزام بالنذر. كما قال أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه وهو إجماع - أو كالإجماع - في أحد النسكين.

قالوا: والالتزام بالشروع أقوى من الالتزام

بالقول. فكما يجب عليه ما التزمه بالنذر وفاء، يجب عليه رعاية ما التزمه بالفعل إتماماً.

وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة.

والقصد: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَمُّ مَنْ لَمْ يَرِيعْ قُرْبَةَ ابْتَدَعَهَا اللَّهُ تَعَالَى حَقَّ رِعَايَتِهَا؛

فكيف بمن لم يَرِيعْ قُرْبَةَ شَرَعَهَا اللَّهُ لِعِبَادِهِ، وَأَذْنُهَا وَحَثُ عَلَيْهَا؟! (مدارج السالكين ٦٠/٢).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٨).

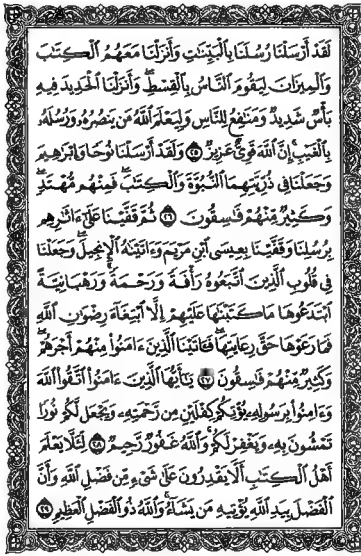
٥- في قوله تعالى: ﴿تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨] نكتة بديعة: وهي أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم كما يمشون بها بين الناس في الدنيا، ومن لا نور له، فإنه لا يستطيع أن ينقل قدما عن قدم على الصراط، فلا يستطيع المشي أحوج ما يكون إليه. (اجتماع الجيوش الإسلامية ٥- ٦).

٦- قد ضمن لهم سبحانه بالتقوى ثلاثة أمور:

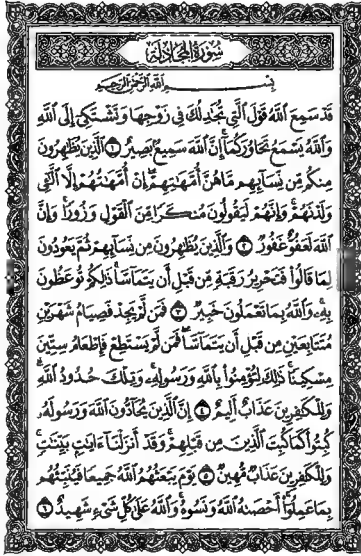
أحدها أعطاهم نصيبين من رحمته نصيباً في الدنيا ونصيباً في الآخرة وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين.

الثاني: أعطاهم نوراً يمشون به في الظلمات.

الثالث: مغفرة ذنوبهم وهذا غاية التيسير، فقد جعل سبحانه التقوى سبباً لكل يسر وترك التقوى سبباً لكل عسر. (البيان في أقسام القرآن ٣٧).



سورة المجادلة



قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١).

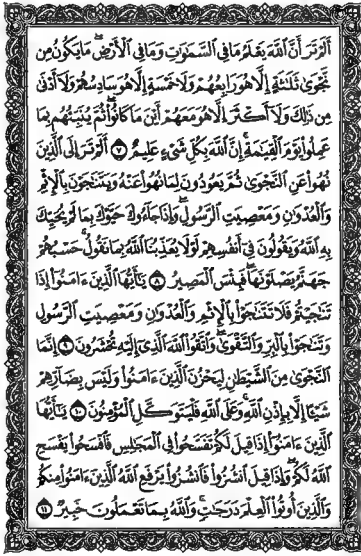
١- لا يشك صحيح الفهم البتة في هذا الخطاب أنه نص صريح لا يحتمل التأويل بوجه في إثبات صفة السمع للرب تعالى حقيقة وأنه بنفسه سمع. (الصواعق المرسلة ١/ ٣٩٠).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ (٢).

٢- إن قيل: فما تقولون في قول المظاهر: «أنت علي كظهر أمي» هل هو إنشاء أو أخبار؟
وفصل الخطاب: أن قوله: «أنت علي كظهر أمي» يتضمن إنشاء وإخباراً، فهو إنشاء من حيث قصد التحريم بهذا اللفظ، وإخبار من حيث تشبيهها بظهر أمه، ولهذا جعله الله منكراً وزوراً، فهو منكر باعتبار الإنشاء وزور باعتبار الإخبار. (بدائع الفوائد ١/ ١١-١٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَيْتُوكُمْ كَيْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

٣- دليل على أن [المحاددة] مغالبة ومعادة حتى يكون أحد المحادين غالباً، وهذا إنما يكون بين أهل الحرب لا أهل السلم، فعلم أن المحاد ليس بمسالمة، فلا يكون له أمان مع المحادة، وقد جرت سنة الله سبحانه أن الغلبة لرسوله بالحجة والقهر،



فمن أمر منهم بالحرب نصر على عدوه، ومن لم يؤمر بالحرب أهلك عدوه.

يوضحه أن المحادة مشاقة؛ لأنها من الحد والفصل والبيونة، وكذلك المشاقة من الشق، وكذلك المعادة من العدو وهي الجانب، يكون أحد العدوين في شق وجانب وحد، وعدوه الآخر في غيرها، والمعنى في ذلك كله معنى المقاطعة والمفاصلة، وذلك لا يكون إلا مع انقطاع الحبل الذي بيننا وبين أهل العهد لا يكون مع اتصال الحبل أبداً.

يوضحه أن الحبل وصلة وسبب، فلا يجامع المفاصلة والمباينة.

وأيضاً فإنها إذا كانت بمعنى المشاقة فقد قال تعالى: ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (١٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقَوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَانَ اللَّهُ شَدِيدَ الْعِقَابِ (١٣) [الأنفال: ١٢-١٣]، فأمر بضرب أعناقهم، وعلل ذلك بمشاققتهم [ومحادثتهم]، وكل من فعل ذلك وجب أن يضرب عنقه. (أحكام أهل الذمة ٨٢٦-٨٢٨).

قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.

٤- اللام في «العلم» ليست للاستغراق، وإنما هي للعهد، أي: العلم الذي بعث الله به نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذا كانوا أوتوا هذا العلم كان اتباعهم واجبا. (إعلام الموقعين

سورة الحشر

قوله تعالى: ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا عَنْتُكُمْ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَصْطُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخْرِجُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ۖ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ مَا قَطَعَتْ مِنْ لَيْلَةٍ أَوْ رَكْعَةٍ شَيْءًا قَابِلَةً عَلَى أَمْرِهِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَصْطُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخْرِجُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ۖ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾.

١- التنصيص على الأصناف الخمسة يفيد تحقيق إدخالهم، وأنهم لا يخرجون من أهل الفيء بحال، وأن الخمس لا يعدوهم إلى غيرهم، كأصناف الزكاة لا تعدوهم إلى غيرهم، كما أن الفيء العام في آية الحشر للمذكورين فيها لا يتعداهم إلى غيرهم، ولهذا أفتى أئمة الإسلام كمالك وإمام أحمد وغيرهما أن الرافضة لا حق لهم في الفيء؛ لأنهم ليسوا من المهاجرين، ولا من الأنصار، ولا من الذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذي

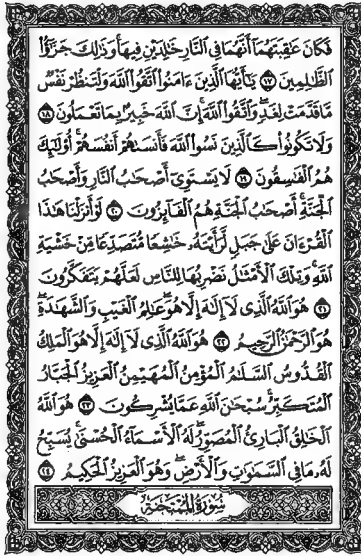
سبقونا بالإيمان، وهذا مذهب أهل المدينة، واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وعليه يدل القرآن، وفعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخلفائه الراشدين. (زاد المعاد ٥/ ٤٨ - ٨٧).

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

فَنَسِيَهُمْ ﴿التوبة: ٦٧﴾.

فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين: إحداهما: أنه سبحانه نسيه. والثانية: أنه أنساه نفسه. ونسيانه سبحانه للعبد: إهماله، وتركه، وتخليه عنه، وإضاعته، فالهلاك أدنى إليه من اليد للقم، وأما إنساؤه نفسه، فهو إنساؤه لحظوظها العالية، وأسباب سعادتها وفلاحها، وإصلاحها، وما تكمل به بنسيه ذلك كله جميعه فلا يخطر بباله، ولا يجعله على ذكره، ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره.

٥- وأيضا فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفات، فلا يخطر بباله إزالتها.

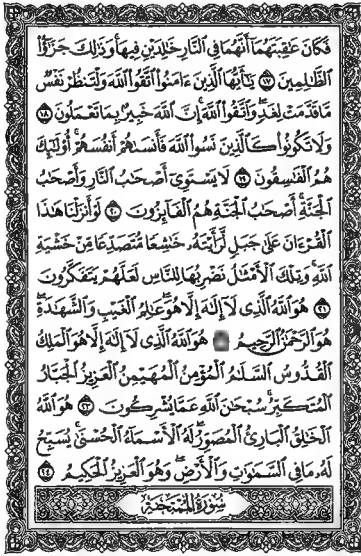


وأیضا فينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها، فلا يخطر بقلبه مداواتها، ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تتول بها إلى الفساد والهلاك، فهو مريض مثخن بالمرض، ومرضه مترام به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة.

فأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضعيها، ونسي مصالحها وداءها ودواءها، وأسباب

سعادتها وفلاحها وصلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم؟ (الجواب الكافي ١٥٠-١٥١).

ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى والالهج به، وأن لا يزال اللسان رطباً به، وأن يتولى منزلة حياته التي لا غنى له عنها ومنزلة غذائه الذي إذا فقدته فسد جسمه وهلك، وبمنزلة الماء عند شدة العطش، وبمنزلة اللباس في الحر والبرد وبمنزلة الكفن في شدة الشتاء والسموم.



فحقيق بالبعد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم، فأين هلاك الروح والقلب وفسادهما من هلاك البدن وفساده؟ هذا هلاك لا بد منه وقد يعقبه صلاح لا بد، وأما هلاك القلب والروح فهلاك لا يرجى معه صلاح ولا فلاح، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها لكفي بها، فمن نسي الله تعالى أنساه نفسه في الدنيا ونسيه في العذاب يوم القيامة. (الوابل

الصيب ٦٧-٦٨).



سورة الممتحنة

قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾

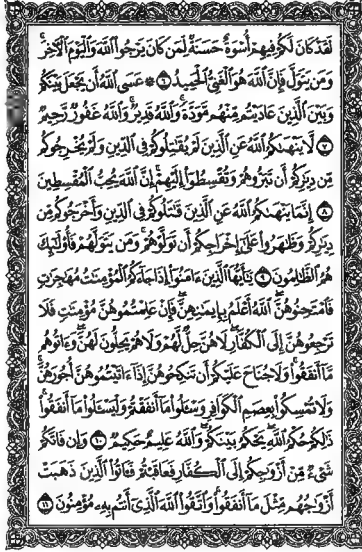


١- إن الله سبحانه لما نهى في أول السورة عن اتخاذ المسلمين الكفار أولياء وقطع المودة بينهم وبينهم، توهم بعضهم أن برهم والإحسان إليهم من الموالاة والمودة، فبين الله سبحانه أن ذلك ليس من الموالاة المنهي عنها، وأنه لم ينه عن ذلك، بل هو من الإحسان الذي يحبه ويرضاه، وكتبه على كل شيء، وإنما المنهي عنه تولي الكفار والإلقاء إليهم بالمودة. (أحكام أهل الذمة ١/ ٣٠١).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ ۚ إِنَّهُنَّ عَلِمَتْنَهُنَّ مُؤْمِنَاتٌ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنَفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَانَسْتُمُوهُنَّ لِجُورِهِنَّ وَلَا تُنكِسُوا بِعَصِمِ الْكَوْفِرِ وَسَلُّوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُم مَّا أَنفَقْتُمْ عَلَيْكُمْ حُكْمٌ ۚ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾

٢- صالح قريشا على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، على أن من جاءه منهم مسلما رده إليهم، ومن جاءهم من عنده لا يردونه إليه، وكان اللفظ عاما في الرجال والنساء، فنسخ الله ذلك في حق النساء، وأبقاه في حق الرجال، وأمر الله نبيه والمؤمنين

أن يمتحنوا من جاءهم من النساء، فإن علموها مؤمنة لم يردوها إلى الكفار، وأمرهم ببرد مهرها إليهم لما فات على زوجها من منفعة بضعها، وأمر المسلمين أن يردوا على من ارتدت امرأته إليهم مهرها إذا عاقبوا، بأن يجب عليهم رد مهر المهاجرة، فيردونه إلى من ارتدت امرأته، ولا يردونها إلى زوجها المشرك، فهذا هو العقاب، وليس من العذاب في شيء.



٣- وكان في هذا دليل على أن خروج البضع من ملك الزوج مقوم، وأنه مقوم بالمسمى الذي هو ما أنفق الزوج لا بمهر المثل.

٤- وأن أنكحة الكفار لها حكم الصحة، لا يحكم عليها بالبطلان.

٥- وأنه لا يجوز رد المسلمة المهاجرة إلى الكفار ولو شرط ذلك.

٦- وأن المسلمة لا يحل لها نكاح الكافر.

٧- وأن المسلم له أن يتزوج المرأة المهاجرة إذا انقضت عدتها، وآتاها مهرها، وفي هذا أبين دلالة على خروج بضعها من ملك الزوج، وانفساخ نكاحها منه بالهجرة والإسلام.

٨- وفيه دليل على تحريم نكاح المشركة على المسلم، كما حرم نكاح المسلمة على الكافر.

وهذه أحكام استفيدت من هاتين الآيتين، وبعضها مجمع عليه، وبعضها مختلف فيه، وليس مع من ادعى نسخها حجة البتة، فإن الشرط الذي وقع بين النبي صلى الله عليه وسلم

وبين الكفار في رد من جاءه مسلماً إليهم، إن كان مختصاً بالرجال، لم تدخل النساء فيه، وإن كان عاماً للرجال والنساء، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَصَّصَ منه رد النساء ونهاهم عن ردهن، وأمرهم برد مهورهن، وأن يردوا منها على من ارتدت امرأته إليهم من المسلمين المهر الذي أعطاهَا، ثم أخبر أن ذلك حكمه الذي يحكم به بين عباده، وأنه صادر عن علمه وحكمته، ولم يأت عنه ما ينافي هذا الحكم، ويكون بعده حتى يكون ناسخاً. (زاد المعاد ٣/ ١٤٠ - ١٤١).



سورة الصف



قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ
يَقَوْمِ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ
اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٥﴾

١- تأمل قوله: ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ
إِلَيْكُمْ﴾.

فإنها جملة في موضع الحال، أي: أتوذونني
وأنتم أني رسول الله إليكم؟ وذلك أبلغ في العناد.
(إغاثة اللهفان ٢/ ٣٤٢).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرُكُمْ عَلَى تَحَرُّمِ نَجِسِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ١٠ تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ
وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١٢ وَأُخْرَى
يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَيُسِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ١٣﴾

٢- تشوقت النفوس إلى هذه التجارة الرباحة التي الدال عليها رب [العالمين
العليم]. الحكيم فقال: ﴿تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [الصف:
١١]. فكان النفوس ضنت بحياتها وبقائها فقال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني أن
الجهاد خير لكم من قعودكم للحياة والسلامة، فكأنها قالت: فما لنا في الجهاد من
الخط؟ فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، مع المغفرة: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ [الصف: ١٢].

فكأنها قالت: هذا في الآخرة فما لنا في الدنيا؟ فقال:

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿١٣﴾ [الصف: ١٣].

[قلله] ما أحلى هذه الألفاظ وما ألصقها بالقلوب

وما أعظمها جذبا لها وتسييرا إلى ربه؟! وما ألطف

موقعها من قلب كل محب؟! وما أعظم غنى القلب

وأطيب عيشه حين تباشره معانيها؟! فنسأل الله من

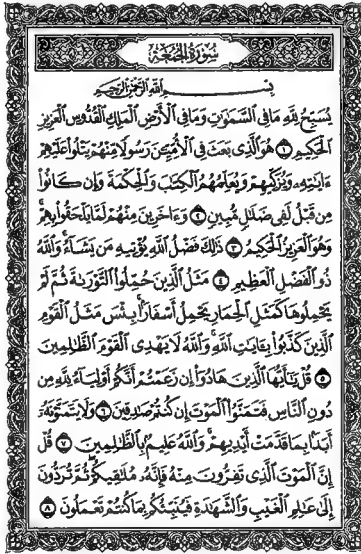
فضله إنه جواد كريم. (طريق الهجرتين ٣٣٢).



هَذَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيءَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِنَّهُ لَمِنْكُمْ مُخَصَّدٌ كَمَا لَمَسْنَا
بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَمَنْ يُبَشِّرُ بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَدَيْهِ أَنَّهُ مُحْتَدٌ فَأْتَاهَا
جَاهِلُهَا بِالْكِتَابِ قَالَ أَهَذَا بَشِيرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَمَنْ أَظَاهَرُ مِنْ أَهْلِ عِلْمٍ عَلَى
أَهْلِ الْكُفْرِ وَهُوَ يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾
يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَهْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُبْدِي نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ ﴿١٣﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَبِالنُّورِ لِيُظْهِرَهُ
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَقْبِلُوا إِلَى الْكُفْرِ
بِحُرُوفٍ تَنْبِذُكُمْ عَنْ عَذَابِ الْبَاطِلِ ﴿١٥﴾ تَوَدُّعُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُنْكَرُكُمْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَا مَعْزُومِي أَنْفُسِكُمْ كَرِهَ عَرَبَ كُفْرٍ كَذَّبْتُمْ عَنْهُ
يَتَغَوَّجُونَ كُفْرًا وَكَوْنُوا حُرُوفًا تَنْبِذُكُمْ عَنْ عَذَابِ الْبَاطِلِ ﴿١٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا
أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِمَنْ آمَنَ مِنْ أَنْصَارِهِ إِلَى اللَّهِ
قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْبَرِّ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ
وَكُنْزٌ عَالِيَةٌ فَمِنْهَا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَذُوبَةٍ وَأَنْصَارُ الْبَاطِلِ ﴿١٧﴾

سورة الجمعة

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾.



١- من جهلهم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شَبَهُهُمْ فِي حَمْلِهِمُ التَّوْرَةَ، وَعَدَمِ الْفَقْهِ فِيهَا، وَالْعَمَلِ بِهَا بِالْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا، وَفِي هَذَا التَّشْبِيهِ مِنَ النَّدَاءِ عَلَى جَهَالَتِهِمْ وَجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ:

منها: أن الحمار من أبلد الحيوانات التي يضرب بها المثل في البلادة.

ومنها: أنه لو حمل غير الأسفار من طعام أو علق أو ماء لكان له به شعور ما.

ومنها: أنهم حين حملوها حيث حملوها تكليفا وقهرا لا أنهم حملوها طوعا واختيارا، بل كانوا كالمكلفين لما حملوا لم يرفعوا به رأسا.

ومنها: أنهم حيث حملوها تكليفا وقهرا لم يرضوا بها ولم يحملوها رضاء واختيارا، وقد علموا أنهم لا بد لهم من حملها، وأنهم إن حملوها اختيارا كانت لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

ومنها: أنها مشتملة على مصالح معاشهم ومعادهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وإعراضهم عن التزام ما فيه سعادتهم وفلاحهم إلى ضده من غاية الجهل والغباوة، وعدم الفطنة. (هداية الحيارى ٢٨٦-٢٨٧).

٢- هذه أحسن من قراءة من قرأ: (فامضوا إلى ذكر الله).

وأما السعي المأمور به في الآية، فهو الذهاب إليها على وجه الاهتمام بها والتفرغ لها عن الأعمال الشاغلة من بيع وغيره والإقبال بالقلب على السعي إليها. (التبيان في أقسام القرآن ٧).



يَأْتِيَهُمُ الْيَوْمَ عَذَابٌ أَلِيمٌ إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ مَنْ يَرْجُو الْفِتْنَةَ وَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ
إِلَى دُخَانٍ مُبِينٍ وَذُرَاةَ النَّحْلِ أَتَى النَّحْلَ وَأَكَلُ خَيْرُ مَا كَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَسْكُمُونَ
﴿٥﴾ فَإِنَّا أَخْرَجْنَاهُ خَالِدًا فِي السَّعِيرِ وَأَوَّى الْأَرْضِ وَأَنْتُمْ لَا تُؤْمِنُونَ
مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآذَكُوا اللَّهَ كِبَارًا لَعَنَّا كُفْرًا فَمَنْ يُلْحِقُونَ
وَأَنَّا لَا نَفْعُ أَشْءًا لِقَوْمِهِمْ أَهْمُؤُنَا أَنْ نَبْعَثَ رُسُلًا فَإِذَا أَهْمُؤُنَا بِمَا لَمْ يَأْمُرْ بِهِ
اللَّهُ عَزِيزِينَ اللَّهُمَّ وَرَبِّ السَّجْدَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْخَائِرِينَ ﴿٦﴾

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

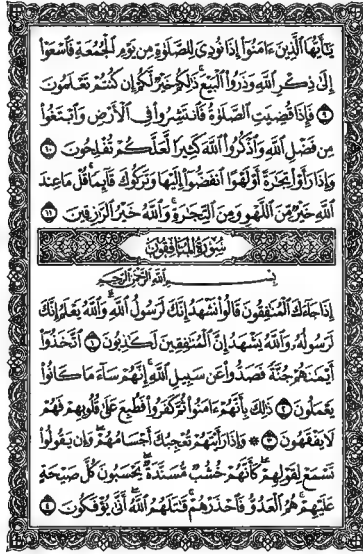
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْتَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْقَادِرُ أَنْتَ الَّذِي أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رُسُلًا وَلِلَّهِ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
رُسُلُهُ وَلِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْفَتْحُ الْبَشِيرُونَ لَكِنْ يَكْفُرُونَ ﴿١﴾ أَكْفَلُوا
أَيُّكُمْ خُرُوجَةً خَيْرًا وَأَعَزَّ سَبِيلَ اللَّهِ أَتَى سَبِيلَهُ مَا كُنُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَاذْكُرُوا الْفُلَ الَّذِي كُنْتُمْ عَلَى الْوُجُوهِ فَهَمُّوا
لَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْتُمْ بَعْثًا مِنْ آدَمَ فَكُنْتُمْ أَجْزَاءً يُسْتَعْرَبُ
تَسْمِعُ الْقَوْلَ وَكُنْتُمْ أَجْزَاءً مُخْتَلِفَةً رَأَتْكُمْ مِثْلَ صَبْرٍ وَكُنْتُمْ
عَلَيْهِمْ هُزْءًا وَكُفْرًا وَكُنْتُمْ لَهُمْ آيَةً فَكُنْتُمْ أَجْزَاءً يُسْتَعْرَبُ ﴿٤﴾

سورة المنافقون

﴿قوله تعالى: ﴿هُرَّ الْعَدُوِّ فَاحْذَرهُمْ﴾﴾

١- مثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، أي: لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد لها هنا حصر العداوة فيهم وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم، بل هذا] من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً وموالاتهم لهم، ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن بينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها، فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم



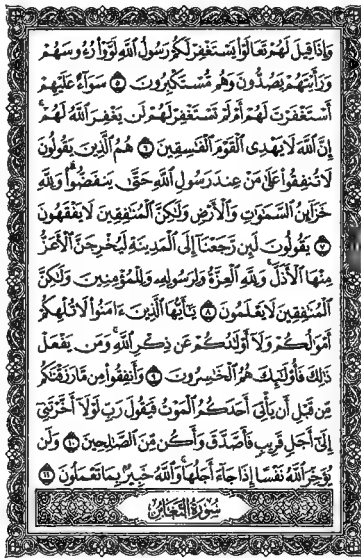
المعاشرين لهم - وهم في الباطن على خلاف دينهم - أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة والزم وأدوم؛ لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياماً، ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحاً ومساءً، يدلون العدو على عوراتهم ويتربصون بهم الدوائر ولا يمكنهم مناجزتهم، فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلهذا قيل: ﴿هُرَّ الْعَدُوِّ فَاحْذَرهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]. لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدواً من الكفار المجاهرين. (طريق الهجرتين ٣٧٤).

﴿قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾﴾

٢- إن في ذلك تحذيراً من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فوقعوا في النفاق.

وسئل بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن الخوارج: منافقون هم؟ قال: لا، المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً.

فهذا من علامة النفاق قلة ذكر الله عَزَّجَلَّ، وكثرة ذكره أمان من النفاق، والله عَزَّجَلَّ أكرم من أن يتلى قلباً ذاكراً بالنفاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله عَزَّجَلَّ. (الوابل الصيب ١١٠).



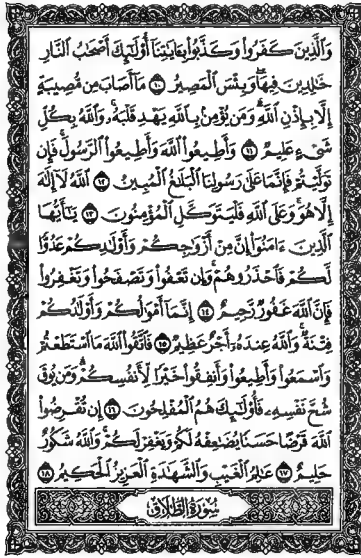
٢- ليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء والمحادة، بل إنما هي عداوة المحبة الصادرة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر كما في جامع الترمذي من حديث إسرائيل، حدثنا سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس، وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوٌّ لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال: «هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبي، فأبى أزواجه وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله، فلما أتوا رسول الله ورأوا الناس قد فقهاوا في الدين، هموا أن يعاقبوهم

فأنزل الله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِتٍ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ الآية. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده!

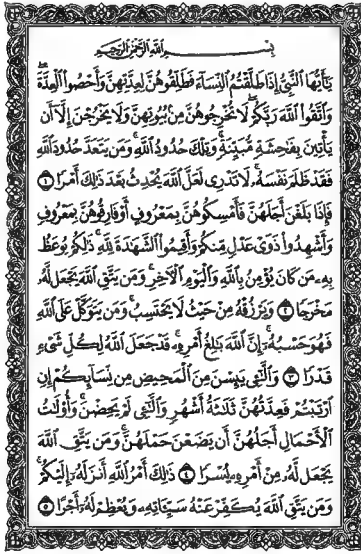
وفي الحديث: «الولد مبخلة مجبنة». وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب قال: حدثني زيد بن واقد قال: حدثني عبد الله بن بريدة قال: سمعت أبي يقول: «كان رسول الله يخطبنا فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله عن المنبر فحملهما فوضعهما بين

يديه، ثم قال صدق الله ﴿إِنَّمَا آمَوَ لَكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما». وهذا من كمال رحمته ولطفه بالصغار وشفقته عليهم، وهو تعليم منه للأمة الرحمة والشفقة واللطف بالصغار. (عدة الصابرين ٦٤ - ٦٥).



سورة الطلاق

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝٢﴾ وَبَرِّزْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ .



١- جعل التوكل بعد التقوى الذي هو قيام الأسباب المأمور بها، فحينئذ إن توكل على الله، فهو حسبه، وكما قال في موضع آخر: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١]. فالتوكل والحسب بدون قيام الأسباب المأمور بها عجز محض، فإن كان مشوباً بنوع من التوكل، فهو توكل عجز، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزاً، ولا يجعل عجزه توكلًا، بل يجعل توكله من جملة الأسباب المأمور بها التي لا يتم المقصود إلا بها كلها.

٢- فلما ذكر كفايته للمتوكل عليه فربما أوهم ذلك تعجيل الكفاية وقت التوكل فعقبه بقوله: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]. أي: وقتاً لا يتعداه، فهو يسوقه إلى وقته الذي قدره له.

فلا يستعجل المتوكل ويقول: قد توكلت، ودعوت فلم أر شيئاً ولم تحصل لي الكفاية، فالله بالغ أمره في وقته الذي قدره له، وهذا كثير جداً في القرآن والسنة، وهو باب لطيف من أبواب فهم النصوص. (عدة الصابرين ٦٤ - ٦٥).



قوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

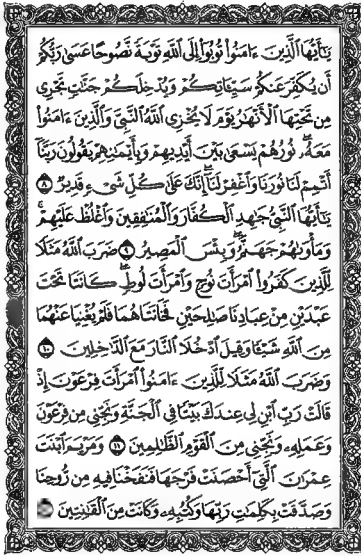
(روضۃ المحبین ۶۸).

بَاتِيهَا اللَّيْلَ ۖ وَأَمْسُوا وَقُلْ أَلِلَّهُ قَدْرَهُ ۖ فَصَبْرًا عَلَيْهِمْ وَكُلُوا
أَنْ يَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۖ وَبِمَا كَفَرْتُمْ جَنَّتْ بَحْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَمْهَلُ ۚ قَوْلَ الْبَحْرِيِّ ۖ اللَّهُ الَّذِي وَلَّى الَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ ۚ قَوْلُهُمْ يَسْتَأْذِنُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ فَيَقُولُونَ دَعَا
أَحْمَدَ الْوَلَّى ۚ وَأَقْبَلُوا إِلَيْكَ عَلَى كَيْلٍ شَرٍّ ۖ وَقِيلُوا ۝
بَاتِيهَا الَّذِي جَعَدَ السَّعْفُ وَالْمُسْقِينُ ۚ وَأَغْلَقَ عَلَيْهِمْ
وَمَا رَأَوْهُمْ جَهَنَّمَ ۚ وَوَقَّسَ الْوَسْوَ ۝ حَزَبَ اللَّهِ مِنْكَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ أَمْرَانِ لَوْجٍ وَأَمْرَانِ لَوْجٍ ۚ فَكَتَبْنَا عَنْ
عَيْنَيْكَ مِنْ عِبَادُوا مَا صِلَحْتَنِي ۚ فَكُنَّا لَهَا قَلْبًا يَتَابَعُهَا
مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَا قِيلَ أَوْ لَعَلَّ الشَّارِعَ الْبَاطِلِيَّاتِ ۝
وَصَحَّرَ اللَّهُ مِنْكَ لِلَّذِينَ ۚ آمَنُوا ۚ أَمْرَانِ ۚ وَفَعَلَتْ إِذْ
قَالَتْ رَبِّ أَرِنِي عَذَابَكَ بِمَا فِي الْأَجْزَاءِ وَتَجَنَّبِي مِنْ رُحُونِ
وَعَمَلِهِ ۚ وَتَجَنَّبِي مِنَ الْقَوَرِ الطَّالِبِينَ ۝ وَمَرْوَمَ ابْنَتِ
عَمْرَةَ ۚ أَلَّتِي أَخَصَمْتَ رُحْمَهَا فَتَقَطَّ حَبَابُهَا مِنْ رُحْمِهَا
وَصَدَقَتْ وَلَحِيتُ رُحْمَهَا وَكَلْبُهُ ۚ وَكَانَتْ مِنَ الْفَاقِينَ ۝

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أُمْرَأَتَ نُوحٍ وَأُمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا أُمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنْ

٢- فذكر ثلاثة أصناف من النساء: المرأة الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح والمرأة الصالحة التي لها وصلة بالرجل الكافر، والمرأة العزب التي لا وصلة بينها وبين أحد: فالأولى لا تنفعها وصلتها وسببها، والثانية لا تضرها وصلتها وسببها، والثالثة لا يضرها عدم الوصلة شيئاً.

٣- ثم في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة؛ فإنها سيقَت في ذكر أزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتحذير من تظاهرهن عليه، وأنهن إن لم يطعن



الله ورسوله ويردن الدار الآخرة لم ينفعهن اتصالهن برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما لم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما، ولهذا إنما ضرب في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة.

قال يحيى بن سلام: ضرب الله المثل الأول يحذر عائشة وحفصة، ثم ضرب لهما المثل الثاني يحرضهما على التمسك بالطاعة.

وفي ضرب المثل للمؤمنين بمريم أيضا اعتبار آخر، وهو أنها لم يضرها عند الله شيئا قذف أعداء

الله اليهود لها، ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأهما الله عنه، مع كونها الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين؛ فلا يضر الرجل الصالح قدح الفجار والفساق فيه.

٤- وفي هذا تسلية لعائشة أم المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك، وتوطين نفسها على ما قال فيها الكاذبون إن كانت قبلها، كما في ذكر التمثيل بامرأة نوح ولوط تحذير لها ولحفصة مما اعتمدتاه في حق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فتضمنت هذه الأمثال التحذير لهن والتخويف، والتحريض لهن على الطاعة والتوحيد، والتسلية وتوطين النفس لمن أؤذي منهن وكذب عليه، وأسرار التنزيل فوق هذا وأجل منه، ولا سيما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون. (إعلام الموقعين ١/ ٢٢٥-٢٢٨).



سورة الملك

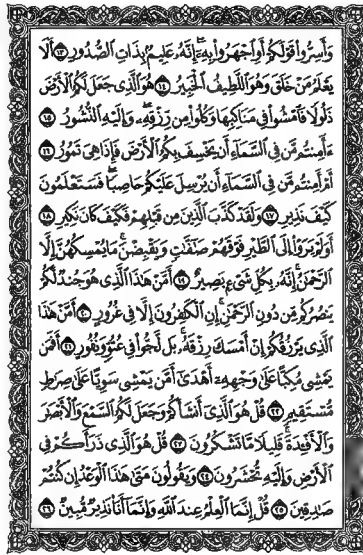
[illegible]

وهذا التقرير من الآية صحيح على التقديرين أعني تقدير أن تكون من في محل رفع على الفاعلية وفي محل نصب على المفعولية، فعلى التقدير الأول: ألا يعلم الخالق الذي شأنه الخلق، وعلى التقدير الثاني: ألا يعلم الرب مخلوقه ومصنوعه. (الصواعق المرسلة ٢ / ٤٩١).

٢- وحسن التعبير بمناكبها عن طرفها وفجاجها؛ لما تقدم من وصفها بكونها ذلولا، فالماشي عليها على مناكبها وهو أعلى شيء فيها، ولهذا فسرت المناكب بالجبل كمناكب الإنسان وهي أعاليه، قالوا وذلك تنبيه على أن المشي في سهولها أيسر وقالت طائفة: بل المناكب الجوانب والنواحي، ومنه مناكب الإنسان لجوانبه.

والذي يظهر أن المراد بالمناكب الأعالي، وهذا الوجه الذي يمشي عليه الحيوان هو العالي من الأرض دون الوجه المقابل له، فإن سطح الكرة أعلاها والمشي إنما يقع في سطحها، وحسن التعبير عنه بالمناكب لما تقدم من وصفها بأنها ذلول.

٣- على أنا في هذا المسكن غير مستوطنين ولا مقيمين، بل دخلناه عابري سبيل، فلا يحسن أن نتخذَه وطنًا ومستقرًا وإنما دخلناه لتزود منه إلى دار القرار، فهو منزل عبور لا مستقر حبور ومعبر وممر لا وطن ومستقر فتضمنت الآية الدلالة على ربوبيته ووحدانيته وقدرته وحكمته ولطفه والتذكير بنعمه وإحسانه والتحذير من الركون إلى الدنيا واتخاذها وطنًا ومستقرًا، بل نسرع فيها السير إلى داره وجنته، فله ما في ضمن هذه الآية من معرفته وتوحيده والتذكير بنعمه والحث على السير إليه والاستعداد للقاءه والقدوم عليه والإعلام بأنه سبحانه يطوي هذه الدار كأن لم تكن، وأنه يحيي أهلها بعدما أماتهم وإليه النشور. (الفوائد ٢٠-٢١).

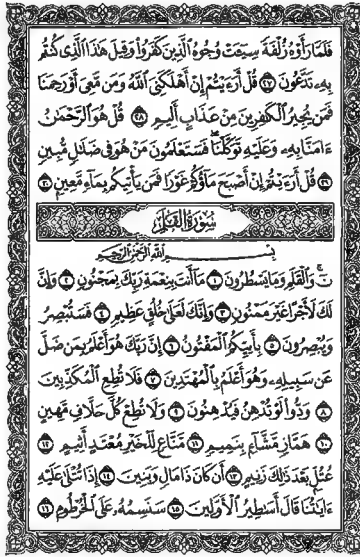


قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصُورُكَ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكُفْرَ إِلَّا فِي عُورٍ﴾^(١٠) ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾^(١١).

٤- جمع سبحانه بين النصر والرزق، فإن العبد مضطر إلى من يدفع عنه عدوه بنصره، ويجلب له منافعه برزقه، فلا بد له من ناصر ورازق. والله وحده هو الذي ينصر ويرزق، فهو الرزاق ذو القوة المتين. ومن كمال فطنة العبد ومعرفته: أن يعلم أنه إذا مسه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره، وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه. (إغاثة اللهفان ١/٣٣).

سورة القلم

قوله تعالى: ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾



١ - المقسم عليه بالقلم والكتابة في هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه أعداؤه، وهو قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾. وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالاً عليه أظهر دلالة وأبينها، فإن ما سطر الكاتب بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون ولا تصدر إلا من عقل وافر، فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذي هو في أعلى درجات العلوم، بل العلوم التي تضمنها ليس

في قوى البشر الإتيان بها، ولا سيما من أُمي لا يقرأ كتاباً ولا يخط بيمينه، مع كونه في أعلى أنواع الفصاحة سليماً من الاختلاف برياً من التناقض يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا في صعيد واحد أن يأتوا بمثله ولو كانوا في عقل رجل واحد منهم، فكيف يتأتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى كثير من الحيوان أن يميزه، وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر الإفك؟!

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾

٢ - أي: غير مقطوع، بل هو دائم مستمر. ونكر الأجر تنكير تعظيم كما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً ۝٣﴾، و﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۝٣﴾، و﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ ۝٣﴾، و﴿إِنَّ الْمُنْتَفِعِينَ مَفَازًا ۝٣١﴾، و﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ۝٣٢﴾ وهو كثير وإنما كان التنكير للتعظيم

سورة الحاقة

قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٨) ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾

۱- ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى
آية ودليل على صدق رسوله، وأن ما جاء به هو من
عند الله وهو كلامه لا كلام شاعر ولا مجنون ولا
كاهن.

ومن تأمل المخلوقات ما يراه منها وما لا يراه
واعتبر ما جاء به الرسول بها ونقل فكرته في مجاري
الخلق والأمر ظهر له أن هذا القرآن من عند الله، وأنه
كلامه وهو أصدق الكلام وأنه حق ثابت كما أن سائر
الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق كما قال

تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ نَنْطُقُونَ﴾ (٢٣)، أي: إن كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون فهكذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق كما في الحديث إنه لحق مثلما أنك ها هنا، فكأنه سبحانه يقول: إن القرآن حق كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون، لدلکم ذلك على أن القرآن حق، ويكفي الإنسان من جميع ما يبصره وما لا يبصره بعينه ومبدأ خلقه ونشأته وما يشاهده من أحواله ظاهراً وباطناً، ففي ذلك آيين دلالة على وحدانية الرب وثبوت صفاته وصدق ما أخبر به رسوله وما لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه.

٢- ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿٤٠﴾ وهذا رسوله

البشري محمد وفي إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسل، فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة، ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولاً ولناقض ذلك إضافته إلى رسوله الملكي في سورة التكوير.

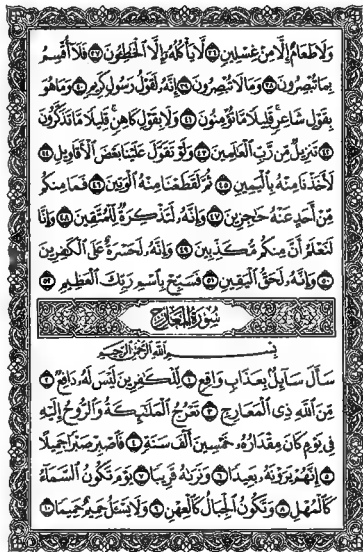
٣- ثم أخبر سبحانه أنه تنزيل من رب العالمين، وذلك يتضمن أموراً:

أحدها: أنه تعالى فوق خلقه كلهم، وأن القرآن نزل من عنده.

والثاني: أنه تكلم به حقيقة لقوله: ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ولو كان غيره هو المتكلم به، لكان من ذلك الغير، ونظير هذا قوله: ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ ونظيره قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾، وقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، وقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وما كان من الله فليس بمخلوق.

الأمر الثالث: ما تضمنه قوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إنه ربوبيته الكاملة لخلقته تأبى أن يتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم، ويحذرهم ما يضرهم، بل يتركهم هملاً بمنزلة الأنعام السائمة، فمن زعم ذلك لم يقدر رب العالمين قدره ونسبه إلا ما لا يليق به تعالى ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾.

٤- وتأمل كيف أضافه سبحانه إلى الرسول بلفظ القول، وأضافه إلى نفسه بلفظ الكلام في قوله: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾، فإن الرسول يقول للمُرسل إليه ما أمر بقوله، فيقول: قلت كذا وكذا، وقلت له ما أمرتني أن أقوله كما قال المسيح ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ والمرسل يقول للرسول: قل لهم كذا



مرسله ولا يجيء في شيء من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا، ولا أنه بكلام رسول كريم، ولا في موضع واحد، بل قيل للصديق وقد تلى آية: هذا كلامك وكلام صاحبك. فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي، هذا كلام الله.

[illegible]

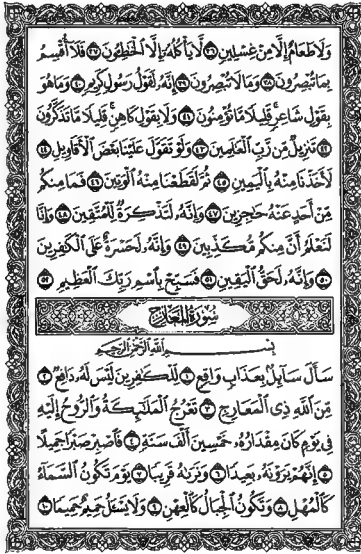
اليقين، فقيل هو من باب إضافة الموصوف إلى

صفته، أي: الحق اليقين نحو مسجد الجامع وصلاة الأولى، وهذا موضع يحتاج إلى تحقيق، فنقول وبالله التوفيق: ذكر الله سبحانه في كتابه مراتب اليقين وهي ثلاثة: حق اليقين، وعلم اليقين، وعين اليقين، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾. فهذه ثلاث مراتب لليقين:

أولها: علمه، وهو التصديق التام به، بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة تقدر في تصديقه كعلم اليقين بالجنة مثلاً، وتيقنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين، فهذه مرتبة العلم كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله وتيقنهم صدق المخبر.

المرتبة الثانية: عين اليقين، وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ

لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة، فاليقين للسمع، وعين اليقين للبصر.



وفي المسند للإمام أحمد مرفوعاً: ليس الخبر كالمعاين. وهذه المرتبة هي التي سألها إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيي الموت؛ ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين، فكان سؤاله زيادة لنفسه وطمأنينة لقلبه، فيسكن القلب عند المعاينة، ويطمئن لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان، وعلى هذه المسافة أطلق النبي لفظ الشك حيث قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» ومعاذ الله أن يكون هناك

شك ولا من إبراهيم، وإنما هو عين بعد علم، وشهود بعد خبر، ومعاينة بعد سماع.

المرتبة الثالثة: مرتبة حق اليقين، وهي مباشرة الشيء بالإحساس به كما إذا أدخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها، فهم في الدنيا في مرتبة علم اليقين، وفي الموقف حين نزل ونقرب منهم حتى يعاينوها في مرتبة عين اليقين، وإذا دخلوها وباشروا نعيمها في مرتبة حق اليقين.

وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاثة مثالا فقال: إذا قال لك من تجزم بصدقه: عندي غسل أريد أن أطعمك منه، فصدقته، كان ذلك علم يقين، فإذا أحضره بين يديك، صار ذلك عين اليقين، فإذا ذقته، صار ذلك حق اليقين.

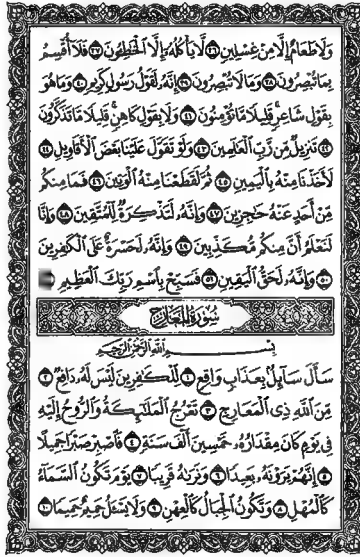
وعلى هذا فليست هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته، بل من إضافة الجنس إلى نوعه.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ٥٢﴾ .

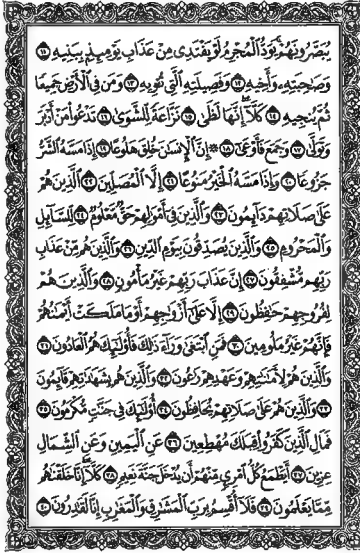
٦- ختم السورة بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ٥٢﴾ وهي جديرة بهذه الخاتمة لما تضمنته من الإخبار عن عظمة الرب تعالى وجلاله، وذكر عظم ملكه وجريان حكمه

بالعدل على عباده في الدنيا والآخرة، وذكر عظمته تعالى في إرسال رسوله وإنزال كتابه، وأنه تعالى أعظم وأجل وأكبر عند أهل سماواته والمؤمنين من عباده من أن يقر كذباً متقولاً عليه مفترى عليه يبدل دينه وينسخ شرائعه ويقتل عباده ويخبر عنه بما لا حقيقة له، وهو سبحانه مع ذلك يؤيده وينصره ويجيب دعواته ويأخذ أعداءه ويرفع قدره ويعلي ذكره، فهو سبحانه العظيم الذي تأبى عظمته أن يفعل ذلك بمن أتى بأقبح أنواع الكذب والظلم، فسبحان ربنا العظيم

وتعالى عما ينسبه إليه الجاهلون علواً كبيراً. (التبيان في أقسام القرآن ١٧٥-١٩٤).



سورة المعارج



قوله تعالى: ﴿أَطِيعُ كُلَّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

١- إذا تأملت ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى، وجدت تحتها كنزا عظيما من كنوز المعرفة والعلم، فأشار سبحانه بمبدأ خلقه مما يعلمون من النطفة وما بعدها إلى موضع الحجة والآية الدالة على وجوده ووحدانيته وكماله وتفرد بالربوبية والإلهية، وأنه لا يحسن به مع ذلك أن يتركهم سدى لا يرسل إليهم رسولا ولا ينزل عليهم كتابا، وأنه لا يعجز مع ذلك أن

يخلقهم بعدما أماتهم خلقا جديدا ويبعثهم إلى دار يوفيههم فيها أعمالهم من الخير والشر.

فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم يكذبون ويكذبون رسلي ويعدلون بي خلقي

وهم يعلمون من أي شيء خلقتهم؟!

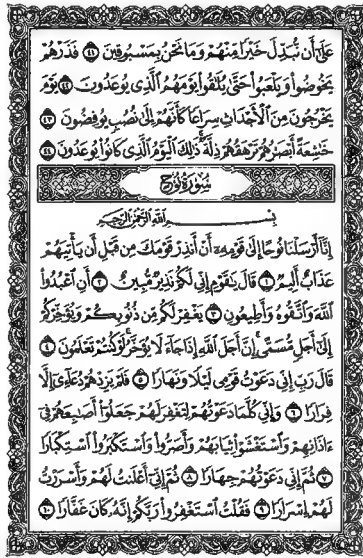
ويشبه هذا قوله: ﴿تَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ (٥٧) وهم كانوا مصدقين بأنه

خالقهم، ولكن احتج عليهم بخلقهم لهم على توحيدهم ومعرفة وصدق رسله فدعاهم منهم ومن خلقه إلى الإقرار بأسمائه وصفاته وتوحيدهم وصدق رسله والإيمان بالمعاد.

(شفاء العليل (٣٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ (٤٠) عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ

بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾



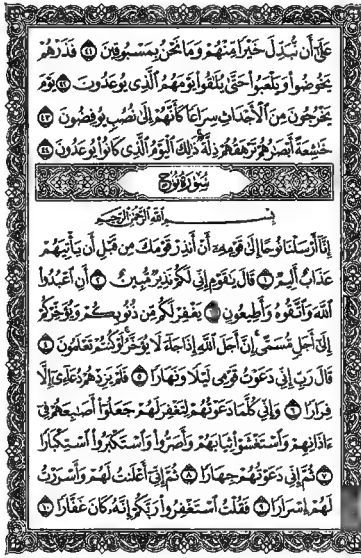
٢- في ربوبيته سبحانه للمشارك والمغارب تنبيه على ربوبيته السماوات وما حوته من الشمس والقمر والنجوم وربوبيته ما بين الجهتين وربوبيته الليل والنهار وما تضمنناه.

٣- وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، أي: لا يفوتني ذلك إذا أردته ولا يمتنع مني وعبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ لأن المغلوب يسبقه الغالب إلى ما يريد فيفوت عليه، ولهذا عدي به (على) دون (إلى) كما في قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (١٠) عَلَى أَنْ

تُبَدِّلَ أَمَثَلَكُمُ، فإنه لما ضمنه معنى مغلوبين ومقهورين عداه به (على) بخلاف سبقه إليه، فإنه فرق بين سبقته إليه وسبقته عليه. فالأول بمعنى غلبته وقهرته عليه، والثاني بمعنى وصلت إليه قبله.

٤- وقد وقع الإخبار عن قدرته عليه سبحانه على تبديلهم بخير منهم، وفي بعضها تبديل أمثالهم، وفي بعضها استبداله قومًا غيرهم، ثم لا يكونوا أمثالهم، فهذه ثلاثة أمور يجب معرفة ما بينها من الجمع والفرق، فحيث وقع التبديل بخير منهم، فهو إخبار عن قدرته على أن يذهب بهم ويأتي بأطوع واتقى له منهم في الدنيا وذلك قوله: ﴿وَلَا يَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ يعني: بل يكونوا خيرًا منكم.

قال مجاهد: يستبدل بهم من شاء من عباده فيجعلهم خيرًا من هؤلاء، فلم يتولوا بحمد الله فلم يستبدل بهم. وأما ذكره تبديل أمثالهم ففي سورة الواقعة وسورة الإنسان، فقال في الواقعة ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (١٠) عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنْشِئَ كُمْ



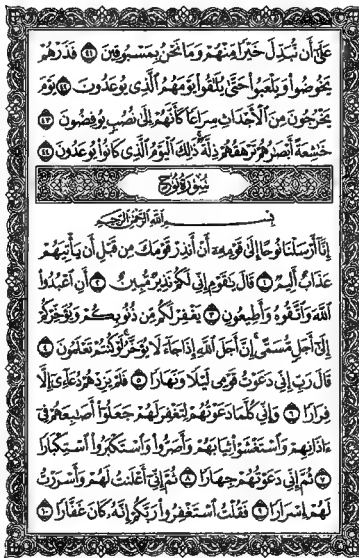
فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾، وقال في سورة الإنسان ﴿لَنَخْنُحْلَقَنَّهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْثَلَهُمْ بَدِيلًا﴾^(٢٨) قال كثير من المفسرين: المعنى أنا إذا أردنا أن نخلق خلقًا غيركم، لم يسبقنا سابق، ولم يفتنا ذلك، وفي قوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْثَلَهُمْ بَدِيلًا﴾ إذا شئنا أهلكناهم وأتيننا بأشباههم فجعلناهم بدلًا منهم.

قال المهدوي: قومًا موافقين لهم في الخلق مخالفين لهم في العمل، ولم يذكر الواحدي ولا ابن الجوزي غير هذا القول، وعلى هذا فتكون هذه

الآيات نظير قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ فيكون استدلالاً بقدرته على إذهابهم والإتيان بأمثالهم على إتيانه بهم أنفسهم إذا ماتوا.

وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم حجتي، فلم يقبلوها ولم يخافوا بأسِي ولا صدقوا رسالاتي في خوضهم بالباطل ولعبهم، فالخوض في الباطل ضد التكلم بالحق واللعب ضد السعي الذي يعود نفعه على ساعيه، فالأول ضد العلم النافع، والثاني ضد العمل الصالح، فلا تكلم بالحق ولا عمل بالصواب، وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول لا بد له من هذين الأمرين.

٥- ثم ذكر سبحانه حالهم عند خروجهم من القبور فقال: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفُّونَ﴾^(٢٩)، أي: يسرعون، والنُّصْب العلم والغاية التي تنصب فيؤمونها، وهذا من ألطف التشبيه وأبينه وأحسنه، فإن الناس يقومون من قبورهم مهطعين إلى الداعي يؤمون الصوت لا يعرجون عنه يمنة ولا يسرة كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾، أي: يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته لا يعرجون



عنه. قال الفراء: وهذا كما تقول دعوتك دعوة لا عوج لك عنها. وقال الزجاج: المعنى لا عوج لهم عن دعائه، أي لا يقدرّون إلا على اتباعه وقصده.

﴿قوله تعالى: ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (٢٤)﴾.

٦- وصفهم بذل الظاهر وهو خشوع الأبصار وذلل الباطن وهو ما يرهقهم من الذل خشعت عنه أبصارهم، وقريب من هذا قوله: ﴿وَجُوهُهُمْ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ (٢٤) ﴿تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ (٢٥) ونظيره قوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ

مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَمَا أَغْشَيْتَ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِنْ أَيْلٍ مُظْلِمًا﴾ ﴿وَضَدَ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ (١٣٨)﴾ فنفي عنه الجوع الذي هو ذل الباطن والعري الذي هو ذل الظاهر وضده أيضًا قوله: ﴿وَلَقَنَهُمْ نَصْرَهُ وَشُورًا﴾ ﴿فالنصرة عز الظاهر وجماله والسرور عز الباطن وجماله، ومثله أيضًا قوله: ﴿عَلَيْهِمْ ثَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَمَهُمْ رُبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (١١)﴾ فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن، ومثله وقوله: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِيَاسُ النَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن، ومثله قوله: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ (٦) ﴿وَحَفَظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ (٧) ﴿فزين ظاهرها بالنجوم وباطنها بالحفظ من كل شيطان رجيم، ومثل قوله أيضًا: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَاَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، وقريب منه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى﴾، ومنه قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١٦) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ فَبِإِذْنِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٧)﴾ فجمع لهؤلاء بين جمال الظاهر

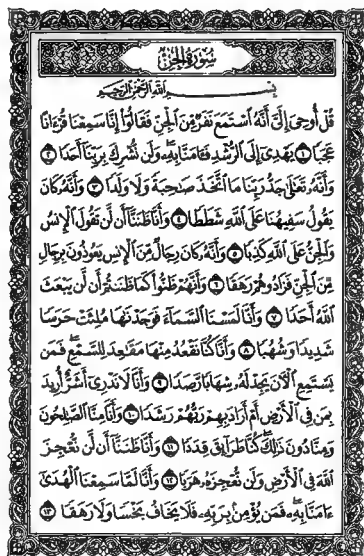
.(۲۰۳-۱۹۴

سورة الجن

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ﴿٥﴾

١- هذا يعرف سره من السياق، فإن هذا حكاية كلام مؤمني الجن حين سماع القرآن كما قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ ﴿١﴾

الآيات.



وكان القرآن أول ما خوطب به الإنس ونزل
على نبيهم وهم أول من بدأ بالتصديق والتكذيب قبل
الجن، فجاء قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ
الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ﴿٥﴾ بتقديم الإنس لتقدمهم في
الخطاب بالقرآن وتقديمهم في التصديق والتكذيب،
وفائدة أخرى: وهي أن هذا حكاية كلام مؤمني الجن
لقومهم بعد أن رجعوا إليهم فأخبروهم بما سمعوا
من القرآن وعظمته وهدايته إلى الرشد، ثم اعتذروا
عما كانوا يعتقدونه أولاً بخلاف ما سمعوه من الرشد
والجن يقولون على الله كذبا.

فذكرهم الإنس هنا في التقديم أحسن في الدعوة وأبلغ في عدم التهمة، فإنهم خالفوا ما كانوا يسمعون من الإنس والجن لما تبين لهم كذبهم فبداءتهم بذكر الإنس أبلغ في نفي الغرض والتهمة، وألاً يظن بهم قومهم أنهم ظاهروا الإنس عليهم، فإنهم أول ما أقروا بتقولهم الكذب على الله تعالى، وهذا من ألطف المعاني وأدقها، ومن تأمل مواقعه في الخطاب عرف صحته. (بدائع الفوائد ١/ ٦٧).

[illegible]

الذين خلفوا بعدهم، ولما كان الإنس أكمل من الجن وأتم عقولا، ازدادوا عليهم بثلاثة أصناف آخر ليس شيء منها للجن، وهم: الرسل، والأنبياء، والمقربون. فليس في الجن صنف من هؤلاء، بل حيلتهم الصلاح. (طريق الهجرتين ٣٨٥-٣٨٧).



سورة المدثر

قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ ٣٢ وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ ٣٣﴾

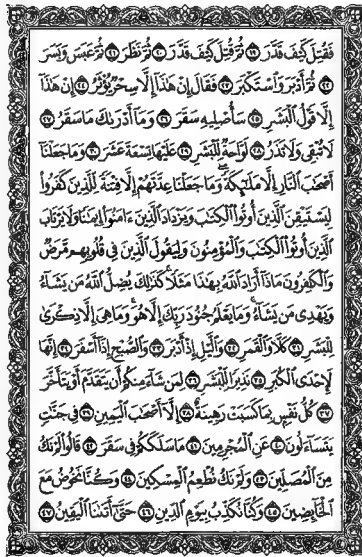
وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ ٣٤ إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبَرِ ٣٥ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ
لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ٣٦﴾

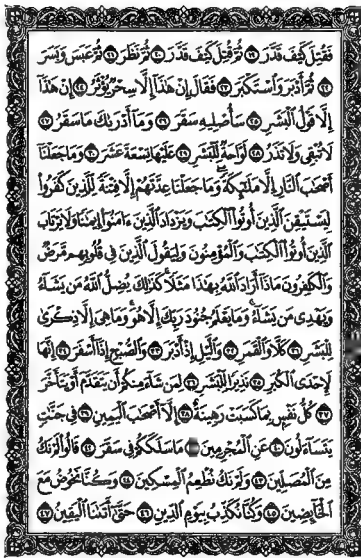
١- أمّا إقسامه سبحانه بـ ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ ٣٣﴾

فلما في إدباره وإقبال النهار من أبين الدلالات
الظاهرة على المبدأ والمعاد، فإنه مبدأ ومعاد يومي
مشهود بالعيان، بينما الحيوان في سكون الليل قد
هدأت حركاتهم وسكنت أصواتهم ونامت عيونهم
وصاروا إخوان الأموات، إذ أقبل من النهار داعيه

وأسمع الخلائق مناديه، فانتشرت منهم الحركات، وارتفعت منهم الأصوات، حتى
كأنهم قاموا أحياء من القبور يقول قائلهم: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه
النشور، فهو معاد جديد بدأه وأعاده الذي يبدئ ويعيد، فمن ذهب بالليل وجاء بالنهار
سوى الواحد القهار؟

٢- وأقسم سبحانه بهذه الأشياء الثلاثة: وهي القمر، والليل إذا أدبر، والصبح
إذا أسفر، على المعاد؛ لما في القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه، فإنه يتضمن
كمال قدرته وحكمته وعنايته بخلقه، وإبداء الخلق وإعادته كما هو مشهود في إبداء
النهار والليل وإعادتهما، وفي إبداء النور وإعادته في القمر، وفي إبداء الزمان وإعادته
الذي هو حاصل بسير الشمس والقمر، وإبداء الحيوان والنبات وإعادتهما، وإبداء
فصول السنة وإعادتها، وإبداء ما يحدث في تلك الفصول وإعادته، فكل ذلك دليل





ظاهر على المبدأ والمعاد الذي أخبرت به الرسل كلهم عنه، فصرف سبحانه الآيات الدالة على صدق رسله ونوعها وجعلها للفطر تارة، والسمع تارة، والمشاهدة تارة، فجعلها آفاقية، ونفسية، ومنقولة، ومعقولة، ومشهودة بالعيان، ومذكورة بالجنان، فأبى الظالمون إلا كفورًا ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْ نَنْفُسَهُمْ صُرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ (٢).

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٣٨) ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ (٣٩) ﴿فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ﴾ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ (٤١) ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ (٤٢) ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ (٤٣) ﴿وَكُنَّا نَحْوُكُمْ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ (٤٤).

٣- هذه أربع صفات أخرجتهم من زمرة المفلحين وأدخلتهم في جملة الهالكين: الأولى: ترك الصلاة وهي عمود الإخلاص للمعبود.

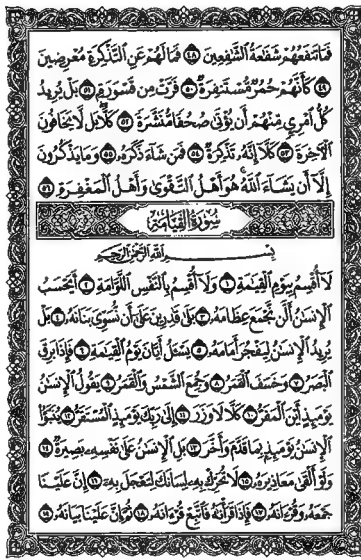
الثانية ترك إطعام المسكين الذي هو من مراتب الإحسان للعبيد فلا إخلاص للخلق ولا إحسان للمخلوق كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)، وقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَاهُونَ﴾، وهذا ضد ما وصف به أصحاب اليمين بقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٢) وقال: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (١١).

الصفة الثالثة والرابعة: الخوض بالباطل، والتكذيب بالحق، فاجتمع لهم عدم الإخلاص والإحسان والخوض بالباطل والتكذيب بالحق، واجتمع لأصحاب اليمين الإخلاص والإحسان والتصديق بالحق والتكلم به، فاستقام إخلاصهم وإحسانهم ويقينهم وكلامهم، واستبدل أصحاب الشمال بالإخلاص شركاً، وبالإحسان إساءة، وباليقين شكاً وتكذيباً، وبالكلام النافع خوفاً في الباطل، فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين.

📖 قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ (٤٩)
 كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ .

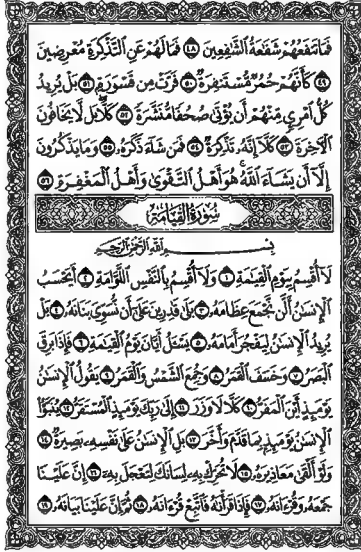
٤- شبههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحمر رأت الأسد أو الرماة ففرت منه، وهذا من بديع القياس والتمثيل، فإن القوم في جهلهم بما بعث الله به رسوله كالحمر، وهي لا تعقل شيئاً، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرمي نفرت منه أشد النفور، وهذا غاية الذم لهؤلاء، فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها،

وتحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة؛ فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضها وحضه على النفور، فإن في الاستفعال من الطلب قدراً زائداً على الفعل المجرد، فكأنها تواصلت بالنفور، وتواطأت عليه، ومن قرأها بفتح الفاء فالمعنى أن القسورة استنفرها وحملها على النفور ببأسه وشدته. (إعلام الموقعين ١/ ٢١٥-٢١٦).



سورة القيامة

قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۖ﴾.



١- نبّه سبحانه بكونها لومة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى من يعرفها الخير والشر ويدلها عليه ويرشدها إليه، ويلهمها إياه، فيجعلها مريدة للخير مرشدة له، كارهة للشر مجانية له، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه، ولأنها متلومة مترددة لا تثبت على حال واحدة، فهي محتاجة إلى من يعرفها ما هو أنفع لها في معاشها ومعادها، فتؤثره وتلوم نفسها عليه إذا فاتها فتتوب منه إن كانت سعيدة، ولتقوم عليها حجة عدله، فيكون لومها في القيامة

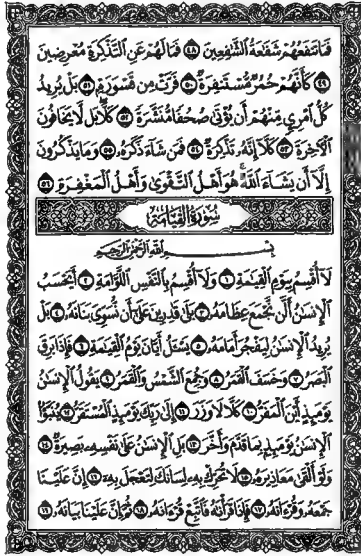
لنفسها عليه لومًا بحق قد أعذر الله خالقها وفاطرها إليها فيه، ففي صفة اللوم تنبيه على ضرورتها إلى التصديق بالرسالة والقرآن، وأنها لا غنى لها عن ذلك، ولا صلاح ولا فلاح بدونه البتة، ولما كان يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتب أثره عليه قرن بينهما في الذكر. (التبيان في أقسام القرآن ١٤-١٨).

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۚ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ ۚ﴾.

٢- في ذكر البنان لطيفة أخرى: وهي أنها أطرافه وآخر ما يتم به خلقه، فمن قدر على جمع أطرافه وآخر ما يتم به خلقه مع دقتها وصغرها ولطافتها، فهو على ما دون ذلك أقدر، فالقوم لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والأرمام، قيل: إنا نجمع

ونسوي أكثرها تفرقاً وأدقها أجزاء، وآخر أطراف
البدن وهي عظام الأنامل ومفاصلها.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۖ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۚ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَى الْمَفْرُ ۙ﴾



٣- ما أجمع هذه السورة لمعاني الجمع والضم،
وقد افتتحت بالقسم بيوم القيامة الذي يجمع الله فيه
بين الأولين والآخرين، وبالنفس اللوامة التي اجتمع
فيها همومها وغموها وإرادتها واعتقاداتها، وتضمنت

ذكر المبدأ والمعاد والقيامة الصغرى والكبرى، وأحوال الناس في المعاد، وانقسام
وجوههم إلى ناظرة منعمة وباسرة معذبة، وتضمنت وصف الروح بأنها جسم يتقل
من مكان إلى مكان، فتجتمع من تفاريق البدن حتى تبلغ التراقي.

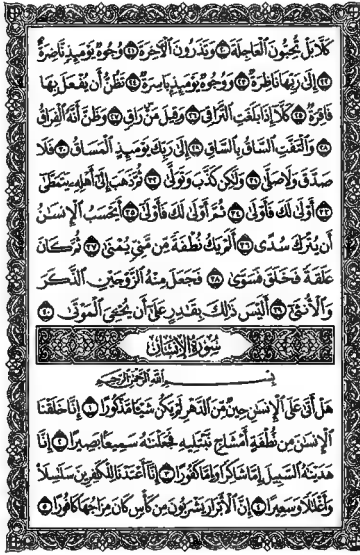
قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۚ﴾

٤- ضمنت التاني والتثبث في تلقي العلم وألا يحمل السامع شدة محبته وحرصه
وطلبه على مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه، بل من آداب الرب التي أدب بها
نبيه أمره بترك الاستعجال على تلقي الوحي، بل يصبر إلى أن يفرغ جبريل من قراءته،
ثم يقرؤه بعد فراغه عليه، فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى
يقضي كلامه، ثم يعيده عليه، أو يسأل عما أشكل عليه منه ولا يبادره قبل فراغه.

وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في ثلاثة مواضع من كتابه، هذا أحدها، والثاني
قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۚ﴾

فَنَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي
عِلْمًا ﴿١١٤﴾، والثالث قوله: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ ﴿٦﴾ فضمن لرسوله ألا ينسى ما أقرأه
إياه، وهذا يتناول القراءة وما بعدها. (البيان في أقسام القرآن ١٤٧-١٦٣).

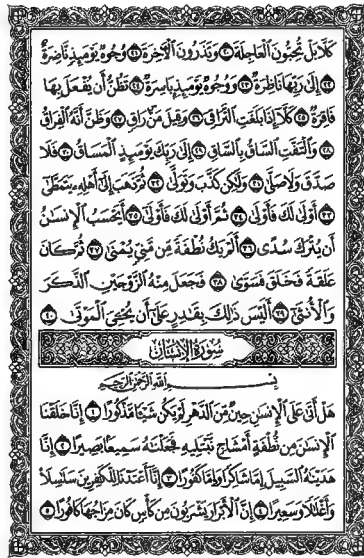
قوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِرُ بِأَمْرِ رَبِّهِ نَاصِرٌ﴾ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾.



٥- إذا أجرت هذه الآية من تحريفها عن مواضعها والكذب على المتكلم بها سبحانه فيما أراده منها، وجدتها منادية نداء صريحا: إن الله سبحانه يرى عيانا بالأبصار يوم القيامة، وإن أبيت إلا تحريفها الذي يسميه المحرفون تأويلا، فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والميزان والحساب أسهل على أربابه من تأويلها وتأويل كل نص تضمنه القرآن والسنة كذلك، ولا يشاء مبطل على وجه الأرض أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأول مثل هذه النصوص، وهذا الذي أفسد الدين والدنيا.

٦- وإضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية وتعديته بأداة (إلى) الصريحة في نظر العين وإخلاء الكلام من قرينة تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدي بـ(إلى) خلاف حقيقته وموضوعه صريح في أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أراد بذلك نظر العين وإخلاء الكلام من قرينة تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدي بـ(إلى) خلاف حقيقته، وموضوعه صريح في أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى نفس الرب جَلَّ جَلَالُهُ. (حادي الأرواح ٢٣٧-٢٣٨).

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣٦).



٧- أنكر على من يحسب ذلك، فدل على أنه قبيح تأباه حكمته وعزته، وأنه لا يليق به، ولهذا استدل على أنه لا يتركه سدى بقوله: ﴿الْوَيْكَ نُطْفَةٌ مِنْ مَنِيِّ يُمْنَى﴾ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) [القيامة: ٣٧] إلى آخر السورة، ولو كان قبحه إنما علم بالسمع، لكان يستدل عليه بأنه خلاف السمع، وخلاف ما أعلمناه وأخبرنا به، ولم يكن إنكاره لكونه قبيحا في نفسه، بل لكونه خلاف ما أخبر به، ومعلوم أن هذا ليس وجه الكلام.

(مدارج السالكين ١/ ٢٣٨).

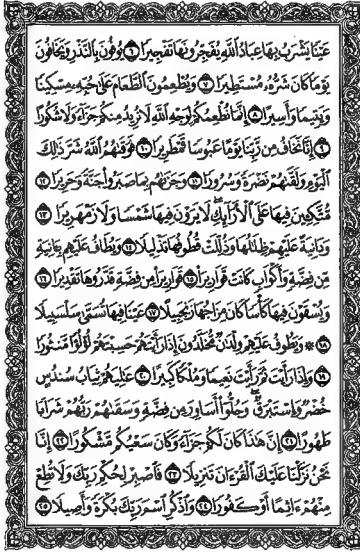
فاحتج سبحانه على أنه لا يترك الإنسان مهملا معطلا عن الأمر والنهي والثواب والعقاب، وأن حكمته وقدرته تأبى ذلك، فإن من نقله من نطفة مني إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم خلقه وشق سمعه وبصره وركب فيه الحواس والقوى والعظام والمنافع والأعصاب والرباطات التي هي أسره وأتقن خلقه وأحكمه غاية الأحكام وأخرجه على هذا الشكل والصورة التي هي أتم الصور وأحسن الأشكال كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرة ثانية أم كيف تقتضي حكمته وعنايته به أن يتركه سدى، فلا يليق ذلك بحكمته ولا تعجز عنه قدرته.

فانظر إلى هذا الحجاج العجيب بالقول الوجيه الذي لا يكون أوجز منه، والبيان الجليل الذي لا يتوهم أوضح منه، ومأخذه القريب الذي لا تقع الظنون على أقرب

منه. (الصواعق المرسله ٤٨٠ - ٤٨١).

سورة الإنسان

📖 قوله تعالى: ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾.



١- يحتمل أن يكون مصدرا كالقعود، وأن يكون جميعا كالبرود والكفور، والشكران خلاف الكفران، وتشكرت له مثل شكرت له، والشكور من الدواب ما يكفيه العلف القليل، واشتكرت السماء اشتد وقع مطرها، واشتكر الضرع امتلا لبنا، تقول منه شكرت الناقة (بالكسر) تشكر شكرا، فهي شكرة، وشكرت الشجرة تشكر شكرا، إذا خرج منها الشكير، وهو ما ينبت حول الشجرة من أصلها.

فتأمل هذا الاشتقاق وطابق بينه وبين الشكر المأمور به وبين الشكر الذي هو جزاء الرب الشكور، كيف نجد في الجميع معنى الزيادة والنماء.

ويقال أيضا: دابة شكور، إذا أظهرت من السمن فوق ما تعطي من العلف.

وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان لا يكون شكورا إلا بمجموعها:

أحدها: اعترافه بنعمة الله عليه.

والثاني: الشاء عليه بها.

والثالث: الاستعانة بها على مرضاته. (عدة الصابرين ١٤٨).

إن الله تعالى وصفهم بالإخلاص وإنهم إنما قصدوا بإطعام الطعام وجهه ولم

يريدوا من المَطْعَمِينَ جزاء ولا شكورا. (بدائع الفوائد ٢/ ٨٤-٨٥).

قوله تعالى: ﴿وَجَزَّيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (١٢).

٢- لما كان في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوى خشونة وتضييق، جازاهم على ذلك نعومة الحرير وسعة الجنة. (روضة المحبين ٤٣٠).

عَيْنَا يُسْرِرُهَا إِلَهُهَا إِذَا تَقَدَّرَ أَنَّهَا تَقْدِيرًا ﴿١٢﴾ وَلَوْ أَنَّ التَّائِبَ لَمْ يَكُنْ
يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَعَارًا ﴿١٣﴾ وَيُطَوِّفُونَ فِيهَا بِمَا شَاءَ يُحِبُّونَ
وَيَسْمَعُونَ فِيهَا لَأَنَافِتِينَ كُورٍ لَوْلَا ذَلِكَ لَفُتِنَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ وَلَا تَكُنْ
كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ إِذَا رَأَوْا مَالَهُمْ خَالَجُوهُ فَلَا يُذَكَّرُونَ ﴿١٥﴾
وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿١٦﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَازِلُ مُتَتَابِعَةٌ
يُخْرِجُونَ فِيهَا زُكُوفَ الشَّمْسِ وَيَجِئُ فِيهَا زُلْزُلَاتُ الْكَوْكَبِ ﴿١٧﴾ وَأَنزِلُ
فِيهَا نُجُومًا مُّتَتَابِعَةً فِيهَا زُكُوفُ الشَّمْسِ وَيَجِئُ فِيهَا زُلْزُلَاتُ الْكَوْكَبِ ﴿١٨﴾
وَيُخْرِجُونَ فِيهَا زُكُوفَ الشَّمْسِ وَيَجِئُ فِيهَا زُلْزُلَاتُ الْكَوْكَبِ ﴿١٩﴾ وَأَنزِلُ
فِيهَا نُجُومًا مُّتَتَابِعَةً فِيهَا زُكُوفُ الشَّمْسِ وَيَجِئُ فِيهَا زُلْزُلَاتُ الْكَوْكَبِ ﴿٢٠﴾
وَيُخْرِجُونَ فِيهَا زُكُوفَ الشَّمْسِ وَيَجِئُ فِيهَا زُلْزُلَاتُ الْكَوْكَبِ ﴿٢١﴾ وَأَنزِلُ
فِيهَا نُجُومًا مُّتَتَابِعَةً فِيهَا زُكُوفُ الشَّمْسِ وَيَجِئُ فِيهَا زُلْزُلَاتُ الْكَوْكَبِ ﴿٢٢﴾
وَيُخْرِجُونَ فِيهَا زُكُوفَ الشَّمْسِ وَيَجِئُ فِيهَا زُلْزُلَاتُ الْكَوْكَبِ ﴿٢٣﴾ وَأَنزِلُ
فِيهَا نُجُومًا مُّتَتَابِعَةً فِيهَا زُكُوفُ الشَّمْسِ وَيَجِئُ فِيهَا زُلْزُلَاتُ الْكَوْكَبِ ﴿٢٤﴾
وَيُخْرِجُونَ فِيهَا زُكُوفَ الشَّمْسِ وَيَجِئُ فِيهَا زُلْزُلَاتُ الْكَوْكَبِ ﴿٢٥﴾ وَأَنزِلُ
فِيهَا نُجُومًا مُّتَتَابِعَةً فِيهَا زُكُوفُ الشَّمْسِ وَيَجِئُ فِيهَا زُلْزُلَاتُ الْكَوْكَبِ ﴿٢٦﴾
وَيُخْرِجُونَ فِيهَا زُكُوفَ الشَّمْسِ وَيَجِئُ فِيهَا زُلْزُلَاتُ الْكَوْكَبِ ﴿٢٧﴾ وَأَنزِلُ
فِيهَا نُجُومًا مُّتَتَابِعَةً فِيهَا زُكُوفُ الشَّمْسِ وَيَجِئُ فِيهَا زُلْزُلَاتُ الْكَوْكَبِ ﴿٢٨﴾
وَيُخْرِجُونَ فِيهَا زُكُوفَ الشَّمْسِ وَيَجِئُ فِيهَا زُلْزُلَاتُ الْكَوْكَبِ ﴿٢٩﴾ وَأَنزِلُ
فِيهَا نُجُومًا مُّتَتَابِعَةً فِيهَا زُكُوفُ الشَّمْسِ وَيَجِئُ فِيهَا زُلْزُلَاتُ الْكَوْكَبِ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُطَوِّفُ عَلَيْهِمْ بِأَنِيَّةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ (١٥) قَوَارِيرًا مِّن فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦).

٣- القوارير هي الزجاج، فأخبر سبحانه وتعالى عن مادة تلك الآنية أنها من الفضة، وأنها بصفاء الزجاج وشفافيته، وهذا من أحسن الأشياء وأعجبها، وقطع سبحانه توهم كون تلك القوارير من زجاج فقال: ﴿قَوَارِيرًا مِّن فِضَّةٍ﴾.

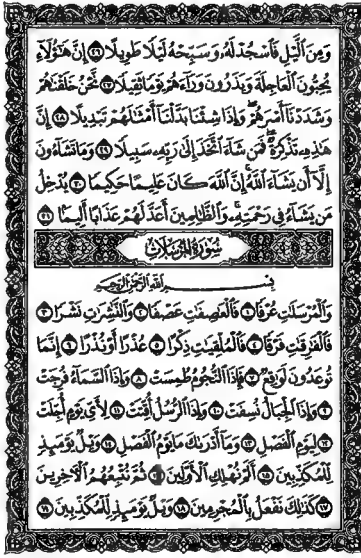
٤- وقوله: ﴿قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ التقدير: جعل الشيء

بقدر مخصوص، فقدرت الصناعات هذه الآنية على قدر ربيهم، لا يزيد عليه ولا ينقص منه، وهذا أبلغ من لذة الشارب، فلو نقص عن ربه لنقص التذاده، ولو زاد حتى يشمئز منه حصل له ملالة وسآمة من الباقي، هذا قول جماعة من المفسرين.

قوله تعالى: ﴿وَيُطَوِّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانِ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْشُورًا﴾ (١١).

٥- شبههم سبحانه باللؤلؤ المنشور لما فيه من البياض وحسن الخلقة، وفي كونه منشورا فائدتان:

إحداهما: الدلالة على أنهم غير معطلين، بل مبثوثون في خدمتهم وحوائجهم.
والثانية: أن اللؤلؤ إذا كان منشورا ولا سيما على بساط من ذهب أو حرير، كان



أحسن لمنظره وأبهى من كونه مجموعا في مكان واحد.

وإذا تأملت لفظة ﴿وَلَدَانِ﴾ ولفظة ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ واعتبرتها بقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غُلَامَانُ لَهُمْ﴾ وضممت ذلك إلى حديث أبي سعيد المذكور آنفا، علمت أن الولدان غلمان أنشأهم الله تعالى في الجنة خدماً لأهلها، والله أعلم. (حادي الأرواح ١٧٥-١٧٧).

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾

٦- تأمل ما دلت عليه لفظة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ من كون ذلك اللباس ظاهراً بارزاً يجمل ظواهرهم ليس بمنزلة شعار الباطن، بل الذي يلبس فوق الثياب للزينة والجمال.

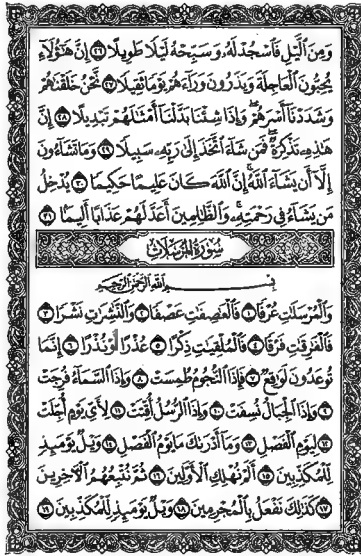
قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾

٧- جمع لهم سبحانه بين الأمرين: أن شكر سعيهم، وأثابهم عليه، والله تعالى يشكر عبده إذا أحسن طاعته، ويغفر له إذا تاب إليه، فيجمع للعبد بين شكره لإحسانه، ومغفرته لإساءته، إنه غفور شكور. (عدة الصابرين ٢٨٠).



سورة المرسلات

قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا ۝١﴾ فَأَلْصَقَتْ عَصْفًا ۝٢﴾ وَالنَّشْرُوتُ نَشْرًا ۝٣﴾ فَأَلْفَرَقَتْ فَرَقًا ۝٤﴾ فَأَلْمَلِيقَتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ عُدْرًا أَوْ نَذْرًا ۝٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفِّعٌ ۝٧﴾ ﴿.



١ - يظهر والله أعلم بما أراد من كلامه أن القسم في هذه الآية وقع على النوعين: الرياح، والملائكة. ووجه المناسبة أن حياة الأرض والنبات وأبدان الحيوان بالرياح، فإنها من روح الله وقد جعلها الله تعالى نشورا، وحياة القلوب والأرواح بالملائكة، فهذه النوعين يحصل نوعا الحياة، ولهذا والله أعلم فصل أحد النوعين من الآخر بالواو، وجعل ما هو تابع لكل نوع بعده بالفاء.

وتأمل كيف وقع القسم في هذه السورة على المعاد والحياة الدائمة الباقية وحال السعداء والأشقياء

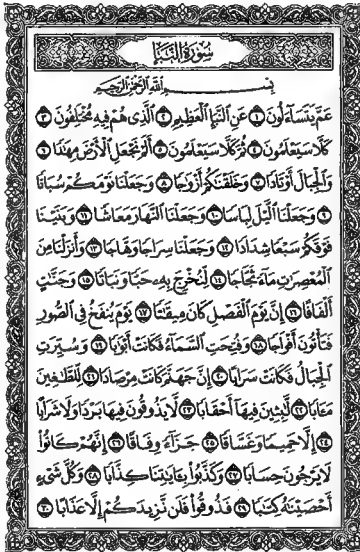
فيها وقررها بالحياة الأولى في قوله: ﴿الَّذِينَ تَخْلَقُكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾ ﴿ فذكر فيها المبدأ والمعاد، وأخلص السورة لذلك، فحسن الإقسام بما يحصل به نوعا الحياة المشاهدة وهو الرياح والملائكة، فكان في القسم بذلك أبين دليل وأظهر آية على صحة ما أقسم عليه وتضمنته السورة؛ ولهذا كان المكذب بعد ذلك في غاية الجحود والعناد والكفر، فاستحق الويل بعد الويل، فتضاعف عليه الويل كما تضاعف منه الكفر والتكذيب.

فلا أحسن من هذا التكرار في هذا الموضع ولا أعظم منه موقعاً، فإنه تكرر عشر مرات ولم يذكر إلا في أثر دليل أو مدلول عليه عقيب ما يوجب التصديق وما يوجب التصديق به، فتأمل. (البيان في أقسام القرآن ١٤٢-١٤٧).

سورة النبأ

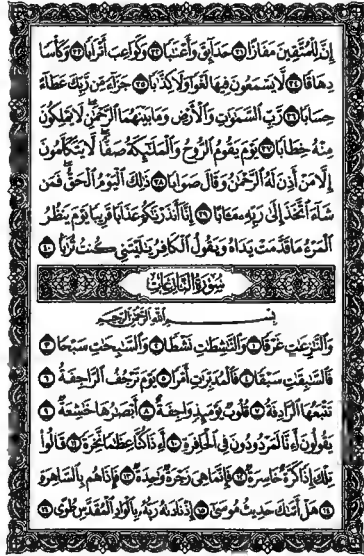
قوله تعالى: ﴿لَيْتَيْنِ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ .

١- لما نفي ذوق البرد والشراب، فربما توهم أنهم لا يذوقون غيرهما، فقال: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ فيكون الاستثناء من عام مقدر. (بدائع الفوائد ٣/ ٧٠).



سورة النازعات

قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرَقًا ۝١﴾ وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ۝٢﴾ وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا ۝٣﴾
فَالسَّيِّغَاتِ سَبْحًا ۝٤﴾ فَأَلْمَدِرَاتِ أَمْرًا ۝٥﴾.



١- هذه خمسة أمور وهي صفات الملائكة.

فأقسم سبحانه بالملائكة الفاعلة لهذه الأفعال؛ إذ ذلك من أعظم آياته، وحذف مفعول النزع والنشط؛ لأنه لو ذكر ما تنزع وتنشط لأوهم التقييد به وأن القسم على نفس الأفعال الصادرة من هؤلاء الفاعلين، فلم يتعلق الغرض بذكر المفعول كقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَّى ۝٥﴾ ونظائره، فكان نفس النزع هو المقصود لا عين المنزوع.

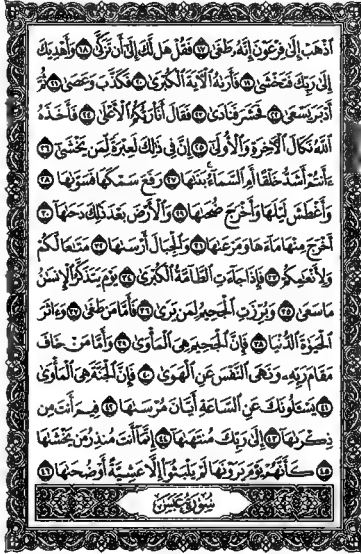
قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ ۝١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَانْحَسِبْ ۝١٩﴾.

٢- في هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه:

أحدهما: إخراج الكلام مخرج العرض، ولم يخرج مخرج الأمر والإلزام وهو اللطف، ونظيره قول إبراهيم لضيفه المكرمين: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ولم يقل: كلوا.

الثاني: قوله: ﴿إِلَى أَنْ تَرْكَبَ﴾ والتزكي: النماء والطهارة والبركة والزيادة، فعرض عليه أمرًا يقبله كل عاقل، ولا يرده إلا كل أحمق جاهل.

الثالث: قوله: ﴿تَرْكَبَ﴾ ولم يقل: أزيك. فأضاف التزكية إلى نفسه، وعلى هذا يخاطب الملوك.

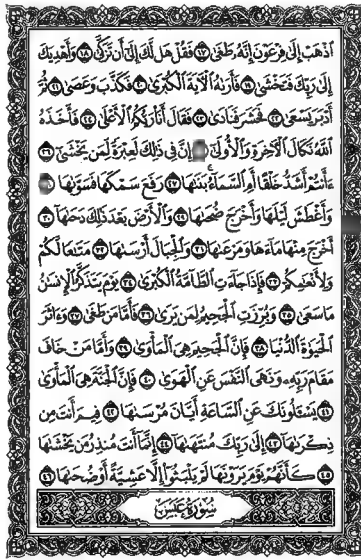


الرابع: قوله: ﴿وَأَهْدِيكَ﴾، أي: أكون دليلاً لك وهادياً بين يديك، فنسب الهداية إليه، والتزكي إلى المخاطب، أي: أكون دليلاً لك وهادياً فتزكى أنت، كما تقول للرجل: هل لك أن أدلك على كثر تأخذ منه ما شئت؟ وهذا أحسن من قوله: أعطيك.

الخامس: قوله: ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾، فإن في هذا ما يوجب قبول ما دل عليه وهو أنه يدعوه ويوصله إلى ربه فاطره وخالقه الذي أوجده ورباه بنعمه حيناً وصغيراً وكبيراً وآتاه الملك وهو نوع من خطاب الاستعطاف والإلزام كما تقول لمن خرج عن طاعة سيده: ألا تطيع سيدك ومولاك ومالكك؟ وتقول للوالد: ألا تطيع أباك الذي رباك؟

السادس: قوله: ﴿فَنَخْشِي﴾، أي: إذا اهتديت إليه وعرفته خشيته؛ لأن من عرف الله خافه، ومن لم يعرفه لم يخفه، فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية.

السابع: أن في قوله: ﴿هَلْ لَكَ﴾ فائدة لطيفة، وهي أن المعنى: هل لك في ذلك حاجة أو أرب؟ ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك؛ لأن الداعي إنما يدعو إلى حاجته ومصلحته لا إلى حاجة الداعي، فكأنه يقول: الحاجة لك وأنت المتزكي، وأنا الدليل لك، والمرشد لك إلى أعظم مصالحك. فقابل هذا بغاية الكفر والعناء، وادعى أنه رب العالمين، هذا وهو يعلم أنه ليس بالذي خلق فسوى، ولا قدر فهدى، فكذب الخبر وعصى الأمر، ثم أدبر يسعى بالخدعة والمكر، فحشر جنوده فأجابوه، ثم نادى فيهم بأنه ربهم الأعلى، واستخفهم فأطاعوه، فبطش به جبار السماوات والأرض



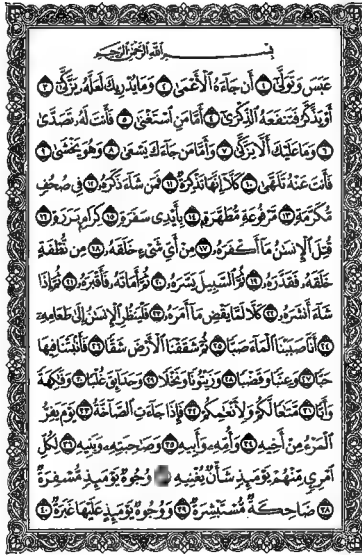
بطشة عزيز مقتدر، وأخذه نكال الآخرة والأولى؛ ليعتبر بذلك من يعتبر، فاعتبر بذلك من خشي ربه من المؤمنين، وحق القول على الكافرين. (البيان في أقسام القرآن ١٣٢-١٤٢).

📖 قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾ (٣٧) ﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (٣٨).

٣- النفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، والرب يدعو عبده إلى خوفه ونهي النفس عن الهوى. والقلب بين الداعيين، يميل إلى هذا الداعي مرة، وإلى هذا مرة، وهذا موضع المحنة والابتلاء. (إغاثة اللهفان ١/ ٧٥).



سورة عبس



قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبَا وَقَضَا (٢٨) وَزَيَّنَّا وَنَحَلًا (٢٩) وَحَدَّائِقَ غُلَبًا (٣٠) وَفَكَهْهَ وَأَبَّا (٣١) مَنَّاعًا لَكُمْ وَلَا نَعْمَكُمْ (٣٢).

١- جعل سبحانه نظره في إخراج طعامه من الأرض دليلا على إخراجِهِ هو منها بعد موته، استدلالا بالنظير على النظير. (إعلام الموقعين ١/١٩٦).



سورة التكويد

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.



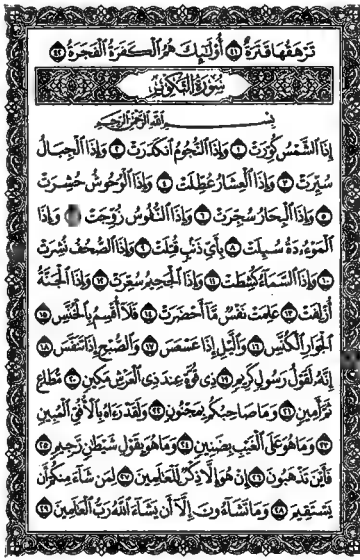
١- وصف رسوله الملكي في هذه السورة بأنه كريم، قوي، مكين عند الرب تعالى، مطاع في السماوات، أمين. فهذه خمس صفات تتضمن تذكيرة سنة القرآن، وأنه سماع محمد من جبريل، وسماع جبريل من رب العالمين، فناهيك بهذا السند علوًا وجلالة قول الله سبحانه بنفسه تزييته.

الصفة الأولى: كون الرسول الذي جاء به إلى محمد كريمًا ليس كما يقول أعداؤه إن الذي جاء به

شيطان، فإن الشيطان خبيث مخبث لئيم قبيح المنظر عديم الخير باطنه أقبح من ظاهره وظاهره أشنع من باطنه وليس فيه ولا عنده خير، فهو أبعد شيء عن الكرم والرسول الذي ألقى القرآن إلى محمد كريم جميل المنظر بهي الصورة كثير الخير طيب مطيب معلم الطيبين وكل خير في الأرض من هدى وعلم ومعرفة وإيمان وبر، فهو مما أجراه ربه على يده وهذا غاية الكرم الصوري والمعنوي.

الوصف الثاني: أنه ذو قوة كما قال في موضع آخر ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾﴾، وفي ذلك تنبيه على أمور:

أحدها: أنه بقوته يمنع الشياطين أن تدنو منه وأن ينالوا منه شيئًا وأن يزدوا فيه أو ينقصوا منه، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه.



الثاني: أنه موال لهذا الرسول الذي كذبتموه

ومعاضد له ومواد له وناصر كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

الثالث: أن من عادى هذا الرسول فقد عادى صاحبه ووليه جبريل ومن عادى ذا القوة والشدة، فهو عرضة للهلاك.

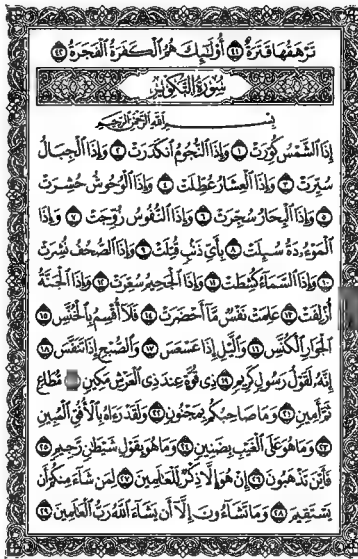
الرابع: أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته فلا يعجز عن ذلك، مؤد له كما أمر به لأمانته، فهو

القوي الأمين وأحدكم إذا انتدب غيره في أمر من الأمور لرسالة أو ولاية أو وكالة أو غيرها فإنما ينتدب لها القوي عليه الأمين على فعله وإن كان ذلك الأمر من أهم الأمور عنده انتدب له قويا أميناً معظماً ذا مكانة عنده مطاعاً في الناس كما وصف الله عبده جبريل بهذه الصفات.

٢- وهذا يدل على عظمة شأن المرسل والرسول والرسالة والمرسل إليه حيث انتدب له الكريم القوي المكين عنده المطاع في الملاء الأعلى الأمين حق الأمين، فإن الملوك لا ترسل في مهماتها إلا الأشراف ذوي الأقدار والرتب العالية.

٣- قوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، أي: له مكانة ووجاهة عنده وهو أقرب الملائكة إليه، وفي قوله: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ إشارة إلى علو منزلة جبريل إذ كان قريباً من ذي العرش سبحانه.

٤- وفي قوله: ﴿مُطَاعٌ﴾، ثم إشارة إلى أن جنوده وأعوانه يطيعونه إذا ندبهم لنصر صاحبه وخليفه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



٥- وفيه إشارة أيضًا إلى أن هذا الذي تكذبونه وتعادونه سيصير مطاعًا في الأرض كما أن جبريل مطاع في السماء وأن كلاً من الرسولين مطاع في محله وقومه، وفيه تعظيم له بأنه بمنزلة الملوك المطاعين في قومهم، فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم إلا مثل هذا الملك المطاع.

٦- وفي وصفه بالأمانة إشارة إلى حفظه ما حمله وأدائه له على وجهه.

٧- ثم نزه رسوله البشري وزكاه عما يقول فيه

أعداؤه فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ (٢٢) وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه وإن قالوا بالسنتهم خلافه فهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْمُبِينِ﴾ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦).

٨- أخبر عن رؤيته لجبريل، وهذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج يرى بالعيان ويدركه البصر لا كما يقول المتفلسفة ومن قلدتهم إنه العقل الفعال، وإنه ليس مما يدرك بالبصر، وحقيقته عندهم أنه خيال موجود في الأذهان لا في الأعيان وهذا مما خالفوا به جميع الرسل وأتباعهم وخرجوا به عن جميع الملل ولهذا كان تقرير رؤية النبي لجبريل أهم من تقرير رؤيته لربه تعالى، فإن رؤيته لجبريل هي أصل الإيمان الذي لا يتم إلا باعتقادها ومن أنكرها كفر قطعاً، وأما رؤيته لربه تعالى فغايتها أن تكون مسألة نزاع لا يكفر جاحداً بالاتفاق. وقد صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره،



وحكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على ذلك، فنحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب أعظم من رؤية جبريل ومن دونه، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها البتة.

٩- قال أبو إسحاق: فأى طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم؟ قلت: هذا من أحسن اللازم وأبينه أن تبين للسامع الحق، ثم تقول له أيش تقول خلاف هذا؟ وأين تذهب خلاف هذا؟

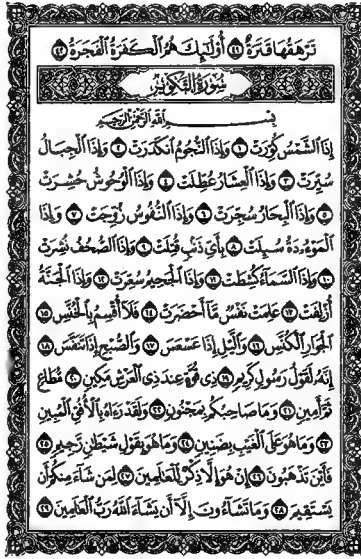
قال تعالى: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ وقال: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَأَعْيُنُهُ يَوْمُونَ﴾ فالأمر منحصر في الحق والباطل والهدى والضلال، فإذا عدلتُم عن الهدى والحق، فأين العدول وأين المذهب؟!

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢٧) ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٩).

١٠- رد على الجبرية القائلين بأن العبد لا مشيئة له أو أن مشيئته مجرد علامة على حصول الفعل لا ارتباط بينها وبينه إلا مجرد اقتران عادي من غير أن يكون سبباً فيه.

١١- وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ رد على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله، بل متى شاء العبد الفعل وجد، ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله بفعل العبد، بل هو يفعله بدون مشيئة الله.

فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين.



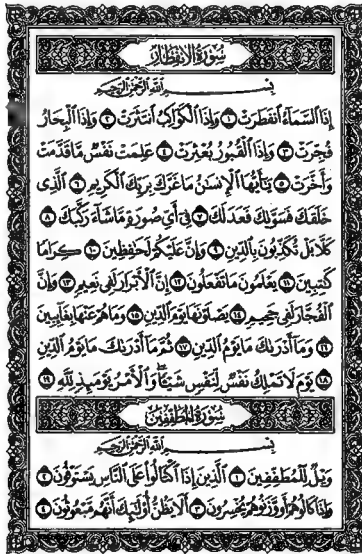
وهاتان الآيتان متضمنتان إثبات الشرع والقدر والأسباب والمسببات وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب ولكل منهما عبودية مختص بها فعبودية الآية الأولى الاجتهاد واستفراغ الوسع والاختيار والسعي، وعبودية الثانية الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه واستنزال التوفيق والعون منه والعلم بأن العبد لا يمكنه أن يشاء ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك.

وقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يتنظم ذلك كله ويتضمنه، فمن عطل أحد الأمرين، فقد جحد كمال الربوبية وعطلها، وبالله التوفيق. (البيان في أقسام القرآن ١١٤-١٣٢).



سورة الانفطار

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْمَلُونَ مَا تَعْمَلُونَ ۝١٢﴾



١- أي استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرمواهم، وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، وإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان يعمل مثل عمله، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين؟! والله المستعان.

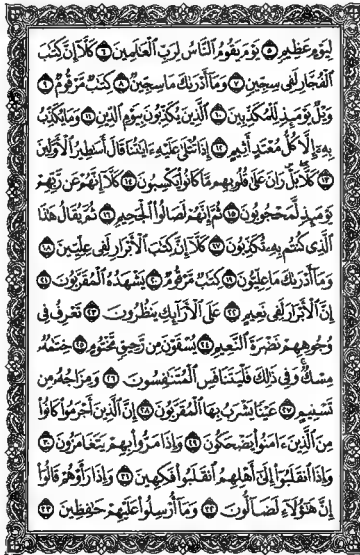
(الجواب الكافي ١٥٩).



سورة المطففين

﴿قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ (١٦)﴾.

١- ووجه الاستدلال بها أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ مِنْ أَعْظَمِ عِقَابِهِ الْكَفَارِ كُونَهُمْ مُحْجُوبِينَ عَنْ رُؤْيَيْهِ وَاسْتِمَاعِ كَلَامِهِ، فَلَوْ لَمْ يَرِهِ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَسْمَعُوا كَلَامَهُ كَانُوا



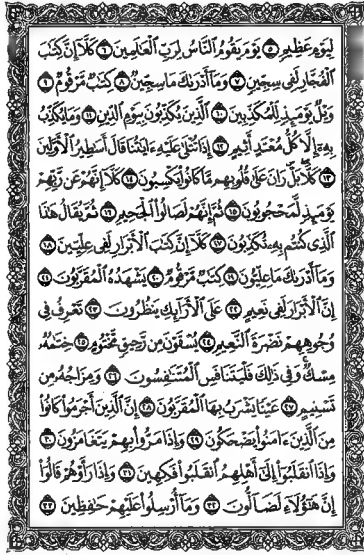
أيضاً مُحْجُوبِينَ عَنْهُ، وَقَدْ احتَجَّ بِهَذِهِ الْحُجَّةِ الشَّافِعِيُّ نَفْسَهُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ فَذَكَرَ الطَّبْرَانِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ الْمِزِّي قَالَ: سَمِعْتُ الشَّافِعِي يَقُولُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (١٥): فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ يَرُونَ رَبَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ الْحَاكِمُ: حَدَّثَنَا الْأَصْمُ، أَنبَأَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سَلِيمَانَ قَالَ: حَضَرْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِدْرِيسَ الشَّافِعِي وَقَدْ جَاءَتْهُ رَقْعَةٌ مِنَ الصَّعِيدِ فِيهَا: مَا تَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (١٥)؟ فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: لِمَا

أَنْ حُجِبَ هَؤُلَاءِ فِي السَّخَطِ، كَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ يَرُونَهُ فِي الرِّضَا. قَالَ الرَّبِيعُ: فَقُلْتُ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ وَبِهِ تَقُولُ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَبِهِ أَدِينُ اللَّهُ، وَلَوْ لَمْ يَوْقِنِ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ أَنَّهُ يَرَى اللَّهَ لِمَا عَبْدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.

ورواه الطبراني في شرح السنة من طريق الأصم أيضاً، وقال أبو زرعة الرازي: سمعت أحمد بن محمد بن الحسين يقول: سئل محمد بن عبد الله بن الحكم: هل يرى الخلق كلهم ربهم يوم القيامة المؤمنون والكفار؟ فقال محمد بن عبد الله: ليس يراه إلا المؤمنون. قال محمد: وسئل الشافعي عن الرؤية، فقال يقول الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (١٥).

رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحُجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ففي هذا دليل على أن المؤمنين لا يحجبون عن الله عَرَجَلٌ.
(حادي الأرواح ٢٣٤).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّاتٍ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾.



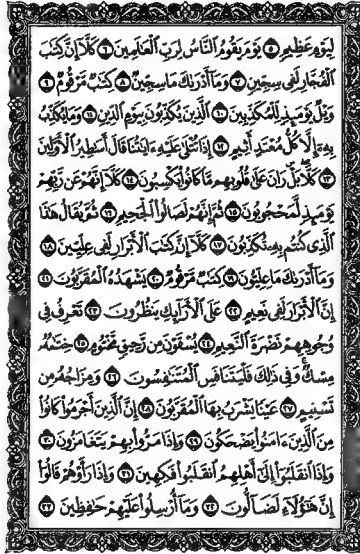
٢- أخبر الله تعالى أن كتابهم كتاب مرقوم تحقيقاً لكونه مكتوباً كتابة حقيقية وخص تعالى كتاب الأبرار بأنه يكتب ويوقع لهم به بمشهد المقربين من الملائكة والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسادات المؤمنين، ولم يذكر شهادة هؤلاء لكتاب الفجار تنويعاً بكتاب الأبرار وما وقع لهم به وإشهاراً له وإظهاراً بين خواص خلقه كما تكتب الملوك تواقع من تعظمه بين الأمراء وخواص أهل المملكة تنويعاً باسم المكتوب له وإشادة بذكره وهذا نوع من صلاة الله سبحانه وتعالى وملائكته على عبده. (طريق الهجرتين ١٨٠-١٨١).

فهؤلاء الأبرار المقتصدون، وأخبر أن المقربين يشهدون كتابهم -أي يكتب بحضرتهم ومشهدهم- لا يغيبون عنه، اعتناء به وإظهاراً للكرامة صاحبه ومنزلته عند ربه.

قوله تعالى: ﴿وَمَزَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

٣- التسنيم أعلى أشربة الجنة، فأخبر سبحانه أن مزاج شراب الأبرار من التسنيم، وأن المقربين يشربون منه بلا مزاج، ولهذا قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٨] كما قال تعالى في سورة الإنسان سواء.

قال ابن عباس وغيره: يشرب بها المقربون صرفاً، ويمزج لأصحاب اليمين مزجاً، وهذا لأن الجزاء وفاق العمل، فكما خلصت أعمال المقربين كلها لله خلص شرابهم، وكما مزج الأبرار الطاعات بالمباحات مزج لهم شرابهم، فمن أخلص أخلص شرابه، ومن مزج مزج شرابه. (طريق الهجرتين ١٨٠ - ١٨١).



قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۚ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۚ﴾.

٤- تأمل كيف قابل سبحانه ما قاله الكفار في أعدائهم في الدنيا وسخروا به منهم، بضده في القيامة، فإن الكفار كانوا إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ۚ﴾ [المطففين: ٣٢].

فقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ

يَضْحَكُونَ ۚ﴾ [المطففين: ٣٤] مقابلة لتغامزهم وضحكهم منهم، ثم قال: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۚ﴾ فأطلق النظر، ولم يقيده بمنظور دون منظور، وأعلى ما نظروا إليه وأجله وأعظمه هو الله سبحانه. والنظر إليه أجل أنواع النظر وأفضلها، وهو أعلى مراتب الهداية، فقابل بذلك قولهم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ۚ﴾ [المطففين: ٣٢].

فالنظر إلى الرب سبحانه مراد من هذين الموضعين ولا بد، إما بخصوصه، وإما بالعموم والإطلاق، ومن تأمل السياق لم يجد الآيتين تحتملان غير إرادة ذلك، خصوصاً أو عموماً. (إغاثة اللهفان ٣٢ - ٣٣).



سورة البروج

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمَ الْوَعْدِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ قُلْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ ﴿



١- إن قيل: فما وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها؟ قيل: هي بحمد الله في غاية الارتباط، والإقسام بها متناول لكل موجود في الدنيا والآخرة، وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وإلهيته، فأقسم بالعالم العلوي وهي السماء وما فيها من البروج التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها، ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدرًا الذي هو مظهر ملكه وأمره ونهيه وثوابه وعقابه ومجمع أوليائه وأعدائه والحكم

بينهم بعلمه وعدله، ثم أقسم بما هو أعم من ذلك كله وهو الشاهد والمشهد وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود الذين عذبوا أوليائه وهم شهود على ما يفعلون بهم، والملائكة شهود عليهم بذلك، والأنبياء وجوارحهم تشهد به عليهم، وأيضًا فالشاهد هو المطلع والرقيب والمخبر، والمشهد هو المطلع عليه المخبر به المشاهد.

والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنيًا عن الجواب؛ لأن القصة التنبيه على المقسم به، وأنه من آيات الرب العظيمة ويبعد أن يكون الجواب ﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ الذين فتنوا أوليائه وعذبوهم بالنار ذات الوقود. (بدائع الفوائد ٤٢/٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنُّوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠﴾



٢- أخبر سبحانه أنه أعد لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق حيث لم يتوبوا، وأنهم لو تابوا بعد أن فتنوا أوليائه وعذبوهم بالنار لغفر لهم ولم يعذبهم، وهذا غاية الكرم والجود. قال الحسن: انظروا إلى هذا الكرم والجود.

فلا ييأس العبد من مغفرته وعفوه ولو كان منه ما كان، فلا عداوة أعظم من هذه العداوة، ولا أكره ممن حرق بالنار من آمن بالله وحده وعبدته وحده، ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم وألحقهم بأوليائه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(١١) ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ^(١٢) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ^(١٣) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ^(١٤) وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ^(١٥)

٣- ما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه ويحبه مع ذلك، فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبه ولو كان منه ما كان.

قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾^(١٥)

٤- قال: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ فأضاف العرش إلى نفسه كما تضاف إليه الأشياء العظيمة الشريفة، وهذا يدل على عظمة العرش وقربه منه سبحانه واختصاصه به، بل يدل على غاية القرب والاختصاص كما يضيف إلى نفسه بـ(ذو) صفاته القائمة به كقوله: ذو

القوة، ذو الجلال والإكرام. ويقال: ذو العزة، وذو الملك، وذو الرحمة، ونظائر ذلك، فلو كان حظ العرش منه حظ الأرض السابعة، لكان لا فرق أن يقال، ذو العرش، وذو الأرض.



﴿قوله تعالى: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (١٦)﴾

٥- دليل على أمور:

أحدها: أنه سبحانه يفعل بإرادته ومشيئته.

الثاني: أنه لم يزل كذلك لأنه لم يزل، كذلك لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه وأن ذلك من كماله سبحانه، فلا يجوز أن يكون عادماً لهذا الكمال في وقت من الأوقات وقد قال تعالى:

﴿أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٧) وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثاً بعد أن لم يكن.

الثالث: أنه إذا أراد شيئاً فعله، فإن (ما) موصولة عامة، أي: يفعل كل ما يريد أن يفعله وهذا في إرادته المتعلقة بفعله.

الرابع: أن فعله سبحانه وإرادته متلازمان فما أراد أن يفعله فعله وما فعله فقد أراد به بخلاف المخلوق، فإنه يريد ما لا يفعل وقد يفعل ما لا يريد فما، ثم فعال لما يريد إلا الله وحده.

الخامس: إثبات إرادة متعددة بحسب الأفعال وأن كل فعل له إرادة تخصه وهذا هو المعقول في الفطر وهو الذي يعقله الناس من الإرادة فشأنه تعالى أنه يريد على الدوام ويفعل ما يريد.

السادس: أن كل ما صلح أن تتعلق به إرادته جاز فعله، فإذا أراد أن ينزل كل ليلة



إلى سماء الدنيا وأن يجيء يوم القيامة لفصل القضاء وأن يري نفسه لعباده وأن يتجلى لهم كيف شاء وأن يخاطبهم ويضحك إليهم وغير ذلك مما يريد سبحانه لم يمتنع عليه فعله، فإنه فعال لما يريد، وإنما تتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به، فإذا أخبر به وجب التصديق به، وكان رده ردًّا لكماله الذي أخبر به عن نفسه وهذا عين الباطل، وكذلك إذا أمكن إرادته سبحانه محو ما شاء وإثبات ما شاء أمكن فعله وكانت الإرادة والفعل من مقتضيات كماله المقدس.

قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١١﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿١٢﴾﴾.

٦- أخبر عن أعدائه بأنهم مكذبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم في قبضته وهو محيط بهم ولا أسوأ حالاً ممن عادى من هو في قبضته ومن هو قادر عليه من كل وجه وبكل اعتبار.

فهذا أعجب، عجب ممن كفر بمن هو محيط به وأخذ بناصيته قادر عليه.

قوله تعالى: ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿١٣﴾﴾.

٧- أكثر القراء على الجبر صفة اللوح، وفيه إشارة إلى أن الشياطين لا يمكنهم التنزل به؛ لأن محله محفوظ أن يصلوا إليه وهو في نفسه محفوظ أن يقدر الشيطان على الزيادة فيه والنقصان، فوصفه سبحانه بأنه محفوظ في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ



وَأَنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩٩﴾ ووصف محله بالحفظ في هذه
السورة، فالله سبحانه حفظ محله وحفظه من الزيادة
والنقصان والتبديل، وحفظ معانيه من التحريف كما
حفظ ألفاظه من التبديل، وأقام له من يحفظ حروفه
من الزيادة والنقصان ومعانيه من التحريف والتغيير.
(التيبان في أقسام القرآن ٨٨ - ٩٩).



سورة الطارق

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۖ﴾ ﴿٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ ۝



١- نبه سبحانه بكونه دافقاً على أنه ضعيف غير متماسك، ثم ذكر محله الذي يخرج منه وهو بين الصلب والترائب. قال ابن عباس: صلب الرجل وترائب المرأة وهو موضع القلادة من صدرها والولد يخلق من المائتين جميعاً. وقيل: صلب الرجل وترائبه وهي صدره فيخرج من صلبه وصدره وهذه الآية الدالة على قدرة الخالق سبحانه نظير إخراجة اللبن الخالص من بين الفرث والدم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجِيعِهِ لَقَادِرٌ ۖ﴾ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرَ ﴿١٠﴾ ۝

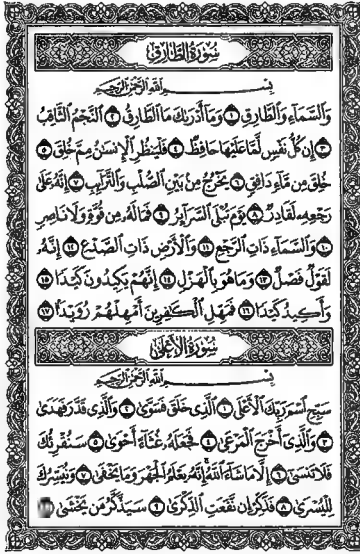
٢- في التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة، وهو أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة، فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحاً فتبدو سريرته على وجهه نوراً وإشراقاً وحياء، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعاً لسريرته لا اعتبار بصورته فتبدو سريرته على وجهه سواداً وظلمة وشيناً وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته ويكون الحكم والظهور لها، قال الشاعر:

فإن لها في مضمهر القلب والحشا سريرة حب يوم تبلى السرائر

سورة الأعلى

قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي

أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) ﴿



١- إن قيل: فما الفائدة في دخول الباء في قوله: ﴿سَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦) ولم تدخل في قوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) قيل: التسييح يراد به التنزيه والذكر المجرد دون معنى آخر ويراد به ذلك مع الصلاة وهو ذكر وتنزيه مع عمل، ولهذا تسمى الصلاة تسييحاً، فإذا أريد التسييح المجرد فلا معنى للباء؛ لأنه لا يتعدى بحرف جر، لا تقول: سبحت بالله، وإذا أردت المقرون بالفعل وهو الصلاة أدخلت

الباء تنبيهاً على ذلك المراد كأنك قلت سبح مفتتحاً باسم ربك أو ناطقاً باسم ربك كما تقول صل مفتتحاً أو ناطقاً باسمه.

ولهذا السر والله أعلم دخلت اللام في قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والمراد التسييح الذي هو السجود والخضوع والطاعة ولم يقل في موضع سبح الله ما في السماوات والأرض كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥]. وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]. فكيف قال ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ لما ذكر السجود باسمه الخاص، فصار التسييح ذكرهم له وتنزيههم إياه. (بدائع الفوائد ١/ ٢٠).

سورة الفجر



قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ ۝٣ وَالْوَتْرِ ۝٤ إِذَا يَسَّرَ ۝٥ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۝٦

١- عَرَّفَ الفجر باللام إذ كل أحد يعرفه، ونكَّر الليالي العشر لأنها إنما تعرف بالعلم وأيضًا فإن التنكير تعظيم لها، فإن التنكير يكون للتعظيم.

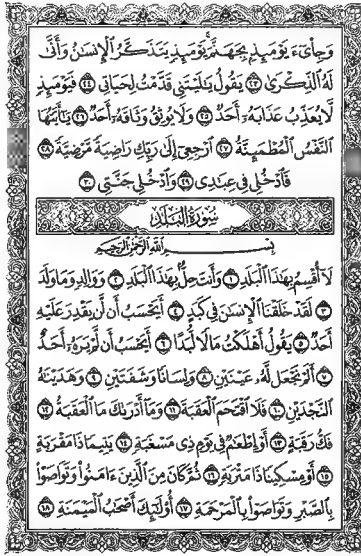
وفي تعريف الفجر ما يدل على شهرته، وأنه الفجر الذي يعرفه كل أحد ولا يجهله.

٢- فلما تضمن هذا القسم ما جاء به إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم كان في ذلك ما دل على المقسم عليه ولهذا اعتبر القسم بقوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۝٦﴾، فإن عظمة هذا المقسم به يعرف بالنبوة وذلك يحتاج إلى حجر بحجر صاحبه عن الغفلة واتباع الهوى ويحمله على اتباع الرسل لئلا يصيبه ما أصاب من كذب الرسل كعاد وفرعون وثمود.

٣- وتضمنت هذه السورة ذم من اغتر بقوته وسلطانه وماله وهم هؤلاء الأمم الثلاثة قوم عاد اغتروا بقوتهم وثمود اغتروا بجنانهم وعيونهم وزروعهم وبساتينهم وقوم فرعون اغتروا بالمال والرياسة فصارت عاقبتهم إلى ما قص الله علينا. (التيان في أقسام القرآن ٢٧-٣٣).

سورة البلد

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ٥ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بُدَا ٦﴾ ٦ ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ ٧ .

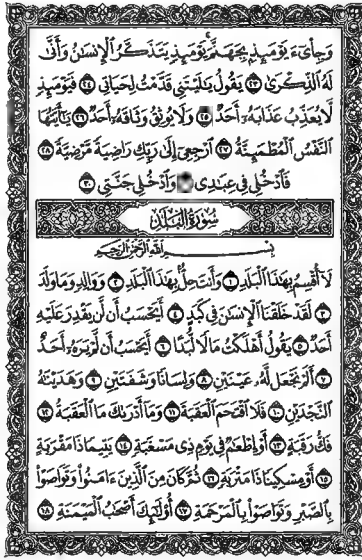


١- أنكر سبحانه على الإنسان قوله: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بُدَا ٦﴾ وهو الكثير الذي يلبد بعضه فوق بعض فافتخر هذا الإنسان بإهلاكه وإنفاقه في غير وجهه إذ لو أنفق في وجوه التي أمر بإنفاقه فيها ووضع مواضعه لم يكن ذلك إهلاكاً له، بل تقريباً به إلى الله وتوصلاً به إلى رضاه وثوابه، وذلك ليس بإهلاك له، فأنكر سبحانه افتخاره وتبجحه بإنفاق المال في شهواته وأغراضه التي إنفاقه فيها إهلاك له.

٢- ثم وبخه بقوله: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ٧﴾ وأتى بها هنا بـ(لم) الدالة على الماضي في مقابلة قوله: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بُدَا ٦﴾، فإن ذلك في الماضي أفيحسب أن لم يره أحد فيما أنفق وفيما أهلكه؟

٣- ثم ذكر برهاناً مقدراً أنه سبحانه أحق بالرؤية وأولى من هذا العبد الذي له عينان يبصر بهما، فكيف يعطيه البصر من لم يره، وكيف يعطيه آلة البيان من الشفتين واللسان فينطق ويبين عما في نفسه ويأمر وينهى من لا يتكلم ولا يكلم ولا يخاطب ولا يأمر ولا ينهى وهل كمال المخلوق مستفاد إلا من كمال خالقه ومن جعل غيره عالماً بنجدي الخير والشر وهما طريقاهما، أليس هو أولى وأحق بالعلم منه ومن هده

إلى هذين الطريقين كيف يليق به أن يتركه سدى لا يعرفه ما يضره وما ينفعه في معاشه ومعاده، وهل النبوة والرسالة إلا لتكميل هداية النجدين، فدل هذا كله على إثبات الخالق وصفات كماله وصدق رسله ووعدده.

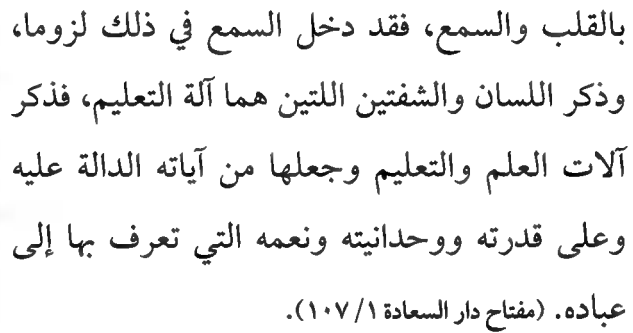


٤- والناس قسمان: ناج وهو من قطع العقبة وصار وراءها، وهالك وهو من دون العقبة وهم أكثر الخلق، ولا يفتحهم هذه العقبة إلا المضمرون، فإنها عقبة كؤود شاقة لا يقطعها إلا خفيف الظهر وهم أصحاب الميمنة. والهالكون دون العقبة الذين لم يصدقوا الخبر ولم يطيعوا الأمر فهم ﴿أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾.

قد أطبقت عليهم فلا يستطيعون الخروج منها كما أطبقت عليهم أعمال الغي والاعتقادات الباطلة المنافية لما أخبرت به رسله، فلم تخرج قلوبهم منها كذلك أطبقت عليهم هذه النار فلم تستطع أجسامهم الخروج منها. فتأمل هذه السورة على اختصارها وما اشتملت عليه من مطالب العلم والإيمان، وبالله التوفيق.

📖 قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾.

٥- ذكر هنا العينين التي يبصر بهما فيعلم المشاهدات وذكر هداية النجدين وهما طريقا الخير والشر، وفي ذلك حديث مرفوع ومرسل وهو قول أكثر المفسرين وتدل عليه الآية الأخرى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (٢٠) والهداية تكون



قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ (١١)

[illegible]

٢- قلت: وقد يظهر في تخصيص ثمود ما هنا بالذكر دون غيرهم معنى آخر، وهو أنهم ردوا الهدى بعدما تيقنوه وكانوا مستبصرين به قد ثلجت له صدورهم واستيقظت له أنفسهم، فاختاروا عليه العمى والضلالة كما قال تعالى: ﴿فِي وَصْفِهِمْ﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴿٢٠﴾ وقال: ﴿وَأَيْنَا ثَمُودُ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾، أي: موجبة

لهم التبصرة واليقين وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم، فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها، لكن خصت ثمود من ذلك الهدى والبصيرة بمزيد، ولهذا لما قرئهم بقوم عاد قال: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مَنَاوَةٌ﴾، ثم قال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ ولهذا أمكن عادا المكابرة وأن يقولوا النبيهم: ﴿مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ ولم يمكن ذلك ثمود وقد رأوا البينة عيانا وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر، فردوا الهدى بعد تيقنه والبصيرة التامة، فكان في تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه، وهذا داء أكثر الهالكين، وهو أعم الأدواء وأغلبها على أهل الأرض، والله أعلم.

(التيبان في أقسام القرآن ١٨ - ٢٧).

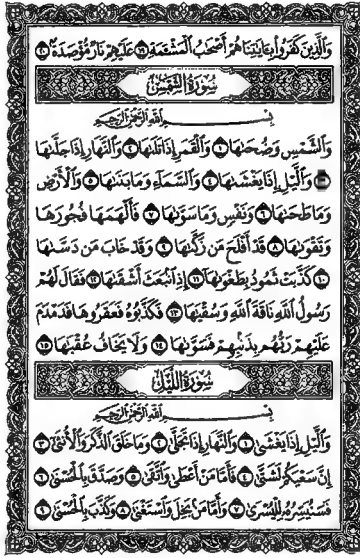
قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ ١٥.

٣- نفى عن نفسه خوف عاقبة ما فعله من إهلاك أعدائه بخلاف المخلوق، فإنه إذا انتقم من عدوه يخاف عاقبة ذلك، إما من الله وإما من المنتصرين لعدوه، وذلك على الله محال والخوف يتضمن نقصان العلم والقدرة والإرادة، فإن العالم بأن الشيء

لا يكون لا يخافه والعالم بأنه يكون ولا بد قد يئس من النجاة منه فلا يخاف، وإن خاف فخوفه دون خوف الراجي، وأما نقص القدرة فلأن الخائف من الشيء هو الذي لا يمكنه دفعه عن نفسه، فإذا تيقن أنه قادر على دفعه لم يخفه.

وأما نقص الإرادة فلأن الخائف يحصل له الخوف بدون مشيئته واختياره، وذلك محال في حق من هو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، ومن لا يكون شيء





إلا بمشيئته وإرادته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهذا لا ينافي كراهته سبحانه وبغضه وغضبه، فإن هذه الصفات لا تستلزم نقصاً لا في علمه ولا في قدرته ولا في إرادته، بل هي كمال؛ لأن سببها العلم بقبح المكروه المبغوض المغضوب عليه، وكلما كان العلم بحاله أهم، كانت كراهته وبغضه أقوى، ولهذا يشتد غضبه سبحانه على من قتل نبيه أو قتله نبيه.

(الصواعق المرسلة ١/ ١٤٤٤-١٤٤٥).



سورة الليل



قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَافَىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَىٰ ۝٤﴾

١- لفظ السعي هو العمل لكن يراد به العمل الذي يهتم به صاحبه ويجهده فيه بحسب الإمكان، فإن كان يفتقر إلى عدو بدنه عدا، وإن كان يفتقر إلى جمع أعوانه جمع، وإن كان يفتقر إلى تفرغ له وترك غيره فعل ذلك، فلفظ السعي في القرآن جاء بهذا الاعتبار ليس هو مرادفًا للفظ العمل كما ظنه طائفة، بل هو

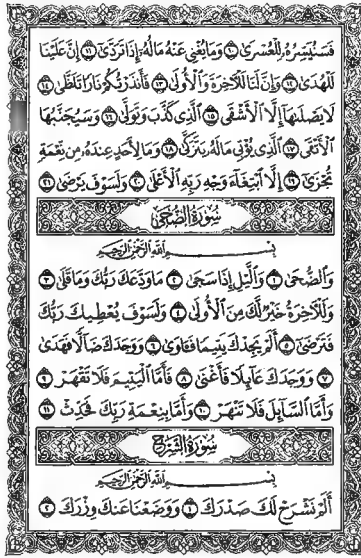
عمل مخصوص يهتم به صاحبه ويجهده فيه، ولهذا قال في الجمعة: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. (التبيان في أقسام القرآن ٦-٧).

٢- فهو سبحانه يقسم بالليل في جميع أحواله إذ هو من آياته الدالة عليه، فأقسم به وقت غشيانه وأتى بصيغة المضارع لأنه يغشى شيئًا بعد شيء، وأما النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَلَّ وَاسْتَفْتَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾

٣- تضمنت الآيتان ذكر شرعه وذكر الأعمال وجزائها وحكمة القدر في تيسير هذا اليسرى وهذا للعسرى وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها ولا يظلم ربك أحدًا، وذكر للتيسير اليسرى ثلاثة أسباب:

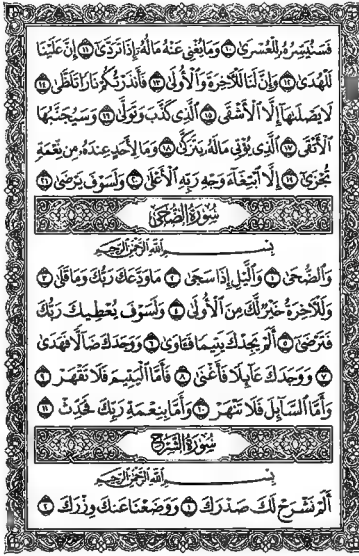
أحدها: إعطاء العبد وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم، أي: أعطى ما أمر به وسمحت به طبيعته وطاوعته نفسه وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان



والطاعة والإخلاص والتوبة والشكر وإعطاء الإحسان والنفع بماله ولسانه وبدنه ونيته وقصده فتكون نفسه نفساً مطيعة باذلة لا لثيمة مانعة فالنفس المطيعة هي النافعة المحسنة التي طبعها الإحسان وإعطاء الخير اللازم والمتعدي فتعطي خيراً لنفسها ولغيرها فهي بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشرهم منها وسقي دوابهم وأنعامهم وزرعهم فهم ينتفعون بها كيف شاءوا فهي ميسرة لذلك وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل فجزاء هذا أن ييسره الله ليسرى كما كانت نفسه ميسرة للعطاء.

السبب الثاني: التقوى وهي اجتناب ما نهى الله عنه وهذا من أعظم أسباب التيسير وضده من أسباب التعسير فالمتقي ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته وتارك التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا فلو اتقى الله لكان تيسيرها عليه أتم ولو قدر أنها لم تيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقى، فإن طيب العيش ونعيم القلب ولذة الروح وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات.

السبب الثالث: التصديق بالحسنى وفسرت بلا إله إلا الله وفسرت بالجنة وفسرت بالخلف وهي أقوال السلف واليسرى صفة لموصوف محذوف، أي: الحالة والخلة



اليسرى وهي فعلى من اليسرى والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال وأفضل الجزاء.

٤- وتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث وهي الإعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى من العلم والعمل وتضمنته من الهدى ودين الحق، فإن النفس لها ثلاث قوى قوة البذل والإعطاء وقوة الكف والامتناع وقوة الإدراك والفهم ففيها قوة العلم والشعور ويتبعها قوة الحب والإرادة وقوة البغض والنفرة.

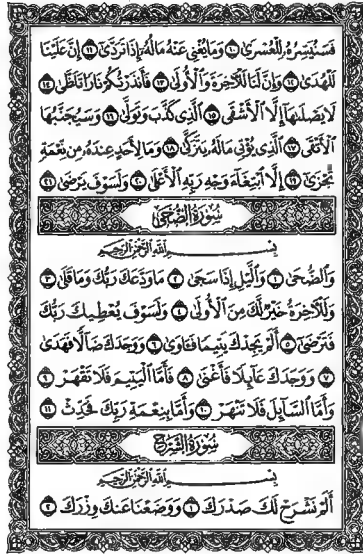
فهذه القوى الثلاث عليها مدار صلاحها وسعادتها وبفسادها يكون فسادها وشقاوتها ففساد قوة العلم والشعور يوجب له التكذيب بالحسنى وفساد قوة الحب والإرادة يوجب له ترك الإعطاء وفساد قوة البغض والنفرة يوجب له ترك الاتقاء، فإذا كملت قوة حبه وإرادته بإعطائه ما أمر به وقوة بغضه ونفرته باتقائه ما نهى عنه وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الإسلام وحقوقها وجزائها فقد زكى نفسه وأعدّها لكل حالة يسرى فصارت النفس بذلك ميسرة لليسرى.

٥- والتيسير لليسرى يكون بأمرين:

أحدهما: أن يحول بينه وبين أسباب الخير فيجري الشر على قلبه ونيته ولسانه وجوارحه.

والثاني: أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر كما حال بينه وبين أسبابه، فإن قيل كيف قابل اتقى بـ«استغنى» وهل يمكن العبد أن يستغنى عن ربه طرفة عين؟

قيل: هذا من أحسن المقابلة، فإن المتقي لما استشعر فقره وفاقته وشدة حاجته إلى ربه اتقاه ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته بارتكاب ما نهاه عنه، فإن من كان شديد الحاجة والضرورة إلى شخص، فإنه يتقي غضبه وسخطه عليه غاية الاتقاء ويجانب ما يكرهه غاية المجانبة ويعتمد فعل ما يحبه ويؤثره.



فقابل التقوى بالاستغناء تبشيعاً لحال تارك التقوى ومبالغة في ذمه بأن فَعَلَ فِعْلَ المستغني عن ربه لا فِعْلَ الفقير المضطر إليه الذي لا ملجأ له إلا إليه ولا غنى له عن فضله وجوده وبره طرفة عين، فله ما أحلى هذه المقابلة! وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها والشروع كلها وأسبابها! فسبحان من تعرف إلى خصائص عبادته بكلامه وتجلي لهم فيه فهم لا يطلبون أثراً بعد عين ولا يستبدلون الحق بالباطل والصدق باليمين.

٦- فإن قيل: فالإعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى هي من اليسرى، بل هي أصل اليسرى من يسرها للعبد أولاً وكذلك أضدادها.

قيل: الله سبحانه هو الذي يسر للعبد أسباب الخير والشر وخلق خلقه قسمين: أهل سعادة فيسرهم لليسرى، وأهل شقاوة فيسرهم للعسرى. واستعمل هؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها، وهؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها، وحكمته الباهرة تأبى أن يضع عقوبته في موضع لا تصلح له كما يأبى أن يضع كرامته وثوابه في محل لا يصلح لهما ولا يليق بهما، بل حكمة آحاد خلقه تأبى ذلك ومن جعل محل المسك والرجيع واحداً، فهو من أسفه السفهاء.



قوله تعالى: ﴿إِنْ عَيْنَا لِلْهَدَىٰ (١٢) وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (١٣)﴾.

٧- فتضمنت الآيتان أربعة أمور هي المطالب العالية ذكر أعلى الغايات وهو الوصول إلى الله سبحانه وأقرب الطرق والوسائل إليه وهي طريقة الهدى وتوحيد الطريق فلا يعدل عنها إلى غيرها وتوحيد المطلوب وهو الحق فلا يعدل عنه إلى غيره فاقتبس هذه الأمور من مشكاة هذه الكلمات، فإن هذه غاية العلم والفهم، وبالله التوفيق.

والهدى التام يتضمن توحيد المطلوب وتوحيد الطلب وتوحيد الطريق الموصلة والانقطاع وتخلف الوصول يقع من الشركة في هذه الأمور أو في بعضها فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد والإخلاص والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة والشركة في الطريق تنافي اتباع الأمر فالأول يوقع في الشرك والرياء والثاني يوقع في المعصية والبطالة والثالث يوقع في البدعة ومفارقة السنة فتأمله.

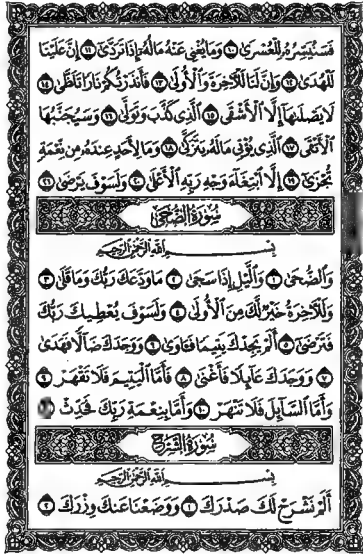
فتوحيد المطلوب يعصم من الشرك وتوحيد الطلب يعصم من المعصية وتوحيد الطريق يعصم من البدعة والشیطان إنما ينصب فخه بهذه الطرق الثلاثة.

قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠)﴾.

٨- في الآية الإرشاد إلى أن صاحب التقوى لا ينبغي له أن يتحمل من الخلق ونعمهم وإن حمل منهم شيئاً بادر إلى جزائهم عليه لئلا يتبقى لأحد من الخلق عليه

نعمة تجزى فيكون بعد ذلك عمله كله لله وحده ليس للمخلوق جزاء على نعمته.

٩- ونبه بقوله: ﴿تَجْزَى﴾ على أن نعمة الإسلام التي لرسول الله على هذا الأتقى لا تجزى، فإن كل ذي نعمة يمكن جزاء نعمته إلا نعمة الإسلام فإنها لا يمكن المنعم بها عليه أن يجزى بها وهذا يدل على أن الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أول وأولى من ذكر في هذه الآية، وأنه أحق الأمة بها، فإن علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تربي في بيت النبي، فلرسول الله عنده نعمة غير نعمة الإسلام يمكن أن تجزى.



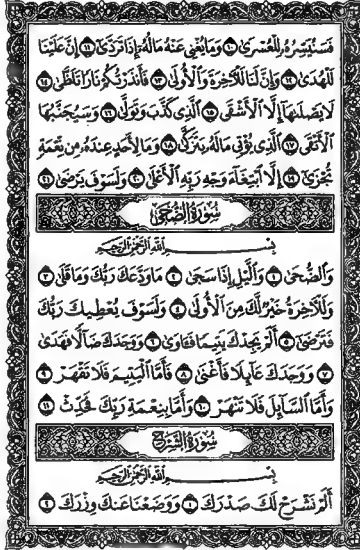
١٠- ونبه سبحانه بقوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾

﴿٢٠﴾ على أن من ليس لمخلوق عليه نعمة تجزى، لا يفعل ما يفعله إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، بخلاف من تطور نعم المخلوقين ومنهم، فإنه مضطر إلى أن يفعل لأجلهم ويترك لأجلهم، ولهذا كان من كمال الإخلاص ألا يجعل العبد عليه منة لأحد من الناس

لتكون معاملته كلها لله ابتغاء وجهه وطلب مرضاته، فكما أن هذه الغاية أعلى الغايات وهذا المطلوب أشرف المطالب، فهذا الطريق أقصد الطرق إليه وأقربها وأقومها، وبالله التوفيق. (التيبان في أقسام القرآن ٥٥-٧٢).



سورة الضحى



قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ .

١- أقسم بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته وحكمته ورحمته وهما الليل والنهار، فتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه ودَّع محمداً ربُّه فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه وأيضاً، فإن فالتق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، فهذان للحس، وهذان للعقل.

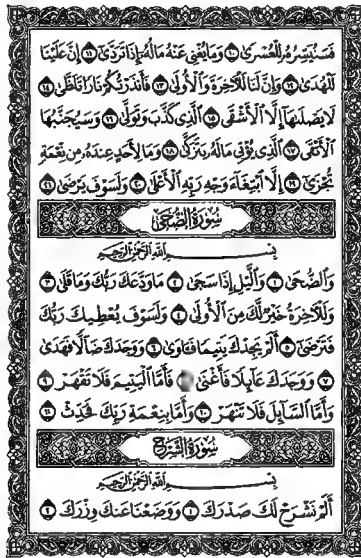
وأيضاً فإن الذي اقتضت رحمته ألا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعاشهم لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ والجلالة التي على معانيها.

٢- ثم ذكر سبحانه نعمه عليه: من إيوائه بعد يتمه، وهدايته بعد الضلالة، وإغناؤه بعد الفقر، فكان محتاجاً إلى من يؤويه ويهديه ويغنيه، فأواه ربه وهداه وأغناه، فأمره سبحانه أن يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر، فنهاه أن يقهر اليتيم، وأن ينهر السائل، وأن يكتم النعمة، بل يحدث بها فأوصاه سبحانه باليتامى والفقراء والمتعلمين.

(التبيان في أقسام القرآن ٧٢-٧٥).

سورة الشرح



قوله تعالى: ﴿الْمَنْشَرَحَّ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾.

١- قال: شرح الله صدرَ رسوله أتمَّ الشرح، ووضع عنه وزره كل الوضع، ورفع ذكره كل الرفع، وجمل لأتباعه حظاً من ذلك، إذ كل متبوع فلا يتبعه حظ ونصيب من حظ متبوعهم في الخير والشر على حسب اتباعهم له.

فاتبعُ الناس لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشرحهم صدرًا، وأوضعهم وزرًا، وأرفعهم ذكرًا، وكلما قويَّت متابعتُهُ علمًا وعملاً وحالًا وجهادًا، قويت هذه الثلاثة حتى يصير صاحبُها أشرح الناس صدرًا، وأرفعهم في العالمين ذكرًا. (الكلام على مسألة السماع ٤٠١-٤٠٣).

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.

٢- العسر وإن تكرَّر مرتين فتكرَّر بلفظ المعرفة، فهو واحد واليسر تكرَّر بلفظ النكرة، فهو يسران فالعسر محفوف بيسرين يسر قبله ويسر بعده فلن يغلب عسر يسرين. (بدائع الفوائد ١٥٥/٢).



سورة التين

﴿قوله تعالى: ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ ١ ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ ٢﴾ وَهَذَا أَلْبَدُ الْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾



١ - أقسم سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله أصحاب الشرائع العظام والأمم الكثيرة.

فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما وهو أرض بيته المقدس فإنها أكثر البقاع زيتوناً وتيناً.

وقد قال جماعة من المفسرين: إنه سبحانه أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما، فإن التين فاكهة مخلصنة من شوائب التنغيص لا عجم

له وهو على مقدار اللقمة وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم ويدخل في الأدوية ومزاجه من أعدل الأمزجة وطبعه طبع الحياة الحرارة والرطوبة وشكله من أحسن الأشكال ويدخل أكله والنظر إليه في باب المفرحات وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه ويزيد في القوة ويوافق الباء وينفع من البواسير والقرس ويؤكل رطباً ويابساً.

وأما الزيتون ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر، فإن عوده يخرج ثمراً يعصر منه هذا الدهن الذي هو مادة النور وصبغ للأكلين وطيب ودواء، وفيه من مصالح الخلق ما لا يخفى وشجره باق على ممر السنين المتطاولة وورقه لا يسقط.

وهذا الذي قالوه حق ولا ينافي أن يكون منبته مراداً، فإن منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة فيكون الأقسام قد تناول الشجرتين

[illegible]

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿٨﴾

سورة العلق



قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَى بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَفَرَأَى ذُرِّيَّتَكَ الْأَكْرَمُ ③﴾.

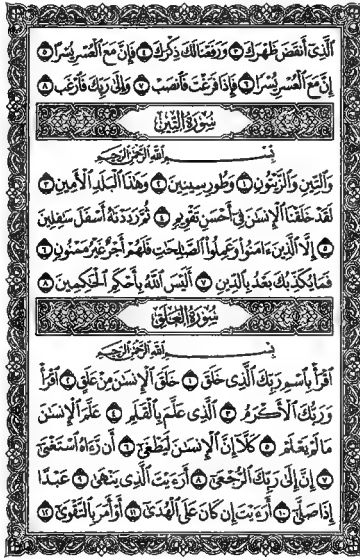
١- خص الإنسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته أنه لا إله غيره ولا رب سواه.

٢- وذكر هنا مبدأ خلقه من علق لكون العلق مبدأ الأطوار التي انتقلت إليها النطفة فهي مبدأ تعلق التخليق، ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبراً عن نفسه بأنه الأكرم.

وهو الأفعل من الكرم وهو كثرة الخير ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه، فإن الخير كله بيديه والخير كله منه والنعم كلها هو موليتها والكمال كله والمجد كله له، فهو الأكرم حقاً.

٣- ثم ذكر تعليمه عموماً وخصوصاً فقال: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④﴾ فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس، ثم ذكر تعليم الإنسان خصوصاً فقال: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾.

والمقصود أنه سبحانه تعرف إلى عبادته بما علمهم إياه بحكمته من الخط واللفظ والمعنى، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه، بل من أعظمها وأظهرها وكفى بهذا شرفاً وفضلاً له. (مفتاح دار السعادة ٦٣).



٤- ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيان
البيان المنطقي والبيان الخطي وقد اعتد بهما سبحانه
في جملة من اعتد به من نعمه على العبد فقال في أول
سورة أنزلت على رسول الله: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ
﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ
بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ فتأمل كيف جمع
في هذه الكلمات مراتب الخلق كلها وكيف تضمنت
مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه
وأحسنه.

فذكر أولاً: عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجي.

ثم ذكر ثانياً: خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة والآية فيه عظيمة ومن
شهوده عما فيه محض تعدد النعم وذكر مادة خلقه ها هنا من العلقه، وفي سائر
المواضع يذكر ما هو سابق عليها إما مادة الأصل وهو التراب والطين أو الصلصال
الذي كالفخار أو مادة الفرع وهو الماء المهيّن وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعلق
التخليق وهو العلقه، فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلقه.

ثم ذكر ثالثاً: التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده؛ إذ به تخلد العلوم
وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة
بين الناس وبه تقيد أخبار الماضين للباقيين.

والتعليم بالقلم يتسلزم المراتب الثلاثة مرتبة الوجود الذهني والوجود اللفظي
والوجود الرسمي فقد دل التعليم بالقلم على أنه سبحانه هو المعطي لهذه المراتب
ودل قوله خلق على أنه يعطي الوجود العيني فدلّت هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها

وفصاحتها على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى خلقا وتعلّما وذكر خلقين وتعليمين: خلقا عاما وخلقاً خاصا، وتعلّما خاصا وتعلّما عاما.



وذكر من صفاته ها هنا اسم الأكرم الذي فيه كل خير وكل كمال فله كل كمال وصفا ومنه كل خير فعلا، فهو الأكرم في ذاته وأوصافه وأفعاله وهذا الخلق والتعلّم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه لا من حاجة دعتة إلى ذلك وهو الغني الحميد. (مفتاح دار السعادة ٣٠٠-٣٠١).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۖ﴾ (١) ﴿أَن رَّاهُ أَسْتَفَىٰ ۖ﴾ (٧).

٥- لم يقل: إن استغنى، بل جعل الطغيان ناشئا عن رؤية غنى نفسه، ولم يذكر هذه الرؤية في سورة الليل، بل قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ يَخْلُ وَاسْتَفَىٰ ۖ﴾ (٨) ﴿وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَىٰ ۖ﴾ (٩) ﴿فَسَيُسِيرُهُ ۖ﴾ (١٠) [الليل: ٨-١٠]. وهذا والله أعلم لأنه ذكر موجب طغيانه وهو رؤية غنى نفسه، وذكر في سورة الليل موجب هلاكه وعدم تيسيره ليسرى، وهو استغناؤه عن ربه بترك طاعته وعبوديته، فإنه لو افتقر إليه لتقرب إليه بما أمره من طاعته، فعل المملوك الذي لا غنى له عن مولاه طرفة عين ولا يجد بدا من امتثال أوامره، ولذلك ذكر معه بخله وهو تركه إعطاء ما وجب عليه من الأقوال والأعمال وأداء المال، وجمع إلى ذلك تكذيبه بالحسنى.

والمقصود أن الاستغناء عن الله سبب هلاك العبد وتيسيره لكل عسرى، ورؤيته غنى نفسه سبب طغيانه، وكلاهما مناف للفقر والعبودية. (طريق الهجرتين ١٣).

سورة البينة

﴿قوله تعالى: وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾



١- نهى سبحانه أن يكون أمر عباده بغير العبادة التي قد أخلص عاملها له فيها النية ومعلوم أن إخلاص النية للمعبود أصل لنية أصل العبادة، فإذا لم يأمرهم إلا بعمل هو عبادة قد أخلص عاملها النية فيها لربه عَزَّجَلَّ ومعلوم أن النية جزء من العبادة، بل هي روح العبادة كما تبين علم أن العمل الذي لم ينو ليس بعبادة ولا مأمور به فلا يكون فاعله متقربا إلى الله تعالى وهذا مما لا يقبل نزاعا. (بدائع الفوائد ٣/ ١٨٩).

فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به،

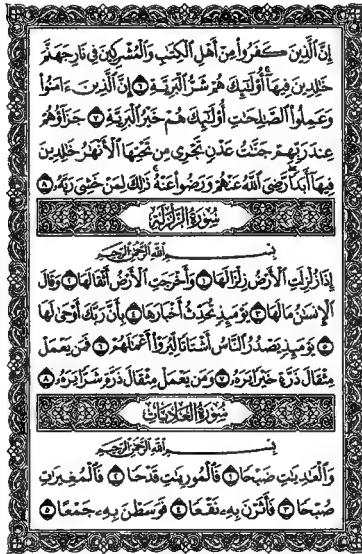
بل الذي أتى به شيء غير المأمور به، فلا يصح ولا يقبل منه. (الجواب الكافي ١٧٦).



سورة الزلزلة

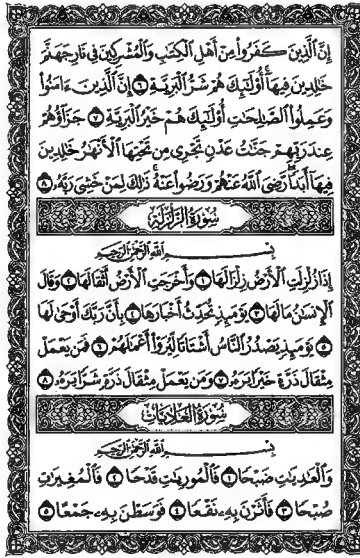
قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾
وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾

١ - قد أخلصت من أولها وآخرها لهذا الشطر، فلم يذكر فيها إلا الآخرة وما يكون فيها من أحوال الأرض وسكانها، كانت تعدل نصف القرآن. (زاد المعاد ١/ ٣١٨).



سورة العاديات

قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥﴾ .



١- كان ذكر الفعل في أثرن ووسطن أحسن من ذكر الاسم؛ لأنه سبحانه قسم أفعالنا إلى قسمين: وسيلة، وغاية. فالوسيلة هي العدو وما يتبعه من الإيراء والإغارة، والغاية هي توسط الجمع وما يتبعه من إثارة النقع فهن عاديات موريات مغيرات حتى يتوسطن الجمع ويثرن النقع، فالأول شأنهن الذي أعددن له، والثاني فعلهن الذي انتهين إليه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝١﴾ وَخُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝٢ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝٣﴾ .

٢- قيد سبحانه كونه خبيراً بهم ذلك اليوم وهو خير بهم في كل وقت إيذاناً بالجزاء، وأنه يجازيهم في ذلك اليوم بما يعلمه منهم فذكر العلم والمراد لازمه، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ. (النبأ في أقسام القرآن ٧٥-٨٣).



سورة التكاثر

📖 قوله تعالى: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾.



١- أعرض عن ذكر المتكاثر به إرادة لإطلاقه وعمومه وأن كل ما يكثر به العبد غيره سوى طاعة الله ورسوله وما يعود عليه بنفع معاده، فهو داخل في هذا التكاثر. (الفوائد ٣٢).

٢- وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت إيذاناً بأنهم غير مستوطنين ولا مستقرين في القبور وأنهم فيها بمنزلة الزائرين يحضرونها مدة، ثم يظعنون عنها كما كانوا في الدنيا زائرين لها غير مستقرين فيها ودار القرار هي الجنة أو النار.

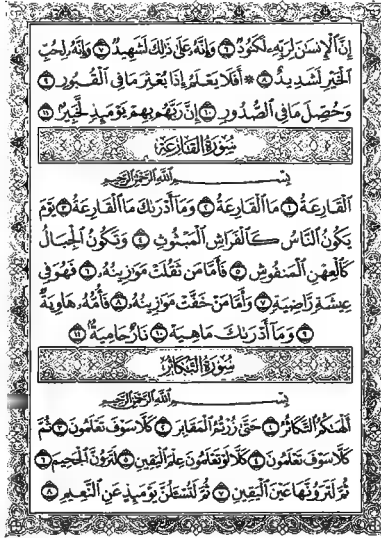
٣- ولم يعين سبحانه المتكاثر به، بل ترك ذكره، إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء لا المتكاثر به كما يقال شغلك اللعب واللهو ولم يذكر ما يلعب ويلهو به، وإما إرادة الإطلاق وهو كل ما تكثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو إماء أو بناء أو غراس أو علم لا ينبغي به وجه الله أو عمل لا يقربه إلى الله، فكل هذا من التكاثر الملهي عن الله والدار الآخرة.

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن الشخير أنه قال: «انتهيت إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يقرأ ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ قال: يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت؟»

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٢﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ قوله تعالى: ﴿

٤- قيل تأكيد لحصول العلم كقوله: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٢﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ

تَعْلَمُونَ ۝٤﴾.



وقيل: ليس تأكيداً بل العلم الأول عند المعايينة ونزول الموت، والعلم الثاني في القبر هذا قول الحسن ومقاتل ورواه عطاء عن ابن عباس.

ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه:

أحدها: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل وقد أمكن اعتبار مع فخامة المعنى وجلالته وعدم الإخلال بالفصاحة.

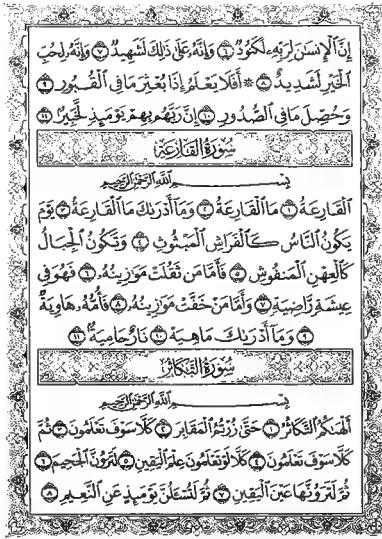
الثاني: توسط ثم بين العلمين وهي مؤذنة بتراخي ما بين المرتبتين زماناً وخطراً.

الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع، فإن المحتضر يعلم عند المعايينة حقيقة ما كان عليه، ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علماً هو فوق الأول.

الرابع: أن علياً بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من السلف فهموا من الآية عذاب القبر قال الترمذي: حدثنا أبو كريب، حدثنا حكام بن سليم الرازي، عن عمرو بن أبي قيس عن الحجاج بن المنهال بن عمر، عن زر عن علي رضي الله عنه قال: «ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ألهاكم التكاثر».

قال الواحدي: يعني أن معنى قوله: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٢﴾ في القبر.

الخامس: أن هذا مطابق لما بعده من قوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا



عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين إطلاق الأولى وتقييد الثانية بعين اليقين وتقدم الأولى وتراخي الثانية عنها.

٥- وتأمل ما في هذا العتاب الموجه لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها إلى أن زار القبور ولم يستيقظ من نوم الإلهاء، بل أرقد التكاثر قلبه فلم يستفق منه إلا وهو في عسكر الأموات، وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق، يتبين لك أن العموم مقصود، وتأمل تعليقه سبحانه

الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقييد بمتكاثر به ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها، وأيضا فإن التكاثر تفاعل وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكثر صاحبه فيكون أكثر منه فيما يكاثره به والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للكاثر كما قيل:

ولست بالأكثر منهم حصي وإنما العزة للكاثر

٦- ومن تأمل حسن موقع ﴿كَلَّا﴾ في هذا الموضع فإنها تضمنت ردعا لهم وزجرا عن التكاثر، ونفيا وإبطالا لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم وعزتهم وكمالهم به، فتضمنت اللفظة نفيا ونفيا وأخبرهم سبحانه أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علما بعد علم وأنهم لا بد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التي ألهمتهم عن الآخرة رؤية بعد رؤية، وأنه سبحانه لا بد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم من أين استخرجوها وفيما صرفوها؟

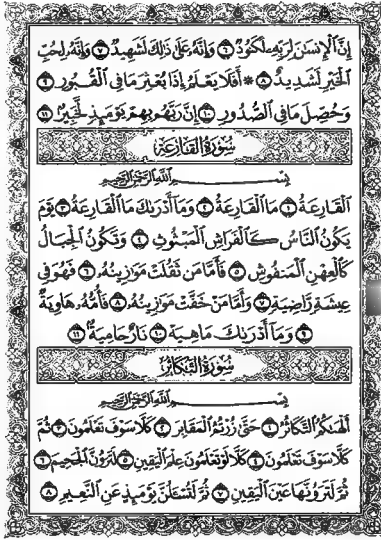
فله ما أعظمها من سورة وأجلها وأعظمها فائدة وأبلغها موعظة وتحذيرا

وأشدها ترغيبا في الآخرة وتزهيدا في الدنيا على غاية اختصارها وجزالة ألفاظها وحسن نظمها، فتبارك من تكلم بها حقا وبلغها رسوله عنه وحيًا.

٧- وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حي زائرين غير مستوطنين، بل هم مستودعون في المقابر مدة وبين أيديهم دار القرار، فإذا كانوا عند وصولهم إلى الغاية زائرين فكيف بهم وهم في الطريق في هذه الدار فهم فيها عابرو سبيل إلى محل الزيارة، ثم منتقلون من محل الزيارة إلى المستقر

فهنا هنا ثلاثة أمور عبور السبيل في هذه الدنيا وغايته زيارة القبور وبعدها النقلة إلى دار

القرار. (عدة الصابرين ١٨٣-١٩٤).



سورة العصر

﴿قوله تعالى: ﴿١﴾ وَالْعَصْرِ ﴿٢﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٤﴾﴾



١- قال الشافعي رضي الله عنه: لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتمهم. وبيان ذلك أن المراتب أربعة، وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله:

إحداها: معرفة الحق.

الثانية: عمله به.

الثالثة: تعليمه من لا يحسنه.

الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة.

فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذايره، والحمد لله الذي جعل كتابه كافيا عن كل ما سواه، شافيا من كل داء، هاديا إلى كل خير. (مفتاح دار السعادة ٦١).

٢- فإنه ضيق الاستثناء وخصصه فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ﴿٣﴾ ولما قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ﴿٥﴾ وسع الاستثناء وعممه فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولم يقل: وتواصوا، فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح وهو قدر زائد على مجرد فعله فمن لم



يكن كذلك فقد خسر هذا الربح فصار في خسر ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين، فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة وقد تكون فرضاً على الأعيان وقد تكون فرضاً على الكفاية وقد تكون مستحبة.

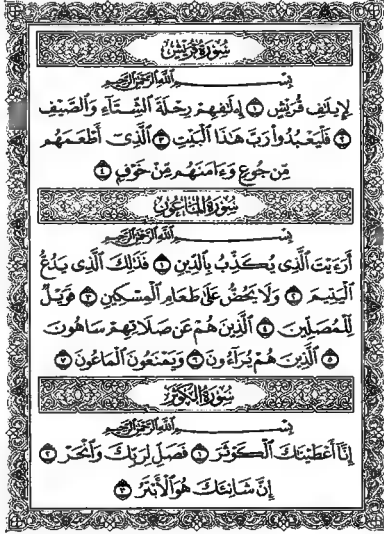
والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب والحق الذي يستحب والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب والصبر الذي يستحب.

فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ولم يأمرُوا غيرهم به وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم فمطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء وهو سبحانه إنما قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها قد يطلق عليه أنه في خسر، وأنه ذو خسر كما قال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لقد فرطنا في قراريط كثيرة فهذا نوع تفريط وهو نوع خسر بالنسبة إلى من حصل ربح ذلك.

٣- وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ إرشاد إلى منصب الإمامة في قوة الدين كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. (التبيان في أقسام القرآن ٨٣ - ٨٤).

سورة الماعون

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾



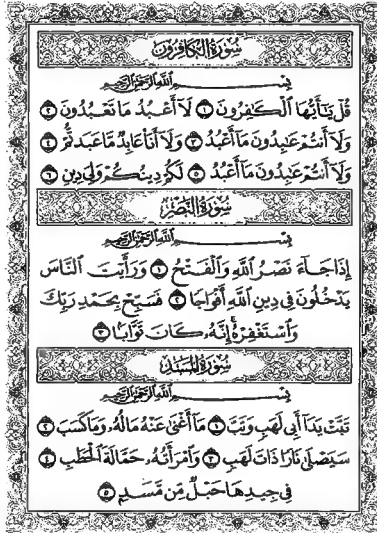
١- ليس السهو عنها تركها، وإلا لم يكونوا مصلين، وإنما هو السهو عن واجبها إما عن الوقت كما قال ابن مسعود وغيره، وإما عن الحضور والخشوع، والصواب أنه يعم النوعين، فإنه سبحانه أثبت لهم صلاة، ووصفهم بالسهو عنها، فهو السهو عن وقتها الواجب، أو عن إخلاصها وحضورها الواجب، ولذلك وصفهم بالرياء، ولو كان السهو سهو ترك لما كان هناك رياء. (مدارج السالكين ١/ ٥٢٧).



سورة الكافرون

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾

١- فائدة تكرار الأفعال، فقليل فيه وجو: أحدها أن قوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾



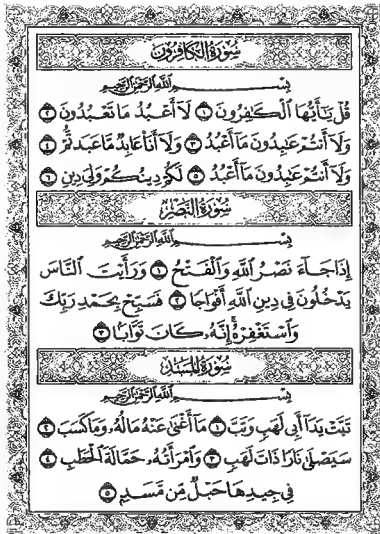
نفي للحال والمستقبل، وقوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣﴾ مقابلة، أي: لا تفعلون ذلك، وقوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝٤﴾، أي: لم يكن مني ذلك قط قبل نزول الوحي؛ ولهذا أتى في عبادتهم بلفظ الماضي فقال ﴿مَّا عَبَدْتُمْ﴾ فكأنه قال: لم أعبد قط ما عبدتم، وقوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥﴾ مقابلة، أي: لم تعبدوا قط في الماضي ما أعبده أنا دائما.

وعلى هذا فلا تكرار أصلا، وقد استوفت

الآيات أقسام النفي ماضيا وحالا ومستقبلا عن عبادته وعبادتهم بأوجز لفظ وأحضره وأبينه، وهذا إن شاء الله أحسن ما قيل فيها، فلنقتصر عليه ولا نتعداه غيره، فإن الوجوه التي قيلت في مواضعها فعليك بها.

٢- تكريره الأفعال بلفظ المستقبل حين أخبر عن نفسه ولفظ الماضي حين أخبر عنهم. ففي ذلك سر: وهو الإشارة والإيماء إلى عصمة الله تعالى له عن الزيف والانحراف عن عبادة معبوده والاستبدال به غيره وأن معبوده واحد في الحال والمال على الدوام لا يرضى به بدلا ولا ينبغي عنه حولا، بخلاف الكافرين فإنهم يعبدون

أهواءهم ويتبعون شهواتهم في الدين وأغراضهم فهم بصدد أن يعبدوا اليوم معبودا وغدا غيره فقال: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢) يعني الآن، ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٣) أنا الآن أيضا، ثم قال: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ (٤) يعني ولا أنا فيما يستقبل يصدر مني عبادة لما عبدتم أيها الكافرون، وأشبهت ما هنا رائحة الشرط فلذلك وقع بعدها الفعل بلفظ الماضي وهو مستقبل في المعنى كما يجيء ذلك بعد حرف الشرط كأنه يقول: مهما عبدتم من شيء فلا أعبده أنا.

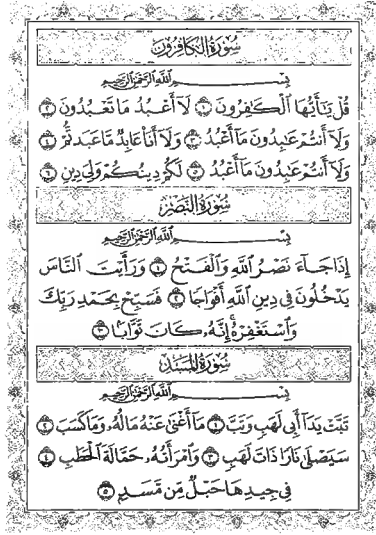


٣- لم يأت النفي في حقهم إلا باسم الفاعل، وفي جهته جاء بالفعل المستقبل تارة وباسم الفاعل أخرى.

فذلك والله أعلم لحكمة بديعة وهي أن المقصود الأعظم براءته من معبوديهم بكل وجه، وفي كل وقت فأتى أولا بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد، ثم أتى في هذا النفي بعينه بصيغة اسم الفاعل الدالة على الوصف والثبوت، فأفاد في

النفي الأول أن هذا لا يقع مني، وأفاد في الثاني أن هذا ليس وصفي ولا شأني فكأنه قال: عبادة غير الله لا تكون فعلا لي ولا وصفا، فأتى بنفيين لمنفيين مقصودين بالنفي، وأما في حقهم فإنما أتى بالاسم الدال على الوصف والثبوت دون الفعل، أي: أن الوصف الثابت اللازم للعائد لله منتف عنكم فليس هذا الوصف ثابتا لكم، وإنما ثبت لمن خص الله وحده بالعبادة لم يشرك معه فيها أحدا وأنتم لما عبدتم غيره فلسستم من عابديه وإن عبدوه في بعض الأحيان.

فتأمل هذه النكتة البديعة كيف تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابد الله وعبدته

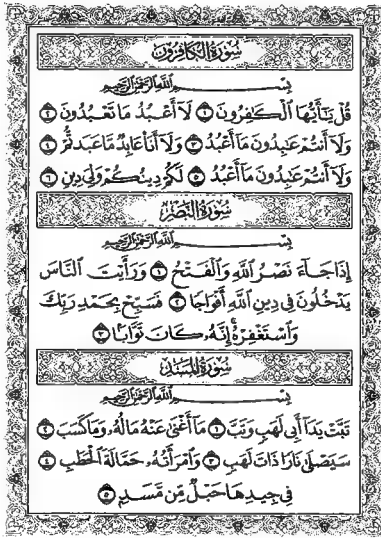


المستقيم على عبادته إلا من انقطع إليه بكلية وتبتل إليه تبتيلا لم يلتفت إلى غيره لم يشرك به أحدا في عبادته، وأنه وإن عبده وأشرك به غيره فليس عابدا لله ولا عبدا له.

وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجلية التي هي إحدى سورتي الإخلاص التي تعدل ربع القرآن كما جاء في بعض السنن وهذا لا يفهمه كل أحد ولا يدركه إلا من منحه الله فهما عنده، فله الحمد والمنة.

٤- أن النفي في هذه السورة أتى بأداة (لا) دون (لن) وذلك؛ لأن النفي بـ(لا) أبلغ منه بـ(لن)، وأن (لا) أدل على دوام النفي وطوله من (لن)، وأنها للطول والمد الذي في نفيها طال النفي بها واشتد، وأن هذا ضد ما فهمته الجهمية والمعتزلة من أن (لن) إنما تنفي المستقبل ولا تنفي الحال المستمر النفي في الاستقبال وقد تقدم تقرير ذلك بما لا تكاد تجده في غير هذا التعليق فالإتيان بـ(لا) متعين هنا، والله أعلم.

٥- اشتمال هذه السورة على النفي المحض فهذا هو خاصة هذه السورة العظيمة فإنها سورة براءة من الشرك كما جاء في وصفها أنها براءة من الشرك فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقا للبراءة المطلوبة هذا مع أنها متضمنة للإثبات صريحا فقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢﴾ براءة محضة ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ﴿٣﴾ إثبات أن له معبودا يعبده وأنتم بريئون من عبادته فتضمنت النفي والإثبات وطابقت قول إمام الجنفاء: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴿٥﴾ وطابقت قول فئة الموحدين: ﴿وَإِذْ أَعَزَّلْتُمُوهُمْ وَمَا



يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَانْتَضَمَتْ حَقِيقَةُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تعالى ولهذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرنها بسورة قل هو الله أحد في سنة الفجر وسنة المغرب.

فانتضمت السورتان نوعي التوحيد وأخلصتا له فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفتح بهما النهار في سنة الفجر ويختم بهما في سنة المغرب، وفي السنن أنه كان يوتر بهما فيكونان خاتمة عمل الليل كما كانا خاتمة عمل النهار.

٦- إثباته هنا بلفظ ﴿يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ﴾

دون يا أيها الذين كفروا. فسرّه والله أعلم إرادة الدلالة على أن من كان الكفر وصفا ثابتا لا لازما لا يفارقه، فهو حقيق أن يتبرأ الله منه ويكون هو أيضا بريئا من الله فحقيق بالموحد البراءة منه فكان في معرض البراءة التي هي غاية البعد والمجانبة بحقيقة حاله التي هي غاية الكفر وهو الكفر الثابت اللازم في غاية المناسبة فكأنه يقول كما أن الكفر لازم لكم ثابت لا تتقلون عنه فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة دائما أبدا ولهذا أتى فيها بالنفي الدال على الاستمرار مقابلة الكفر الثابت المستمر وهذا واضح.

٧- ما الفائدة في قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ٦ وهل أفاد هذا معنى زائدا على

ما تقدم؟

فيقال: في ذلك من الحكمة - والله أعلم - أن النفي الأول أفاد البراءة، وأنه لا يتصور منه ولا ينبغي له أن يعبد معبوديهم وهم أيضا لا يكونون عابدين لمعبوده وأفاد آخر السورة إثبات ما تضمنه النفي من جهتهم من الشرك والكفر الذي هو حظهم وقسمهم ونصيبهم فجرى ذلك مجرى من اقتسم هو وغيره أرضا فقال له لا تدخل في حدي

ولا أدخل في حدك لك أرضك ولي أرضي.

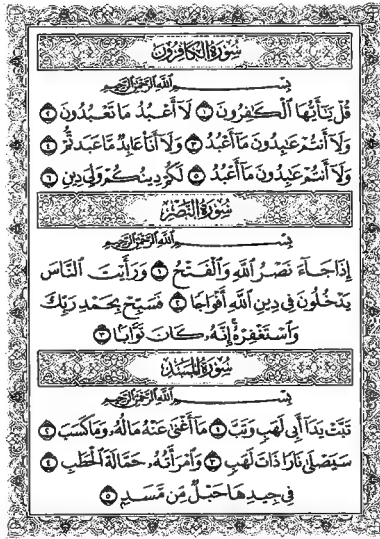
فتضمنت الآية أن هذه البراءة اقتضت أنا اقتسمنا خطتنا بيننا فأصابنا التوحيد والإيمان، فهو نصيبنا وقسمنا الذي نختص به لا تشركونا فيه وأصابكم الشرك بالله والكفر به، فهو نصيبكم وقسمكم الذي تختصمون به لا نشركم به فتبارك من أحيا قلوب من شاء من عباده بفهم كلامه.

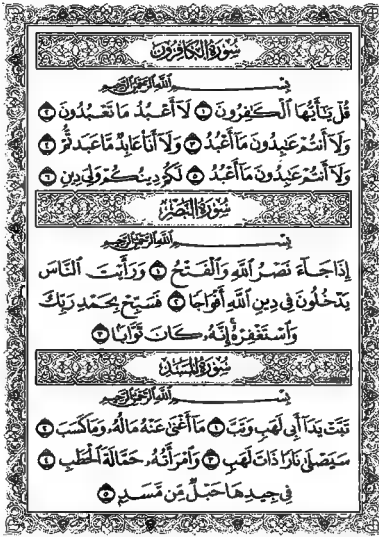
وهذه المعاني ونحوها إذا تجلت للقلوب رافلة في حللها فإنها تسبي القلوب وتأخذ بمجامعها

ومن لم يصادف من قلبه حياة فهي خود تزف إلى ضرير مقعد فالحمد لله على مواهبه التي لا تنتهي ونسأله إتمام نعمته.

٨- تقديم قسمهم ونصيبهم على قسمه ونصيبه، وفي أول السورة قدم ما يختص بهم. فهذا من أسرار الكلام وبديع الخطاب الذي لا يدركه إلا فحول البلاغة وفرسانها، فإن السورة لما اقتضت البراءة واقتسام ديني التوحيد والشرك بينه وبينهم ورضي كل بقسمه، وكان المحق هو صاحب القسمة وقد برز النصيبين وميز القسمين وعلم أنهم راضون بقسمهم الدون الذي لا أردا منه، وأنه هو قد استولى على القسم الأشراف والخط الأعظم بمنزلة من اقتسم هو وغيره سما وشفاء فرضي مقاسمه بالسهم، فإنه يقول له لا تشاركني في قسمي ولا أشاركك في قسمك، لك قسمك ولي قسمي.

فتقدم ذكر قسمه ها هنا أحسن وأبلغ كأنه يقول هذا هو قسمك الذي أثرته بالتقديم وزعمت أنه أشرف القسمين وأحقهما بالتقديم فكان في تقديم ذكر قسمه من التهكم به والنداء على سوء اختياره وقبح ما رضيه لنفسه من الحسن والبيان ما لا يوجد في ذكر





تقديم قسم نفسه والحاكم في هذا هو الذوق والفظن
يكتفي بأدنى إشارة وأما غليظ الفهم فلا ينجع فيه
كثرة البيان.

وجه ثان وهو أن مقصود السورة براءته
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من دينهم ومعبودهم هذا هو لبها
ومغزاها وجاء ذكر براءتهم من دينه ومعبوده بالمقصود
الثاني مكملًا لبراءته ومحققًا لها فلما كان المقصود
براءته من دينهم بدأ به في أول السورة، ثم جاء
قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ مطابقًا لهذا المعنى، أي:

لا أشارككم في دينكم ولا أوافقكم عليه، بل هو دين تختصون أنتم به لا أشارككم فيه
أبدا فطابق آخر السورة أولها فتأمل.

فهذا ما فتح الله العظيم به من هذه الكلمات اليسيرة والنبذة المشيرة إلى عظمة
هذه السورة وجلالتها ومقصودها وبديع نظمها من غير استعانة بتفسير ولا تتبع لهذه
الكلمات من مظان توجد فيه، بل هي استملاء مما علمه الله وألهمه بفضلته وكرمه
والله يعلم أني لو وجدتها في كتاب لأضفتها إلى قائلها ولبالغت في استحسانها وعسى
الله المان بفضلته الواسع العطاء الذي عطاؤه على غير قياس المخلوقين أن يعين على
تعليق تفسير هذا النمط وهذا الأسلوب وقد كتبت على مواضع متفرقة من القرآن
بحسب ما يسنح من هذا النمط وقت مقامي بمكة وبالبیت المقدس والله المرجو إتمام

نعمته . (بدائع الفوائد ١٣٣-١٤٧).



سورة النصر

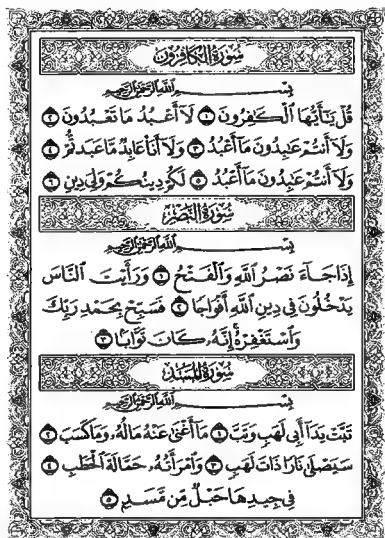
قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ﴾ ١ ﴿وَرَأَيْتِ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ﴾ ٢ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۖ﴾ ٣

١- قال عمر بن الخطاب للصحابه: ما تقولون في: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾

﴿١﴾ [النصر: ١]. السورة؟ قالوا: أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره، فقال لابن عباس: ما تقول أنت؟ قال: هو أجل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أعلمه إياه، فقال: ما أعلم منها غير ما تعلم.

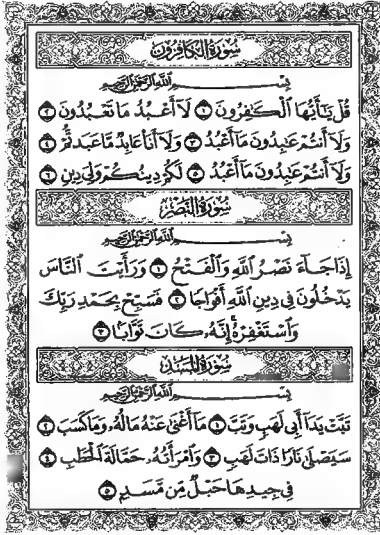
وهذا من أدق الفهم والطفه، ولا يدركه كل أحد، فإنه - سبحانه - لن يعلق الاستغفار بعمله، بل علقه بما يحدثه هو - سبحانه - من نعمة فتحه على رسوله ودخول الناس في دينه، وهذا ليس بسبب للاستغفار، فعلم أن سبب الاستغفار غيره، وهو

حضور الأجل الذي من تمام نعمة الله على عبده توفيقه للتوبة النصوح والاستغفار بين يديه ليلقى ربه طاهرا مطهرا من كل ذنب فيقدم عليه مسرورا راضيا مرضيا عنه، ويدل عليه أيضا قوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ [النصر: ٣]. (إعلام الموقعين ١/ ٤٣٦).



سورة المسد

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾



١- سَمَّاها «امراته» بعقد النكاح الواقع في الشرك.

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحریم: ١١]. فسمّاها «امراته».

والصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ غالبهم إنما ولدوا من نكاح كان قبل الإسلام في حال الشرك، وهم ينسبون إلى آبائهم انتساباً لا ريب فيه عند أحد من أهل الإسلام، وقد أسلم الجهم الغفير في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يأمر أحدا منهم أن يجدد عقده على امرأته.

فلو كانت أنكحة الكفار باطلة لأمرهم بتجديد أنكحتهم، وقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو أصحابه لآبائهم، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام. (أحكام

أهل الذمة ٣٠٨-٣٠٩).



سورة الإخلاص

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٤)﴾.

١- هو توحيد منه لنفسه وأمر للمخاطب بتوحيده، فإذا قال العبد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ



أَحَدٌ ۝ (١)﴾ كان قد وحد الله بما وحد به نفسه وأتى بلفظة ﴿قُلْ﴾ تحقيقاً لهذا المعنى، وأنه مبلغ محض قائل لما أمر بقوله والله أعلم، وهذا بخلاف قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ (١)﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ (١)﴾، فإن هذا أمر محض بإنشاء الاستعاذة لا تبليغ لقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ (١)﴾، فإن الله لا يستعيز من أحد وذلك عليه محال بخلاف قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١)﴾،

فإنه خبر عن توحيده وهو سبحانه يخبر عن نفسه

بأنه الواحد الأحد، فتأمل هذه النكتة البديعة، والله المستعان. (بدائع الفوائد ٢/ ١٧٢).



سورة الفلق

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤﴾.



١- [لماذا (قُلْ أَعُوذُ) وليس (أَعُوذُ؟)] قلت:

فكيف جاء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر والمأمور به

فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ①﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ

بِرَبِّ النَّاسِ ①﴾ ومعلوم أنه إذا قيل: قل الحمد

لله وقل سبحان الله، فإن امتثاله أن يقول: الحمد لله،

وسبحان الله، ولا يقول: قل سبحان الله.

قلت: هذا هو السؤال الذي أورده أبي بن كعب

على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعينه وأجابه عنه رسول الله

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال البخاري في صحيحه: حدثنا قتيبة، ثنا سفيان، عن عاصم وعبد،

عن زر قال: «سألت أبي بن كعب عن المعوذتين فقال: سألت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فقال: قيل لي فقلت، فنحن نقول كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» (رواه البخاري).

ثم قال: حدثنا علي بن عبد الله، ثنا سفيان، ثنا عبد بن أبي لبابة عن زر بن حبیش

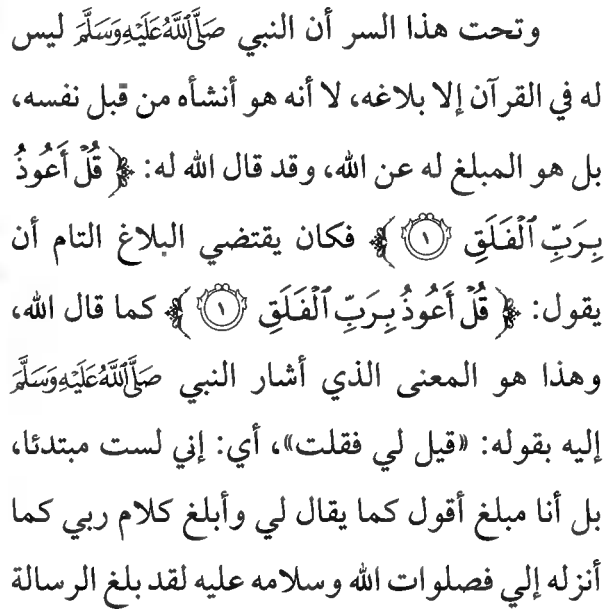
وحدثنا عاصم عن زر قال: «سألت أبي بن كعب قلت: أبا المنذر إن أخاك ابن مسعود

يقول كذا وكذا، فقال: إني سألت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: قيل لي فقلت قل،

فنحن نقول كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

قلت: مفعول القول محذوف وتقديره قيل لي قل، أو قيل لي هذا اللفظ فقلت

كما قيل لي.



وأدى الأمانة وقال كما قيل له، فكفانا وشفانا من المعتزلة والجهمية وإخوانهم ممن يقول هذا القرآن العربي وهذا النظم كلامه ابتداءً هو به، ففي هذا الحديث أبين الرد لهذا القول، وأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلغ القول الذي أمر بتبليغه على وجهه ولفظه حتى إنه لما قيل له (قل)، قال هو: قل. لأنه مبلغ محض، وما على الرسول إلا البلاغ.

٢ - [الشر المستعاذ منه نوعان]:

أحدهما: موجود يطلب رفعه.

والثاني: معدوم يطلب بقاؤه على العدم والألا يوجد.

كما أن الخير المطلق نوعان:

أحدهما: موجود فيطلب دوامه وثباته وألا يسلبه.

والثاني: معدوم فيطلب وجوده وحصوله.

فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين، وعليها مدار طلباتهم،



وقد جاءت هذه المطالب الأربعة في قوله تعالى
حكاية عن دعاء عباده في آخر آل عمران في قولهم:

﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا
بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا

سَيِّئَاتِنَا ﴾ فهذا الطلب لدفع الشر الموجود، فإن
الذنوب والسيئات شر كما تقدم بيانه.

ثم قال: ﴿ وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ فهذا طلب
لدوام الخير الموجود وهو الإيمان حتى يتفاهم
عليه فهذان قسمان.

ثم قال: ﴿ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم
إياه، ثم قال: ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ فهذا طلب أن لا يوقع بهم الشر المعدوم وهو
خزي يوم القيامة فانتظمت الآيتان للمطالب الأربعة أحسن انتظام مرتبة أحسن ترتيب
قُدِّمَ فيها النوعان اللذان في الدنيا وهما المغفرة ودوام الإسلام إلى الموت، ثم اتبعا
بالنوعين اللذين في الآخرة وهما أن يعطوا ما وعدوه على السنة رسله وألا يخزيهم يوم
القيامة.

فانتظمت الآيتان للمطالب الأربعة أحسن انتظام مرتبة أحسن ترتيب قُدِّمَ فيها
النوعان اللذان في الدنيا وهما المغفرة ودوام الإسلام إلى الموت، ثم اتبعا بالنوعين
اللذين في الآخرة وهما أن يعطوا ما وعدوه على السنة رسله وألا يخزيهم يوم القيامة.

٣ - وقد دخل في قوله تعالى: ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۖ ﴾ الاستعاذة من كل شر في،
أي: مخلوق قام به الشر من حيوان أو غيره إنسيا كان أو جنيا أو هامة أو دابة أو ريحا أو
صاعقة، أي: نوع كان من أنواع البلاء.

فإن قلت: فهل فيما هنا عموم؟

قلت: فيها عموم تقييدي وصفي لا عموم إطلاقي. والمعنى: من شر كل مخلوق فيه شر، فعمومها من هذا الوجه، وليس المراد الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله تعالى، فإن الجنة وما فيها ليس فيها شر، وكذلك الملائكة والأنبياء فإنهم خير محض، والخير كله حصل على أيديهم، فلا استعاذة من ﴿شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ تعم شر كل مخلوق فيه شر، وكل شر في الدنيا والآخرة، وشر شياطين الإنس والجن، وشر السباع والهوم، وشر النار والهواء وغير ذلك.

٤ - تعلم السر في الاستعاذة برب الفلق في هذا الموضع.

فإن الفلق الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور وهو الذي يطرد جيش الظلام وعسكر المفسدين في الليل فيأوي كل خبيث وكل مفسد وكل لص وكل قاطع طريق إلى سرب أو كن أو غار وتأوي الهوام إلى أحجرتها والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها، فأمر الله تعالى عباده أن يستعيذوا برب النور الذي يقهر الظلمة ويزيلها ويقهر عسكرها وجيشها؛ ولهذا ذكر سبحانه في كل كتاب: أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور، ويدع الكفار في ظلمات كفرهم، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾، وقال في أعمال الكفار: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ



لَمْ يَكْدِرْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾، وقد قال قبل ذلك في صفات أهل الإيمان ونورهم ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيُّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

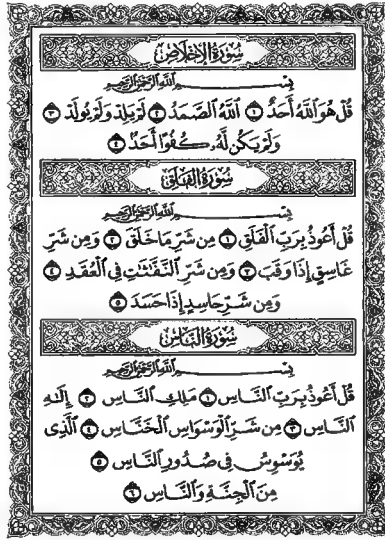


فالإيمان كله نور، ومآله إلى نور، ومستقره في القلب المضيء المستنير، والمقترن بأهله الأرواح المستنيرة المضئية المشرقة، والكفر والشرك كله ظلمة، ومآله إلى الظلمات، ومستقره في القلوب المظلمة، والمقترن بها الأرواح المظلمة، فتأمل الاستعاذة برب الفلق من شر الظلمة، ومن شر ما يحدث فيها، ونزول هذا المعنى على الواقع يشهد

بأن القرآن، بل هاتين السورتين من أعظم أعلام النبوة وبراهين صدق رسالة محمد، ومضادة لما جاء به الشياطين من كل وجه، وإن ما جاء به ما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون، فما فعلوه ولا يليق بهم ولا يتأتى منهم ولا يقدرُونَ عليه.

وفي هذا أبين جواب وأشفاه لما يورده أعداء الرسول عليه من الأسئلة الباطلة التي قصر المتكلمون غاية التقصير في دفعها وما شفوا في جوابها، وإنما الله سبحانه هو الذي شفى وكفى في جوابها، فلم يحوجنا إلى متكلم ولا إلى أصولي ولا أنظار، فله الحمد والمنة لا نحصي ثناء عليه.

٥- واعلم أن الخلق كله فلق، وذلك أن فلما فعل بمعنى مفعول، كقبض وسلب وقنص بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص، والله عَزَّجَلَّ فالتق الإصباح، وفالت الحب



والنوى، وفالق الأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأجنة، والظلام عن الإصباح، ويسمى الصبح المتصدع عن الظلمة فلما وفرقا، يقال: هو أبيض من فرق الصبح وفلقه.

وكما أن في خلقه فلما وفرقا فكذاك أمره كله فرقان يفرق بين الحق والباطل فيفرق ظلام الباطل بالحق كما يفرق ظلام الليل بالإصباح ولهذا سمى كتابه الفرقان ونصره فرقانا لتضمنه الفرق بين أوليائه وأعدائه ومنه فلقة البحر لموسى وسماه فلما.

فظهرت حكمة الاستعاذة برب الفلق في هذه المواضع وظهر بهذا إعجاز القرآن وعظمته وجلالته وأن العباد لا يقدرُونَ قدره ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

٦- فإن قيل: فالسحر يكون من الذكور والإناث، فلم خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور؟

قيل في جوابه: إن هذا خرج على السبب الواقع وهو أن بنات لبيد بن الأعصم سحرن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذا جواب أبي عبيدة وغيره وليس هذا بسديد، فإن الذي سحر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو لبيد بن الأعصم كما جاء في الصحيح.

والجواب المحقق أن النفاثات هنا هن الأرواح والأنفس النفاثات لا النساء النفاثات؛ لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة والأرواح الشريرة وسلطانها

إنما يظهر منها فلهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث دون التذكير والله أعلم.

٧ - وقد دل قوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④﴾ وحديث عائشة



المذكور، على تأثير السحر وأن له حقيقة، وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم وقالوا إنه لا تأثير للسحر البتة لا في مرض ولا قتل ولا حل ولا عقد قالوا وإنما ذلك تخيل لأعين الناظرين لا حقيقة له سوى ذلك وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث وأرباب القلوب من أهل التصوف وما يعرفه عامة العقلاء والسحر الذي يؤثر مرضاً وثقلاً وحلاً وعقداً وحياً وبغضاً وتزينا وغير ذلك من الآثار موجود تعرفه عامة

الناس وكثير منهم قد علمه ذوقاً بما أصيب به منه وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④﴾ دليل على أن هذا النفث يضر المسحور في حال غيبته عنه.

ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهراً كما يقوله هؤلاء لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاض منه.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤﴾

٨ - فحق الشر منه عند صدور الحسد والقرآن ليس فيه لفظة مهمة.

ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسداً إلا إذا قام به الحسد كالضارب والشاتم والقاتل ونحو ذلك، ولكن قد يكون الرجل في طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود



لاه عنه، فإن خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قلبه إليه ووجهت إليه سهام الحسد من قبله فيتأذى المحسود بمجرد ذلك، فإن لم يستعذ بالله ويتحصن به ويكون له أورد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله والإقبال عليه، بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله وإلا ناله شر الحاسد ولا بد فقله تعالى: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ بيان؛ لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل.

٩- والمقصود أن العائن حاسد خاص وهو أضر من الحاسد ولهذا والله أعلم إنما جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن لأنه أعم فكل عائن حاسد ولا بد وليس كل حاسد عائن، فإذا استعاذ من شر الحسد دخل فيه العين وهذا من شمول القرآن الكريم وإعجازه وبلاغته.

وكثيراً ما يجتمع في القرآن الحسد والسحر والمناسبة ولهذا اليهود أسحر الناس وأحسدهم فإنهم لشدة خبثهم فيهم من السحر والحسد ما ليس في غيرهم وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بهذا وهذا فقال: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنِ أُشْرِيَهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٢).

والشيطان يقارن الساحر والحاسد ويحادثهما ويصاحبها، ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان؛ لأن الحاسد شبيه بإبليس وهو في الحقيقة من

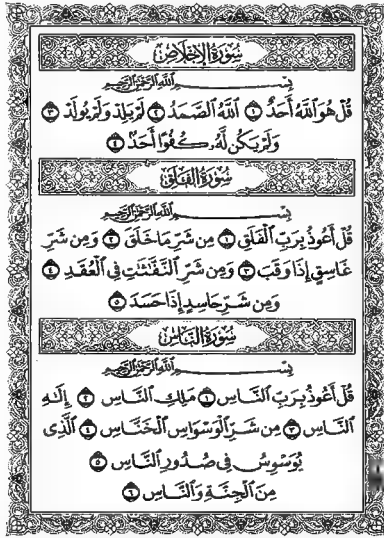
أتباعه لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس وزوال نعم الله عنهم كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله وأبى أن يسجد له حسداً فالحاسد من جند إبليس، وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه، وربما يعبد من دون الله تعالى حتى يقضي له حاجته وربما يسجد له.

يعم الحاسد من الجن والإنس، فإن الشيطان وحزبه يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله تعالى من فضله كما حسد إبليس أبانا آدم وهو عدو

لذريته كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، ولكن الوسواس أخص بشياطين الجن والحسد أخص بشياطين الإنس والوسواس يعمهما كما سيأتي بيانهما والحسد يعمهما أيضاً فكلا الشيطانين حاسد موسوس فلا استعاذة من شر الحاسد تتناولهما جميعاً.

فقد اشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر في العالم وتضمنت شرواً أربعة يستعاذ منها شراً عاماً وهو شر ما خلق وشر الغاسق إذا وقب فهذا نوعان.

١٠ - ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؛ لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه ولا يرتب عليه أذى بوجه ما لا بقلبه ولا بلسانه ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئاً من ذلك ولا يعاجل أخاه إلا بما يحب الله فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله.

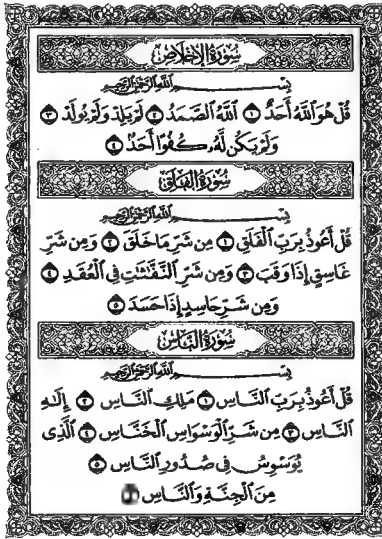


وقيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك إخوة يوسف! لكن الفرق



بين القوة التي في قلبه من ذلك وهو لا يطيعها ولا يَأتمر بها، بل يعصيه طاعة لله وخوفاً وحياءاً منه وإجلالاً له أن يكره نعمه على عباده فيرى ذلك مخالفة لله وبغضاً لما يحب الله ومحبة لما يبغضه، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك ويلزمها بالدعاء للمحسود وتمني زيادة الخير له بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسد ورتب على حسده مقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح فهذا الحسد المذموم هو كله حسد تمني الزوال.

١١ - فهذه السورة من أكبر أدوية المحسود فإنها تتضمن التوكل على الله والالتجاء إليه والاستعاذة به من شر حاسد النعمة، فهو مستعبد بولي النعم وموليها كأنه يقول يا من أولاني نعمته وأسداها إلي أنا عائد بك من شر من يريد أن يستلبها مني ويزيلها عني وهو حسب من توكل عليه وكافي من لجأ إليه وهو الذي يؤمن خوف الخائف ويجبر المستجير وهو نعم المولى ونعم النصير فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه تولاه وحفظه وحرسه وصاناه ومن خافه واتقاه آمنه مما يخاف ويحذر وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ﴾ فلا تستبطئ نصره ورزقه وعافيته، فإن الله تعالى بالغ أمره وقد جعل الله لكل شيء قدراً لا يتقدم عنه ولا يتأخر ومن لم يخفه أخافه من كل شيء وما خاف أحداً غير الله إلا لنقص خوفه من الله قال



تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وقال: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾، أي: يخوفكم بأوليائه ويعظمهم في صدوركم فلا تخافوهم وأفردوني بالمخافة أكفكم إياهم. (بدائع الفوائد ٢/ ١٩٨-٢٧٤).



سورة الناس

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥﴾

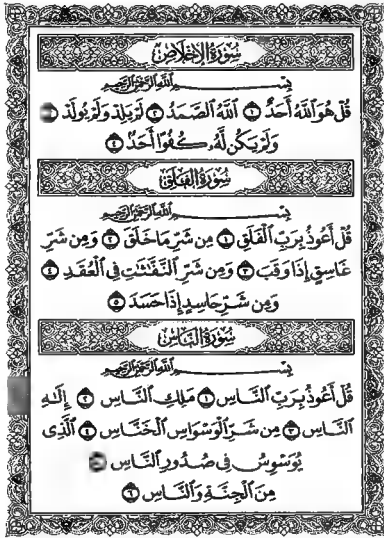


فنذكر أولاً معنى هذه الإضافات الثلاث، ثم وجه مناسبتها لهذه الاستعاذة فنقول:

الإضافة الأولى: إضافة الربوبية المتضمنة لخلقهم وتديبرهم وتربيتهم وإصلاحهم وجلب مصالحهم وما يحتاجون إليه ودفع الشر عنهم وحفظهم مما يفسدهم هذا معنى ربوبيته لهم وذلك يتضمن قدرته التامة ورحمته الواسعة وإحسانه وعلمه بتفاصيل أحوالهم وإجابة دعواتهم وكشف كرباتهم.

الإضافة الثانية: إضافة الملك، فهو ملكهم المتصرف فيهم وهم عبيده ومماليكه وهو المتصرف لهم المدبر لهم كما يشاء النافذ القدرة فيهم الذي له السلطان التام عليهم، فهو ملكهم الحق الذي إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب وهو مستغاثهم ومعاذهم وملجؤهم فلا صلاح لهم ولا قيام إلا به وتديبره فليس لهم ملك غيره يهربون إليه إذا دهمهم العدو ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم.

الإضافة الثالثة: إضافة الإلهية، فهو إلههم الحق ومعبودهم الذي لا إله لهم سواه ولا معبود لهم غيره فكما أنه وحده هو ربهم ومليكهم لم يشركه في ربوبيته ولا في ملكه



أحد فكَذلك هو وحده إلههم ومعبودهم فلا ينبغي أن يجعلوا معه شريكا في إلهيته كما لا شريك معه في ربوبيته وملكه وهذه طريقة القرآن الكريم يحتاج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة.

وإذا كان وحده هو ربنا ومالكنا وإلهنا فلا مفزع لنا في الشدائد سواه ولا ملجأ لنا منه إلا إليه ولا معبود لنا غيره فلا ينبغي أن يدعي ولا يخاف ولا يرجى ولا يحب سواه ولا يذل لغيره ولا يخضع لسواه ولا يتوكل إلا عليه.

فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة: من أعدى الأعداء وأعظمهم عداوة وأشدهم ضررا وأبلغهم كيدا.

ثم إنه سبحانه كرر الاسم الظاهر ولم يوقع المضمّر موقعه فيقول رب الناس وملكهم وإلههم تحقيقا لهذا المعنى وتقوية له فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه ولم يعطف بالواو لما فيهم من الإيذان بالمغايرة.

والمقصود الاستعاذة بمجموع هذه الصفات حتى كأنها صفة واحدة.

وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب.

وأخر الإلهية لخصوصها لأنه سبحانه إنما هو إله من عبده ووحده واتخذة دون غيره إلهاً فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلهه وإن كان في الحقيقة لا إله له سواه، ولكن ترك إلهه الحق واتخذ إلهاً غيره باطلاً.

ووسط صفة الملك بين الربوبية والإلهية؛ لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره، فهو المطاع إذا أمر وملكه لهم تابع لخلقه إياهم فملكه من كمال ربوبيته وكونه إلههم الحق من كمال ملكه فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها، فهو الرب الحق الملك الحق الإله الحق خلقهم بربوبيته وقهرهم بملكه استعبدتهم بإلهيته.

فتأمل هذه الجلالة وهذه العظمة التي تضمنته هذه الألفاظ الثلاثة على أبدع نظام وأحسن سياق رب الناس ملك الناس إله الناس.

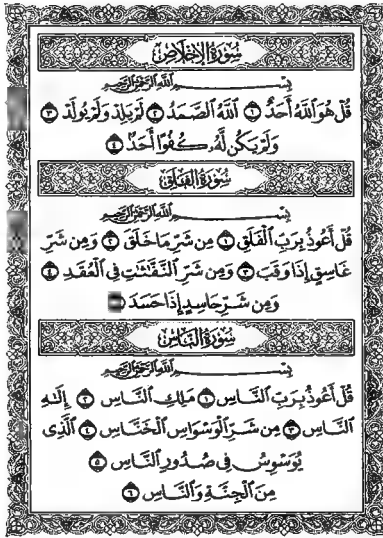
وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان وتضمنت معاني أسمائه الحسنى.



أما تضمنها لمعاني أسمائه الحسنى، فإن الرب

هو القادر الخالق البارئ المصور الحي القيوم العليم السميع البصير المحسن المنعم الجواد المعطي المانع الضار النافع المقدم المؤخر الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء ويسعد من يشاء ويشقي ويعز من يشاء ويذل من يشاء إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى.

وأما الملك، فهو الأمر الناهي المعز المذل الذي يصرف أمور عباده كما يحب ويقلبهم كما يشاء وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى كالعزيز الجبار الحكيم العدل الخافض الرافع المعز المذل العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد الوالي المتعالي مالك الملك المقسط الجامع إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.



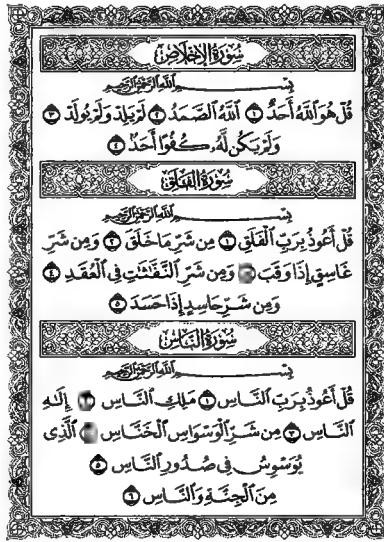
وأما الإله، فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى ولهذا كان القول الصحيح أن الله أصله الإله كما هو قول سيويه وجمهور أصحابه إلا من شذ منهم وأن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى فقد تضمنت هذه الأسماء الثلاثة جميع معاني أسمائه الحسنى فكان المستعيز بها جديراً بأن يعاذ ويحفظ ويمنع من الوسواس الخناس ولا يسلط

عليه وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركها عقول البشر وإنما غاية أولي العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراء وإن باديته إلى الخافي يسير.

وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها وهو الشر الداخل في الإنسان الذي هو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة فسورة الفلق تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد وهو شر من خارج. وسورة الناس تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه وهو شر من داخل.

فالشر الأول: لا يدخل تحت التكليف ولا يطلب منه الكف عنه لأنه ليس من كسبه.

والشر الثاني: في سورة الناس يدخل تحت التكليف ويتعلق به النهي فهذا شر المعائب والأول شر المصائب والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب ولا ثالث لهما.



فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التي أصلها كلها الوسوسة.

وتأمل كيف جاء بناء الوسواس مكررا لتكريه الوسوسة الواحدة مرارا حتى يعزم عليها العبد وجاء بناء الخناس على وزن الفعال الذي يتكرر منه نوع الفعل لأنه كلما ذكر الله انخنس، ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة فجاء بناء اللفظين مطابقا لمعنيهما.

وقوله: ﴿الَّذِي يُوسُّوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ٥ ﴿صفة ثالثة للشيطان فذكر وسوسته أولا، ثم ذكر محلها ثانيا وأنها في صدور الناس ثالثا.

وقد جعل الله للشيطان دخولا في جوف العبد ونفوذا إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مجرى الدم وقد وكل بالعبد فلا يفارقه إلى الممات.

وتأمل حكمة القرآن الكريم وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ولم يقل من شر وسوسته لتعم الاستعاذة شره جميعه، فإن قوله: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ ٤ ﴿يعم كل شره ووصفه بأعظم صفاته وأشدّها شرا وأقواها تأثيرا وأعمها فسادا وهي الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة.

وتأمل السر في قوله تعالى: ﴿يُوسُّوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ولم يقل: في قلوبهم. والصدر هو ساحة القلب وبيته فمنه تدخل الواردات إليه فتجتمع في الصدر، ثم

تلج في القلب، فهو بمنزلة الدهليز له ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر،



ثم تتفرق على الجنود ومن فهم هذا فهم قوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته فيلقي ما يريد إلقاءه في القلب، فهو موسوس في الصدر ووسوسته واصله إلى القلب ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ ولم يقل: فيه. لأن المعنى أنه ألقى إليه ذلك وأوصله إليه، فدخل في قلبه. (بدائع الفوائد ٢/ ٢٤٧-٢٧٦).



الفهرس

| | |
|-----|-----------------|
| ٥ | ■ المقدمة |
| ٧ | ■ سورة الفاتحة |
| ٢٠ | ■ سورة البقرة |
| ٩٠ | ■ سورة آل عمران |
| ١٠٨ | ■ سورة النساء |
| ١٢٥ | ■ سورة المائدة |
| ١٤١ | ■ سورة الأنعام |
| ١٥٦ | ■ سورة الأعراف |
| ١٨٤ | ■ سورة الأنفال |
| ١٨٨ | ■ سورة التوبة |
| ٢٠٧ | ■ سورة يونس |
| ٢١٦ | ■ سورة هود |
| ٢٢٢ | ■ سورة يوسف |
| ٢٣٥ | ■ سورة الرعد |
| ٢٣٨ | ■ سورة إبراهيم |
| ٢٤٦ | ■ سورة الحجر |
| ٢٤٩ | ■ سورة النحل |
| ٢٦١ | ■ سورة الإسراء |
| ٢٧٠ | ■ سورة الكهف |
| ٢٧٤ | ■ سورة مريم |
| ٢٧٩ | ■ سورة طه |
| ٢٨٥ | ■ سورة الأنبياء |

| | |
|----------|-----------------|
| ٢٨٩..... | ■ سورة الحج |
| ٢٩٥..... | ■ سورة المؤمنون |
| ٢٩٨..... | ■ سورة النور |
| ٣٠٧..... | ■ سورة الفرقان |
| ٣١٣..... | ■ سورة الشعراء |
| ٣١٥..... | ■ سورة النمل |
| ٣٢٠..... | ■ سورة القصص |
| ٣٢٤..... | ■ سورة العنكبوت |
| ٣٢٩..... | ■ سورة الروم |
| ٣٣٢..... | ■ سورة لقمان |
| ٣٣٤..... | ■ سورة السجدة |
| ٣٣٦..... | ■ سورة الأحزاب |
| ٣٤٣..... | ■ سورة سبا |
| ٣٤٧..... | ■ سورة فاطر |
| ٣٥٠..... | ■ سورة يس |
| ٣٥٦..... | ■ سورة الصافات |
| ٣٥٩..... | ■ سورة ص |
| ٣٦٤..... | ■ سورة الزمر |
| ٣٦٨..... | ■ سورة غافر |
| ٣٧٢..... | ■ سورة فصلت |
| ٣٧٧..... | ■ سورة الشورى |
| ٣٨٢..... | ■ سورة الزخرف |
| ٣٨٤..... | ■ سورة الدخان |

- سورة الجاثية ٣٨٧
- سورة الأحقاف ٣٨٨
- سورة محمد ٣٩٠
- سورة الفتح ٣٩٢
- سورة الحجرات ٣٩٥
- سورة ق ٣٩٨
- سورة الذاريات ٤٠٣
- سورة الطور ٤١٤
- سورة النجم ٤١٩
- سورة القمر ٤٢٤
- سورة الرحمن ٤٢٥
- سورة الواقعة ٤٣١
- سورة الحديد ٤٤٠
- سورة المجادلة ٤٤٤
- سورة الحشر ٤٤٦
- سورة المتحنة ٤٥٠
- سورة الصف ٤٥٣
- سورة الجمعة ٤٥٥
- سورة المنافقون ٤٥٧
- سورة التغابن ٤٥٩
- سورة الطلاق ٤٦١
- سورة التحريم ٤٦٢
- سورة الملك ٤٦٤

| | |
|----------|-----------------|
| ٤٦٦..... | ■ سورة القلم |
| ٤٦٨..... | ■ سورة الحاقة |
| ٤٧٣..... | ■ سورة المعارج |
| ٤٧٨..... | ■ سورة الجن |
| ٤٨٠..... | ■ سورة المدثر |
| ٤٨٣..... | ■ سورة القيامة |
| ٤٨٧..... | ■ سورة الإنسان |
| ٤٩٠..... | ■ سورة المرسلات |
| ٤٩١..... | ■ سورة النبأ |
| ٤٩٢..... | ■ سورة النازعات |
| ٤٩٥..... | ■ سورة عبس |
| ٤٩٦..... | ■ سورة التكويد |
| ٥٠١..... | ■ سورة الانفطار |
| ٥٠٢..... | ■ سورة المطففين |
| ٥٠٥..... | ■ سورة البروج |
| ٥١٠..... | ■ سورة الطارق |
| ٥١١..... | ■ سورة الأعلى |
| ٥١٢..... | ■ سورة الفجر |
| ٥١٣..... | ■ سورة البلد |
| ٥١٦..... | ■ سورة الشمس |
| ٥١٩..... | ■ سورة الليل |
| ٥٢٥..... | ■ سورة الضحى |
| ٥٢٦..... | ■ سورة الشرح |

| | |
|-----|-----------------|
| ٥٢٧ | ■ سورة التين |
| ٥٢٩ | ■ سورة العلق |
| ٥٣٢ | ■ سورة البينة |
| ٥٣٣ | ■ سورة الزلزلة |
| ٥٣٤ | ■ سورة العاديات |
| ٥٣٥ | ■ سورة التكاثر |
| ٥٣٩ | ■ سورة العصر |
| ٥٤١ | ■ سورة الماعون |
| ٥٤٢ | ■ سورة الكافرون |
| ٥٤٨ | ■ سورة النصر |
| ٥٤٩ | ■ سورة المسد |
| ٥٥٠ | ■ سورة الإخلاص |
| ٥٥١ | ■ سورة الفلق |
| ٥٦٢ | ■ سورة الناس |
| ٥٦٨ | ■ الفهرس |



التصميم الداخلي للكتاب

Tharwat Sultan@yahoo.com

Tharwat Sultan

للتواصل:

00201019530152

